

مَجَلَّةُ
كَلِيَّةِ الْآدَابِ
بِطَبْطَوَانِ

مطبعة الشارقة الجديدة
الشارقة والبيضاء

الایداع القانوني رقم 1/1987

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

مجلة

كلية الآداب

بتطوان

ربيع الأول 1407

نونبر 1986

السنة الأولى

العدد الأول

المملكة المغربية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية

بتطوان

تصدر مرة كل سنة

المدير المسؤول : عميد الكلية د. محمد الكتاني

أعضاء هيئة التحرير الأساتذة

حسن الوراكلي	احمد أحمرت
عبد الله اجبيلو	بوليفة عبد العزيز
بوبكر الكوش	محمد بنحدو

العنوان

كلية الآداب والعلوم الانسانية

صندوق البريد 26 — مرتيل — تطوان

المغرب

تعبر المقالات والأبحاث الواردة
على المجلة لنشرها عن آراء
أصحابها وعليهم وحدهم
مسئوليتها ولا ترد إليهم هذه
المقالات نشرت أو لم تنشر

الفهرس

تقديم

- 7 د. محمد الكتاني
- لمحات من حياة غرناطة النصرية في القرن الثامن الهجري (من خلال مسائل ابن لب)
- 11 حسن الوراكلي
- من تراث المغرب والأندلس بين أبي الحجاج يوسف النصري وأبي زكرياء السراج النفري
- 39 عبد الله الترغي المرابط
- مدخل لدارسة كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت
- 69 عبد الواحد العسري
- من مصادر النقد الأدبي في العصر المريني
- 97 عبد السلام شقور
- في التحليل التناظري أو نحو مفهوم سيميائي لتماسك النص
- 113 أحمد بلشهاب
- مفهوم الأثر الأدبي عند ابن الأثير في كتابه المثل السائر
- 137 أحمد العلوي العبدلوي
- مصطلح «أدب الأطفال»
- 147 محمد أنقار
- البحث اللساني والمناهج الأدبية
- 163 عبد العزيز الحلوي
- المعتمد ملك إشبيلية وشاعرها
- 185 بقلم : رفائيل ألبرتي . ترجمة : د. عبد الله اجيللو

195		من نظرية طفاوة القارات إلى حقيقة بنائية الصفائح كمال التركبتي
215		تعريف معجل بكلية الاداب بتطوان بطاقة تعريف بالكلية
221		النشاط الثقافي بالكلية النشاط الثقافي خلال الموسم الجامعي 1986/85
229		فهرس عام لبحوث الاجازة للسنة الجامعية 1986/85

تقديم

في تقديم هذا العدد الأول من مجلة كلية الآداب بتطوان، إلى عامة القراء وخاصتهم على السواء إعلان عن مشروع علمي، وإيدان بمولد صوت جديد يأخذ مكانه في خضم الأصوات التي تتبارى اليوم بين المؤسسات الجامعية (في بلادنا) للتعبير عن حضورها في ساحة البحث العلمي والاثراء للفكر المغربي.

هل يعتبر هذا المشروع مجازفة ؟ أم يعتبر إيناعا لشجرة استوت على سوقها وأخذت تعد كالطبيعة بالعطاء في إبانها ؟

بإمكان المرء أحيانا أن يصنع الجواب كما يصنع السؤال، إذا ما تحلى بما يكفي من الإحساس بالمسؤولية، ذلك أننا حين نتخلى عن دورنا في التصميم وعن قدرنا المتاح لنا في الانجاز، ونترك الأمور لتحكمها الصدفة وحدها، فستتخلى أيضا عن الجواب، ونتركه للأيام وحدها. أما إن كنا نملك ما يكفي لاتخاذ القرار، وما يكفي لتشخيص الإرادة في سلوك منتظم، فبوسعنا أن نعلن أن الأمر لايتعلق بمجازفة على الإطلاق.

وهذا لايعني الاستهانة بالمصاعب التي تواجه المشروع، ولا الادعاء بأنها كالمالح في الماء متى توافرت الإرادة وحدها، وإنما يعني بالأساس أن الدخول في جدلية الحياة ذاتها يعني اعتصار الممكن من المستحيل، وأن هذا الاعتصار هو العمل بروح بناءة ولأهداف بناءة. وحينئذ يصبح العمل ذاته تجاوزا للمعوقات وتكييفنا مستمرا لظروف العطاء، والإسهام في البحث والإبداع. وهذا ما تؤمن به (الكوكبة) التي عبأت نفسها في الكلية للخروج من الصمت، ولتجاوز حركة التلقين المعرفي والتوجيه التربوي إلى التعبير العلني عن هواجسها الفكرية، ومشاغلها العلمية، وإسهامها في الحوار الفكري مع الذين رصدوا أنفسهم لهذا الحوار في كل مكان، ومع الذين يؤمنون بأن هذا

الحوار هو التعبير الحق عن مثولية الهوية الحضارية لأمة من الأمم وعن الوعي العميق
بنخبة الفكر.

إن هذه المجلة (الوليدة) تعتقد أن نموها واكتسابها رهينان بالحفاظ على فاعلية هذه
المبادئ المعلنة والصدور المفعملة لدى الأساتذة الباحثين الذين سيجدون في صفحاتها
جسورا للعبور من داخل ذواتهم نحو الآخرين.

ومن هنا تأتي أهمية القراء في الحفاظ، على مشروعية العبور إليهم، وعلى زخم الحوار
الممدود بيننا وبينهم، إذ علينا أن نؤمن بأن نجاح أي خطاب إنما يرتفع بنجاح طرفيه في
العطاء والأخذ.

وهناك اختيار واضح رسمته هذه المجلة لنفسها، وهو الجمع بين الخصوصية الوطنية
والشمولية الحضارية والفكرية. وهذا الاختيار يعني السعي الدائب لتجلية خصوصية
الفكر المغربي وعطائه وتراثه وحضارته، وبين السعي الدائب للحفاظ، على تموضع هذه
الخصوصية بين الشرق والغرب بحكم التوضع الجغرافي نفسه، وهو تموضع متوسطي
ووسطي في نفس الوقت.

إن المجلة حريصة على أن تكون معرضا للدراسات المغربية المتصلة بالعلوم
الإنسانية، وأن تكون معرضا للدراسات الإنسانية بشتى المناهج المتفاعلة مع الفكر
المعاصر. فمن ناحية تتصور أن الرافد الأول للفكر المغربي يكمن في انكبابه على ذاته،
وعلى حضارته وعلى مجتمعه، ليتفاعل معها ويحلل خصائصها وتطوراتها، ويدرس أنماط
تعبيرها وظواهرها، ومن ناحية أخرى تتصور أن الاقتصاد على هذا الرافد في عالم
سقطت فيه الحدود بين العقول والحضارات تقوفا تتلاشى معه الفاعلية الخلاقة
والتطور المنشود، ومن ثم يصبح الارتقاء بالرافد الثاني أمرا محتوما تتطلبه دواعي البقاء
والاستمرار والتجديد. وتظل مجلة الكلية ملتزمة في هذه المسيرة بالبحث العلمي
وبالفكر العلمي الذي يتجنب كل وقوع في الأيديولوجيات المسبقة، لأن البحث
العلمي يعلو على كل توجيه دوغمائي. وإذا كان على هذا الفكر أن يسعى للحقائق
العلمية فعن طريق واحدة هي البحث المتسلح بالمنهج العلمي، وحين يتسلح الفكر
بهذا المنهج يقبل ويرفض على أساسه، ويحاور من يعنيه الحوار بأسلوبه الهادئ الرصين،
الخالي من العواطف والانفعالات.

لكن، لا ينبغي أن يفهم التلويح بالمنهجية وبالحيد فهما مغرضا أو ضيقا، أي يفهم

على أنه موقف سلبي من التراث والاصالة والمقومات الوطنية الأساسية. إذ يكفي التذكير بأن الوعي الصحيح بضرورة الجمع بين الخصوصية والشمولية والتفتح والثبات على الشخصية، إنما يعني الالتزام بحقائق التاريخ المغربي.

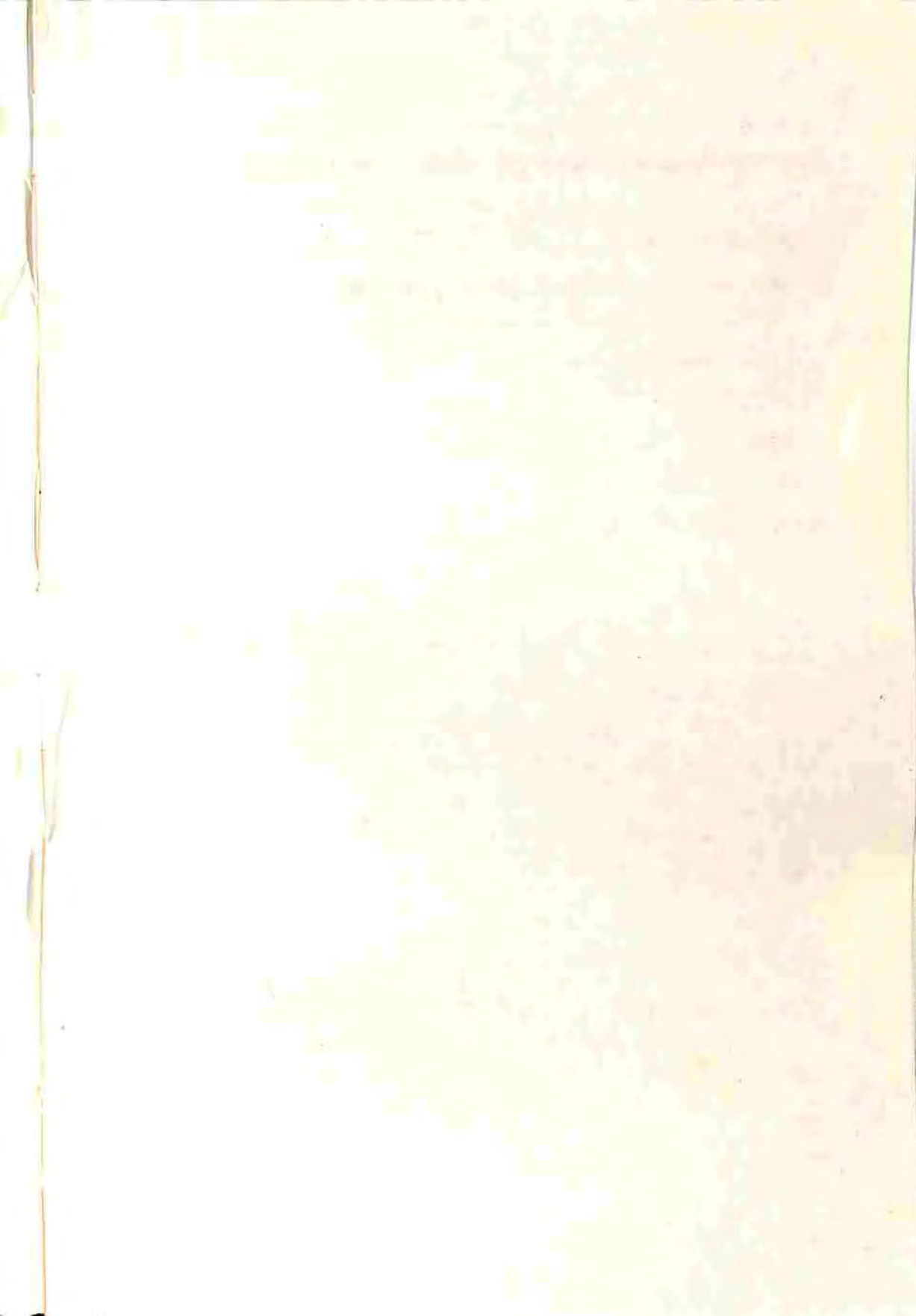
في ضوء هذا الوعي العميق لرسالة البحث العلمي، ورسالة الجامعة تتقدم كلية الآداب بتطوان بإسهامها المتواضع كي تضع لبنة في بناء الصرح الجديد للمغرب المعاصر، هذا البناء الذي انطلقت حركته منذ فجر الاستقلال وما تزال خطاه متوالية على مسيرة ربع القرن الأخير، فكانت كل سنة من سنواته تضيف مداما جديدا أو صوتا جديدا أو كلية جامعية جديدة.

فهذه الكلية بتطوان قد وضعت لبنتها الأولى في بداية السنة الجامعية 1983/82، وانطلقت في مسيرتها بحماس وشجاعة وثبات لتتخطى العقبات وتنشئ تقاليد جامعية وعلمية في بيئة كانت تتطلع إليها وإلى أمثالها من المؤسسات، لأنها بيئة ذات رصيد علمي وحضاري غني، فوجدت هذه الكلية في هذا الرصيد وفي حماس أبنائه، ما يفتح آفاقا ويتجاوز المعوقات. ولا أدل على ذلك من أنها تخرج أول فوج من طلبتها (المجازين) هذه السنة 1986/85 وتتوج مجهودها خلال الأربع سنوات الأولى من عمرها المديد، بإصدار مجلة للبحث العلمي. معترمة المضي في سبيل بث الإشعاع الفكري بكل الوسائل، ولكن من غير تعجل ولا مغامرة قد يكون لهما عواقب سلبية.

إن الرصيد الحقيقي الذي تنطلق منه هذه المجلة أو تنطلق منه أسرتها العلمية يتلخص في معطيات البيئة الوطنية وأصالتها وفي الالتزام بحقائق تاريخنا وعقيدتنا الإسلامية، وفي وعي الأساتذة الباحثين وحماستهم، وفي التفاعل المثمر بين الطلبة والأساتذة على أصعدة الممارسة للبحث والاكتشاف والإبداع، وإنه لرصيد خليق بأن يضمن لها النجاح.

فאלله نسأل أن يدلنا على أسباب التوفيق، ويرشدنا في سبيل خدمة أمتنا إلى أقوم طريق.

د. محمد الكتاني



لمحات من حياة غرناطة النصرية في القرن الثامن الهجري (من خلال مسائل ابن لب)

حسن الوراقلي

تمهيد

في تراثنا الإسلامي ألوان من التصانيف والمجاميع ربما حسبها بعض الناس، لأول وهلة، غير ذات صلة بالتاريخ والأخبار، على حين أنها، على عكس ذلك قد تتضمن بنسب متفاوتة، إشارات ومعلومات قيمة تتصل بحياة الجماعات، بل والأفراد أيضا في هذا المجتمع أو ذاك من مجتمعات البلاد الإسلامية في مختلف الأعصار مما تتألف منه مادة تاريخية صالحة قد ترضى بها علينا أحيانا مدونات التاريخ نفسها.

ومن تلك التصانيف والمجاميع نذكر كتب النوازل والشروط والحسبة والرحلات ومجاميع الأمثال والحكم والأقوال المأثورة، فجميعها على تباين الموضوع الرئيس الذي ألقت لبسطه ومعالجته بحيث ليست تخفى على الدارسين قيمتها الوثائقية الهامة. ولعل هذه الميزة أن تكون في طليعة ما حدا بطائفة من الدارسين، عرباً ومستعربين، إلى العناية بهذه التصانيف والمجاميع إما بنشر نصوصها، محققة، موثقة، أو بإجراء بحوث ودراسات حول ما اشتملت عليه من مادة تاريخية على اختلاف محتوياتها.

وقد استأثرت كتب المسائل الفقهية ومجاميعها من هذه العناية بالحظ الأوفر نظرا لفائدتها المؤكدة في مجال البحث التاريخي، والاجتماعي، والاقتصادي شأنها شأن باقي فروع التراث الفقهي الإسلامي التي ارتبطت (بوقائع الحياة العامة ومشكلات الناس اليومية وأقضيتهم الطارئة)(1).

(1) انظر: د. محمد بن شريفة، من أصداء الحياة اليومية في سيرة المرابطية. مجلة (المناهل) ع 22 ص 225.

ومن المعلوم ما أولاه فقهاء الغرب الإسلامي، منذ عصور باكرة، لموضوع المسائل من اهتمام واعتناء تمثلا فيما عرفناه لهم من تأليف في الفتاوى، ومجاميع في النوازل، ضاع غير قليل منها، وسلم لنا منها القليل من مثل كتاب (الأحكام الكبرى) للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الأندلسي (ت 486 هـ)، وكتاب المسائل لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجدل (ت 520 هـ)، ومجموع (مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام) الذي بدأ تأليفه القاضي عياض (ت 520 هـ)، ثم أكمله ولده أبو عبد الله محمد (ت 575 هـ)، ومجموع بفتاوى فقهاء غرناطة وهو الذي عني بتصنيفه الفقيه ابن طركاظ المتوفى في النصف الثاني من القرن التاسع.

ولقد كانت الثلاثة الأولى من هذه المؤلفات والمجاميع موضوع تحقيق ودرس(2)

(2) عني بدراسة نوازل ابن سهل ونشر بعض نصوصها كل من :

- ذ. التهامي الزموري.

Les Nawāzil D'ibn Sahl (Section relative a l'ihṭisāb) Introduction et texte arabe. Hespéris

Tamuda, Vol. XIV (1973) pp 7-107.

- ذ. عبد الرحمن الفاسي، خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين ص ص 4-131-172. الناشر :

دار الثقافة - الدار البيضاء (1404 هـ 1914م).

- د. محمد عبد الوهاب خلاف،

أ - وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس. القاهرة (1980م).

ب - وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس. القاهرة (1980).

ج - ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس. القاهرة (1981م).

د - وثائق في الطب الإسلامي ووظيفته في معاونة القضاء في الأندلس. القاهرة (1982م).

هـ - تسع وثائق في شؤون الحسبة على المساجد في الأندلس. حوليات كلية الآداب (جامعة الكويت) -

الرسالة الثانية والعشرون - الحولية الخامسة - الكويت (1404 هـ 1984م).

و - ثمان وثائق في مهنة الطب. مجلة (عالم الفكر) مج 12 (يوليو. أغسطس. سبتمبر) 1981.

ز - وثيقة في رد المكائيد (في البيع بالإكراه) في الأندلس. مجلة (المناهل) ع 26 (جمادى الأولى 1403 هـ

مارس 1983) ص ص 299-310.

وعني بمسائل ابن رشد درسا، وتحقيقا، ونشرا كل من :

- د. عبد العزيز الأهواني، مسائل ابن رشد. مجلة معهد المخطوطات العربية. مج 4. ج 1 (مايو

1958 شوال 1377 هـ) ص ص 73-76

خصصها بهما باحثون في المشرق والمغرب. أما رابعها فلم يظفر، فيما نعلم، بشيء من ذلك (3). ولأننا سنفيد، في هذا العرض، من بعض ما احتوى عليه هذا المجموع من مسائل فلا بأس في أن نعرف به وبمؤلفه في هذا التمهيد.

أما المؤلف فهو القاضي أبو القاسم محمد بن طركاظ العكي، من متأخري قضاة الأندلس إذ كان يتولى قضاء مدينة المرية سنة أربع وخمسين وثمانمائة للهجرة. ويظهر أنه كان، إلى جانب اهتمامه بالفقهيات، وهو ما يدل عليه اشتغاله بالقضاء وعنايته بجمع النوازل، مشغوفا بالتراجم وسير العلماء والأدباء، وقد عرفنا له في هذا الصدد المختصر الذي أنجزه لكتاب ابن خلكان (وفيات الأعيان) (4).

أما كتاب النوازل التي عني بجمعها من فتاوى علماء غرناطة فمن أسف أنه لم يصلنا كاملاً، وما وصلنا منه هو عبارة عن تقييد لبعض هذه النوازل كما ينص على ذلك كاتب ديباجة النسخة التي سنعتمدها في هذا العرض (5).

= - د. إحسان عباس، نوازل ابن رشد. مجلة الأبحاث س 22 ج 3 و 4 ص ص 3-63.

- محمد بن الحبيب التيجكاني، مسائل أبي الوليد ابن رشد - دراسة وتحقيق (وهي رسالة ماجستير في الفقه الإسلامي، منها نسخة مرقونة بمكتبة دار الحديث الحسنية بالرباط).

- د. محمد حجي، جوانب من المجتمع الأندلسي أيام المرابطين من خلال نوازل ابن رشد (وهي المساهمة التي قدمها الكاتب لندوة «المجتمع الأندلسي من خلال النصوص التاريخية والفقهية والأدبية» المعقدة بالرباط من 9 إلى 11 مايو 1984).

أما كتاب (مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام) فقد عني به ونشر منتخبات منه أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة. انظر،

أ - التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد. ص ص 19-21 (منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة)

ب - من أصداء الحياة اليومية في سبته المرابطية. مجلة (المناهل) ع 22 س 9. (ربيع الأول 1402 يناير 1982) ص ص 224-263.

(3) زارنا مؤخراً طالب عراقي اسمه جاسم عبيد موفداً من طرف زميلتنا الدكتورة مارية خموس فيغيرا رئيسة قسم الدراسات العربية والإسلامية بكلية الآداب (جامعة مدريد الكوميلوتنسي) وأخبرنا بأنه يعد دراسة حول مجموع ابن طركاظ بإشراف الأستاذة المذكورة.

(4) منه نسخة بخزانة الرباط العامة تحت رقم 959 د. وانظر. الأعوان. ج ص

(5) ورد في مستهل الديباجة: (هذا تقييد بعض النوازل التي جمعها الفقيه القاضي أبو الفضل بن طركاظ رحمه الله تعالى...) ص 46.

وقد اشتمل هذا المجموع، أو التقييد، بالأصح، على ست وستين ومائتي مسألة. وباستثناء اثنتين منها، إحداهما للقياب (6)، وثانيتهما للعبدوسي (7)، وكلاهما من علماء المغرب، فإن بقية النوازل جميعها (من كلام علماء الحضرة العلية غرناطة) (8) خلال القرنين الثامن والتاسع، غير أن أوفر هؤلاء العلماء حظاً من مجموع ابن طركاظ هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب (701 هـ - 782 هـ) (9) باعتباره في نظر الجامع (شيخ الشيوخ ومسائله أكثر من مسائل غيره) (10).

والحق أن ما كان لابن لب من إسهام وافر غزير في الإفتاء بؤاه بين علماء عصره من المشاورين والمفتين مكانة مرموقة إنما تحقق له (لغزارة حفظه، وقيامه على الفقه،

= هذا وتوجد نوازل ابن طركاظ ضمن مجموع مخطوط تحت رقم 1447د من محتويات قسم الوثائق بخزانة الرباط العامة، ومنه صورة في مكتبة أحيانا العلامة الخفقي الأستاذ محمد بوحيزرة، هي التي اعتمدناها في الدراسة.

(6) هو أبو العباس أحمد بن قاسم القباب، من فقهاء قاس الخفقيين خلال القرن الثامن. درس وألف، ومن آثاره شرح على قواعد القاضي عياض. توفي عام 779هـ.

انظر، ابن الخطيب، الإحاطة، 1: 187-188. وابن قنفذ القسنطيني، شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق: د. محمد حجي. ص 85 ضمن كتاب «ألف سنة من الوفيات» مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر-الرباط (1396-1976).

(7) هو أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي، أحد أعلام القرويين في الفقه، والإفتاء، والخطابة. توفي سنة 847هـ.

انظر. ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، بتحقيق: د. محمد أبو النور ج 3 ص 53 رقم الترجمة 959.

(8) وهم:

— أبو سعيد ابن لب (ت 782هـ). وله أربعة وثلاثون ومائة مسألة.

— أبو إسحاق الشاطبي (ت 790هـ). وله سبعة عشر مسألة.

— أبو عبد الله ابن علاق (ت. 806هـ) وله مسألة واحدة.

— أبو عبد الله الحفار (ت 811هـ) وله خمسة وعشرون مسألة.

— أبو القاسم بن سراج (ت 848هـ)، وله ستة وخمسون مسألة.

— أبو عبد الله المتنوري (ت 834هـ)، وله مسألة واحدة.

— أبو عثمان الإلبيري، وله سبعة مسائل.

— أبو عبد الله الصانع، وله مسألتان.

— أبو عبد الله بن فتوح، وله مسألتان.

— أبو عبد الله السرقسطي (ت 865هـ)، وله اثنتان وعشرون مسألة.

انظر، مجموع ابن طركاظ ص 1.

(9) ترجمة في: الإحاطة، 4: 253، الكنية الكامنة: 67. أوصاف الناس: 32-33. نثر الجمان:

196-186، برنامج المجاري: 91، الديباج: 220، درة الحجال، 2: 453، بغية الوعاة: 372، النفح،

5: 514-509. الفكر السامي. 2: 82، الأعلام، 3415. المستدرك للأعلام، 2: 167، فهرس السراج

(مخطوط): 120. فهرس المتنوري (مخطوط): 225-226.

(10) انظر، مجموع ابن طركاظ، ص 1.

واضطلاعاً بالمسائل، إلى المعرفة بالعربية واللغة، والمران في التوثيق، والقيام على القراءات، والتبريز في التفسير، والمشاركة في الأصلين والفرايض (11) .. ومن هنا كانت براعته وتفوقه في حل المسائل الفقهية حتى قال عنه أبو الوليد ابن الأحمر بأنه (ما تكلم مع أحد من الناس في توجيه مسألة فقهية أو قياس إلا كان له عليه الظهور، شهد له بذلك الخاصة والجمهور) (12) وهذا هو السر في إجماع مؤلفي كتب التراجم والطبقات على التنويه بمكانته في العلم والإفتاء، فهذا ابن الخطيب يقول عنه (... وعليه مدار الشورى وإليه مرجع الفتوى) (13) وهذا المجاري يحليه بـ (شيخ الجماعة الشهير ذكره في الاقطار، الشائع علمه في الأمصار، مفتى الأندلس وقادوتها) (14)، وهذا ابن السراج يقول فيه (... إليه انتهت فيها - أي الأندلس - رئاسة الفتوى في العلوم) (15). وهذا المواق يقول عنه (شيخ الشيوخ ... الذي نحن على فتاويه في الحلال والحرام) (16)، إلى غير هذا وذاك من ضروب الإشادة بطول باع الرجل في الشورى والفتيا مما لا تكاد تخلو منه أية ترجمة عقدت به في معاجم الرجال وكتب الطبقات، أو ذكر سيق له في مدونات الفقه ومجاميع النوازل.

ونظراً لهذه المكانة الرفيعة التي انتبى إليها ابن لب في ميدان الإفتاء فقد اشتد إقبال الناس على فتاويه واهتمامهم بها، ومن هنا كان الذين عنوا بجمعها وتدوينها، فيما يبدو، غير واحد من مصنفي كتب النوازل والفتاوى ومجاميعها، وهو ما تشي به عبارة المقرئ (ومن جمعها - أي فتاوى ابن لب - الشيخ ابن طركاظ الأندلسي) (17).

ولسنا نعرف على وجه الدقة، أو قريباً من ذلك، عدد الفتاوى التي دونت عن ابن لب وإن كنا نقدر أن هذا العدد أوفر مما وقع لنا منه لاشتغال الرجل بالإفتاء مدة طويلة واشتباره بذلك حتى لم يعد المفرع في هذا الشأن إلا إليه. (18)

(11) انظر، الإحاطة، 4: 253-254.

(12) انظر، نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان ص 48.

(13) انظر، الإحاطة، 4: 254.

(14) انظر، برنامج المجاري ص 91.

(15) انظر، فهرسة السراج. ص 87.

(16) انظر، النفع. 5: 513.

(17) نفسه 5: 514.

(18) انظر، الديباج : 220.

على أن عددا غير قليل من هذه الفتاوى احتفظت لنا به، لحسن الحظ، الكتب الفقهية التي ألقت بعد القرن الثامن وخاصة منها مجاميع المسائل والفتاوى، وأشهرها مجموع ابن طركاظ المتقدم ذكره، وقد تضمن من مسائل ابن لب أربعة وثلاثين ومائة مسألة (19). أي أزيد من نصف محتوى المجموع من المسائل، ومجموع الونشريسي (ت 914 هـ) الشهير (المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب)، وقد اشتمل من مسائل ابن لب على أزيد من مائتي مسألة (20)، وكتاب علي ابن عيسى العلمي (ت 1089 هـ) في النوازل، وقد أدرج فيه عددا من فتاوي ابن لب (21). وتنبغي الإشارة، هنا، إلى أن أيا من الكتب المذكورة ليس مستقل بمجموع ما حواه من مسائل الرجل عن الآخر، بل إن كثيرا منها مما يطالعنا في هذه المجماميع كلها.

ومهما يكن من أمر فإن مسائل ابن لب التي وصلتنا تطرح للبحث، في جملتها، موضوعات مختلفة ومتنوعة تكاد تكون مستوعبة لأبواب الفقه بعامة، فمنها ما يندرج في باب العبادات من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، ومنها ما يندرج في باب المعاملات من بيع، وشراء، وشركة، وإجارة، ووكالة، وهي، لذلك، تضمنت، إلى جانب المحتوى الفقهي، إشارات دينية، واجتماعية، واقتصادية، وعلمية تؤلف، برأينا، وسيلة على جانب كبير من الأهمية في استجلاء جوانب من حياة الناس في غرناطة على عصر ابن لب، أي خلال القرن الثامن، وعلى وجه يقرب من التحديد : منذ أواخر العقد الثالث من هذا القرن، وهو التاريخ الذي نقدر أن يكون ابن لب تصدر فيه للشورى والإفتاء، إلى مطالع العقد التاسع من القرن المذكور، حين وافاه أجله سنة 782 هـ.

من هذه المسائل والفتاوى التي وقعت لنا معزوة لابن لب سواء في مجموع ابن طركاظ أو معيار الونشريسي حاولنا أن نستخلص، في هذا العرض، لمحات من حياة غرناطة النصرية خلال الفترة الآنفة الذكر في مجالات ثلاثة سنخصص كلا منها بوقفة نستبين، أثناءها، من شؤون الحياة في المجتمع الغرناطي يومئذ ما تكشف لنا عنه دراسة تلکم المسائل والفتاوى.

(19) أرقامها في مجموع ابن طركاظ : 1-134. انظر، المجموع. ص ص 1-61.

(20) انظر مواضع عدة في أجزاء (المعيار) : 1,2,4,5,6,7,8,9,10,11,12..

(21) انظر مواضع عدة في الكتاب المذكور. ط. فاس الحجرية وط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ج 1.

على أننا، قبل ذلك، نحب أن نلفت النظر إلى ملاحظتين إثنين :
أولاهما، أننا نريد، في هذا العرض، اعتباراً لإغفال نصوص النوازل، في الأغلب
الأعم، ذكر الأماكن التي كانت مسرح الأحداث والوقائع التي أثارت المسائل،
ب(غرناطة النصرية) معناها الواسع الذي يندرج ضمنه، فضلاً عن العاصمة،
ضواحيها وتوابعها من مدن وقرى أندلس بني نصر خلال القرن الثامن للهجرة.
وثانيتهما أن رصد بعض ملامح المجتمع الغرناطي في عدة مجالات، نظرنا، تيسيراً
للدرس، في كل منها، داخل هذا العرض على حدة، ليس يعني أن الواحد منها مستقل
عن الآخر تمام الاستقلال ؛ بل العكس هو الصحيح، أي أنها في كثير من الأحيان
تتداخل وتتأرجح حتى ليكون الفصل بينها غير ميسور.
وأياً ما كانت الحال فقد اجتهدنا في هذا العرض أن نلتقط من الإشارات السريعة،
والمعلومات الموجزة التي تضمنتها مسائل ابن لب ما حاولنا أن نعكس من خلاله
لمحات عن حياة غرناطة النصرية في المجالات التالية :

1 - المجال الديني

في مسائل ابن لب إشارات بالغة الفائدة في استكشاف جوانب من حياة
الغرناطيين الدينية والروحية. ويمكن تصنيف هذه الإشارات من حيث دلالتها على :

أ - المحافظة على الشعيرة الدينية

كان الغرناطيون في هذا العصر، كشأن أسلافهم في العصور المتقضية، وهم بجوار
دار الكفر التي لا يفتأ أهلها يشنون عليهم الحملات تلو الحملات والمهجمات تلو
المهجمات، يدركون أن بقاءهم في الأندلس بقاء الإسلام، يشحذ بتعاليمه ومبادئه
العزائم ويلهب المشاعر للاستشهاد في سبيله، ومن ثم نلاحظ هذا النزوع القوي -
حتى عند رقيقي الدين منهم - إلى المحافظة على الشريعة والالتزام بأحكامها والحرص
على تطبيق فرائضها.

وعلى ما قد يكون من تفاوت بين الغرناطيين يومئذ في حظوظهم من التدين، نظراً
وتطبيقاً، فإن جملة من مسائل ابن لب تكشف لنا عن حرصهم على ترشيد
ممارستهم الدينية من خلال استكمال المعرفة بأمور يتعلق بعضها بالصلاة، وأخرى

بالزكاة (22) فمن الأولى مسألة عن ترك الصلاة المفروضة عمدا حتى يخرج وقتها جملة، ومسألة ثانية عن تمادي المسافر في القصر إذا شك في مدة الإقامة (23)، وثالثة عن الدخول في صلاة الإمام وهو في التشهد الأخير (24). ومما يتعلق بالزكاة مسألة عن مقدار مد النبي صلى الله عليه وسلم بالقياس إلى المكاييل الغرناطية (25)، ومسألة ثانية عن عمل الزكاة في المنخقة (26)، وثالثة عن المصنوعات التي يمر عليها الحول. هل يجب تقويمها وضمها إلى مالدي أصحابها من أموال لإخراج الزكاة عنها (27).

ب - رعاية الوظيفة الدينية

ومن مظاهر الحرص عند الغرناطيين على إقامة رسوم الدين ما كانوا يولونه من عناية بالغة للوظيفة الدينية، سواء منها ما كان له أصل من الشرع أو ما أحدث في جملة ما أحدث من الخطط الدينية على مر الأعصار. وهذه الوظيفة تطالعا في مسائل ابن لب متمثلة في :

أولا - وظيفة الإمام

وكان الذين يتولون تعيينه يتحرون فيه جملة شروط (28)، فيها المعنوي وفيها الجسمي، إذا اختل منها شيء توقفوا في أمره، لا يثبون فيه إلا بعد السؤال، وهذا ما تكشف لنا عنه المسألتان التاليتان :

- 1 - (وسئل ابن لب عن فقير (29) يؤم الناس وهو يحضر مع الفقراء ويأخذ معهم في السماع. هل يقدح ذلك في إمامته أم لا ؟) (30)
- 2 - (وسئل في رجل في رجله ألم ويريد أن يكون إماما والألم يمنعه من السجود.

(22) انظر، مجموع ابن طركاظ ص 76. والمعيار. 150:1.

(23) مجموع ابن طركاظ : 76، والمعيار. 150:1-151.

(24) مجموع ابن طركاظ : 76، والمعيار. 151:1.

(25) مجموع ابن طركاظ : 46.

(26) نفسه : 49.

(27) نفسه : 79.

(28) انظر شروط الإمام وصفاته، الشوكاني، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار ج 3 ص 192 وما بعدها.

ط. دار الجيل - بيروت.

(29) المراد ب(الفقير) في المسألة الشخص الذي يتصوي تحت لواء طريقة من الطرق الصوفية.

(30) المعيار. 133:1.

مستويا لأنه لا يقدر أن يمدده، وهل له أن يؤم بالناس أم لا ؟ (31)

وكان راتب الإمام يسدد إما من مال الجماعة كما تفيد بذلك إحدى مسائل ابن لب حيث ترد الإشارة إلى أن أجرة أحد الأئمة (نقصت بسبب موت الناس الذين كانوا يعطونه) (32) إياها، أو من ريع أحباس كان يعهد بها لهذا الشأن، وقد تكون عبارة عن أراض زراعية، كان للإمام نفسه أن يتولى أمر غرسها وزرعها أو يدفعها بكراء وهو مانقف عليه في مسائل، منها :

1 - (وسئل عن إمام انتقل عن المسجد في أثناء العام له من الأحباس ماهو مزدرع. ومنها ما كان دفعه لمن يعمله مقتاة، ومنها ما عمره ليزدرعه ذرة ودمته. ومنها ما كان قد دفعه بكراء) (33)

2 - (وسئل عن حبس على إمام مسجد زرعه بعد تعميره ثم عزل أو مات في أثناء السنة، هل تقع الخاصة في الكراء بعد عام التعمير ؟) (34)

3 - (وسئل عن إمام قرية وقع بينه وبينهم نزاع في أثناء العام فانتقل عن المسجد وقد كان عمر أحباس المسجد فزرع بعضا وعمر بعضا، وأنفق في ذلك نفقة ونابه مناب) (35).

ومثلما كان للجماعة (النظر فيمن يصلح للإمامة) (36) فقد كان لها أيضا أمر البث في (تأخير - أي الإمام - عن ذلك إن كان لا يصلح) (37). بل إنه إذا اتفق أهل الموضع وأهل العقد والحل على فصله (38) فإنه كان يلزمه الانفصال عن القرية حتى ولو لم تظهر منه جرحه. (39)

ثانيا - وظيفة المؤذن

ولا نظفر في مسائل ابن لب بمعلومات عن هذه الوظيفة غير ما يتصل بأجور

(31) مجموع ابن طركاظ : 93.

(32) نفسه : 59.

(33) المعيار : 149-150.

(34) مجموع ابن طركاظ : 47.

(35) نفسه : 48-47.

(36) المعيار : 90:7.

(37) نفسه : 90:7.

(38) مجموع ابن طركاظ : 48-47.

(39) نفسه : 40.

القائمين برسمها، وهي في هذا القبيل كانت كسابقتها ينفق عليها من موارد الأعباس والأوقاف التي يوصى بها لهذا الشأن، وذلك على حد ما نقرأ في هذه المسألة : (وسئل عن رجل أوصى بثلاث متخلفه للمؤذنين بموضع كذا ولم يذكر هل هو تحبیس أو تمليك ؟) (40)

ثالثاً - وظيفة قارئ الحديث

والمراد بهذا القارئ القائم بدرس الوعظ والإرشاد من الفقهاء، وليس في مسائل ابن لب، أيضاً، معلومات اضافية عن هذه الوظيفة، وكل ما أمدتنا به إحدى هذه المسائل من ذلك، فضلاً عن مصدر الإنفاق عليها، وهو الحبس كسابقتها (41)، تحديد قراءة الحديث أو إلقاء درس الوعظ والإرشاد، في بعض المساجد بما بين العشائين وبعد الصبح، مع الإشارة إلى ما كان يحدث من توقف لهذه الدروس يستمر مدة غير يسيرة. وهذه هي المسألة التي نتحدث لنا عن ذلك : (وسئل الأستاذ أبو سعيد بن لب، رحمه الله، عن رجل شهد عليه شاهدان أنه أوصى بتحبيس نصف موضع من ثلثه يكون وقفاً على قارئ الحديث بالمسجد الجامع إلا أن أحد الشاهدين كتب بعد شهادته : أشهده الموصي أبو فلان المذكور أن نصف الموضع المذكور إنما يتعين للقارئ بين العشائين. وبعد شهادة الثاني سمع الموصي المذكور يقول : هو حبس على القارئ بالمسجد المذكور. وتفيد في رسم آخر ما مضمونه الشهادة على والد العاهد المذكور على أنه سلم في العهد التسليم التام ورفع النزاع فيه والاعتراف، ولم يكن للموصي وارث غير والده، وبالمسجد المذكور قارئ بين العشائين وآخر بعد الصبح، على أن وقت بين العشائين بقي مدة دون قارئ نحو عامين بعد أن قرأ فيه قارئ سنة. ثم قرأ بعد العامين قارئ آخر، ووقت السحر مازال معصوماً طول مدة هذه الأعوام. فلمن ترون يكون فائد العامين اللذين لم يقرأ فيهما بين العشائين ؟ هل لهذا القارئ الأخير أو القارئ وقت السحر ؟) (42).

رابعاً - وظيفة قارئ الحزب

والمراد بالحزب، هنا الحصة أو الجزء من القرآن الكريم تجتمع طائفة من الناس

(40) المعيار، 485:9.

(41) انظر المسائل الواردة في فقرتي : وظيفة الإمام ووظيفة المؤذن.

(42) المعيار، 485:9.

لقراءته جهرا بعد صلاة المغرب وصلاة الصبح، وهذه الوظيفة من الوظائف الدينية المحدثّة، وكان من فقهاء الاندلس كابن رشد من قال بكرهية قراءة الحزب (43). لكن ابن لب حين سئل عن ذلك أفتى بالجواز مؤكداً أن (جمهور العلماء على جوازه واستحبابه) وأن العمل به (قد تظافر عليه أهل هذه الأمصار والأعصار) (44).

ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه الوظيفة قائمة الرسم، على عصر ابن لب، مرعية ملحوظة ترتب للقائمين بها جناية معلومة، ولذلك كان التهاون في النهوض بها مما يثير قلق المشرفين عليها، وهو ما تبلوره لنا هذه المسألة : (وسئل الأستاذ أبو سعيد ابن لب عن قوم مرتبين لقراءة الحزب يقع منهم التفريط في الحضور لذلك على تفاوت كثير حتى تمر على بعضهم الشهور والأعوام ولم يحضر، هل يجوز أخذ الجناية عليه أو لا ؟) (45)

وقيل أن نختم هذه الفقرة تجدر الإشارة إلى أن ما كان يحبس على المساجد من الأملاك، عقارا كان أو أرضا زراعية، كان ينفق بعضه على القائمين بالوظائف والخطط الدينية في المسجد، بينما ينفق بعضه الآخر على مصالح المسجد ومنافعه، والمسألان التاليتان تطلعاننا على جانب من مصالح المسجد، وهو الإضاءة، كان الناس يعهدون ببعض متروكهم لينفق منه عليها.

1 - (وسئل ابن لب عن مسجد عليه أصول زيتون محبسة، تؤخذ غلتها في كل عام ويصرف منها في استصباح المسجد ما يحتاج إليه بطول العام ويبقى منه فضل في كل عام، وأئمة سائر المواضع ينتفعون بذلك الفضل في استصباح مساجدهم ومنافعهم الخاصة بهم، فهل يجوز ذلك لهم أو يكون الفضل للإمام بالمسجد المذكور وينتفع به لنفسه أو بموضع غير ذلك ؟) (47).

2 - (وسئل عن زيت حبس على أن يوقد في مسجد، هل يجوز لإمامه أن يتصرف فيه لنفسه ويستصبح في المسجد من كراء أو من غير ذلك ؟...) (48)

(43) مجموع ابن طركاظ : 83.

(44) نفسه : 83.

(45) نفسه : (83).

(46) المعيار : 368-367:8.

(47) نفسه : 112:7.

(48) مجموع ابن طركاظ : 48.

ج - الانغماس في حياة الزهد والتصوف

عرفت غرناطة النصرية، خلال القرن الثامن إقبالاً منقطع النظير على حلق المتصوفة ومجالس الزهاد، الأمر الذي شجع على انتشار الطوائف والطرق الصوفية في وسط العامة والخاصة (49) على حد سواء حتى صارت — فيما يقول الشاطبي — (كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم) (50).

وليس من شرطنا هنا أن نفصل القول في هذه الظاهرة وفيما كان وراء ذيووعها يومئذ من أسباب وبواعث، ونحن نحاول أن نستبين معالم من حياة الغرناطيين في المجال الديني في الفترة المذكورة، الإشارة إلى أن مسائل ابن لب ومثلها مسائل بعض عصره (51) احتفظت لنا بمشاهد نابضة بالحياة والحركة من مجالس القراءة والذكر والرقص التي كانت تعقدها تلكم الطوائف في الزوايا أو في المنازل أو في الربط، وهذا مثال من هذه المجالس تصوره لنا المسألة التالية : وسئل ابن لب (عن جماعة من المسلمين يجتمعون في رباط على ضفة البحر في الليالي الفاضلة، يقرأون جزءاً من القرآن، ويسمعون من كتب الوعظ والرقائق ما أمكن في الوقت، ويذكرون الله عزَّ اسمُهُ بأنواع التهليل والتسبيح والتقدیس، ثم يقوم من بينهم قَوَّال يذكر شيئاً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ويلقي من السماع ما يشوق النفوس إليه وتشتاق سماعه من صفة الصالحين، ونعت المتقين، وذكر آلاء الله ونعمائه ويشوقهم بذكر المنازل الحجازية والمعاهد النبوية فيتواجدون اشتياقاً لذلك، ثم يأكلون ما حضر من الطعام ويحمدون الله سبحانه، ويرددون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. ويتهللون بالأدعية إلى الله في صلاح أمورهم، ويدعون للمسلمين وإمامهم ويفترقون على ذلك. فهل يجوز اجتماعهم على ما ذكر ويباح لهم أو يمنعون من ذلك وينكر عليهم ؟ ومن دعاهم من المعتقدين أو المحبين إلى منزله بقصد التبرك، فهل يجيبون دعوته ويجتمعون معه على الوصف المذكور أم لا ؟) (52).

= الإحاطة، وانظر، ديوان ابن الجياب، وديوان ابن الخطيب. انظر، كذلك (49) أمثال ابن صفوان وابن الجياب، وابن الخطيب، وابن زمرق وغيرهم كثير. انظر، تراجم هؤلاء في الإحاطة، وديوان ابن الجياب، وابن الخطيب. انظر، كذلك Ma Jesu's Rubiera Matre, Ibn Al-Yayyab, el otro peota de la Alhambra pp. 41 — 55.

(50) انظر، الشاطبي، الاعتصام 64:1.

(51) أمثال أبي إسحاق إبراهيم الشاطبي، وأبي البركات ابن الحاج الليفقي، انظر المعيار 39-35:11.

(52) المعيار، 115:11.

2 - المجال الاجتماعي

تمدنا كثير من مسائل ابن لب بإشارات، هي على وجازتها، في غاية الأهمية والشأن من حيث تصويرها لجوانب من واقع الغرناطيين الاجتماعي تسعف في دراسته وتحليله.

وفي القادر الذي وقفنا عليه من هذه المسائل ذات الموضوع الاجتماعي ما يلقي أضواء كاشفة على حياة الناس اليومية في غرناطة من خلال :

أ - الأعراف والتقاليد

تكمن أهمية دراسة الأعراف والتقاليد التي تسود هذا المجتمع أو ذاك فيما تنشده — أي الدراسة — من التعرف على عقليات الناس ونفسياتهم انطلاقاً من أن الأعراف والتقاليد هي قبل كل شيء تعبير بقدر ما قد يكون فيه من وعي قد يكون فيه كذلك من تلقائية عن تصورات فكرية متأصلة وانشاقات وجدانية متجذرة.

ولا شك، في ضوء هذا الفهم للأعراف والتقاليد، أن استبصار ما كان يسود منها المجتمع الغرناطي من شأنه أن يسر على الباحث عملية استبطان بنية هذا المجتمع العقديّة والفكرية والوجدانية.

ولعل من أبرز المناسبات الاجتماعية التي كان الغرناطيون يحرصون فيها على تطبيق أعرافهم وتقاليدهم بالحرف — كما يقال — مناسبتان إثنان هما :

1 - الأعراس والولائم

لم تعدد الإشارة فيما بين أيدينا من مسائل ابن لب إلى ما كان للغرناطيين من أعراف وتقاليد في أعراسهم وولائمهم، ولم يُعَدَّ ما وقفنا عليه منها إشارتين إثنين لا نخلو كليهما من دلالة على جانب من طباع الغرناطيين وأمزجتهم. أما الأولى فتتعلق بما كان يصاحب حفلات الأعراس وولائم النكاح من ألوان اللهو والموسيقى والغناء بمشاركة النساء، ونصها : (وسئل عن إجابة الداعي إلى وليمة النكاح بما تشتمل عليه من الملاحى والطرب المزنج وأصوات النساء وغير ذلك) (53). وفي جواب ابن لب عن هذه المسألة ما يكشف لنا عن شعف الغرناطيين بالغناء والموسيقى وتعلقهم بهما، لايشد

(53) مجموع ابن طركاظ : 79، والمعيار، 73:11.

فيهم عن ذلك علماءؤهم وفقهاؤهم. يقول ابن لب في جوابه (...) وأما سماع الطر بتلك الزوج المعروفة ففيه اختلاف : الإباحة والكراهة والمنع. ولكن جرت عادة شيوخ العلماء وأئمة الفقهاء حضور موضع ذلك وسماعه ترخصاً بمكان الخلاف (154).

وأما ثانية الإشارتين فهي ذات دلالة على ما كانت تستلزمه تقاليد الأعراس وأعرافها في غرناطة يومئذ من تكثير في النفقة قد لا يتحملة الشباب المقبلون على الزواج فيتولى الآباء الإنفاق ويبالغون في ذلك حتى يدخل في باب السرف، ونص المسألة المتضمنة لهذه الإشارة : (وسئل الأستاذ أو سعيد ابن لب رحمه الله عن رجل أنفق نفقة كثيرة في عرس ابنه ثم طلبه بها) (155).

2 - المآثم والجنائز

وكانت هي الأخرى تخضع لضروب من الأعراف المتمكنة والتقاليد الصارمة التي قل من كان يجزؤ، فيما نظن، على خرقها. ولأرب في أن كثرة السؤال عنها كان مرده لخالفها البيئة للأصول الشرعية. ومع أن الفقهاء المفتين، ومن بينهم ابن لب، كانوا يوضحون في أجوبتهم مخالفة هذه الأعراف والتقاليد في غالبيتها للسنة فإننا لانظن أن الناس في مجتمع غرناطة عدلوا عنها وكفوا عن ممارستها.

وأياً ما كانت الحال فقد احتفظت لنا مسائل ابن لب بألوان من هذه الأعراف والتقاليد، منها ما يتصل بالنعي، ولعله أن يكون أطرفها، في مآثم الغرناطيين وجنائزهم، وقد سجلت إحدى هذه المسائل أنه كان يتم في موضع لم يسمه السائل من صومعة الجامع الأعظم في الصباح بعد قراءة نصيب من القرآن وحظ من الأذكار، ولا يقتصر الناعي على الإخبار بالوفاة، بل يتولى، بالإضافة إلى ذلك، إعلام الناس بموضع الجنازة ووقتها فضلاً عن أشياء أخرى لم يفصح عنها السائل. وهذا نص المسألة : (وسئل عن أهل موضع عادتهم إذا مات لهم إنسان يصعد أحدهم في ريع النهار في الجامع الأعظم ويقرأ شيئاً من القرآن ويذكر نحو ما يفعل المؤذن بالليل، ثم يدور في المنار ويقول : «مات فلان وجنازته في كذا» إلى أشياء كثيرة من نحو هذا) (156).

(154) مجموع ابن طركاظ : 79، والمعيار، 74:11.

(155) المعيار، 21-20:4.

(156) نفسه، 317:1.

ومن تلك الأعراف والتقاليد ما يتصل بالتشييع، وقد سجلت لنا إحدى هذه المسائل بعض أنواع الأذكار التي كان الغرناطيون يشيعون بها موتاهم إلى مراقدهم الأخيرة. ونص المسألة : (وسئل عما يفعله الناس في جنازتهم حين حملها من جهرهم بالهليل والتصلية والتبشير والتنذير ونحو ذلك على صوت واحد أمام الجنازة، كيف حكم ذلك في الشرع) (57).

ومنها أيضا ما يتصل بتعهد القبر وزيارته خلال الأسبوع الذي يعقب الوفاة واستدعاء القراء وغيرهم، اليوم السابع، للقراءة على القبر وتقديم ما كان يسمى ب (عشاء القبر) لجميع الحاضرين. وهذا نص المسألة : (وسئل عن الطعام الذي يصنع للقراء على الميت وغيرهم عند تمام سابعه، ذكر ذلك بعض الناس هنا أنه ممنوع ولا يجوز أكله، وفاعله ما قصد غير الترحم على الميت وصلة الأرحام) (58).

ويظهر أن فئات المثرين من الناس في المجتمع الغرناطي مثلما كانت تفرط في النفقة على أعراسها كانت تسرف في الإنفاق على تجهيز موتاهم، وقد تضمنت الإشارة إلى ذلك المسألة التالية : (وسئل عن سترهم لبعض موتاهم بثياب الحرير والذهب، وهل يتمتع المصلي إذا كان إماماً من الصلاة عليها بسبب ذلك أم لا ؟) (59) ولاشك أن التكثير في النفقة سواء في الأعراس أو في الجنازات إنما كان يلبي لدى هذه الفئات رغبتها في التظاهر بالدنيا والتفاخر بها، غير أن ذلك إذا كان في الأولى لا يعد من يستسيغه فإنه في الثانية يأتي في غير محله ولغير أهله، ومن ثم كان بعض الأئمة — فيما يقول ابن لب في جوابه عن المسألة — يأمر بنزع ذلك الساتر عنها ثم يصلي عليها) (60).

ب - المعاملات والعلاقات

سواء أكانت معاملات الناس إفرازا مما يربط بينهم من علاقات أو كانت هذه الأخيرة، على العكس، هي الإفراز لما يصل بعضهم ببعض من معاملات فإن مما لاشك فيه أن ما قد يطبع هذه أو تلك من استواء وقوة وفاعلية أو ما قد يطرأ عليها من انحراف وضعف وفقر إنما مرده إلى عوامل عدة، فيها ما هو عقدي وفيها ما هو

(57) نفسه، 313:1-314. وانظر مجموع ابن طركاظ : 82.50.

(58) المعيار، 317:1.

(59) مجموع ابن طركاظ : 81.

(60) نفسه : 81.

اقتصادي، وفيها ما هو سياسي، وفيها ما هو غير هذا وذاك.

ولعلنا أن نلاحظ في الأمثلة التي استقينها من مسائل ابن لب عما كانت عليه حياة طائفة من الناس في المجتمع الغرناطي من معاملات وعلاقات مدى ما كان لضعف الوازع الديني وتعم التصور العقدي من جهة، وشيوع الحرمان والخوف من شبح الفقر من جهة أخرى، من أثر ملموس فيما كان يصيب تلكم المعاملات والعلاقات أحيانا من اضطراب وتخلخل فيما :

1 - بين الزوجين

والأمثلة الثلاثة التي انتخبناها من مسائل ابن لب تعكس جميعها أثر الحرمان والحرص على حطام الدنيا في خراب الذم عند بعض الأزواج وما يعقبه بالنتيجة من خراب بيوت الزوجية.

أما أولى هذه المسائل فهي تصور تسلط زوج على أملاك زوجة بخيل ومكايد خسيسة حتى إذا حقق بغيته طلقها ورمى بها إلى الشوارع والأزقة تكفف الناس، وهذا نص المسألة :

(وسئل عن امرأة ذات وصي من قاض فلما تزوجت وهي من خمسة عشرة سنة ضرب الزوج فيها عقدا بترشيد وجعلها تقدمه بتفويض فباع عليها وعاضها وجعل أمتعة وهبت وقبض أثمان المبيعات، وأشهد عليها بقبض ما باع وتفاصيلا ولم تقبض هي من الثمن شيئا. وقدر ما استهلك لها ألف دينار من الذهب. وبعد ذلك طلقها وأخرجها إلى الفقر (والسعاية). ثم الآن ضرب فيها عقد تسفيه من الوقت الذي ترشدت فيه، وذلك منذ ثمانية عشر عاما، هل ترد أملاكها وكل ما استهلك لها من بيع وهبة وامتعة وما تصرف فيها على يد الزوج وغيره ؟) (61)

وإذا كان الزوج في المسألة المتقدمة قد داس مبادئ الدين والأخلاق في سبيل الظفر بالمال الحرام فإن الزوج في المسألة التالية صنع صنيع الأول في سبيل غاية، لعلها كغاية الأول، ولكن بأساليب أبعد في الخسة، ونكتفي بإيراد الجزء الذي يصور لنا ذلك من نص المسألة : (وسئل في رجل تزوج امرأة خرجت معه من حضرة غرناطة إلى البادية، ثم إنه مزق كتاب صداقها وأخرجها مع جماعة من المفسدين

(61) نفسه : 67. والمعار : 9 : 442.

للفساد، وبقيت على هذه الحالة مدة إلى أن تركها المفسدون لشأنها(62).

أما المسألة الثالثة فهي تكشف لنا عن حيلة، كسابقتها من حيث الخسة والدناءة في التسلط على مال الغير، ولكن صاحب الحيلة هذه المرة ليس الزوج بل الزوجة : (وسئل عن رجل باع من زوجته فدانا وقبض منها بعض الثمن ثم أتيا لمجلس القاضي فكُتب لهما عقد التبائع وأشهد البائع أنه قد قبض جملة الثمن ثقة منه أن زوجه تخلصه منه إذا رجعا لدارهما، فما زالت تسوفه حتى قالت : خلصتك كما في العقد فالمراد منكم مقتضى الشرع(63).

2 - بين الآباء والبنين

ولم نقع في مسائل ابن لب التي بين أيدينا إلا على مثال واحد يتضمن إشارة إلى جانب من معاملة الآباء للبنين وعلاقتهم بهم ولاسيما في بوادي غرناطة، ومفاد الإشارة إيثار الآباء ببنهم الذكور على الإناث. وأيا ما كان الدافع لهؤلاء الآباء على ذلك فإنه في نظرنا ليس إلا ثمرة انعدام التصور العقدي الحق لديهم، وهذا نص المسألة : (وسئل الأستاذ أبو سعيد بن لب رحمه الله عمي أوصى لذكور أولاده بوصية فأجازها الإناث في حياته(64). وفي جواب ابن لب على هذه المسألة إيضاح يلقي الضوء على دوافع الآباء ومقاصدهم من مثل هذا الموقف الذي كانوا يميزون به بين بنهم. يقول ابن لب : (الغالب على مقاصد أهل البوادي اليوم الخروج في وصاياهم للورثة عن معنى القرية بالجملة، وإنما المعلوم من شأنهم في مثل هذه النازلة إيثار الذكور ببعض المتروك عوضا عن النحل التي خرج بها الإناث، فصار ذلك فرارا ببعض المال عن بعض الورثة، لا يقصد التقرب إلى الله تعالى في الوصية...)(65).

3 - السادة والعبيد

لم تمدنا مسائل ابن لب التي انتهت إلينا بما قد نقيده منه في تصور طوابع العلاقة التي كانت تقوم بين الطرفين، غير أننا مع ذلك لانظن أنها، أي العلاقة، كانت تشده ولاسيما حين يخفت صوت الوازع الديني في النفوس، عما نعرفه عادة عن علاقة

(62) مجموع ابن طركاظ : 104.

(63) المعيار : 233:5.

(64) نفسه : 364-366.

(65) نفسه : 364:9.

المالك بالملوك والسيد بالعبد بما يطبعها من استعلاء الأول وتجيده، وخنوع الثاني وتذله (66).

ومع أن الثابت لدينا أن الأندلسيين في القرن الثامن لم يعودوا يستكثرون من العبيد والإماء مما حمل صاحب التحفة، على ما يقول ولده في شرحه عليها، أن يحمل الكلام فيها عن أحكام العبيد (إجمالاً على حسب الواقع من ذلك في القطر الأندلسي لأنه لهذا العهد غير متسع في العبيد) (67) فإن ما وقفنا عليه في مسائل ابن لب يدل على أن أسواق النخاسة كانت لاتزال قائمة بغرناطة يومئذ، يختلف إليها الناس ويترددون عليها مثلما يختلفون إلى غيرها من الأسواق ويترددون في أيام معلومة. وفي المسألتين التاليتين ما يدل على ذلك ويؤكدده، أولاًهما : (وسئل عمن كان عليه في صداق زوجته خادم فاشترأها لها وبقيت في داره نحواً من عام ونصف، ثم بيعت الخادم، ولم ينزلها في الصداق، ومات الزوج وقسم متروكه وأخذت الزوجة حظها، ثم قامت وادعت أن الخادم باقية وأنها لم تقبضها والورثة يستحقون قبضها لها) (68). وثانيتهما : (وسئل ابن لب عن رجل حلف على خادم له فقال في يمينه «المشي يلزمني إلى مكة في ملكي ما تبقى») (69).

ج - جوانب أخرى

ونُحِبُّ في هذه الفقرة التي نختم بها حديثنا عن المجال الاجتماعي في غرناطة النصرية أن نفيد في استكمال المعرفة بهذا المجال من إشارات أخرى تضمنتها بعض مسائل ابن لب قد يمر بها القارئ المتعجل دون أن ينتبه إلى ما فيها من مادة، هي على ضآلتها ليست تعدد دلالات على جوانب من حياة :

1 - غرناطة الفقيرة

وهي تلك التي تحجب وجهها عن أبصارنا قصور بني الأحمر، وأشعار وزرائهم، وأحاديث مؤرخيهم عن الحضارة التي كان من مظاهرها شيوع الغناء حتى بالدكاكين،

(66) انظر في ذلك، د. محمد بن شريفة، أمثال العوام في الأندلس - القسم الأول ص ص 218-222.

(67) شرح ابن عاصم على (تحفة) أبيه : 90 ب 91 (عن مقدمة محقق برنامج البخاري ص 16).

(68) المعيار. 435:10.

(69) نفسه، 213:4.

(70) انظر، اللوحة البديرة : 40.

وانتهاء التماجن بين النساء في أشكال الحلبي إلى غاية بعيدة (71). لكن تأتي مثل هذه الإشارات التي يلتقطها الباحث من مثل هذه المسائل الفقهية إلا أن تثير التساؤل عن ملامح الوجه الثاني للمدينة، وهي، بلا شك، ملامح تعلوها أمارات البؤس والحرمان وشظف العيش، وهو ما تميّط لنا عنه الحجاب هاتان المسألتان : (وسئل عن إمام الصلاة إذا سلم من الصلاة وقام سائل، هل يلزمه أن يتريص بالدعاء قدراً يُعطى ذلك السائل ويتصدق عليه ؟ أو يدعو ويتركه ؟) (72). (وسئل عن السؤال في المسجد، هل يجوز لهم ذلك ؟ وهل يعطون أو يحرمون ردعاً لهم عن ذلك ؟) (73)، ومما يلقي مزيداً من الضوء على وجه غرناطة الفقيرة ما نص عليه جواب ابن لب على المسألة الثانية من أنه بالرغم من ورود النهي عن السؤال في المساجد باعتبار أن ذلك قد يشغب على من يكون في الصلاة فقد (اختار بعض الشيوخ الماضين إباحة السؤال على الإطلاق لغلبة الحرمان للسؤال في هذه الأوقات، ومشاهد الصلوات مظنة الرحمات، ورقة القلوب الباعثة على الصدقات فأبيح للضرورة مخافة الضيعة) (74).

2 - غرناطة الثغرية

كان لا بد أن تعرف حياة الناس في مدينة كغرناطة أو غيرها مما كان تحت إمرة بني نصر من مدن وقرى تعيش، مدى حياتها، وحتى في فترات المعاهدات السلمية، في مواجهة العدو الذي يتحين الفرص للانقضاض عليها، ألواناً من الممارسات التي تستلزمها عملية التأهب والاستعداد لمنازلة العدو ورده عن ديار المسلمين.

ومثلما قد تسعف في دراسة هذا الجانب الهام من حياة غرناطة النصيرية الوثيقة الأدبية (75)، فضلاً عن الوثيقة التاريخية، تسعف الوثيقة الفقهية على نحو ما نقرأ عند ابن لب في هذه المسألة التي تسجل التزام طائفة من الغرناطيين بالمواظبة على التدريب أسبوعياً على الفروسية : (وسئل عن جماعة من الفرسان التزموا أن يخرجوا كل يوم خميس للتعليم بخيلهم، وشرطوا أن من تخلف منهم من غير عذر يعطي عشرة دراهم في

(71) نفسه : 41.

(72) المعيار، 1: 146-147.

(73) مجموع ابن طركاظ : 81-82، والمعيار 1: 147.

(74) مجموع ابن طركاظ : 81-82، والمعيار 1: 147.

(75) انظر دارستنا حول (ملاح من صورة الموريسكي في الأدب المسرحي الإسباني) مجلة المناهل ع 28 ص 154 وما بعدها (1983).

ذلك اليوم وجعلوا ذلك مستمرا، ويصنعون بما تألف طعاما يأكلونه(176).

وفضلا عما رصدناه من خلال مسائل ابن لب في الفقرات السابقة من جوانب الحياة الاجتماعية في غرناطة فإننا لانعدم فيما وقع لنا من المسائل المذكورة إشارات أخرى قد يستأنس بها الباحث في مجالات لعلها أن تكون أصدق من غيرها في تصوير طبائع الناس وأذواقهم، وذلك مثل مجال الطبخ. وفي المسألة التالية وجوابها ما يؤكد لنا ذلك : (وسئل عمن صنعت له زوجته عيشا فاستثقله(177) فحلف أن لا يأكل من يدها عيشا وكانت يمينه باللازمة فجلس بعد ذلك أياما فأكل من يدها الخبز فمنع من الدخول عليها حتى يعلم ما عندهم(178). ونقرأ في نص الجواب (اليمين منزلة عند الفقهاء على المقصد وعلى السبب مع اعتبار عرف أهل الوقت في الألفاظ ومن المعلوم أن عرف الناس في هذا الوقت في لفظ العيش إنما هو على الثريد وما يطبخ من الدقيق مفتولا أو غير مفتول سوى الخبز فليس في العرف متناولا للفظ العيش...)(179).

وماذا لو وضعنا نقطة الختام — كما يقال — لحديثنا عن المجال الاجتماعي بمشهد يمر بالحركة، التقطته إحدى مسائل ابن لب من صميم مجتمع غرناطة حيث يطالعنا في أحد أزقتها رجل قد خرج يهرول من داره، يرغي ويزيد، ويرفع عقيرته مشهدا من يلتاقهم في طريقه على تطبيق زوجته : (رجل شازر زوجته فخرج إلى الزقاق فأشهد رجلا بأنه طلق زوجته فلانة، ولم يصف له طلاقه هل هو رجعي أم مملك (بائن)؟ ثم مضى في طريقه فلقي آخر فأشهبه بطلاقها، ثم بعد إشهاده قال له أو لغيره بمحضره بلغة العامة : «دبا هي مخلصه وانكمل لها الطلاق»...)(180).

3 - المجال الاقتصادي

لا مرأى في أن التماس الرزق وتبدير المعيشة مما يشغل به تفكير الناس عادة، وتنصرف إليه همهم، ولا مرأى في أن اتصال حاجيات الناس، مدى الحياة، يستلزم اتصال السعي في مسالك الرزق وسبله، ومن هنا كانت دراسة الحياة الاقتصادية

(176) مجموع ابن طركاظ : 86.

(177) في الأصل : استثقله. وهو تصحيف.

(178) المعيار، 191:4.

(179) نفسه، 191:4.

(180) نفسه، 191:4.

في مجتمع ما مفيدة في سد كثير من الثغرات التي تلفت النظر فيما يكتب عنه من صفحات تاريخه السياسي، والاجتماعي.

ولقد أثارت مسائل ابن لب، فيما أثارت، موضوعات تمس هذا الجانب في المجتمع الغرناطي، حاولنا أن نفيد مما اشتملت عليه من تلميحات في رصد مظاهر من اهتمام الغرناطين يومئذ ب :

أ - الفلاحة

كان الأندلسيون، لاعتمادهم في معيشتهم، بدرجة أولى، على موارد الفلاحة، شديدي العناية بشؤونها والاهتمام بأمورها، وكان طول تمرسهم بها هو ما جعلهم أحكم الناس لأسبابها (81). ولعل فيما سجلته لنا بعض مسائل ابن لب ما ينطق بدلائل على صحة ذلك.

1 - ففيما يتصل بالسقي، وقد كان مما تعتمد عليه الفلاحة في الأندلس، نشأت بمرور الأيام، أعراف كان من بينها عرف يقضي بأن يشترك في إعداد السقي، إذا احتاج الزرع إليه، كافة فلاحي موضع ما سواء منهم من ازدرع أرضه أو لم يزرعها، وهذا ما تحدثنا به المسألة التالية : (وسئل عن ساقية عادة أهلها أن يخدمها عند الاحتياج إليها من زرع في تلك السنة ومن لم يزرع إلى أن أي من لم يزرع أن يخدم مع أصحابه وقال : لاأخدم ما لامنفعة لي فيه، هل يحكم عليه أم لا ؟) (82).

2 - وفيما يتصل بكراء الأراضي الفلاحية نشأت كذلك أعراف منها عرف كان معمولاً به بين فلاحي (المنكب) (83) بخصوص زراعة قصب السكر، يحدد مدة الكراء والشروط المتعلقة بجدة القصب، وهو ما تدور حوله المسألة التالية : (وسئل في مسألة، وهي أن أهل المنكب جرت عادتهم أن يكروا أرضهم لزراعة قصب السكر لثمانية أعوام، ويشترط بعض المكترين على المكري أن يترك بالموضع عند تمام المدة جدارة القصب له يبيعها عند تمام الكراء من المكري أو ممن يكتري الأرض منه وجدة القصب، غالب الأمر، إذا بقيت بالأرض لها خطر وتباع بثمن عال وإن قلعت لاينتفع

(81) فتح الطيب، 1: 363.

(82) انظر، مجموع ابن طر كاط : 50 والنظر، المعيار، 8: 35.

(83) المنكب. ويسميه الإسبان Almunecar. مرمى صغير بإقليم غرناطة على البحر الأبيض المتوسط. يقول

ابن عبد المنعم الحميري عن مدينته إنها (حسنة، متوسطة... وبها فواكه جمية).

انظر، الروض المعطار : 548-549.

أحد بها بوجه وجرت عاداتهم أيضا أن يُكروا أرضهم المعمرة بالجدره على شرط تبقيتها سواء زرع القصب رب الأرض أو المكثري في كراء متقدم، وأن ينعقد مع المكثري الكراء في الأرض والبيع في الجدره في صفقة واحدة ويشترطوا عليه إبقاء الجدره عند فراغ مدة الكراء، كما تقدم، لرب الأرض ثم الجدره لا يدري أحد عند عقد الكراء كيف تكون آخر المدة إذ هي تختلف اختلافا كثيرا (84).

على أنه بالرغم مما كان عليه الغرناطيون من مهارة في الميدان الفلاحي فقد كانت تصيب زراعتهم أحيانا جوائح تطوح بآمالهم في المحاصيل الوافرة، ومن ذلك ما تحدث عنه المسألة التالية : (وسئل عن رجل اكترى أرضا زرعها كتانا فأجبح بالفراشة، وهلكت الغلة، هل يسقط الكراء أم لا ؟) (85)، وفي جواب ابن لب عن هذه المسألة ما يلح إلى أن ما تصاب به الزراعة من جوائح قد يكون مرده إلى نقص في المعرفة بالأرض التي يراد زرعها، ومن هنا كان من حق المكثري أن يدلي (عند القاضي بأن ذلك الفراش الذي أكل الكتان كان كامنا في جوف الأرض وأنه يسرح فيها كما يسرح الجراد وأنه من عيب الأرض، فإذا ثبت هذا بشهادة سقط الكراء) (86)، وكان من الجوائح، أو مما يجوز أن يحسب منها، ما لا يملك له ردا ولا دفعا كتوالي المطر إبان الزراعة، وهو ما تصوره لنا هذه المسألة : (وسئل عن قوم اكتروا أرضا محبسة فلما حل عليهم الكراء ادعوا أن الأرض أترعت (87) بالمطر في إبان الزراعة. فمنهم من رأى أن ذلك منعه من زراعة موضعه، وذكر آخر أنه لم ينبت، وادعى آخر أنه كان نبت خفيفا وغلبه الربيع (88) وفسد جملة، وأثبتوا بأهل البصر أن ذلك بتوالي المطر في إبان الزراعة وادعى أهل الأحباس أنه كان منهم تفريط في المعالجة) (89).

ب - الصناعة

من المعروف أن الغرناطيين كانوا يحذقون صناعات متعددة تقوم على مواد مختلفة، منها ماهو فلاحى، ومنها ماهو معدنى (90). غير أن ذلك جميعه لم يتردد منه في مسائل

(84) مجموع ابن طركاظ : 95.

(85) نفسه : 47.

(86) نفسه : 47.

(87) في الأصل : أسرعت، وهو تصحيف.

(88) في الأصل : الرفيع، وهو تصحيف.

(89) المعيار : 370:8. انظر، مجموع ابن طركاظ : 92.

(90) انظر، عنان، نهاية الأندلس : 428.

ابن لب إلا أصداء خافتة، ولعل فيما لم يصلنا من تلك المسائل ما كان يعكس على نحو جلي هذا الجانب اخام من حياة الناس في غرناطة خلال القرن الثامن الهجري. وربما يكون أهم ما يفيد الدارس في هذا الصدد من مسائل ابن لب الباقية إشارات معدودة إلى صناعات (فلاحية). لعل أهمها ما تعلق بما كان للغرناطيين من عناية بصنع الجبن والمتاجرة به على حد ما تدل عليه، في قصة لانتخو من طرافة المسألة التالية : (وسئل عن رجل كان قبله لآخر ربعان من الجبن دفع إليه فيها دراهم فأحضر الجبن الذي كان له قبله في ثمان وعشرين جينة واحتملها إلى صاحبها ودفعها إليه وكان قد نسي منها في داره جينة واحدة وقعت في موضع من داره لم يعلم بها ولا عرف موضعها لحفائه، ثم إن قابض الجبن ذكر له أنه وزنه نقص، منه ثلاثة أرطال، فنازعه في ذلك لاعتقاده التوفية، ثم إنه أغلظ له في القول فقال له : «مليح، هزهز، أزعمت أن الدراهم المدفوعة هنا نقصت ثلاثة دراهم، والجبن أيضا ناقص». فغاضه كلامه فحلف باللازمة «لقد وفيتك ودفعت إليك (كذا) وما نقص منه شيء» ثم رجع إلى داره فوجد الجينة المنسية هناك، فأفتنا في المسألة (91).

وقد يكون لنا أن نلمح في مسألة ثانية حول هذا الموضوع ما كان أشبه شيء في بادية غرناطة ب (تعاونيات) الألبان ومشتقاتها وعلى رأسها الجبن، وهذا نص المسألة : (وسئل عن أناس شتى لهم كسب (92) يبعدون به عن البلد لأجل المراعي، فيأخذون اللبن ويكيلون لبن كل واحد منهم، ويقسمون الجبن الخارج من ذلك اللبن على حسب كيلهم إياه، ويدعون الضرورة في خلطه بأنه ربما كان راع واحد يكيل كسب جماعة يشق عليه معالجة كل واحد على حدة. ومنهم من يكون غالب كسبه ضأنا وآخر بالعكس. ويستمررون على قسمة جبنه مدة إقامتهم هنالك مع أن كيلهم يكون في أول) (93).

ويظهر أن صغار الفلاحين ممن كانوا يضطرون إلى خلط ماشيتهم حين الانتجاع بها من طرف راع واحد هم الذين كانوا (يتعاونون) في حلب اللبن وصنع الجبن، وهذا ما تنص عليه إجابة ابن لب عن المسألة السابقة : (إن ما ذكره السائل يفعله الناس في البوادي للضرورة إذ لا يقدر كل واحد على حلب لبنه على حدة ولا على أن

(91) المعيار، 4: 238.

(92) أي الماشية.

(93) المعيار، 4: 462، وانظر، مجموع ابن طركاظ : 59.

يصنع منه جبنا ولا غيره... (94). بل إن في نص الإجابة ما قد يستشف منه بأن أصحاب الزيتون كانوا هم كذلك (يجمعون زيتونهم ويعرفون ما لكل واحد منهم ثم يطحنونها كلها زيتا ويقتسمونها على قسمة الزيتون...) (95).

وفيما عدا صناعة الجبن فإننا لم نظفر عند ابن لب إلا بإشارتين محاطفتين لصناعتين (فلاحييتين) أخريين، إحداهما هي صناعة العسل، وقد تضمنت التلميح إليها هذه المسألة : (وسئل عن رجل له جباح، (96) فأراد أن يعطيها لمن يخدمها بجزء منها، أي من غلتها هل له ذلك أم لا ؟) (97). وثانيتهما عن صناعة الخمر، ونحن نعرف أن العنب كان في أراضي غرناطة أشبه ب (بحر لإنافة كرومه) (98) في عبارة ابن الخطيب وأن الغرناطيين كانوا يدخرونه (سليما من الفساد إلى ثلثي العام) (99)، ولكننا لانعرف أنهم كانوا يعصرونه خمرا، ومع ذلك فإن المسألة التي وجهت لابن لب عن (بيع العنب لمن يعلم أو يغلب على ظنه أنه يعصره خمرا) (100) تطرح سؤالا لامتلاك إجابة قطعية عنه، وهو : أكان الذي يباع له العنب ويظن أنه سيعصره خمرا مسلما أم كان نصرانيا من المستعربين Mozarabes الذين كانوا يقيمون بين ظهرائي المسلمين ؟

وعلى ما كانت تتناز به أراضي غرناطة، فضلا عن خصيبها، من معادن الذهب والفضة وغيرهما (101) فإننا لم نقع فيما انتهى إلينا من مسائل ابن لب إلا على إشارة واحدة يستخلص منها وسق الذهب من مرسى (المتكب) (102) على البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة (هنين) (103) بالمغرب الأوسط. وفي نص المسألة التي وردت بها الإشارة المذكورة ما يدل على وجود حركة تجارية بين مراسي الأندلس ومراسي الشمال الإفريقي، كانت تمخر بموجبها المراكب البحر موسقة بالذهب أو بغيره من المعادن

(94) المعيار، 4: 462.

(95) نفسه، 4: 462.

(96) أي الخلية.

(97) مجموع ابن طركاظ : 78.

(98) انظر، اللوحة البديرة : 40.

(99) نفسه : 40.

(100) المعيار، 5: 24.

(101) الإحاطة، 1: 104. وانظر.

(102) انظر هامش رقم 83.

(103) يقول عنها ابن عبد النعم الحميري (مدينة بالمغرب جليلة على البحر، وشمالها تلمسان، وهي بقرب ندرومة).

انظر، الروض المعطار : 597.

أو محاصيل الزراعة أو المصنوعات، وتعود محملة بسلع أخرى. وهذا نص المسألة : (وسئل عن مسألة فيها مقال وجواب. قال في المقال : يقول فلان «إن موكله فلانا أكرى شيطيا بمدينة (المنكب) بكذا دينار على أن يسافر المكثري بالشيطي أو يسافر به من يستتبه ل (هتين) خاصة ويرجع إلى (المنكب) ويوسق فيه ذهباً إلى حيث ذكر ما احتمله من الوسق، وشرط عليه ألا يوسق في رجوعه شيئاً، ثم إن المكثري وجه الشيطي ل (هتين) وسافر به المتوجه من (هتين) إلى ساحل آخر وضيحه وأنه هال عليه البحر بعد سفره من (هتين) وانكسر. وهو الآن يريد تغريب المكثري على ذلك ويطلبه بالكراء «أيضاً ويقره على بقائه قبله». وقال المجيب عن المقال المذكور بعد أن قرئ عليه : «إن صاحب الشيطي المذكور أكره منه ليحمل فيه متاعه من (المنكب) إلى (هتين) كما ذكر ويوسق فيه شيئاً آخر إلى (المنكب) بكذا دينار كما ذكر، وأنكر ما ذكر عنه من التعدي في الوسق والمسافة وغير ذلك إنكاراً كلياً» (105).

على أن المجال الاقتصادي بغرناطة عرف، فيما يظهر، خلال فترات من القرن الثامن، أزمت خانقة، كان من مظاهرها ذلك الكساد الذي كان التاج الصناعي يمتد به على نحو ما تشي بذلك الإشارة الواردة في هذه المسألة التي استفتى بها جماعة من الصناع ابن لب عما إذا كان يجب عليهم أن يزكوا على ما لم يبع من مصنوعاتهم بعد انقضاء العام عليه إذا هم أضافوا قيمته إلى ما تحت أيديهم من نقد : (وسئل عن الصناع يمر عليهم الحول وبأيديهم من مصنوعاتهم ما إذا قوموها وأضافوا إلى ما لهم من النقد اجتمع فيه نصاب، هل يجب عليهم التقويم ويزكون ما حضر بأيديهم أم لا ؟) (106).

أما أجلى مظهر لتردي الأحوال الاقتصادية في غرناطة، حيناً غير قصير، فهو ما أصاب السكة من نقص فاحش في الوزن ربما صار معه، أحياناً، وزن الدرهم إلى نصفه. وهذه إحدى المسائل التي تلقى الضوء على جوانب من أزمة الدراهم الناقصة التي تداولها الناس في أسواق غرناطة وقيصرياتها وما كان لها من انعكاسات سلبية على المجال الاقتصادي في المجتمع الغرناطي : (وسئل رحمه الله من جماعة من تجار غرناطة عن

(104) أي المركب.

(105) المعيار، 371:8.

(106) نفسه، 402:1. وانظر، مجموع ابن طركاظ : 79.

نازلة بهم وهي أنهم باعوا متاعا بعد تسويقه بقياسارية غرناطة كلاًها الله تعالى بدرهم فضية من درهم السكة الجارية بها (107). وأصلها في الضرب سبعون درهما في الأوقية، لكن دخلها اختلاط وازن على الأصل وناقص بسبب من تعدى بالقرض، واستمر الأمر كذلك مدة إلى أن كثرت النقص وتفاحش في نحو ثلاثة أشهر من آخر المدة حتى ربما صار الدرهم في الوزن نصف درهم، وكان الناقص في المدة كلها يجوز بجواز الوزن غالباً لغرض وقد كان الأمر السلطاني أعلاه الله تكرر في أوقات متعددة بالمنع من التعامل بالدرهم الناقصة إذ كان التعامل بها ذريعة إلى اتصال الغرض مما كان يقرض السكة. ثم تسامح فيها بعض الناس دون بعض ثم كثرت التسامح وشاع في الناس حتى أهملوا الوزن جملة، وصار ذلك عادة حتى ربما اعتقد لزومها لمكان استمرارها، فكانوا لذلك يتعاطونها في المبيعات على كره حتى صار من بيده شيء منها يود الخروج عنه في أي عوض حض من غير مبالاة بغلاء ورخص لتوقع قطعها، ومن يأخذها يجربها مجرى الكامل في أكثر التعامل بها وأصل جريانها إنما كان بالطوع والسمع كما وصف وبييت لهم في ذم المشتريين أثمان من تلك البياعات، ثم نفذ الأمر الكريم السلطاني أعلاه الله بالزام الناس الوزن على ما ضربت عليه السكة، وأن لا يتجاوز شيء من النقصان فسألوا عما يجب لهم في اقتضاء تلك الأثمان من وازن وناقص ولجوا في طلب الوزن إذا لم يرضوا الناقص إلا لكونه كالوازن (108).

حسن الوراكي

(107) انظر وصفاً للسكة النصرية عند ابن الخطيب في الإحاطة، 1: 137-138.

(108) المعيار، 6: 441-442. هذا وقد عرفت غرناطة في النصف الأول من القرن الثاني أزمت نقدية أشد وأنكى، أشار إليها ابن عاصم في شرح نخبة أبيه وهو يعلق على إحابة ابن لب على المسألة السابقة بقوله: (وأشد من ذلك ما وقع في عام ستة وثلاثين من هذا القرن التاسع وفي العامين بعده من اختلاط السكة بالنحاس إلى أن صدر الأمر من السلطان سده الله بقطع تلك السكة).

انظر، مقدمة محقق برنامج المجاري، ص 16 وهامش (3).

المصادر والمراجع

- (1) الإحاطة في أخبار غرناطة ج 4.
لسان الدين بن الخطيب. تحقيق : محمد عبد الله عنان. الناشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط 1 (1397 هـ — 1977 م).
- (2) برنامج البخاري.
أبو عبد الله محمد البخاري الأندلسي. تحقيق : د. محمد أبو الأجنان الناشر : دار الغرب الاسلامي — بيروت. ط 1 (1982).
- (3) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب.
برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعميري. ط 1.
(1329 هـ) — مطبعة السعادة بمصر.
- (4) الاعتصام ج 1.
أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي.
نشر : السيد محمد رشيد رضا. دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت.
- (5) كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)
محمد بن عبد المنعم الحميري. تحقيق : الدكتور إحسان عباس.
نشر : مؤسسة ناصر الثقافية. ط 2. (1980).
- (6) اللوحة البدرية في الدولة النصرية
لسان الدين بن الخطيب
ط 2. (1978). منشورات دار الآفات الجديدة — بيروت
- (7) مجموع فتاوي فقهاء غرناطة
أبو القاسم (وأبو الفضل) بن محمد بن طركاظ العكي
ضمن مجموع برقم 1447 د مخطوط خزانة الرباط العامة.

- (8) المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب.
الأجزاء : 1.2.3.4.5.6.7.8.9.10.11.
- أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي. خرجه : جماعة من الفقهاء بإشراف
الدكتور محمد حجي. نشر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة
المغربية (1401 هـ — 1981 م).
- (9) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 1.
أحمد المقرئ التلمساني. تحقيق : د. إحسان عباس.
الناشر : دار صادر — بيروت (1388 هـ — 1968 م).
- (10) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين
محمد عبد الله عنان.
مطبعة مصر. ط.2. (1378 هـ — 1958 م).

من تراث المغرب والأندلس

بين أبي الحجاج يوسف الثالث النصري

وأبي زكرياء السراج النفزي

عبد الله الترغي المرباط

من النصوص الشعرية التي وصلت إلينا عن عهد بني نصر ملوك غرناطة، مجموعة قصائد مدحية يضمها كتاب مظهر النور الباصر في أمداح أبي الحجاج الملك الناصر. (1)

والكتاب ما يزال مخطوطاً، وفي نسخة فريدة، تشمل السفر الثاني منه فقط. وهي نسخة ملكية تمت كتابتها على عهد الممدوح نفسه أبي الحجاج الناصر يوسف الثالث ملك غرناطة. (2) وقد تأخر المطاف بهذه النسخة لتكون في خزانة الأمراء السعديين، وعليها توقيعاتهم وتملكاتهم لها، ولولا تآكل الأوراق الأولى من المخطوط لبدت كل أسماء الأمراء السعديين الذين تعاقبوا على تملك هذه النسخة. (3) وواضح على بعض أوراقها توقيف بخط السلطان أبي العباس أحمد المنصور الذهبي. (4)

وقد قام بجمع هذا الكتاب من الرقاع التي رفعها أصحابها الشعراء بمخطوطتهم، ويأمر الممدوح بها — أبو الحسين بن فركون. (5)

وإذا كان هذا السفر يبدأ بأشعار للممدوح أبي الحجاج يوسف الثالث — كما

- (1) مخطوطة الخزنة العامة بالرباط : ج 23
- (2) إن اسم يوسف حينما يرد في أبيات قصائد المخطوط يكتب بلون مذهب ويخط غليظ بارز، وغالباً ما يكتب فوقه بخط دقيق، مرة بالأرق ومرة بالاحمر، جمل : خلد الله ملكه — أيده الله تعالى — نصره الله — أعلى الله مقامه.
- (3) على الصفحة الأولى ثلاث تملكات تأكلت أطرافها، واحت بعض أجزائها، وهي تحمل نصير هذا السفر إلى ممتلكاته، ثم سلسلة نسب الأسرة السعدية إلى كبيرها محمد الشريف الحسني (القائم بأمر الله)، راجع صفحة 145 من المخطوط فيها مامش تعليق على بعض الآيات، وتحت التعليق بخط مغاير مانصه : التعليق أعلاه بخط أمير المؤمنين مولانا أحمد الذهبي رحمه الله و...
- (4) راجع عن وصف الكتاب، وعن جامعه ابن فركون : بحث الأستاذ عبد القادر زمامة، دعوة الحق ص : 130 — عدد : 10 — سنة 14 / ذو الحجة 1391 — يناير 1972.

وعد جامع الكتاب أن يفعل ذلك عند بداية كل سفر من أسفاره — فإن بقية القصائد المذكورة فيه تنصرف الى مجموعة من الشعراء ممن ضَمَّهم بلاط غرناطة عند مطالع القرن التاسع للهجرة. وجمع بينها جميعا، رغم تباين أصحابها وابتعاد شعرائها في مستوياتهم الفنية، انصرافها الى مدح جانب واحد هو السلطان الناصر أبو الحجاج يوسف الثالث.

والسلطان يوسف الثالث أهم شخصية أدبية بين ملوك دولة بني نصر. فهو أحد شعراء العصر وقد تحصل شعره في ديوان متداول بين الناس (6) وهو الى جانب انتاجه الشعري صاحب نشاط وحمية في التأليف الأدبي. فاليه ينسب جمع ديوان الشاعر الغرناطي ابن زمرك، وتقديمه (7) واليه يرجع الفضل في جمع الاشعار التي رفعت اليه في مدحه (8).

وقد ضمت حاشيته العلماء والأدباء ممن نجد ذكرهم في مظهر النور الباصر، وفي ديوانه الشعري، وفي تقديمه لشعر ابن زمرك. وكثير من هؤلاء العلماء والأدباء ممن ضمتهم حاشيته — وضمنهم الشعراء أصحاب القصائد المرفوعة اليه في كتاب مظهر النور الباصر — لم تحفظ لنا المصادر عن أحوالهم وأخبارهم ووفياتهم إلا تنقاً قليلة، تكتفي عند البعض منهم بالاسم والتحليلات التي يعرض بها، وتتجاوز ذلك عند البعض الآخر فتعين المولد والوفاة ونوع النشاط العلمي.

ومن بين الشخصيات الأكثر حظاً في الشهرة العلمية بين شعراء (مظهر النور الباصر) شخصية أبي زكرياء يحيى بن أحمد السراج النفري الرندي (9).

والسراج المذكور رغم أصله الاندلسي هو من مواليد فاس بعيد سنة 740. وبفاس كانت نشأته، وبها درس وتثقف، ولم تكن له رحلة علمية الى الاندلس، الى حدود 792 وهو تاريخ كتابة فهرسته، ولا الى المشرق مدة حياته. وقد برز علمه في ساحة علوم القرآن، ورواية الحديث، حتى انه اعتبر مُسْنِد المغرب على عهده. وكانت له ميل صوفية تأثر فيها شيخه ابن عباد الرندي دفين فاس، واليه وُجِّهت الرسائل

(6) قام بتحقيقه ونشره الأستاذ عيد الله كنون.

(7) راجع أزهار الرياض 11/2 وما بعدها —

(8) راجع مقدمة الجامع لقصائد كتاب مظهر النور الباصر حيث يقول : (يقول العبد الذي شرفه مولانا الناصر لدين الله بجمع أمداحه على اختلاف فنونها...)

(9) راجع عن ترجمة السراج رسالتنا الجامعية : فهارس علماء المغرب 330 والمراجع المذكورة بالهامش

الكبرى التي كتبها ابن عباد لتصحيح سلوك المقبل على التصوف.
ولا تعرف للسراج مصنفات، غير فهرسته الكبيرة التي عرف فيها بشيوخه،
وسجل بين صفحاتها مراحل طلبه وتعلمه، وأودع فيها رواياته وأسانيده للكتب
والمرويات الحديثة. (10)

ولا يذكر للسراج نشاط أدبي أو إنتاج شعري، وإن كان له — من خلال فهرسته
— اهتمام برواية الشعر وتسجيل القصائد. (11)

إن الأثر الوحيد الذي أعرفه للسراج في الحقل الشعري هو قصائده المدحية
الثلاثة المذكورة في مظهر النور الباصر. وهو أثر له أهمية في تمييز ناحية من النشاط
الأدبي عند السراج الذي اشتهر بالرواية والأسناد. وتثير هذه القصائد الثلاثة قضية
على جانب كبير من الأهمية، فهي وإن أثبتت المشاركة الشعرية للسراج في الجائزات،
فإنها من جانب آخر تزعزع معرفتنا بمجموعة من الحقائق التاريخية، وتدفعنا إلى إعادة
النظر في بنائها وترتيبها، مع مراعاة مجموعة من الاحتمالات.

فالمعروف أن وفاة أبي زكرياء السراج قد حدثت سنة 805، وكل المصادر القديمة
والحديثة قد اتفقت على ذلك. بينما تجمع المصادر التاريخية المتوفرة بين أيدينا أن تولية
السلطان يوسف الثالث ممدوح السراج — حكم غرناطة كان بعد سنة 810 وبعد
وفاة أخيه السلطان محمد. وإذن كيف يعقل أن يكون السراج الذي توفي سنة 805
قد مدح السلطان يوسف الثالث بعد توليته الملك سنة 810 ؟

مما لاشك فيه أن الأمر ما كان ليحتاج إلى وقوف وتساؤل لو أن هذه القصائد
الثلاثة قد وقعت إلينا من طريق آخر غير المصدر الذي وردت فيه إذن لقلنا بأنها في
مدح يوسف الثاني المتولي عرش غرناطة سنة 783، ولا نتهى الأمر دون عناء أو تحقيق.
ولكن الأمر جاء على عكس ذلك ليثير المشكل، فتثار معه التساؤلات المختلفة، وتدفع
للبحث عنها في بطون المصادر الدفينة، واستنطاق ما يقيم مختلف الاحتمالات الممكنة.
وإذن نحن أمام لغز تاريخي، قد نربطه من الناحية الأولى بحياة الأشخاص المعنيين
بالأمر في هذه القصائد الثلاثة (الشاعر — الممدوح — الجامع للكتاب). وقد

(10) توجد من فهرسة السراج نسخ مخطوطة، منها مخطوط الخزانة العامة بالرباط : ك 1242 وراجع عن تحليلها
المفصل : فهارس علماء المغرب 331 وما بعدها.

(11) راجع عن المادة الأدبية في فهرسة السراج : فهارس علماء المغرب 345

نذهب به بعيداً فنربطه بناحية ثانية، لنعيد معه الصياغة التاريخية للفترة التي جمعت هؤلاء الاشخاص المعنيين بالامر.

1) فمن الناحية الاولى نحن أمام احتمالات تجسدها التساؤلات التالية :

فهل نشك في نسبة هذه القصائد إلى أبي زكرياء السراج ؟

وهل نشك في ممدوح السراج — يوسف الثالث — فنزعم أن المدح موجه الى غيره ؟

وهل نشك فيما أوردته المصادر من تحديد وفاة السراج سنة 805، فنزعم أن

حياته امتدت إلى ما بعد سنة 810 ؟

لعل مثل هذه التساؤلات تطرح نفسها — ولاول وهلة — على أي باحث يتطور

به الموضوع الى موقف شبيه بهذا، وهي تساؤلات ضرورية لانها منفذ لتحديد

الاحتمالات التي تفسر الموقف، وطريق في المعالجة لتقرير الحقيقة والوصول الى النتيجة.

وعلى هذا فلنقم باختيار هذه الاحتمالات أملاً في إزاحة هذا اللغز.

أ — هل نشك في نسبة هذه القصائد إلى أبي زكرياء السراج فنزعم أن اسمه أقبح

سَهْواً في الكتاب، وأن الصدقة هي التي قرنته بهذه القصائد وهي في الحقيقة لغيره ؟

إذا أمعنا النظر في هذا التساؤل، وقدّرنا ما فيه من الاحتمال فاننا نجد بعيد

الوقوع، لأن الكتاب التي ضمت فيه قصائد السراج قد جمع على مرأى ومسمع من

الممدوح، ويأمر منه، وأن الجامع لمواده قد اعتمد الرقاع الاصلية التي كتب الشعراء

فيها قصائدهم المرفوعة للمدوح، وقد سلمها اليه المعني بالامر يوسف الثالث. (12) ثم

ان اسم السراج قد جاء واضحاً ومنصوصاً عليه في مقدمة قصائده. يقول الجامع

للكتاب : (ورفع كذلك لمقامه الكريم أعلاه الله الفقيه الاعز أبو زكرياء يحيى بن

أحمد بن السراج من أهل رندة). (13) فليس من السهل إذن أن تتسرب — في

مثل هذه الحالة — إلى الكتاب قصيدة، فأحرى ثلاث قصائد، وصاحب الأمر

منها براء، وأن يذكر به اسم شاعر لا علاقة له بمن أمر بجمع الكتاب. ولو أن

هذا الكتاب جاء في نسخة غير الأصل الذي نُسخ على عهد يوسف الثالث، لقلنا

بأن هذه القصائد إقحام من الناسخ، وأن يد العابثين قد لعبت بمواد الكتاب فغيرت

أسماء شعرائه بالاضافة أو بالنقص.

(12) راجع مقدمة كتاب مظهر النور الباصر : 1 — ومقال الاستاذ زمامة السابق في دعوة الحق ص : 130 وما

بعدها — وراجع التعريف بالمخطوط أول هذا البحث

(13) مظهر النور الباصر : 140

ولم لا نزعهم أيضا أن هناك شخصا آخر وافق السراج في اسمه واسم أبيه ونسبه وبلدته، فتكون هذه القصائد من إنتاجه، ويكون إقحام السراج الذي نعرفه في هذه القضية من محض التكليف الذي لا مبرر له. قد يكون الأمر كذلك، ولكن هل لدينا ما يُؤيّد هذا الافتراض من قريب أو بعيد؟ أظن أنه في حدود علمي لا أعرف رجلا يذكر بين الأندلسيين — في هذه الفترة، رغم قلة المصادر عنها — بهذه المطابقة في الاسم والنسب والبلدة مع السراج الذي نعرفه، وإن كان هناك من ترجم به ابن الخطيب وأسماء أبا زكرياء يحيى بن السراج — زاد ابن بطوطة — الرندي، ويعرف بابن جُلوط، (14) غير أن هذا كان شيخا متقبضا على نفسه، خطيبا بجبل الفتح حين لقيه ابن الخطيب، وابن بطوطة في الخمسينات من القرن الثامن. وأستبعد أن يكون العمر قد امتد بهذا الرجل إلى العقد الثاني من القرن التاسع فيكون من بين الشعراء الذين يهتئون الملك الجديد سنة 810. وأذن يبقى هذا الافتراض في مرتبة الزعم ينقصه ما يدعمه، ويبقى ماهو قائم بين أيدينا من نسبة القصائد الى السراج المعروف، الذي ورد اسمه ونسبه مقرونا بهذه القصائد.

ب - وإذا كانت هذه القصائد ثابتة النسبة للسراج المعروف عندنا، فهل نشك في ممدوحه الذي رفعها إليه، فنزعم أنه يوسف آخر غير يوسف الثالث؟ في الحقيقة هناك من ملوك غرناطة من اسمه يوسف، وأخص بالذكر يوسف الثاني (15) ابن الغني بالله، وقد تولى الملك بعد وفاة أبيه محمد الغني بالله سنة 793، فهو معاصر للسراج، وهو والد يوسف الثالث الشاعر صاحب الديوان. أف تكون هذه القصائد قد رفعت اليه. إن ما يذكره السراج في ثنايا أبياتها يفيد أن الممدوح كان اسمه يوسف :

وبدا عليه من خلافة يوسف فلق به ضاعت دجّة ليله (16)
ولكن أي يوسف يعني؟ قد لانذهب بعيدا حينما نحتكم الى ما ورد في بعض أبيات هذه القصائد الثلاثة، لتمييز فيها أي اليوسفين يقصد في مدحه. فما نفيد من قوله :

(14) الكنية الكامنة : 124 — التاج الخليل (ضمن كتاب ربحانة الكتاب) 364/2 — رحلة ابن بطوطة 766/2

تحقيق الكتاني

(15) نهاية الأندلس لعنان : 136

(16) مظهر النور الباصر 140

ولسوف ينسي عصره في سعدة وجماله ما قد مضى من قبله (17)
مطل الزمان بوعد نصر برهة فأقَى به مستغفرا من مَطله
لما تولى الامر وهو حقيقة نعم الاحق به وأكرم أهله

ان المدح يأتي غداة تولية الممدوح بالملك، وأن ما ينتظر من سعد في عصره ينسي ماتقدمه، وأن مجيئه كان بعد ماطلة وانتظار، وأن توليته تمثل احقاق الحق ووضع الامر في يد صاحبه. فهل مثل هذه القيم المدحية تنطبق على تولية يوسف الثاني؟ أظن أن الشاعر مهما تدنى مستواه في المعالجة الشعرية، يظل مرتبطا بمجموعة من الظروف الحاصلة لِفَرَز واختيار القيم المدحية في شعره.

فهل كانت تولية يوسف الثاني انتظارا لعصر يحقق السعد وينسي ماقبله؟ وهل كان مجيئه الى الحكم أملا يتحقق به مجد بني نصر؟ وهل كان هناك من ينازع يوسف الثاني على العرش فيكون الاحق به والاكرم؟

ان الظروف التاريخية التي رافقت تولية يوسف الثاني تخالف ذلك. فتولية يوسف الثاني جاءت عقب وفاة الغني بالله سنة 793. وتذكر المصادر التاريخية أن عصر الغني بالله (18) — بعد توليته الثانية — هو أزهى عصور مملكة غرناطة، امتد فيها نفوذه الى المغرب فأقام الصنائع الموالية له من بني مرين، وامتدت قوته الجهادية الى الثغور المجاورة لمملكة غرناطة، فاسترجع من يد النصارى عددا وفيرا منها، واستقرت على عهده الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في غرناطة، فعمّ الامل وانتشر الهدوء. ثم ان التاريخ لا يذكر منازعا ليوسف الثاني في ملك غرناطة. فقد كان باعتباره أكبر اخوته ولدا لعهد أبيه، مرشحا لخلافته. ولم يثبت هناك من ينازعه (19). ثم ان ولاية يوسف الثاني هذا قد مرت في صمت، فلا أحداث كبرى على عهده. ولم يطل حكمه أكثر من اثنين وعشرين شهرا، فكانت ولايته في صفر 793 وتوفي 16 ذي القعدة 794 (20). لذلك لم يكن له مجال واسع لتسطير الأعمال البطولية وخوض معارك الجهاد واسكات صوت الشرك، مما نجد صداه في قصائد السراج المدحية.

(17) نفس المصدر 141 وما بعدها

(18) نهاية الاندلس لعنان : 135

(19) باستثناء ما يذكره عنان بأنه قتل اخوته الثلاثة، وأنه ثار عليه ولده محمد. راجع نهاية الاندلس لعنان : 136 وما بعدها

(20) أورد هذه التواريخ : القاضي التياهي — وهو شاهد معاصر — في شرحه للمقامة النخيلية المسماة : نزهة البصائر والبصائر : 62 مخطوط الرباط، الخزائن العامة : ق 198

وعلى هذا فظروف تولية يوسف الثاني لانتحرك لسان شاعر بما تحمله قصائد السراج من القيم المدحية. بل اننا نرى أن ظروف تولية يوسف الثالث أكثر ملائمة لما أورده السراج في قصائده من قيم مدحية، وضمنها التعريض بمن كان قبله متوليا للملك. ولتكن هذه الظروف مما أحاط بتولية هذا الممدوح سنة 810 أو مما سنفترض حدوثه في توليته الأولى قبل هذا التاريخ. (21)

ج - ولا يبقى أمامنا من هذه الاحتمالات غير الشك في وفاة السراج سنة 805، فنزعم أن العمر امتد به الى ما بعد 810. وهو - كما نرى - احتمال ضعيف، إذ ان جميع المصادر التي عرفت بالسراج قد أجمعت على أن وفاته لم تتجاوز سنة 805، ومن بينها مصدر غايث صاحبه السراج، وكان على اتصال به، نعني بذلك فهرسة المنتوري (22)، فقد كان صاحبها ممن تبادل الأخذ وتذبح معه، ولذلك اعتبره السراج من شيوخه وترجم به في فهرسته. واعتبره المنتوري أيضا من شيوخه فأسند اليه الروايات في غير موضع من فهرسته، وأخيرا عرّف به. غير أنه خالف الجميع فذكر وفاته سنة 803 وتبعه في ذلك صاحب النيل. (23)

(2) ومن الناحية الثانية نجد أنفسنا أمام احتمال واحد لاثاني له. ونصرف فيه الحديث الى أبي الحجاج يوسف الثالث وتوليته ملك غرناطة.

فاذا كانت تلك القصائد الثلاثة حقا للسراج الذي توفي سنة 805، وكان الممدوح بها هو يوسف الثالث وليس غيره. فلماذا لانفترض تبعا لهذا أن تولية أبي الحجاج يوسف الثالث ملك غرناطة سنة 810 قد سبقتها تولية أخرى، وفي لحظة كان السراج ما يزال على قيد الحياة، فرفع اليه قصائده بالتهنئة.

قد يقول قائل بأن هذا الافتراض فيه من الشطط والتجني على التاريخ لانه يقلب الحقائق المتعارف عليها، وأننا قد بالغنا في إقحام مالا يستقيم مع التاريخ أو يؤيده المنطق. لالشيء إلا للإزالة التعارض الذي أحدثته القصائد الثلاثة، ولأحجة الا ما ورد من إشارة بسيطة في كتاب أدبي. وليس لكتاب الأدب هذه المزية في قلب التاريخ، وليس للإشارة الصغيرة التي هي مجرد ذكر اسم رجل ونسبه، قوة في قلب الحقائق وتغيير المواقف.

(21) هذا الافتراض هو الذي تبني عليه هذا البحث

(22) فهرسة المنتوري 261. مخطوط الخزنة الملكية بالرباط : 12867 ك

(23) نيل الإتيان 357

قد يكون هذا العمل شططا حقا لو أننا أغمضنا أعيننا عن اعتبار الملابس المحيطة به، واكتفينا بأخذه أخذ اليقين بهذه الصورة، فنسارع الى بناء النتائج عليه، ونتهافت الى استخلاص الاحكام منه. ولكننا على عكس ذلك، قد وضعناه — مع ما يحمله في نفسه من حجة — موضع الافتراض، والزمناء المواجهة مع مختلف الملابس التي رافقت أحداث هذه الفترة مما هو في حدود علمنا عنها. فان صمد اليها وخرج سالما منها، أخذنا به آنذاك غير عابئين بالنقد، إلا أن يكون نصا صريحا ثابتا يفيد غير ذلك.

فليس علينا من حرج إذا ما وجدنا هذا الافتراض أو ذاك قد صمد في وجه الاختبار، وتأييد بما يقترب به من الحقيقة والصدق، لاسيما والفترة التاريخية التي أعقبت وفاة الغني بالله سنة 793 (24) يلقيها الغموض ويعمر الظلام صفحاتها. ولا تسعفنا المصادر المختصة بهذا الشأن بتفصيل لدقائق أخبارها، ولا بمجمل ما عرفته كبريات أحداثها.

وإذا كانت هذه الفترة بهذه المزية من الغموض، وبهذا الشأن من الخفاء والتستر، فان الطريق الوحيد الذي يبقى بين أيدينا لتبديد ظلامها، وإزالة أستار الخفاء عن أحداثها، هو تقليب أوجه الاحتمال، وتعيين ضروب من الافتراض يلئم الستات المتفرق، وضم ما يتناسق من هذه الاشارات.

ان ما يدفعنا الى الافتراض وتفسيره هو نفسه يقوم مقام دليل الاثبات. ألا نرى أن وجود السراج ضمن مادحي يوسف الثالث، حجة على أن الرجل قد كان له سابق تولية تمت على عهد السراج ؟ والا مامعنى وضع هذه القصائد المنسوبة للسراج في الكتاب المذكور ؟ ومامعنى تعيين جامعها أنها رفعت ليوسف أعلى الله مقامه الكريم ؟ لقد اخترنا ذلك في أوجهه المختلفة فكان به صدق اليقين. وأعتقد أن ماطرحناء في شكل افتراض — وهو مؤيد بالنص — لا يصدق في وصفه التجني والشطط، وان لم نقف عند هذه الحجة ونقصر تفسيرنا عليها.

وعليه فماذا عن يوسف الثالث ؟ وماذا عن الفترة التي نزع منها شهدت ولايته للمرة الأولى ؟ ان الاجابة على هذا تقتضي أن نسطر أمامنا الاحداث الكبيرة المتعارف عليها في هذه الفترة قبل العودة الى مناقشتها ومراجعتها. فمما هو مشهور ومتداول أن :

(24) بل ان الغموض يبدأ مع غياب ابن الخطيب السلماني في السبعينات من القرن الثامن.

- * - وفاة الغني بالله قد حدثت سنة 793 وتولى بعده ابنه يوسف الثاني
 * - ووفاة يوسف الثاني قد حدثت أواخر سنة 793 وجعلها عنان سنة 797 وتولى
 بعده ابنه محمد (25)

* - ووفاة محمد بن يوسف هذا حدثت سنة 810 (26) وكما جعلها عنان سنة 811 (27) وتولى بعده أخوه يوسف الثالث.

اننا مع عرض هذه الاحداث الكبرى المتداولة لانكاد نجد موضعاً لولاية يوسف الثالث الاولى التي افترضنا أنها حدثت قبل 805. وهذا لاشك سيدفعنا الى اعادة النظر من جديد في ترتيب هذه الاحداث، واثارة الاسئلة المختلفة حولها.

1 - انه من الثابت تاريخياً أن ولاية يوسف الثاني لم تستمر أكثر من 22 شهراً، اذ حدثت وفاته في ذي القعدة سنة 794 وذلك بشهادة معاصر. (28)

ويذكر الناصري في الاستقصا نقلاً عن المؤرخ القشتالي منويل أن وفاة يوسف هذا، حدثت بكسوة مسمومة كان قد بعث بها اليه معاصره ملك فاس أبو العباس ابن أبي سالم المريني، وكان يطمع في ازالة ملك غرناطة والاستيلاء عليه، غير أنه كما يذكر (لم يدرك المريني غرضه، فانه لم يلبث الا يسيراً حتى توفي أيضاً) (29)

فهل حقاً مات يوسف الثاني مسموماً ويتدبير أبي العباس بن أبي سالم المريني، وأن هذا الاخير كان ينوي شيئاً في غرناطة، فلم يمهله أجله لتنفيذه ؟

ان تفاصيل الاحداث المؤكدة لهذا غائبة عنا. وان محاولة تجميع هذه الاحداث وربطها في نسق واحد يجعلنا نتعامل معها بحذر شديد. اذ من المعروف أن وفاة أبي العباس المريني قد حدثت بعد وفاة يوسف الثاني — ان كانت وفاة هذا الاخير اغتيالاً من ورائه تدبير سياسي — بما يقرب من خمسة عشر شهراً، أي عند محرم سنة

796. (30)

وأتساءل اذا كانت وفاة يوسف الثاني تنفيذاً لبداية مشروع سياسي كان ينوي

(25) نهاية الاندلس لعنان : 137

(26) وفات ابن القاضي : 236. وراجع مقدمة الاستاذ كنون لديوان ملك غرناطة : ص وما بعدها

(27) نهاية الاندلس لعنان : 138

(28) الباهي في شرح المقامة البخلية : 62 — والاستقصا 81/4

(29) الاستقصا 82/4

(30) الاستقصا 78/4

ملك فاس القيام به، ألم تكن مدة خمسة عشر شهرا التي قضاهما أبو العباس بعده في الحياة كافية لتنفيذ ماتبقى من مشروعه ؟

ثمة خبر آخر يسوقه منويل هو أن يوسف الثاني لما تولى الملك تقبَّض على اخوته : سعد، ومحمد، ونصر، فكان آخر العهد بهم. (31)

2 - ومن الثابت تاريخيا أيضا أن الذي تولى ملك غرناطة بعد يوسف الثاني هو ابنه محمد الملقب بالمستعين. وقد ورد التَّنْصِيصُ على ذلك في تَقْدِمة شعر ابن زمرك على لسان المؤلف يوسف الثالث إذ يقول : (... فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله، وقيام أحنينا محمد مقامه بالامر) (32) ويقول أيضا أثناء عرض شعر ابن زمرك : (ومن ذلك أيضا فيما اعتمدنا به نحن وأخوانا المتولي بالامر بعد مولانا الوالد رحمة الله تعالى على الجميع). (33)

ويذكر بعض المقطوعات الشعرية التي خاطب بها الشاعر ابن زمرك السلطان أخاه فيقول : (ومن ذلك أيضا يخاطب أحنانا السلطان أبا عبد الله رحمة الله عليه تعالى عليه). (34)

ولكن كم استمر ملك محمد بن يوسف هذا ؟ هل امتد الى سنة 810 ؟

يذكر ابن القاضي في وفيات 810 ما نصه : (وفي هذه السنة غزا محمد بن يوسف ابن الاحمر بياسة في أول ربيع الاول. وتوفي السلطان المذكور محمد بن يوسف، وولي أخوه يوسف) (35)

ومن خلال كلام ابن القاضي يبدو أن سلسلة تولية ملوك غرناطة مُحْكَمَة الالتصاق، وأن يوسف الثاني يخلفه ولده محمد، ثم من بعده ولده الثاني يوسف الثالث.

غير أن ما أورده مارمول في كتابه افريقيا يعرض الامور بوجهة أخرى. فهو يذكر بعد وفاة يوسف الثاني مانصه : (... كما خلف أبو عبد الله ابن ملك غرناطة والده، فكان الملك الحادي عشر من هذه الاسرة، وكان صديقا حميما للنصارى. فقد كانت

(31) نفس المصدر 81/4 - وراجع عنان : نهاية الاندلس 136

(32) أزهار الرياض 19/2

(33) نفس المصدر 74/2

(34) نفس المصدر 153/2

(35) وفيات ابن القاضي 236

له حروب مع ولده مولاي محمد الذي أراد أن يخلعه من العرش معتضدا بابن أمية وأمرآء آخرين من المسلمين، ولكنه اضطر في النهاية الى مصالحة أبيه... وبعد عامين دبر ملك فاس قتل ملك غرناطة، لأنه كان يكن له كراهية شديدة، وكان ذلك بأن أرسل اليه سترة مسمومة في عدد الهدايا. وبعد مضي شهرين من ارتدائه تلك السترة قضى نحبه بعد أن تساقط لحم بدنه اربا. وقد خلفه ولده، محمد واستدام السلم في عهده مدة طويلة مع ملك قشتالة (36).

وإذا كان في نص مارمول ما يخالف الذي عرضناه سابقا، فإن به أيضا ما يحتاج الى مراجعة ومناقشة. ففي نظر مارمول أن تولية محمد بن يوسف الثاني لم تدم أكثر من سنتين، وأن وفاته تأتي عن طريق تلك السترة المسمومة التي نسبت قصتها في السابق الى وفاة أبيه يوسف الثاني. ويكون الحادث في كلا الحالتين اغتيالا سياسيا، مدبره دائما هو ملك فاس الذي يجسد الصراع مع مملكة غرناطة.

وعلى هذا فحدود سنة 797 تقريبا هي نهاية عهد محمد بن يوسف. وهو تاريخ له مغزى كبير إذ تداوله كثير من كتب المؤرخين على أنه تاريخ لوفاة يوسف الثاني وتولية لولده محمد (37) وهو وإن كان تاريخا حاسما، فهو قطعاً ليس مع هذه الاسماء وليس بالصورة المذكورة.

والذي نتساءل عنه من خلال رواية مارمول دون اعتبار الاسماء فنقول : هل هناك من تولى ملك غرناطة سنة 797 واسمه محمد ليكون الملك الثاني عشر من أسرة بني نصر كما صرح في كتابه افريقيا ؟ اذا ثبت هذا فإن الترتيب المعروف لولاية الملوك الغرناطيين بعد الغني بالله يخل، اذا يقحم بين رجاله رجل آخر، فيفتح المجال لكثير من القول وكثير من الاحتمالات.

والذي لا شك فيه أن محمد بن يوسف قد تولى الملك بعد أبيه سنة 794. وثابت من خلال ما كتبه أخوه في تقديمه لشعر ابن زمرك أنه كان ما يزال ملكا في حدود 796 حينما أعاد ابن زمرك الى وظيفته (38). ولكن لانعرف تفاصيل الاحداث ولا مجملها بعد هذا التاريخ، ولانستطيع أن نثبت أو ننفي صحة ماطلع به علينا مارمول في روايته.

(36) افريقيا لمارمول (410/1). الترجمة العربية — الرباط

(37) وقد وضعه عنان كذلك. راجع نهاية الاندلس : 137

(38) أرهار الرياض 19/2

على أن قول مارمول في ذاته ليس بعيداً في غياب نص صريح يحسم الموضوع. وإذا كنا نأخذ بتحفظ شديد هذه الرواية عن مدة ولاية محمد بن يوسف الثاني (الملك الحادي عشر من أسرة بني نصر)، فإن مانريد أن نناقشه فيه هو مازعمه من منازعة ابن له يسميه مولاي محمد ومحاولة خلعه عن العرش. فهل كان لمحمد بن يوسف الثاني ابن في سن يؤهله للمنازعة أبيه في الملك؟ إن حداثة سن هذا الملك — محمد بن يوسف الثاني — عند توليته سنة 794 تأتى ذلك. ونرجح أن سنه لم يكن قد تجاوز العشرين أو مايقاربها عند توليته، ومحال أن يكون له ابن ينازعه الملك وهو في هذا السن. وإن كنا لانفي أمر المنازعة والصراع على الملك في حد ذاته، لانه غير بعيد أن تكون محاولة خلعه قد حدثت من أحد اخوته أو من بعض أقاربه من أبناء الغني بالله وحفدته، ممن هم في مستوى المنازعة سنًا وقرابة.

وقد صاغ الاستاذ عبد الله عنان قصة أخرى لست أدري على ماذا اعتمد فيها، فزعم أن عصر يوسف الثاني قد امتد الى سنة 797، وأنه — أي يوسف هذا — قد واجه صراعاً أثناء ولايته، في مقدمته ثورة ابنه محمد ومحاولته الاستيلاء على عرش غرناطة، وأن محمداً هذا هو الذي استخلص الملك لنفسه بعد وفاة أبيه سنة 797، فأقصى أخاه يوسف وسجنه في بعض الحصون (40).

وأرى أن صياغة عنان ماهي الا اعادة بوجه آخر لما قاله مارمول، غير أن عنان سمى الاسماء، وأقحم يوسف الثالث في المواجهة. وتبطل رواية عنان في جانب منها بما قدمناه من أن وفاة يوسف الثاني قد حدثت مبكراً قبل التاريخ الذي عينه. وتسائل عنان: من حكم غرناطة بعد ثبوت وفاة يوسف الثاني تاريخياً سنة 794؟ ومن الذي بويع على أنه ملك سنة 797؟

أرى أننا قد ضيقنا دائرة الاحتمال من خلال هذه الروايات. فإذا لم تكن وفاة محمد بن يوسف الثاني قد حدثت فعلاً بعد سنتين من توليته، وكانت الحياة قد امتدت به الى سنة 810، فإن المرجح أن ولايته جلال هذه الحقبة لم تكن متتابعة، بل تخللتها فجوة أو أكثر، تولى فيها الملك شخص أو شخصان، قد يكون احدهما

(39) بدليل أن أباه يوسف الثاني عند وفاته سنة 794 لم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره. يؤكد هذا أن حفلة إعدام يوسف الثاني حدثت سنة 764 (راجع أزهار الرياض 56/2).

وقد جرت العادة أن يتم ذلك وسن الطفل لم تتجاوز السابعة من عمره على أكبر تقدير.

(40) نهاية الأندلس: 137

يوسف الثالث، وتكون سنة 797 التي اعتبرها عنان تاريخ تولية محمد هذا، هي توليته الثانية التي امتدت إلى وفاته سنة 810.

وعلى أي فان مختلف هذه الروايات تجعل تولية يوسف الثالث سنة 810 بعد وفاة من اسمه محمد.

3 - غير أننا ونحن نتحدث عن ولاية يوسف الثالث سنة 810 نقف عند الحادثة التي تَصَيَّر فيها الملك اليه. فقد ذكر مارمول أنه كان مسجوناً عند الملك، لما سلف من السعي فيه الى خلعه واحتلال عرشه. (41) وقد رأينا عنان كيف جعل سجنه على يد أخيه الملك في بعض الحصون نتيجة الصراع على الحكم. (42)

وسجن يوسف الثالث وابعاده عن غرناطة أمر ثابت طالما رده يوسف هذا في أشعاره، وبرَّح فيه بأشواقه، وحنَّ أثناءه الى أوائل أيامه.

ولكن أكان سجنه وابعاده عن غرناطة نتيجة طموح سياسي، أو تأمر لخلع الجالس على العرش ؟ وإذا كان الامر كذلك فمتى حدث هذا ؟ وهل تمكن من الوصول الى تحقيق غرضه ولو مؤقتاً، فأصبح ملكاً لغرناطة مدة زمنية — وهي التي مدحه فيها السراج — ثم دالت دولته، وآل الامر الى خلعه وسجنه ؟

قد لانستبعد هذا وان كنا لانملك نصاً صريحاً يثبت ذلك، وفي نفس الوقت لانرفضه، لأن هناك كثيراً من الملابس والاشارات الانجائية التي يطلعنا عليها الديوان الشعري المتخلف بين أيدينا ليوسف الثالث، وبعض مقيداته على شعر ابن زمرك واذن فلنحتكم هذه المرة الى الديوان، والى البقية من شعر ابن زمرك.

ان الرجوع الى الديوان والتجول بين أشعاره يزرج بنا في متاهات كبيرة تحول دون الاستفادة التي ننشدها منه. فقصائد الديوان ومقطوعاته ترد مغلقة لاتكشف عن حقيقة نفسها، ولا على مايبغيه المؤرخ منها. وزادها اغلاقاً أن الغموض الذي يحيط بشخصية يوسف الثالث، وعصره، وكبريات أحداثه قد انعكس على قصائد هذا الديوان، فلا يرد في تقديمها مايشفي غليل التعرف على أحداثها، ولما يحدد زمنها وظروفها، الا في النادر. ورغم أن الافادة لم تنعدم بالكلية الا أنها ليست في المستوى

(41) افريقيا لمارمول 413/1

(42) نهاية الاندلس 137

الذي ينشده من يريد أن يقيم حقيقة دون أخرى، ويثبت حدثاً أهملته كتب الأحداث والتواريخ.

ومن سوء الحظ أن الاستفادة من أشعار الديوان لا تتم إلا في حدود ضيقة، وغير حاسمة، فقد كان الشاعر أكثر إخفاء لأسراره، لا يكاد يعبر عنها صراحة، ولا يكاد يثيرها إلا من خلال إشارات عابرة.

(1) فأكثر قصائد الديوان تنصرف إلى الحديث عن التجربة الغزلية وما تحمله من آلام الحجر وصدود المحبوب، ومعاناة الغربة، وافقار الربع بعد أنسه، ويطلق فيها الشوق والحنين إلى أيام الوصل وترقب التفاتة المحبوب وتعطفه عليه.

وهذه التجربة بما تحمله من آلام المعاناة وما تمثله من ارتقاب الفرج وانتظار الخلاص هي الصورة الامامية لتجربة الاخفاق السياسية التي ألزمت أن يعيش بعيداً عن غرناطة مسجوناً طيلة عهد الحاكم السابق لتوليته. فربح غرناطة العامر، والاستئثار بأنسه، والتخلي بطلعة ظبائه هي صورة لحنين الشاعر إلى أيام العز والجاه قبل أن تصدمه المحنة. ولعل ظروف هذه المحنة قد فرضت عليه أن يحتاط في القول، فلا يقلت منه ما يكون سبباً في تصعيد الغضب عند المتولي على العرش آنذاك. لذلك عمد إلى إخفاء تجربته السياسية وما حل به من محنة البعد والسجن، والتعويض عنها بصورة لتجربة المحب المتيم الذي أضناه البعد وأسقمه التوى.

وقد تفتن إلى ذلك محقق الديوان الأستاذ الكبير عبد الله كنون فنبه عليه قائلاً :
(القسم السياسي من شعر الديوان يحتاج إلى دراسة واسعة، ولا سيما وهو كثيراً ما يكون إشارة ورمزاً، سواء في ذلك هو نفسه أو الكلمة التي يصدر بها) (43).

على أن ما يجمع بين التجريتين خلفية واحدة، هي الاخفاق فيهما. فقد تكون له سابقة واقعية في تجربة حب أدمت قلبه — ولعلها تجربته مع زوجته المتوفاة، ابنة عمه، وأم ولده البكر عبد الله — (44) حتى إذا أغرق نفسه في آلام تجربته السياسية، عطف هذه على تلك، واكتمل نصاب الألم وطغى عليه القلق، فصدر تجربة الحب، لأن في البوح بها أمناً على نفسه وعياله. وقد لا تبرز في هذه التجربة إشارة تنبئ عن خلفيتها الحقيقية، فلا تبدو إلا وهي تشبيب خالص. وقد تشكل هذه التجربة المزوجة في

(43) ديوان ملك غرناطة، مقدمة المحقق : س : ل

(44) سيرد الحديث عن ابنه عبد الله، وزناء زوجته بعد قليل.

صورة تنقلت فيها من قبضة الرمز بعض الاشارات العابرة فيكون للمؤرخ بها بعض الغنى وإن لم تصل به الى شاطئ اليقين.

فمن ذلك وهو يصور محنته فيشتد به الحنين الى مظاهر الملك في الماضي حيث :

زمان تحلى الملك منا بكفته	وليس تضيع الحر فينا وسائله
اذ الدهر طلق والمكارم غضة	وغيث ذوي الحاجات ينهل سائله
تناط بنا الآمال وهي عسيرة	
ماثر اسماعيل وابن محمد	ويوسف قدما أورثته أوائله
وهل ينبت الخطي الا وشيجه	وقد تسبق الصبح المنير دلائله
فها أنا أستقرى الرياح لعله	بقال قبول منه تأتي رسائله (45)

ومما لاشك فيه أن ماتعكسه هذه القصيدة بطولها من حنين الى الماضي وما يمثله من مخايل الملك، انما تعبر من وجهه أو بآخر عما كان عليه الرجل وهو يتولى ملك آبائه قيل أن تمد اليه يد الغدر حبالها لتجعل منه مسودا بعد ما كان سيدا :

سأجهد ما عمّرت عن نيل بغيتي فما سيد يرتاح وهو مسود (46)
على أن القصائد والمقطوعات الشعرية التي تبين حال عودته الى الملك كانت أكثر تصرّحا لحالة توليته الاولى قبل المحنة. فمن ذلك ما (صدر عنا اشارة الى التقلب في العناية الالهية وما ظهر من اللطاف الخفية : (47)

الى الملأ الاعلى ترامت ركائبي	الى حيث كانت في العصور الدواهب
تقادم ذاك العهد منها وانه	لأشرف أسباني وأسنى رغائبي
أرحت من التهجير في دوحة الرضى	وصافحته بالراح عذب المشارب
فيالك من فقد أقام وجودنا	ووجد هداانا بعد فقد المطالب
وكم حالت الاحوال منا بحالة	نعمنا بها، والنفس أأم طالب

وفي الديوان أشعار أخرى تعبر عن هذا الموقف بعد العودة كقوله من قصيدة نظمها (في المضارب خارج غرناطة : (48)

(45) الديوان 116 وما بعدها

(46) الديوان 43

(47) الديوان : 4

(48) الديوان : 127 وما بعدها

في عز ملكي أمل الآمل لقادم نحوي أو راحل
عادت بنا الدنيا الى ربيعها وميز الحالي من العاطل

ولعل المقطوعة الحاسمة في تأكيد ولايته الملك مرة أولى قبل أن يبعد منه، هي تلك المقطوعة التي صاغها على نسق ما صدر في شعر أبي العباس المريني، وقد رأى في ظروفه شيها بظروف هذا الملك المريني الذي خذله أنصاره وخلعوه من ملكه قبل أن يعود اليه ثانية. (ووقفنا على مقطوعة نظمها السلطان أبو العباس مشيرا الى قبيله الذي أسلمه لوقوع الكائنة عليه نصها: (49)

هل لنا مورد وقد أصد رونا لانرى منظرا يروق العيوننا
تركونا لغير ذنب وولوا وأهانوا من لم يذق قط هونا
نحن كنا الستر الكثيف عليهم ويحهم ثوب غدرهم ألبسونا
فاقتضى الارتجال أن عارضناها، قافيتها ومعناها مع اللقب المسمى بالتصدير
والإشارة الى عودة الدولة والاستقلال من الخطب الكبير :

أبعدونا تغلبا أبعدونا طردونا عن ملكهم طردونا
تركونا لما ركننا اليهم ضحوة الركن جهرة تركونا
سلبونا بعض الذي قد منحنا من عطايا جزيلة سلبونا
خلفونا بعد اليمين جهارا ويحهم ما لهم لما خلفونا
حيث عدنا والعود أحمد لكن إن أساءوا فأننا محسنونا

(2) على أن ما يقربنا الى الحقيقة، ويؤكد هذا الافتراض الذي طرحناه، هو ما يرد في بعض قصائد الديوان من أشعار في رثاء زوجته. وهي أشعار كثيرة متفرقة، غير أنها تجمعها حقيقة واحدة، هي الفاجعة التي فجرت ألم الشاعر بفقدان سكينه.

ولكي يتوضح قصدنا من أشعار الرثاء هذه ننبه الى أن هذه الفاجعة قد صاحبها حدث سعيد أيضا. فقد حدثت الوفاة على ما يبدو عن طريق النفاس، فغابت الأم وتركت طفلها الصغير. وإذا كان هذا الصغير قد ملأ قلب الأب بالرضى والثقة من جانب :

نظرت الى ابن من سكنت ثراها صغيرا للكبير به اعتبار

فقلت رضائي عنه وفضل ربي وسائل ربي لا يخبى به انتصار (50)
 فانه كان من جانب آخر مصدر القلق واثارة الذكرى لافتقار الحبيب :
 وأكبر حادث من خلفته ومن حجر العلاء له مهاد (51)
 صغير السن تكبره المعالي وطوع مداه تستبق الجياد
 أو قوله من قصيدة أخرى :

وهذا أليم الخطب والصبر عادي إذا لم يزل الفتور بي عن صفاته
 ولكنها رجعى الى الله كلما تنبه جفن الدهر من غفلاته
 وفي المهد ميعود النداء كأنه يقول، وأين الفهم من كلماته
 يشير فتدري ما يريد توها ونفهم شرح الحال من لحظاته
 حبيب نداء رافة وتلطفنا فكل كنسى عن شوقه بلغاته (52)

والشيء المثير في هذا الحادث أنه وقع ويوسف الشاعر متربع على عرش غرناطة.
 يستفاد هذا من أشعاره في هذا الحادث، وقد اقترن بالثناء في جانب، والفرحة في
 جانب آخر. يقول في بعض هذه القصائد مخاطبا زوجته بعد أن أفصح عما يعانيه
 من البعاد والوحشة :

أفلا نفسي بعهودكم ومقامنا متقبل الحسنات من أعماله
 أنا من علمتم حافظ لذمامكم حفظا أجل الملك عن اغفاله
 والملك ملكي لو يتاح فداؤكم لمنحتم المذخور من أمواله (53)

ويقول في قصيدة أخرى من نفس الموضوع :

توآدعنا فعز بها لقاء وأحكم عقد فرقتها البعاد
 فوا أسفا على سكن صفى سجيته خلوص واعتقاد
 على سلطاني الأعلى وملكى وفاء بعد ذكر يستعاد (54)
 وفي قصيدة أخرى أيضا :

(50) الديوان : 93 — ومظهر النور الباصر : 19

(51) الديوان : 71 — ومظهر النور الباصر : 17

(52) الديوان : 21 — ومظهر النور الباصر : 13

(53) الديوان : 119 — ومظهر النور الباصر : 15

(54) الديوان : 71 — ومظهر النور الباصر : 16 وما بعدها

لنا في الخطب صبر يوسفى على أن لا يرى منكم خطاب
وها أنا يوسفى قد دعاني لذكرها الدعاء المستجاب
لفرع خالفته أمير ملك رفيع من معاليه الجباب (55)
لئن حجت فان رضى عنه يفتح كل يوم منه باب

ويؤكد وقوع هذا الحدث أثناء تولية يوسف ملك غرناطة، ما يذكره جامع كتاب
مظهر النور الباصر، وقد خصص صفحات من هذا الكتاب ليقدم لهذا الحدث
الذي أبت الفرحة إلا أن تقترن فيه بالاسى فيعرف بنحو الاحتفال الذي أقيم لِميلاد
هذا الأمير، ليكون ذلك مدخلا يعرض فيه أشعار الملك يوسف الثالث، ثم يعقبه
بأشعار بعض حاشيته من الوزراء والرؤساء مشاركة له في هذا الموقف مما تم نظمها
بديهة وارتجالا يقول ابن فركون في تقديمه : (ومما يشير اليه مملوك هذا المولى الناصر أعلى
الله أمره وأعظم أجره، أن هلال آفاقه، والمرقب طلوعا محرزا الشرف الملكي
باستحقاقه، والناجم من مطلع الكمال السني، والمقام اليوسفى، حيث العز قد مد
ظل رواقه، والمشارك والمغرب قد راقها بهجة زمانه فتحسبت في بدائع اشراقه، نُجِله
السيد المولى... فتوجهت وجه الآمال، وانتظمت للساعة عقود رائعة الجمال،
وصدرت المقطوعات كأنها قطع الرياض المتعاهد بالليل من مهب القبول والشمال،
وحل نصره الله من المجلس الحاضر للتهنئة محل المشرق النير من هالته، وتناهى الى
الغاية المعهود من قبوله وعز سلطانه وجلالته، حسبما نشير الى ما هنىء به مقامه
الكريم أسماء الله على بديه وارتجال، وننقله الى هذا المجموع مع ما جرى في اليوم من
محمل الحال، وما شاء الله تعالى من انتقال الموحدة قدس الله روحها الى الرحمة الوارفة
الظلال، والعناية الالهية التي أوفدتها على ما يتقدم لأمثالها من صالحات الاعمال، فعظم
من مولانا على صبره وتجلده مكان هذا الخطب العظيم، ووقف، والله يحسن عزاءه،
ويطيل بكل فتح هناءه، موقف الرضى والتسليم، وأجرى في احتفال الميلاد عادة سنّها
وشرعها النبي المصطفى الكريم...) (56)

ثم قدم بأشعار الملك في رثاء زوجته، وعطف عليها من أشعار الحاشية (بالمترجل

(55) الديوان : 8 — مظهر النور الباصر : 17

(56) مظهر النور الباصر : 10 وما بعدها

عند طلوع السيد المولى واستهلاله (57)، ثم أتى بما أنشد (في الصنع السعيد وميقات احتفاله) (57).

وتتصافر أشعار مختلفين بهذا الميلاد لتؤكد أنهم في حضرة ملك ينفرد بتصريف الأمور في غرناطة. فمن مرتجل الوزير الرئيس أبي بكر بن عاصم قوله: (58)

طلع اليوم في سماء المعالي بدر هدى له صفات الكمال
وتجل من مطلع الملك تبدو من سنا وجنتيه سيما الجلال
فهنيئاً مولاي منه بنجل للمعالي يسمو سمو الهلال

ومن مرتجل الشريف أبي العباس الحسني: (59)

مولاي قد عمت الأرض البشارات بمن له في العلا منك الاشارات
ولي عهد أتى والنصر يقدره له على ذاك لا تخفى علامات

ومن مرتجل الوزير أبي محمد بن مليح: (60)

بشرى أضواء بها الاقطار تهتز عند سماعها الامصار
فكل ناد في البسيطة بهجة ولكل وجه في الدنيا استبصار
بطلوع بدر في سماء خلافة قد أثلت عليها الانصار

ومن مرتجل الخطيب أبي القاسم بن سالم وقد ألم بذكر الفقيده وأبدى أسفه عليها: (61)

أضواء القطر بالقمر السعيد بنجل في العلا مبد معيد
لقد وافاكم في خير شهر وأطلعه الزمان بلا نديد
ومن يك للامام الفد تجلا سيعلو همة بدر السعود
أليس أبوه أفضل من تردي رداء الفضل والفخر العتيد
فقد ملئت به الدنيا أمانا وقد سرت به في كل الوجود

(57) مظهر النور الباصر : 11

(58) نفس المصدر : 20

(59) نفس المصدر : 20. تنظر ترجمته في : الكتبية الكامنة : 301 — نيل الانتهاج : 76 — أزهار الرياض 59/1 — ووقع النقل عنه في شرح ابن عاصم لنحفة والده، وفي المعيار للونشريتي.

(60) مظهر النور الباصر : 22. ترجم في النبيل لقاضي غرناطة محمد بن علي بن عبد الملك الالبيري الغرناطي شهر بابن مليح، وذكر أن ابن عاصم قد نقل عنه في شرح الصحفة، وكان حيا 832. النبيل 291. وورد في ثبت الوادي أشي اليلوى 382 من اسمه أبو الحسين محمد ابن القاضي أبي الحسين بن مليح قلعه أحد أبنائه.

(61) مظهر النور الباصر : 23.

صفات ما حواها الدهر ملك فمن عدل ومن شرف عديد
فقل جدلا أهلا وسهلا ولا تأسف على ألف فقيد
ومن مرتجل القائد أبي يحيى بن عاصم من قصيد طويل: (62)

الله أكبر وجه النصر قد سفرا ونوره لضياء العقل قد بهرا
فلهم دين الهدى نجل لناصره في طالع اليمن والاسعاد قد ظهرا
فلتهننا معشر الاسلام طلعتنه فان من بشرها نستوهب الدررا
وتفرح الخيل شوقا في مراتعها لمن أبوه حمى الاسلام قد نصرا
كان بنجلك يامولاي قد بلغت به صفات المعالي الانجم الزهرا
واذا ثبت عندنا أن وقوع هذا الحدث ويوسف متربع على عرش غرناطة فان بخشنا
الآن ينصرف الى تحديد وقت هذا الحدث، اذ لامعني لكل ما ذكرناه اذا كان ذلك قد
تم بعد 810. فهل يكون هذا الحدث قد وقع فيما زعمناه عند تولية يوسف الثالث
توليته الاولى قبل هذا التاريخ ؟

ان حدود تقريب هذا الزعم كبيرة بما بين أيدينا من اشارات وردت في القصائد
التي عرضنا بعض أبياتها. ففي أشعار يوسف الثالث ما يفيد أن ابنه هذا هو بكره،
وأنه المنتظر لولاية العهد وخلافة أبيه. يقول في بعض قصائده: (63)

أسفا على الوجه الأغر تحجبت عني بحكم الله غر خالاله
لما استهل ولي عهدي ناجما أخفى محياكم ظهور هلاله
ويقول في قصيدة أخرى في رثاء زوجته أيضا: (64)

ياصورة قد بدت محاسنها فعوذت في العيون بالسور
ويا ولي العهد مانعمت في وطن الملك منك بالوطر
ومن مرتجلات الشعراء من حاشيته في التهئة بهذا المولود قول أبي العباس الحسني :
(65)

ولي عهد أتى والنصر يقدمه له على ذاك لانتخفي علامات

(62) مظهر النور الباصر : 25. وتظهر ترجمة ابن عاصم في برنامج المجاري : 237 — وفيات النشريتي 137 —
نيل الانتهاج 285 — شجرة النور 247

(63) الديوان : 119 وما بعدها — مظهر النور الباصر : 16

(64) الديوان : 97 —

(65) مظهر النور الباصر : 21

ويتأكد أنه بكر أبيه من قول الوزير أبي محمد بن مليح في التهنئة: (66)

هبت يامولاي أسعد قادم ستقر ما شئت به الأبصار
فكأن به قد حاز كل فضيلة تحدو بطيب حديثها السيار
وتراه بين يديك مع أعمامه صدر الجيوش تهابه الكفار
فوجوده سيكون بين أعمامه لأنه لا اخوة له بعد.

ولكن هل كان ليوسف الثالث من الأبناء غير هذا ؟

ان ما يتردد ذكره في الديوان، وما تنقله لنا كتب الاخبار يفيد أن له أبناء آخرين، منهم ابنه محمد الايسر الذي تولى الملك بعده سنة 671/820. ومنهم ابنه : عبد الله ويوسف وقد استأثر الموت بهما على عهده فرثاهما (68). غير أن عبد الله يأخذ أكبر حصة من هذا الرثاء، فقد تحصى صغير السن لم يتطلع بعد الى الحياة :

فجعنا به والله يكتب أجرتنا كما فجعت قبل الخلائف بالدول
وكان قريب العهد بالكون فانقضى على عجل من شأنه سابق الاجل (69)
ويبدو أن الحسرة التي خلفتها وفاة الولد عبد الله كانت أشد وقعا على الاب، فأكثر فيه من الرثاء والتفجع، وظلت ذكراه قائمة في نفسه يعظم معها وجده وتتفجر في كل المناسبات فيقرن برثاء بعض أقاربه الآخرين (70)

ووفاة الولد عبد الله هذا تتم في ظروف سابقة من تولية يوسف الملك المعروفة، فهو الابن البكر الذي كان يأمل فيه والده ولاية العهد والاستخلاف في الملك، فأقيمت الاحتفالات بمقدمه، وصنعت فيه الاشعار، وتقدم رجال الحاشية في الحفل بتقديم التهاني الى الملك والده كما أسلفنا. غير أنه فجع به في وقت قريب، حيث هو وحيد أبيه الاثني له، كما فجع بأمه غداة ولادته.

النتيجة :

ونصل الآن الى ربط الاحداث وتقريب النتيجة. فاذا علمنا أن ولده عبد الله كان أول

(66) نفس المصدر : 22

(67) نهاية الاندلس لعنان : 141 — وراجع مقدمة المحقق لديوان ملك غرناطة ص : ن

(68) راجع الديوان : 133 — 108 — 155 — 197

(69) الديوان : 133

(70) راجع الديوان : 133 - 208

أولاده، وأن ولادته تمت حين كان على عرش غرناطة كما سبق الذكر. وإذا أدركنا أن الذي تولى الملك بعد يوسف الثالث هو ابنه محمد الأيسر سنة 820، وكان يافعا في سن الشباب حوالي العشرين (71) من عمره، بمعنى أن ولادته تمت قريبا من 800. وبعد ولادة أخيه عبد الله ووفاته.

تأكد لنا أن أحداث هذا الحفل الذي تحدثنا عنه وأشعار الشعراء فيه، ووفاة الزوجة وأشعار الشاعر يوسف الثالث في رثائها، قد حدث كل هذا خلال العشرة الأخيرة من القرن الثامن. ومعنى هذا أن يوسف الثالث كان ملكا على غرناطة خلال لحظة من سنوات العشر الأخيرة من هذا القرن، قد تكون سنة 797 أو مايقوم حولها من قبل أو من بعد. فتكون هي توليته الأولى التي مدحه فيها بعض الشعراء بالملك، ومنهم أبوزكرياء السراج الرندى بهذه القصائد الثلاثة المذكورة.

وتكون توليته الملك سنة 810 هي توليته الثانية، خلافا لما شاع عند كتاب التاريخ الأندلسي.

(71) اعتمدنا في ذلك على ما وصفه به عنان بأنه كان عند توليته 820 أميرا صارما سيئ الخلال متعاليا على أهل دولته بعيدا عن الاتصال بشعبه. فالذي يوصف بالصرامة لاشك يكون في طور الرجولة.

ملحق بذكر القصائد الثلاثة منقولة
من كتاب مظهر النور الباصر في أمداح أبي الحجاج
الملك الناصر

وهي كما وردت في ص : 140 من هذا الكتاب منسوبة الى أبي
زكرياء يحيى بن أحمد السراج النفزي الرندي

ورفع كذلك لمقامه الكريم أعلاه الله الفقيه الاعز أبو زكريا يحيى بن أحمد بن السراج
من أهل رندة :

بشرى تجلت للزمان وأهله	نورا سما برنى الامان وسهله
وتألاً - الافق الذي ما مثله	أفق لاحراز الثواب ونيله
وبدا عليه من خلافة يوسف	فلق به ضاءت دجنة ليله
ملك به الاملاك سادت واعتلت	أقدارهم فوق السها ومحله
كلف من العلياء بالقصوى التي	لا فوقها، ومن العطاء بحزله
غمر البرية بالنوال فرفده	يهمي على الآباد صيب وبه
فخرت به الايام واستولت على	جنس العلاء على التمام وفضله (1)
واستوثق الاسلام منه بمانع	لكريم حوزته وجامع شمله
هذا وان الملك أصبح سابقا	أمد الفخار به ومحرز خصله
ذعر العدو له وأيقن أنه	يحت دين صليبه من أصله
خفت بميدان الجهاد بنوده	واستر سلت فيه سوابق خيله
رمي الضلال بنافذ من عزمه	ودم العدى بمبيحه ومحله
فالبدر يقصر عن ضياء جبينه	والبحر يصغر عن نوافل بذله
والزهر يفضحه تأرج ذكره	والزهر تخفضها مواطنه نعله

(1) - نهاية صفحة 140

والارض تبهجها محاسن حسنه
ولقد صفا للمخلق مورد رفقته
وأنا ر وجه السد هروجه سنائه
وتحقق الحق المنيف بهديه
ولسوف ينسي عصره في سعده
ولسوف يفتح واثقا من ربه
وبيت شمل الكفر سيف جهاده
ويجبل خيل الله تمرح مثلما
فهبوب ريح النصر ان أوانه
حكمت ميامنه بعز جنوده
ياصقع أندلس حيث بناصر
مطل الزمان يوعد نصر برهة
لا غرو أن الشرك أنذر جزبه
شيم تبدت للخليقة دونها
آباؤه الاعلون أحيوا للعلی
نصروا الخلائق نصر أنصار الهدی
كفوا عن الشرع القويم أكف من
حملوا الانام على اجتناب حرامه
وسعوا لمرضاة الاله — وياه —
ما منهم الا امام هداية
من مثله مولی الوری وهو الذي
لما تولى الامر وهو حقيقة
وجب الهناء على العباد لمن اذا
جاء الوفود مبايعين امامهم
وأى العبيد مهنتين وكلهم
حلوا بساحة بابه فجميعهم

والروض تخجلها شمائل فضله
وضفا على الآفاق وارف ظله
وأى بحكم رخائه لأزله
وتعلق الدين الخنيف بنبله
وجماله ما قد مضى من قبله
كل البلاد بعونه ونحوه (2)
حسما لكثير فريقه ولقله
غرض الفتوح يصيب صائب نباه
ووصول وقت الفتح دان بوصله
وقضت بهون غدوه وبذله
للدين، والدنيا مجرد نصله
فأى به مستغفرا من مطله
بمبيده ومبيره ومذله
نظم الجيد ونثره من قوله
ما كان قبلهم عفا من سبله
لنبي ربهم وخاتم رسله
السيف أنفع للعلا من عدله
حمل الرشاد والاكتساب لحله
سعيًا تألق نوره من أجله (3)
سرت الرفاق بذكر آية طوله
ضاق الوجود عن الوجود لمثله
نعم الاحق به وأكرم أهله
بخل الغمام أتى به في سجله
مستمسكين بخلمه ويعدله
قد فاز من حظ السرور بكله
ما عاش يحمد حسن عقبى حله

(2) نهاية صفحة 141

(3) نهاية صفحة 142. ونظرا لعدم ترتيب أوراق المخطوط فان تمة القصيدة تنابع عند صفحة 153

فلتهنأ الدنيا ويهنأ أهلها
صنع من الله العظيم تلبجت
فالملك ملك والسنا كسمية
ما مصر إلا دون حضرة ملكه
مولاي يامولى الملوك ومن له
لازال ملكك مظهر الحق الذي
وقال أيضا بمدح مقامه الكريم أعلاه الله وعرف الوجود عوارف رحمائه :

قد أيقن الاسلام أنك ناصره
يا أيها المولى الذي آثاره
يا أيها الملك الهمام ومن غدت
فخرت بك الأيام والدين انتخت
وازدانت الدنيا وبنات رفعة
ان ييخل الغيث الملت بجوده
أو يخلف الجود العميم عهاده
فالزهر ييخله وان طاب الشذا
والزهر يعلوها وان هي قد سمت
لايذل الا ما يمينك خولت
لارفا الا من جلالك منحه
لامتدى للفضل والخلق الرضى
لاساحة للشرك الا جاسها
فالبشر طلق وجهه متهلل
والدهر مؤتمر لأمرم الذي
والعصر أزرت بالأوائل عزة
حكمت بنصر الدين حقا سمره
أنى لحزب الكفر ييجهل قدره
أنى لجيش الشرك يبصر عدوه

ودرى العدو بأن جندك قاهره
كرمت وجلت في الوجود مآثره
أجناده منصورة وعساكره
بجميل ذكرك في الانام منابره
بحلى أصونة العلى ودفاتره
عم الورى هامى نذاك وهامره
غمر البرية من نوالك ماطره (5)
عرف تأرج من ثنائك عاطره
مرق بعيدا من علاك مظاهره
لافضل الا ما كمالك ناشره
لاجد الا في خلالك ناشره
الا وفخرم المؤئل عامره
من جندك الا رضى المؤيد وافره
تبدو عليه من سناك بشائره
تمضي بتأييد الاله أوامره
بسعادة الملك الكريم أوآخره
وقضت بذل الكافرين بواتره
ومعد أطماعا وحزبك كاسره
يوما يطول مدى وسيفك قاصره

(4) نهاية صفحة 153

(5) تنهى ص : 154، وفيه القصيدة في ص : 151

مولاي ياشرف الائمة والذي
مولاي يوسف يامام هداية
ما أم بابك ذو انكسار قلبه
فبقيت مولى للملوك ومالكها
لازال ظلك في البسيطة وارفاه
وله أيضا في مثل ذلك :

صبا النصر قد هبت بنصر بني نصر
وأضحى جبين الدهر يشرف يمنه
أئمة فضل جاء ذكر علائهم
خلائف عدل للخليقة قد حموا
وأحيوا به الدين الحنيف وظالما
فما مكر الاعداء الا تعززوا
ولله منهم ناصر الدين يوسف
هو الشمس في الآفاق حسنا وأين من
هو البدر عند التم نورا وأين من
معان تجلت أعجز القول شرحها
مفاخر ملك ينجل الروض حسنها
شمائل لاتحصى وان هي عددت
مراقب قد فانت على الشهب مرتقى
هو الوتر في العلياء فالعصر لم يكن
فكعب المعالي والمكارم قد علت
سبيل الهدى أحيت ياملك الهدى
معاليك أزرت بالكواكب رفعة
وتاهت بك الأيام فضلا وعزة
ثناؤك أحلى للنفوس من المنى

أوصافه لاتحصى ومفاخره (6)
كرمت لمرضاة الاله سرائره
الا وفضلك كل حين جابره
فالدهر مأمور وملكك أمره
يضفر على كل الخليقة ساتره

وجاءت بمذخور الفتوح لذا العصر
وأسمى محيا وجهه رائق البشر
بأشرف وصف المدح في محكم الذكر
بدار جهاد واستباحوا حمى الكفر
غزوا عصابة الاوثان والشرك في العقر
وردوا عليهم سوء ذلكم المكر (7)
أمير الورى الزاكي المخاتد والنجر
علاه علاها في المصاعد والقدر
سنى ذلك المرأى الوسيم سنى البدر
وقل لديها منتهى الحمد والشكر
ويفضح في طيب الشذا نفحة الزهر
فضائل يلقي دونها طامي البحر (8)
مناقب قد جازت مدى العد والحصر
يجيء بتشفيغ لذلكم الوتر
مواطيء نعليه على مفرق النسر
وجددت آثار المحامد والفخر
وان سردت أريت على الانجم الزهر
كما باهت الدنيا بأيامك الغر
وأعذب من وصل آتى عقب الهجر (9)

(6) بداية صفحة 152

(7) تنتهي صفحة 152، وفيه القصيدة في صفحة 147

(8) كتب فوقها في الأصل (كذا)

(9) نهاية ص : 147 وبداية 148

سرى نشرًا طول المدى متسحبا
وانك معنى الملك حقا وسره
فمجدك أسمى في العلو من السهى
وسعدك نور مذهب كل غيب
ورفدك غيث ينعش الناس سيبه
وغرتك الغراء قد لاح نورها
ونصرك ممدود اللواء ولم يكن
وفتحك مردود القضاء الى الذي
ومنحك بذل بخل الجود وكفه
وفضلك صبح ساطع الضوء سافر
فلولاه في يمينك لم يعيش أمل
أمولاي يا أعلى الملوك جلالة
أنت بابك الاعلى الكريم خديجة
تؤمل أن تحصى الثناء ومن لنا
ففعفوا عن التقصير فالامر بين
فقدت فقط كل الناس في العلم والنهى
وما أم ذاك المجد في الدهر قاصد
بقيت امام المسلمين مؤيدا
ولا زلت منصورا وللدین ناصرا

برود جمال فذة الطي والنشر
وناهيك من معنى كريم ومن سر
وفخرك أسمى في الاياة من الفجر
وناسخ حكم العسر بالخير واليسر
به حالهم نام وبائسهم مثر
ملاذا لدى الجلى معاذ من الذعر
لممدوده الخفاق بالعز من قصر
للكك من أمر على وفقه يجرى
وأخجل في صوب الندى واكف القطر
عن الخلق المرضي والكرم الثر
الى ضوء نار قد أقيم على بر
وأزكاهم جريا على ستن الصدر
لها سمحك المأمول من أنفـس الذخر (10)
باحضاء عشر العشر في النظم والنثر
وحلمك يامولى الورى قابل العذر
وسدت ملوك الارض في كل ما أمر
من الناس الا فاز بالمقصد البر
وعزك مسطور على صفحة الدهر
تزداد مدى الايام نصرا الى نصر
المرباط الترغى عبد الله

لائحة المصادر والمراجع

- * أزهار الرياض في أخبار عياض. الطبعة الثانية. صندوق احياء التراث الاسلامي — الرباط
- * الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى. تحقيق وتعليق ولدى المؤلف. دار الكتاب. الدار البيضاء
- * افريقيا لمارمول كارخال. ترجمة : حجي، زنيير، الاخضر، التوفيق، بنجلون. مكتبة المعارف الرباط 1984
- * برنامج محمد المجارى الاندلسي. تحقيق محمد أبو الاجفان. دار الغرب الاسلامي. بيروت 1982
- * ثبت أبي جعفر البلوى الوادي آشي. دراسة وتحقيق الدكتور عبد الله العمراني. دار الغرب الاسلامي. بيروت 1983
- * دعوة الحق. عدد 10. سنة 14. ذو الحجة 1391/يناير 1972 مقال الاستاذ عبد القادر زمامة حول كتاب مظهر النور الباصر.
- * ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث. تحقيق عبد الله كنون. معهد مولاي الحسن. تطوان 1958
- * رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني. مؤسسة الرسالة 1981
- * ربحانة الكتاب ونبعة المنتاب لابن الخطيب السلماني. تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة مكتبة الخانجي. 1981/80
- * الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة. لابن الخطيب السلماني. تحقيق الدكتور احسان عباس. دار الثقافة. بيروت 1963
- * مظهر النور الباصر في أمداح أبي الحجاج الملك الناصر. جمع أبي الحسين بن فركون. مخطوط الخزانة العامة بالرباط : ج 23
- * نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين (العصر الرابع من كتاب دولة الاسلام في الاندلس) تأليف : محمد عبد الله عنان. مصر الطبعة الثانية 1958

- * نيل الانتهاج بتطريز الديباج. تأليف أحمد بابا السوداني. دار الكتب العلمية. بيروت بهامش كتاب الديباج.
- * فهارس علماء المغرب منذ النشأة الى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة. تأليف المرباط الترغي عبد الله. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب. نوقشت بكلية الآداب بفاس موسم 1983/82
- * فهرسة أبي زكرياء السراج الرندي. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط : ك 1242
- * فهرسة أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المستوري. مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط : ك : 12867
- * شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف. مصر. المطبعة السلفية
- * شرح المقامة النخلية (نزهة البصائر والابصار) للقاضي أبي الحسن النباهي المالقي. مخطوط الخزانة العامة بالرباط : ق 198
- * وفيات أبي العباس الونشريثي. تحقيق محمد حجي. ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات الرباط 1976
- * وفيات أبي العباس ابن القاضي (لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد). تحقيق : محمد حجي. ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات. الرباط 1976



مدخل لدراسة كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت

عبد الواحد العمري

١ - سأحاول من خلال هذه الدراسة التي أتوخى منها أن تكون مدخلا لقراءات متعددة لأعز ما يطلب، لابن تومرت، تقديم بعض أطروحات الكتاب، ومناقشة بعض القراءات القليلة التي تناولت هذه الأطروحات. ذلكم لأن البحث في الظاهرة الموحدية اقتصر على مناحيها التاريخية والسياسية. ناسيا الفكر التومرتي الذي امتزج — مؤسسا — بهذه الظاهرة. فاشتهر ابن تومرت كسياسي ومقاتل، أكثر مما عرف كمفكر وكمجدد للفكر بالغرب الاسلامي الوسيط. ولاتطمح هذه الدراسة الى تصحيح هذا الوضع فقط. وذلك بالعمل على اخراج ابن تومرت من دائرة النسيان والتهيش — بل تتوخى كذلك الانخراط ضمن مشروع أعم وأشمل. وذلك بتحقيق فرضية طرحها «الجابري» خلال دراسته للمدرسة الفلسفية المغربية انطلاقا من سؤال شغل باله بصفة ثانوية حول أصول الثورة الفكرية التجديدية لابن رشد^(١). تذهب هذه الفرضية الى أن ابن تومرت مهدي الموحدين دشن بالغرب الاسلامي ثورة ثقافية كبرى ساهمت في تبلور ثقافة اسلامية مغربية متميزة اشكاليا ومفاهيميا ومنهجيا عن الثقافة الاسلامية بالشرق الاسلامي لتحقيق هذه الفرضية لابد من

(١) الجابري، ج. ع. نحن والتراث بيروت 1980

العودة الى كتاب أعز ما يطلب ومحاورة مؤلفه كذلك. لماذا وكيف اهتم ابن تومرت بما اهتم به من بلورة وتحقيق مشروع ثقافي واجتماعي معين (الاجتماعي يتضمن الديني والسياسي). لماذا شغل ابن تومرت باله بمختلف الاسئلة التي أجاب عليها بكتابه وبممارسته التاريخية والاجتماعية ؟ كيف أسس وعبر ويعبر هذا المشروع عن مختلف المشاكل التاريخية والاجتماعية لمرحلة جد هامة من مراحل التاريخ الفكري والاجتماعي للغرب الاسلامي الوسيط ؟

وللاجابة عن هذه الاسئلة لابد من مواجهة أسئلة أخرى تتعلق بالمنهج أو المناهج الكفيلة بتحويلنا وسائل التعامل مع موضوعنا ومادامت طبيعة هذه الدراسة لانتسجم والانخراط في حديث عن التراث العربي الاسلامي ومشكلة المنهج، فإنني سأكتفي بطرح ملاحظات حول منهج لن استخدمه بكل صرامة، وإنما سأكتفي بالاستفادة منه لمعالجة هذا الموضوع.

إن القراءة التي أريدها لأعز ما يطلب لن تكون أبدا قراءة استنساخية فقط تعيد إنتاج الكتاب لابسة جلد مؤلفه وشراحه ودارسيه، وإنما ستطمح إلى أن تكون قراءة تأويلية بالدرجة الاولى تحاول الاقتراب جهد الامكان من القراءة التشخيصية. وذلك حتى أتمكن من إعادة بناء جزء من العمل التومرتي منتجا بذلك وجهة نظره ووجهة نظر حوله وبخصوصه. وحتى أتمكن كذلك من محاولة الكشف عن المنطق الذي بواسطته وضمنه تحدثت نصوص وشخصية ابن تومرت، أي محاولة الكشف عن الكيفية التي يبلور بها ابن تومرت مشروعه الديني والسياسي.

للقيام بهذه القراءة لابد من الاستفادة — نظرا لطبيعة الموضوع كذلك — من عدة مفاهيم وأدوات تتصل باتجاهين منهجيين مختلفين والمزاوجة بينهما. الاتجاه التاريخي والاتجاه البنيوي ؛ بدون أي تعسف على مادة نبحثنا لاختضاعها إلى صرامات المنظومات المرجعية لهذا الاتجاه أو ذاك. وبدون أية محاولة للتدخل سلبا وإيجابا في منطق جدلية إنتاج التراث (الكتابي والقتالي) العربي الاسلامي الخاص بفضاء معين، فضاء القرون الوسطى المغربية. هذا التدخل الذي نلمسه عند أصحاب القراءات التاريخية للتراث بالتصور المادي أو المثالي للتاريخ. والذي يعبر عن رغبة الباحث في تحقيق جزء من طموحاته بالتراث، بالماضي بعد عجزه عن تحقيقها بالحاضر.

لابد اذن من موضوعة العمل التومرتي. ولابد من ضبط الاشكالية العامة التي اهتم

بمعالجتها مشروع المهدي بن تومرت، وربطها بالاشكالية العامة لعموم المفكرين المسلمين القرسطويين. والبحث عن عناصرها ومكوناتها عبر النظر في أهداف ابن تومرت الفكرية والسياسية. مما لاشك فيه أن جميع المفكرين المسلمين القرسطويين انخرطوا ضمن اشكالية عامة استهدفت بناء حديث ناسوتي حول وبخصوص النصوص المقدسة (القرآن والسنة) قصد بناء عقيدة متينة قائمة على القطع. ودعم النص المقدس بالعقل الانساني الذي يتحدث فيه وحوله. ولقد استهدفت معالجة المفكرين المسلمين لهذه الاشكالية العمل على بلورة نظامين أو سلطتين : نظام الحبي سماوي ونظام أرضي اجتماعي، انطلاقا واحتكاما من وإلى النصوص المقدسة وتطورات المجتمعات الاسلامية.

وابن تومرت كأحد هؤلاء المفكرين، انخرط هو أيضا بطبيعة الحال ضمن هذه الاشكالية العامة. وضمن هذين الهدفين الاساسيين المتفرعين عنها وتمييزه عن الآخرين ظاهر في طريقته ومنهجه المختلف عن مناهجهم، والمتعلق بالسياق العام الذي تم فيه ودخله اقتراح وتحقيق مشروعه.

اختيارات دينية وسياسية تجاذبت العالم الاسلامي : اختيارات بالشرق الاسلامي مساندة ومساندة بالسلط المشرقية، مؤسسة لايدولوجيتها ومتكونة من عناصر أشعرية معتزلية وحنبلية.

بالإضافة الى اختيارات تركيبية لبعض اعلام الاسلام بالشرق : (الباقلائي، الغزالي، الخ). اختيارات أخرى بالغرب الاسلامي حاولت أن تختلف وأن تتناقض — لاعتبارات سياسية معينة — مع الاختيارات المشرقية ومع اختيارات أخرى لجزء آخر من العالم الاسلامي. ونقصد بها الاختيارات الباطنية والغنوصية للفاطميين بمصر الذي كان نقوذهم يثارحج بين القوة والضعف في بلاد المغرب.

ما يهمننا من هذه الاختيارات، اختيارات الغرب الاسلامي وموقف ابن تومرت منها وموقعه داخلها. إن القراءة المتفحصة لمكونات الثقافة المغربية الاندلسية، تكشف لنا على ما منحت هذه الثقافة من أسس نظرية - إيدولوجية للدول الاموية والمرابطية وحتى للخارجية القائمة على محاربة الدول المستندة على الاختيارات السابقة الذكر.

كل هذا حول للفكر المغربي الوسيط امكانية التميز والاختلاف عن الفكر

المشركي. في هذا الاطار يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر مجهودات ابن حزم الاندلسي وأبي يعقوب الوريحاني الاباضي (2). وابن تومرت اشترط في نفس الاتحاد لیتتم مشروع سابقه ولیمهد لمشایع لاحقيه كاین طقیل وابن رشد، ببناء الدین علی القطع وتحويل العقل أدواراً عدة في میادین العقيدة والفكر، غیر أنه وخلال بلورته للنظامین السالفین الذکری اختلف جوهرياً مع السلطة السياسية والدينية للدولة المرابطية. لقد رأى بأن النظامین المنتجین من طرف هذه الدولة لا ینسجمان وقناعاته بخصوص العقيدة والشریعة وخصوص علاقة العقل بالنقل، لذاتهم هذه السلطة بتركها المجال واسعاً لانتشار تصور تشبيهي لله في میدان العقيدة وقوانين انسانية أكثر منها الحیة وقد تتناقض معها في میدان الشریعة.

لذلك سارع المهدي بعد عودته من المشرق الى بذل جهود قصوى لاعادة بناء هذين النظامین طبقاً لتثله الخاص لكل من الدین والعقل، منتجا بذلك أطروحات عقديّة وتشريعية وسياسية. وعاملاً كذلك علی تحقیق هذه الأطروحات واقعياً. وذلك بانخراطه في صراع سياسي وقتالي ضد المرابطين. هذه الأطروحات المختلفة والمتنوعة هي التي يتعين علينا الآن درسها ضمن المهدف العام لهذا العمل المرسوم أعلاه. غیر أنه یحسن بنا أن نعرض ولو بإيجاز لمتن دأري ابن تومرت كمفكر لنتمكن من الحديث عن تاريخ الاهتمام به، ولتحقق كذلك علی مدى معالجتهم للفكر التومرتي ضمن الاشكالية العامة المبينة أعلاه، ومدى وعيهم بالاصالة المغربية لهذا الفكر.

II - قليلون جدا هم الباحثون الذين اهتموا بالمهدي كمفكر الى حد أن بقي بن تومرت المفكر وجهها شاحياً ومنسيا داخل الدراسات الاسلامية المغربية.

ففيما يتعلق بنشر أعمال ابن تومرت وجب الانتظار الى حدود سنة 1903 عندما قام «لوسياتي» بطبع مخطوط أعز ما يطلب بالجزائر كما قام «كولدزهيير» سنة 1905

(2) عالم من علماء الاباضية، الذين استطاعوا تكوين دولة ببلاد المغرب لعبت عاصمتها «تاهرت» أدواراً ثقافية كبرى حسب بعض الكتابات التاريخية حول هذه الدولة. وحسب بعض الكتابات الاباضية نفسها، عدا أن المؤرث الفكري للاباضية بالمغرب — ونظراً لعدة عوامل متصلة بصدّة هذا الفكر، وكذا بتفصّيات الباحثين للفكر العربي الاسلامي — ما فتى، في طي السنين والتميش. ولقد طبع كتاب «الوريحاني» سنة 1889 تحت عنوان الدليل لأهل العقول. قام علوش بترجمة فصلين من هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية بمجلة «هيسپس» تحت عنوان رسالتان في العقيدة الاباضية.

1. Allouche. «Deux épître de Théologie Abadite. Hesperis 1936.

بطبع كتاب الموطأ لابن تومرت (3) ونشر فصل من كتاب أعز ما يطلب بإحدى
 مجلات الألمانية (4) وقام ليقي بروفنسال بنشر بعض رسائل المهدي الى أتباعه والى
 المرابطين، بباريس سنة 1928 (5).

أما فيما يتعلق بدراسة الفكر التومرتي فلقد دشن كولد زهير هذه العملية سنة
 1903 عندما نشر دراسة رائدة حول ابن تومرت (6) في هذه الدراسة عرض وحلل
 كولد زهير مختلف أطروحات المهدي العقدية والتشريعية والسياسية، مبينا كيف واجه
 بواسطتها ابن تومرت الوضعية الفكرية والدينية لمغرب المرابطين وفقهااتهم. كما عمل
 على البحث عن أصول التومرتية في الفكر الاسلامي المشرقي (الاشاعرة، المعتزلة،
 الغزالي) من دون أدنى التفات للبحث عن هذه الاصول بالفكر الاسلامي المغربي.
 الملهم اذا استثنينا تأكيدده على علاقة اطروحات المهدي ببعض أطروحات ابن حزم
 الاندلسي. لكن ورغم بحث كولد زهير عن الاصول المشرقية للفكر التومرتي فإنه لم
 يهتمل التأكيد على أصالة ابن تومرت الكامنة في طريقته الشخصية لتمثل الفكر
 المشرقي، وكذا في بلورته لفكره الخاص.

بعد ذلك وجب الانتظار ثانية الى حدود سنة 1955 عندما قام «برونشفيك» بنشر
 مقاله قصيرة عن الفكر التشريعي لابن تومرت (7). حاول من خلالها عرض ومناقشة
 مختلف أطروحات المهدي لاصولية : (قرآن، سنة، اجماع، مشكلات الظن والعقل)،
 كما عمل على محاولة التقريب في هذا المجال بين مفكرنا وبين ظاهرية ابن حزم الفقهية.
 وبمقالة أخرى نشرها خلال سنة 1970 (8) راجع برونشفيك تحليلاته للفكر التشريعي عند

(3) مطبعة فضاء الشريعة. ولقد ذكر هذا الكتاب بعنوان محاذي الموطأ

(4) Z.D.M.G العدد 44 / 168 - 170

(5) ضمن كتاب أخبار المهدي ابن تومرت. ولقد قام Proverçal بروفنسال بنشر النص العربي لهذا الكتاب،
 وترجمته إلى اللغة الفرنسية.

(6) نشرت كمقدمة لطبعة كتاب أعز ما يطلب تحت عنوان «محمد ابن تومرت والعقيدة الإسلامية بشمال
 إفريقيا في القرن XI ولقد قام بترجمتها من الألمانية إلى الفرنسية «دي مومبين»

De Mombynes, Mohamed Ibn Tūmert et la théologie de l'Islam au nord Afrique au XI^e
 siècle.

(7) «مذهب المهدي بن تومرت» أرابيكا II 1955 (R) Brunschwig

«La doctrine du Mehdi Ibn Tūmert» Arabica II 1955

(8) «عود إلى مذهب المهدي بن تومرت» قوليا اوريوناليا II 1970

«Encore sur la doctrine du Mehdi Ibn Tūmert»

ابن تومرت محاولاً هذه المرة البحث كذلك عن أصول شافعية لهذا الفكر، أما «دومينيك ايرفوا» فلقد دشن اهتمامه بابن تومرت خلال سنة 1974 حيث نشر مقالة تحت عنوان (فكر ابن تومرت) (9) عرض وحلل بها مختلف أطروحات ابن تومرت وآرائه العقدية (التوحيد ومشكلة الصفات، والقضاء والقدر) والتشريعية (الأصول الثلاثة الأولى ومشكلات العقل والاجتهاد) والسياسة (المهادية والعصمة). ولقد تميزت هذه الدراسة عن غيرها باستخدام أساليب المنهج الاجتماعي لمقاربة نصوص وعمل ابن تومرت. كما تميزت كذلك بمحاولة البحث عن أصول مغربية صرفة للفكر التومرتي، بدلاً من محاولة البحث عن أصول مشرقية للتومرتية، التي لُحِثت الدراسات الأخرى في البحث عنها. هكذا حاول ايرفوا أن يترصد آثار الوسط البربري بالفكر التومرتي وكذا آثار الإباضية بهذا الفكر. ولقد قام نفس الباحث خلال سنة 1976. بنشر مقال آخر عن ابن تومرت (10) حاول من خلاله هذه المرة رصد مدى تأثير مفكرنا بفيلسوف قرطبة أبو الوليد بن رشد من خلال مقارنات بين المنطق المهيمن «بعقيدة» المهدي وبين أطروحات الكشف عن مناهج الأدلة، وفصل المقال. ولقد بين ايرفوا من خلال عمله هذا، كيف أن أجزاء مهمة من الفلسفة الرشدية كمنّت إلى حد ما بالقوة في فكر ابن تومرت. كما بين نقاط الخلاف بين المفكرين وفسر ذلك بتنوع واختلاف مخاطب كل من المهدي وأبي الوليد.

وخلال نفس السنة قام الباحث المغربي الموثق «عبد الله كنون» بالاهتمام من جديد بابن تومرت بعد ما كان قد خصص له خلال حديثه عن الدولة الموحدية بعض الورقات، وذلك بنشر «مرشدة» (11) ابن تومرت، فصل أساسي ومهم من كتاب أعز ما يطلب عاملاً على تقديم أطروحات هذا المبحث التومرتي، طبقاً لطريقته المعروفة عنه في البحث والعرض.

وخلال سنة 1978 اهتم «سعد غراب» بالفكر التومرتي فنشر بالكراسات

Folia-orientalia. II 1970

(9) بالمعهد الفرنسي لدمشق

Urvoy Dominique «La pensée d'ibn Tûmert» I.F.D

(10) الندوة العالمية المنظمة بمناسبة مرور 850 سنة على ميلاد ابن رشد 20-23 شتنبر 1976 نشرت تحت عنوان مجموع ابن رشد 1978

Multiple Averoses. Paris.

(11) ضمن كتاب نصوص مهدات إلى الدكتور ابراهيم مذكور. ط. الخبة المصرية العامة للكتاب 1976

التونسية(12) عملا قيما حول ابن تومرت تحت عنوان «مرشدة ابن تومرت وأثرها في التفكير المغربي». حاول سعد غراب بهذا العمل دراسة المرشدة، ورصد وتحليل مختلف آثارها الفكرية والدينية بدول المغرب، وخاصة بالمغرب الأوسط وأفريقية. عارضاً لأهم الشروح المغربية التي وضعت حول المرشدة، والتي عبرت عن مدى انتشار هذا الجزء من الفكر التومرتي بالمغرب، وعن مدى تأثيره في مختلف مناحي الحياة الفكرية والدينية بهذه المنطقة.

وقام الدكتور «عباس الجراري» سنة 1974(13) بالاهتمام بالفكر التومرتي، عارضاً ومناقشاً بعض أطروحاته العقدية، وخاصة السياسية. وراصد التحول الاساسي والخطير الذي خضع له جزء من الفكر السياسي التومرتي. (التفكير في التخلي عن فكرة عصمة الامام خلال فترة حكم يعقوب المنصور، والتخلي عنها لاجل إلغائها نهائياً خلال فترة حكم المأمون الموحيدي). كما رصد كذلك، جزءاً من تأثير الفكر التومرتي في الثقافة المغربية. ورغم اطلاعه الواسع على الثقافة المغربية الوسيطة فإن الجراري لم يهتم بالبحث عن أصالة فكرية مغربية لابن تومرت. عاملاً بذلك كمعظم دارسي هذا المفكر المغربي الاصيل على تجزيته وتقديمه كمختصرات تلفيقية للفكر المشرقي (الغزالي، الاشاعرة، المعتزلة). وتوج الاهتمام أخيراً بابن تومرت كمفكر، بكتاب المهدي بن تومرت. للدكتور «عبد المجيد التجار»(14). ففي هذا الكتاب، نقف على عرض شامل مختلف أطروحات وآراء ابن تومرت، كما نقف كذلك على تحليل مسهب ومناقشات مستفيضة مختلف أجزاء الفكر التومرتي المتضمنة بآثاره الكتابية. وذلك ضمن قراءة توثيقية (مهمة جداً) واطناوية استنساخية وتقويمية. غير أن هذه القراءة لم تستطع أن تضع اليد على الاشكالية العامة — المذكورة سلفاً — التي يندرج بإطارها ابن تومرت، ولا على الاصالاة المغربية للفكر التومرتي. وكما طبع هذه الدراسة هاجس التوثيق والشرح، مما يبيئها حالياً مكانة وصفة المرجع الاساسي للدراسات التومرتية، فلقد طبعها كذلك النظرة العربية المشرقية الضيقة للتاريخ وللثقافة العربية الاسلامية. وهكذا لم يسلم ابن تومرت من التفكيك مرة أخرى ليقدم كوعاء

(12) عدد 103 — 104 — 1978

(13) الماهل العدد 1974.1

(14) بيروت دار الغرب الاسلامي ط 1 1983

للفكر المشرقي السابق الذكر. اللهم اذا استثنينا بعض الفقرات من الكتاب يعترف فيها عبد المجيد النجار ببعض الاصاله لابن تومرت كمفكر.

ولقد قام أخيراً الدكتور «سالم يافوت» بقراءة معرفية لفكر المهدي ابن تومرت (15) رصدت ثوابت الفكر المعرفي في العقيدة والشرعية والسياسة، كما عَمِدَ من خلالها سالم يافوت الى الحديث عن استمرارية التومرتية وأسباب تحولاتها. ولقد تميزت هذه القراءة عن غيرها بعدم تقديمها لابن تومرت كمتلق للتعليم المشرقي الديني والسياسي، وبتقديمها لمفكرنا ضمن الاشكالية العامة لخطابه وعلاقة أجزاء هذا الخطاب العقدي، والتشريعية، والسياسية، وكذا المعرفية، بالمخاطب الخصم لابن تومرت، أي بالمرايطين وبظلموحاته السياسية.

III - الجهد الكلامي بأعز ما يطلب

علم الكلام جزء ومكون أساسي للفكر العربي الاسلامي. نشأ وتطور هذا العلم لاعتبارات دينية وسياسية معروفة. ويعبر هذا العلم — مؤسسا — عن الاشكالية العامة التي انخرط في إطارها المفكرون المسلمون انطلاقاً من مشاكل تصور الله تعالى، وكذا مشاكل تصور علاقة الانسان بالله. وابن تومرت، منحرفاً في نفس هذا التقليد الاسلامي، بلور بكتابه أعز ما يطلب أطروحات كلامية نقدية، مولياً للعقل أدواراً أساسية في هذه العملية. وذلك قصد العمل على تشييد نظام إلهي صاف ومتكاملاً ومتجانساً ومختلف تمام الاختلاف عن النظام الإلهي للمرايطين، تمثلهم لله بالعقيدة. ومن العناصر الأساسية لهذا النظام عند ابن تومرت :

أ) وجود وتوحيد الله :

هذه العملية أسست اهتم الأول للإسلام ديناً وحضارة، نقد بدع الاسلام جهداً كتابياً (رسائل كلامية، عقدية... الخ) وحريراً كذلك (فتح، قتال، اقتتال) من أجل التبشير بوجود ووحدانية الله، وضمان استمرارية هذا الاعتقاد.

ولقد خصص ابن تومرت أجزاء من كتابه لتناول هذه المسألة، كالأجزاء المعروفة «بالعقيدة والمرشدة» الأولى والثانية، «التسييحان»، «رسالة في توحيد الياري».

(15) الملحق الثقافي جريدة الاتحاد الاشتراكي عدد 78. ماي 1985

«فصل في أن الشريعة لا تثبت بالعقل»، كما يمكن أن نقرأ في «رسالته إلى الاتباع» دعوته وحته للموحدين على تعلم واكتساب التوحيد، وكذا على الاقتتال من أجل فرضه وضمان استمراريته.

من خلال هذه المتون، يمكن أن نضع اليد على جزء من إشكالية ابن تومرت وعلى جزء من همومه العقديّة مثل :

1) ضرورة تأسيس الدين الإسلامي حول وعلى مبدأ التوحيد : دعوة ابن تومرت إلى هذه الضرورة هي التي منحته المشروعية التاريخية والدينية والسياسية. وكذلك مشروعية تسمية أتباعه بالموحدين ودولتهم بدولة الموحدين. ولقد استهل ابن تومرت حديثه عن هذه الضرورة بتخصيص عدة صفحات من كتابه للكلام عن أهمية معنى وفضل التوحيد(16). فأهمية التوحيد عنده هي كونه «أساس الدين الذي بني عليه وأن فروعه تثبت بعد العلم بثبوته» ومعنى التوحيد «هو إثبات الواحد ونفي ما سواه من إله أو شريك أو ولي أو طاغوت» والتوحيد هو «دين الأولين من النبيين والمرسلين». ويتم التوحيد عن «علم لا عن جهل». وعن فضل التوحيد فإنه «يهدم ما كان قبله من الكفر والآثام» وللتوحيد كذلك فضل أساسي دينيا واجتماعيا، فهو «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة» كما أن التوحيد يعصم الموحّد من استباحة ماله ودمه». بعد ما عرف ابن تومرت التوحيد وفضله وأهميته دعى بالتالي إلى ضرورة معرفته واكتسابه من خلال نصه المشهور «واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم حتى تنفوا عن الخالق التشبيه والتشكيك، والنقائص والآفات والحدود، والجهات، ولا تجعلوه في مكان ولا في جهة فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات، فمن جعله في جهة أو مكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقا ومن جعله مخلوقا فهو كعابد وثن. فمن مات على هذا فهو مخلد في النار، ومن تعلم التوحيد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن مات على ذلك فهو من أهل الجنة»(17).

واضحة الأهمية القصوى التي أولاها ابن تومرت لمبدأ التوحيد من خلال دعوته إلى

(16) أعز ما يطلب 271 - 280

(17) رسالة إلى الاتباع. ضمن كتاب أخبار المهدي ص. 4 - 5

ضرورة معرفته واكتسابه. ولقد قدم المهدي آراءه حول هاتين الضرورتين متيحاً للشرع (النصوص المقدسة) وللعقل أدواراً أساسية لأقامة الدليل على دعواه. منخرطاً بذلك في إطار الاشكالية العامة للفكر العربي الاسلامي فيما يتعلق ببناء الشرع على القطع وتدعيم النقل بالعقل، والعقل بالنقل. فلماذا قام ابن تومرت بهذا العمل؟ وكيف تم له ذلك؟.

سنحاول الجواب عن هذا السؤال من خلال ترصد دور العقل والنقل معا في تشييد ابن تومرت لتصوره لوجود ووحدانية الله ومن خلال ترصد المخاطب المعني بالأمر من خلال بناء هذا التصور كذلك.

12 توحيد الله ودليل ظاهرة الخلق :

لقد استهل ابن تومرت «عقيدته» بتوضيح طبيعة منبع الأدلة الأساسية على وجود ووحدانية الله «وبضرورة العقل يعلم توحيد سبحانه» (18) لينتقل بعد ذلك الى تفسير هذه الضرورة الى أن يقول : «والضرورة مستقلة في نفوس العقلاء بأجمعهم استقر في نفوسهم بأن الفعل لا بد له من فاعل وأن الفاعل ليس في وجوده شك» (19) فالخلق، الكون يستلزم الوجود الاول والمسبق للخالق. ومن الخلق الانسان المدعو الى معرفة وتعلم وجود وتوحيد الله. انطلاقاً أولاً من تأمله لحدوث نفسه ولحدوث الكون «وحدوث نفسه يعلم الانسان وجود خالقه لعلمه أنه موجود بعد ما لم يكن» «والسماوات والارض وجميع المخلوقات يعلم بها وجود الباري سبحانه» (20) بعدما أثبت ابن تومرت بأن الانسان يعلم ضرورة وجود الله. خصص فصلين من العقيدة لبلورة فكرة أخرى تتعلق بالتوحيد، وتنتج ضرورة من الفكرة الاولى، الله هو الخالق الوحيد لكل الموجودات. والموجودات قسمها ابن تومرت الى ثلاثة أقسام : الانسان والحيوان والجماد، متحدية أوقها : الانسان، بكونه لا ولن يستطيع أبداً «أن يرد أصبعاً واحداً بعد زواله» (21) ليبقى الله وحده الوحيد القادر على خلق ما يريد. لقد قابل ابن تومرت محدودية وعجز المخلوقات فيما يتعلق بالخلق، بمقدرة وإرادة الله المطلقتين ليقم

(18) أعز 277

(19) العقيدة أعز 230

(20) نفسه 230 - 231

(21) نفسه 211

الدليل على دعواه متمشياً مع الآية الكريمة «الله خلق كل شيء وهو على كل شيء وكيل».

وفي فصل آخر من العقيدة، ومن أجل صياغة نفس الدليل، أي نفي الشريك عن الله طرح ابن تومرت فرضية وجود غير مع الله ليفنّدها قائلاً : «إذ لو كان معه غيره لوجب تقيده بحدود المحدثان لوجوب كون غير المستقل منفصلاً، والخالق سبحانه ليس بمتصل ولا منفصل، ولو اتصف بالاتصال والانفصال لوجب كونه مخلوقاً وكون الخالق مخلوقاً مستحيل الاستحالة انقلاب الحقائق فعلم بهذا أنه واحد ليس معه ثان» (22).

لقد استنجد ابن تومرت «باستحالة انقلاب الحقائق» ليتخلص من الدور الذي كان من الضروري أن يقع فيه انطلاقاً من فرضيته. وكذا من النتائج السلبية غير المرغوب فيها من طرفه ومن طرف جميع المتكلمين ألا وهي القول بضرورة وجود خالق آخر للخالق المبرهن مسبقاً على وجوده.

الحقائق غير المنقلبة لاتعني فقط عند المهدي وجميع المتكلمين، استحالة نقض الحقائق المتوصل إليها خلال البرهة الأولى من زمن التحليل والبرهان. وإنما تعني أساساً الحقائق المُعلّمة من طرف النصوص المقدسة، التي يجمع عليها جميع المسلمين، والتي تستدعي لمواجهة أية طريقة تفكير أخرى يمكن أن يتوصل بها إلى نتائج غير مرغوب فيها من طرف الكلام الاسلامي.

ونجد كذلك نفس الدليل، أي دليل نفي الشريك عن الله يتعضد داخل عقيدة المهدي من خلال حديثه التقابلي عن الخالق والمخلوق. هذا الحديث الذي استهدف تأسيس مخالفة أبدية بين الله وبين موجوداته، بين من انفرد بوحدايته «وعزته وجلاله واستحالة النقائص عليه» وبين من تميز بالتعدد والنقائص وبالاقتدار إلى غيره.

3) نفي المشبه بين الخالق والمخلوقات :

جهد ابن تومرت في نفي الشبه بين الله وموجوداته، ليتمكن من تشييد دليل آخر على وجود ووحداية الله. ففي فصل من فصول عقيدته، استدعى المهدي الاستدلال العقلي ليدعم قوله تبارك «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون». وذلك انطلاقاً من

النتائج التي توصل اليها بالفصول الأخرى بخصوص افتقار المخلوق الى الخالق، وعجز المخلوقات عن خلق أي شيء. ليخلص الى أن «الخالق سبحانه يستحيل أن يكون من جنس المخلوقات، إذ لو كان من جنسها لعجز كعجزها» (23). هذا الاستدلال انطلق كذلك من المفارقة التي أقامها ابن تومرت بين ماهو ضروري لله، وما هو ضروري للمخلوق. من خلال حديث تصويري آخر عن الخالق وعن المخلوقات، يشدد على ما يميز الخالق من قدرة مطلقة، والمخلوق من عجز ومن افتقار أبدي لخالقه.

لنلاحظ اذا مدى استدعاء ابن تومرت للاستدلال العقلي لدعم النقل فيما يتعلق بوجود وتوحيد الله. ومدى استدعائه للنصوص المقدسة كذلك في هذا الاطار. ولقد استند هذا الاستدلال العقلي الذي كثف ابن تومرت من استخدامه بعقيدته، الى مبادئ العقل الأولى، وخاصة مبدأي قانون عدم التناقض، وقانون الثالث المرفوع. ولنلاحظ كذلك مدى حضور هذا الاستدلال العقلي، وكذا وظيفة الكلام الدفاعية داخل حديث المهدي عن معنى وفضل وضرورة اكتساب التوحيد خلال دفاعه عن فهم خاص للتوحيد توجه به الى مخاطب معين ومحدد. ألا وهو الجمهور المغربي المرابطي الذي يهمل ضرورة فهم واكتساب التوحيد الحقيقي والصافي. ولنلاحظ كذلك استمرارية حضور الاستدلال العقلي مع الغياب النسبي لوظيفة الكلام الدفاعية داخل الأدلة التي بلورها ابن تومرت على وجود وتوحيد الله. مما يدفع الى الاعتقاد بأن ابن تومرت بلور عقيدته أساسا لاتباعه خلال استقراره «بتينمل». فما كان يدفعه الى وضع هذه الأدلة على وجود وتوحيد الله هو رغبته الأكيدة في تأسيس عقيدة للموحدين معتمدا وداعيا الى اعتماد طريقي العلم الاساسيين : السمع والعقل. لينتصر للعقل في هذا الميدان، مبينا ومحددا أدواره ومجالاته بالعقيدة. وتكثيف استدعاء الاستدلال العقلي بعقيدة المهدي يدفع الى الاعتقاد بكونه وجه هذه العقيدة إلى خاصة الموحدين. علما بأنه اهتم بتأليف ما سماه بالمرشدة الأولى والثانية. والتسبيحانوهي فصول تعيد إنتاج العقيدة بأسلوب متسلسل وخلو من أي استدلال عقلي — للفئات الأخرى من المجتمع الموحد المدعوة إلى استيعاب وحفظ وترديد تعاليم هذه الفصول المبسطة لتعاليم العقيدة.

ب - التوحيد ومشكلة التشابه

بعدما تعرضنا لجزء من تصور ابن تومرت من نظامه الالهي الذي اقترحه للحياة الدينية والعلمية للمغرب القرسطوي. سنحاول الآن التعرض للجزء الثاني والآخر من هذا النظام، وهو الجزء المتعلق بالصفات وبالرؤيا وبالقضاء والقدر.

1) مشكلة الصفات : مبكرا في التاريخ الروحي والحضاري للإسلام طرحت هذه المشاكل الثلاث انطلاقا من اعتبارات نصية اجتماعية كذلك. ولقد أجمع أغلب مؤرخي الدولة الموحدية على إيجابية الأثر التومرتي في الحياة الروحية للمغرب. ولقد نتج هذا الأثر عن الجهد الكلامي للمهدي المعتمد للتأويل العقلي وانجازي للمتشابه من القرآن. وبالفعل لقد عمد ابن تومرت إلى إدانة طرق تعامل فقهاء المرابطين مع هذا القسم من النصوص المقدسة، وإلى تخصيص أدوار للعقل في عملية الدفاع عن توحيد الله خلال معالجته لمشكلة الصفات. «أما التوحيد فإن طريقه العقل وكذلك التنزيه ولا طريق للتواتر فيهما» (24). وإذا تتبعنا حديث ابن تومرت عن الصفات بكتابه فإننا نجده يعبر عنها مستخدما في غالب الأحيان اسم الفاعل «قادر على ما يشاء»، «فعال لما يريد، حي قيوم» (25) كما نجده أحيانا يقول. «...الخالق حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا من غير توهم ولا تكييف» (26)، كما نجده يتحدث عن الله مستعملا الصفات الالهية هذه المرة بشكل انتساني ومنفصل عن ذات الله «وله العزة والكمال وله العلم والاختيار» (27). «جميع الخلائق مقهورون بقدرته» (28). وفي أحيان أخرى نجد المهدي يستعيد حديث الاسماء الحسنی وحديث الرسول عن الله، ليثبت توقيفية هذين الحديثين، ولينفي إمكانية القياس والاصطلاح والاشتقاق في أسماء الله تعالى. كما نجده خلال حديثه عن الصفات لا يتعب من التنبيه إلى ضرورة تمثل الخطاب الالهي حولها كما ورد بالقرآن الكريم من دون أي تشبيه ولا تكييف. ففكرة التوحيد والتنزيه ما فتئت تسيطر على عقل ابن تومرت ولقد دفعته دفعا إلى استخدام اسم

(24) أخر 47

(25) العقيدة 235

(26) نفسه

(27) توحيد الباري أخر 242

(28) المرشدة أخر 241

الفاعل تارة للتعبير عن الصفات الالهية، واستخدام الصفات عينها تارة أخرى لنفس الهدف، مفضلاً استخدام الاسماء الحسنى لضمان استمرارية قيام الحديث الناسوتي عن الله. وفقاً لحديث الله عن نفسه. هكذا تمكن المهدي من التخلص في نفس الوقت من أي شكل من أشكال التعطيل، دون أن يسقط في أي شكل من أشكال إثبات الصفات الالهية، حسب طرق وتصورات أهل المغرب التي غلب عليها التشبيه والتجسيم. لقد دعا المهدي إلى الايمان باتصاف الله بمجموعة من الصفات، كالكمال مثلاً من دون أي خصوص في الكيفية التي يقع بها ذلك الاتصاف متخلصاً في نفس الوقت من التجسيم والتعطيل (29).

هذا هو ما يدفع إلى الاعتقاد بأن خطاب المهدي حول الصفات إن كان قد توجه إلى أتباعه الموحدين، فلقد توجه أساساً ضد خصمه السياسي العقدي، فقهاء المرابطين. الذين كانوا فيما يتعلق بالمتشابه من القرآن «يبتغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» بينما كان عليهم أن «وما ورد عن المتشابهات التي توهم التشبيه والتكليف (...)» يجب الايمان بها كما جاءت مع نفي التشبيه والتكليف (30) لذلك وجد بن تومرت كامل المشروع الدينية لدعوة الموحدين إلى ترجمة مشروعه العقدي سياسياً وفتلياً، وذلك بمحاربة فقهاء وأمرأ المرابطين المسؤولين عن نشر تصور لله قوامه التشبيه والتجسيم. والذي يؤدي انطلاقاً من طريق إثباتهم للصفات الالهية إلى نوع من التعدد في الله، وبالتالي إلى نوع من الشرك بالله. لذلك دعا الموحدين إلى أن يجتهدوا في تعلم التوحيد الصحيح. في نفس الوقت الذي عليهم كذلك «أن يجتهدوا في جهاد الكفرة (...) فجهادهم أفضل من جهاد الروم (...)» لأنهم جسموا الخالق سبحانه وأنكروا التوحيد، وعاندوا الحق (31).

(2) مشكلة الرؤية : عالج متكلمو الاسلام هذه المسألة كما تحدثت عنها بعض الآيات

(29) لقد أساء بن تيمية فهم عقيدة المهدي فيما يتعلق بالصفات، مما دفعه إلى أن يقرب ابن تومرت من المعطلة ومن الفلاسفة في هذا الصدد «فتوى بن تيمية حول ابن تومرت» نشرها «هيتري لأورست» سنة 1960 بمجلة B.I.F.A.O 157 - 184 ويبدو لنا بأن المهدي لم يقترب في هذا الاطار من الاشاعة ولا من المعتزلة، بل من الخوارج المغاربة : الاباضية. «رسالتان في العقيدة الاباضية» ص. 60 - 70. ومن ابن حزم الاندلسي الفصل ج 122 ط القاهرة 1964.

(30) العقيدة 243

(31) رسالة الاتباع، أخبار المهدي، 9

القرآنية ليتخذوا في النهاية موقفين متباينين منها : نفي إمكانية وقوع هذه الرؤية للمحافظة على معقولية التوحيد والتنزيه. والحدود الفاصلة بين الخالق والمخلوق.

إثبات إمكانية تحقق هذه الرؤية للمحافظة على معقولية الوعد والوعيد. فرؤية الله وعد سيحقق لعباده الصالحين. أما ابن تومرت فإنه لا يمكن من الوهلة الأولى إلا أن نتفاجأ لما نقرأ بعقيدته. «وما ورد في الشرع من الرؤية فيجب التصديق به» (32) وكذا بمرشدته «ومرينا وجهه على قدر رتبنا في العلوم» (33) هل يتناقض موقف ابن تومرت هذا «إثبات الرؤية» مع جهده فيما يتعلق بالتوحيد والتنزيه ؟ وهل يتناقض كذلك وجهده فيما يتعلق بالحاحه الشديد على الحدود الفاصلة بصفة مطلقة بين الخالق والمخلوق ؟ كلا. إن موقفه ينسجم تمام الانسجام مع حاجسه الاساسي : الاقرار بما جاء به الشرع، «وما ورد من الشرع في الرؤية فيجب التصديق به» ودعمه بالعقل، من خلال قراءة مجازية للنصوص المقدسة التي تتحدث عن الرؤية «لاندركه الابصار بمعنى النهاية والاحاطة والاتصال والانفصال لاستحالة اتصافه بحدوث المحدثات» (34).

إن بحث ابن تومرت في هذه المشكلة منسجم كذلك مع بحثه السالف الذكر في الصفات، ومع الاهداف السياسية لعقيدته، فلما يقول : يرى [الله] من غير تشبيه ولا تكييف، فإنه يدين مباشرة تصور المرابطين لله القائم والمنطلق من التأويل الحرفي بجموع عبارات النصوص المقدسة والذي يؤدي لاحتمال في نظر ابن تومرت إلى التشبيه والتجسيم.

وموقف المهدي بخصوص الرؤية منسجم مع الاصول المغربية لفكره كما يمكن أن يعتبر تصحيحا للخلل المنهجي الذي وقع فيه الاباضية خلال معالجتهم لنفس المسألة والمتمثل في تخليهم عن التأويل العقلي والمجازي لمفردات القرآن التي عرضت لها. مما أدى بهم إلى نفي إمكانية وقوع هذه الرؤية. فاجتهاد الاباضية في هذا الشأن لم يكن اجتهادا عقليا، بقدر ما كان اجتهادا لغويا فيلولوجيا. لقد رجعوا إلى كلام العرب ليجدوا مفردة «ناظرة تنيد أحيانا منتظرة وليجدوا «لن» في الآية القائلة : «ولما جاء

(32) العقيدة 238

(33) المرشدة. النص المنشور من طرف «كولنجر»، ويبدو بأن ابن تيمية لم يطلع على هذا النص خلال بلورته

لفتوته ضد ابن تومرت. فتوى 161

(34) العقيدة 238

موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربي أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني» (35) تفيد نفيا قاطعا ولا تترك أي أمل — لالموسى ولا لغيره. لا في عالم الشهادة ولا في أي عالم من عوالم الخيلة الاسلامية — لتحقيق إمكانية رؤية الله تعالى. هذه الرؤية التي أثبت ابن تومرت انطلاقا من صرامته المتهجبة، وصرامة أهدافه الدينية والسياسية : تقديم العقيدة كما وردت بالنصوص المقدسة وتدعيم هذا التقديم عقليا.

13 مشكلة القضاء والقدر : أو مشكلة تصور علاقة المخلوق بالخالق، مشكلة تحديد مسؤوليتهما للمحافظة على قدرة الله المطلقة، ومعقولية الثواب والعقاب الالهيين. ولقد كان لهذه المشكلة بالكلام الاسلامي حظ وافر من الارتباط المباشر بواقع فئات المجتمعات الاسلامية، ومواقفها وطموحاتها الدينية — السياسية. ونحث ابن تومرت في هذه المشكلة منسجم مع بحثه في التوحيد، فلتوحيد علاقة وطيدة بقدرة الله المطلقة والامحدودة في عموم الخلق. لذلك انصرف المهدي إلى إثبات هذه القدرة المطلقة بكتابات العقيدة، بحيث يمكن أن نقرأ في عقيدته قوله : «فكل ما سبق به قضاء وقدره واجب لاحالة ظهوره وجميع المخلوقات صادرة عن قضائه وقدره» (36) كما نجد يردد نفس الامر بمرشدته «جميع الخلائق مقهورون بقدرته لا تتحرك ذرة إلا بإذنه» (37).

يبدو أن المهدي خلال إثباته للقضاء، توخى تعضيدا آخر لكلامه في التوحيد وعلاقته بقدرة الله المطلقة في الخلق، من عالم وإنسان. هذه القدرة التي لم يرد المهدي تقييدها بتمتع الانسان بقدرة ما في خلق أفعاله. إلى أي حد كان المهدي جبريا في موقفه هذا من القضاء والقدر ؟ وما علاقة هذا الموقف بمشكلة معقولية الثواب والعقاب ؟ لا نجد «بالعقيدة» ولا «بالمُرشدة» الاولى والثانية أي حديث عن هذه المشكلة مما أدى بإبرقوا إلى أن يعتبر المهدي جبريا رغم عدم تصريحه بذلك (38) مع التأكيد على أن عقلانية ابن تومرت هي التي أدت به إلى اتخاذ هذا الموقف، مخالفا

(35) الاعراف 142

(36) العقيدة 235

(37) المرشدة 236

(38) «فكر ابن تومرت» سبقت الإشارة إليه ص. 27

بذلك الاباضيين الذين قالوا بالكسب. غير أنه يمكننا من خلال ترصدنا للمشكلة عند ابن تومرت بمجموع كتابه وليس فقط «بالعقيدة» كما فعل إيرفوا، أن نتلمس كيف هي حاضرة مشكلة معقولية الثواب والعقاب عند المهدي الذي حول للانسان استطاعة في الاختيار. وفي القيام بأفعاله في إطار التكليف والقدر الالهي الشاملين للعالم والانسان. وفي ذلك يقول المهدي «إن الله إذا أثبت التكليف لا يمكن جحده ولادفعه» (39). كمال [الانسان] بالعلم والاستطاعة (40) «فمن أعرض حينئذ فله العقاب ومن أجاب وامثل فله الثواب» (41)

هكذا حاول المهدي التأكيد على التوحيد والتنزيه من خلال إثباته — ومرة أخرى — للقدرة المطلقة لله في الخلق، التي لا يمكن أن تنقيد بأية قدرة للانسان. كما حاول — وفي نفس الوقت — إثبات استطاعة الانسان على أن يعرض أو يستجيب لتعاليم الله، أي أن يختار ضمن القدر الالهي الشامل. وذلك محاولة منه لانقاد معقولية الوعد والوعيد الالهيين. ضمان مزيد من الانسجام مع معارضته الدينية لمخاطبه وخصمه العقدي والسياسي. وقد يكون لاجتهاده هذا بخصوص القضاء والقدر، علاقة وطيدة باجتهاد الحوار المعاري الذين حولوا استطاعة للانسان في إمكانية جهده في كسب الافعال التي تبقى دائما وأبدا من خلق الله. وذلك لكي لا يضعوا أي قوة إنسانية حائلة إزاء قدرة الله المطلقة، وليحافظوا في نفس الوقت على معقولية الثواب والعقاب الآخرين (42).

IV - الجهد التشريعي بأعز ما يطلب :

القسم الثاني من الاشكالية العامة التي استقطبت اهتمام ابن تومرت والتي عبر من خلالها على جزء من مشروعه الديني والسياسي، متعلق بالفقه وبمشكلات تأصيل. لماذا اهتم المهدي بالفقه؟ وكيف صاغ جهده النظري التأصيلي والتطبيقي في هذا الميدان؟ لقد اهتم المهدي بالفقه اهتماما بالغا. فالجزء الاكبر من كتابه أعز ما يطلب عبارة عن مباحث فقهية تطبيقية متنوعة، ومباحث فقهية تأصيلية وتنظيرية. واهتمام المهدي

(39) أعز 255

(40) أعز 211

(41) أعز 226

(42) رسالتان 076

بهذه المباحث، جاء ليعبر عن جزء من ثورته الثقافية والدينية العامة. فخلال اهتمامه ببلورة نظام سماوي جديد بالمغرب، بلور كذلك نظاما أرضيا منسجما مع تصوراته لله ولعلاقة الخلق بالخالق. مواجهها بذلك النظام الأرضي المرابطي الذي عبر عنه — منتجا — فقه المرابطين البعيد جد البعد — حسب ابن تومرت — عن إرادة السماء، عن إرادة الله المعبر عنها بالنصوص المقدسة. لقد تميز فقهاء المرابطين بولعهم بعلم الفروع، أي بتقرير الفروع الفقهية وتفصيلها، وبغزوفهم عن دراسة أصول الفقه الضرورية والانطلاق منها فقط، لتنظيم الحياة الروحية والاجتماعية للمغاربة. ولا غرو في ذلك، فقبيل وخلال ممارسة المرابطين للسلطة بالمغرب الإسلامي الوسيط، تخلفت وتهمشت دراسة القرآن والحديث (43). كعلوم من جراء تهميشها وعدم استدعائها لاستنباط الأحكام وتنظيم الحياة، مما أدى إلى سيادة شريعة ناسوتية أكثر منها إلهية، وفي بعض الأحيان حسب ما بين ذلك المهدي بكتابه، متناقضة مع الإلهية. ومما أدى كذلك بابن تومرت إلى أن يربط جدليا بين تهميش القرآن والحديث داخل مجرى الثقافة والممارسة الفقهية للدولة المرابطية، وبين ما دب داخل الحياة المغربية من فساد ديني واجتماعي.

لهذا الأمر وذاك ولمواجهة هذه الوضعية بلور المهدي فقها جديدا اعتمد بالأساس، الانطلاق من أصوله الطبيعية لبناء الشرع على القطع النصي، ولتدعيم هذا البناء عقليا. ما دام الشرع لا يناقض العقل وإن لم يكن «للعقل في الشرع مجال».

أ - التأصيل عند ابن تومرت

انسجاما مع أهم النتائج التي توصل إليها المهدي بعقيدته، من كون الله هو الخالق الوحيد لكل شيء. فالشريعة كذلك من خلق الله. الله تعالى هو المشرع

(43) رغم محاولات العديدة للانتصار للحديث كمحاولة «بقي بن مخلد» المشهورة بالاندلس. وهناك شهادات تاريخية، ودراسية — تنظيمية عديدة حول خلف الأصول :
- المراكشي المعجب في تجميع أخبار المغرب ص : 236.
ط. القاهرة 1965

إبراهيم. د — عالم غنماء الاندلس من القرن V / XI إلى القرن VII / XIII دراسة اجتماعية

Urvoy. D. Le monde des Ulémas Audaous du
V / XIII^e au VII / XIII^e siècle. Etude sociologique

Droz 1978

الوحيد، وخطابه هو المصدر الوحيد لاستنباط الاحكام، لذلك عمد ابن تومرت إلى إخراج العقل، وما يتصل به من ظن ورأي من ميدان تأصيل الشريعة. «فالله سبحانه مالك الاشياء يفعل بملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء، فليس للعقول تحكم ولا مدخل فيما حكم به المولى» (144). بالاضافة إلى هذا الدعم النقلي الذي ساقه ابن تومرت لابطال أصلية العقل، ساق لنفس الغرض كذلك أدلة أخرى غير نقلية. فالعقل في حد ذاته ليس فيه إلا الامكان والتجويز وضروراته ثلاث : «واجب، وجائز، ومستحيل». لذا فلا يمكن استنباط أحكام الشريعة وتنظيم حياة الناس انطلاقاً من طبيعة وضرورات العقل اللتان لا تؤديان إلى اليقين التام الضروري لهذه العملية، مما يترك المجال واسعاً لتعدد واختلاف الفقه، ولتدخل الانسان المخلوق في شريعة خالقه. «فليس للعقل في الشرع مجال» (145).

هكذا استطاع المهدي إبطال أصلية العقل، كما استطاع أن يبطل بالتالي وبكل سهولة أصلية الظن والرأي. وفي هذا الاطار أسعفته النصوص المقدسة القادرة في الظن مثل : «إن يتبعون ألا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً». والمقابلة للظن بالعلم واليقين. كما حاول أن ينتج بعض الأدلة الغير نقلية لتعضيد موقفه السلبي من الظن والرأي معا، حيث نجده في الصفحات الأولى من كتابه يقدح في الظن ويساويه بالشك والجهل مقابل إياه بالعلم واليقين ليبطل أصليته. وفي نفس الاتجاه كذلك أبطل المهدي أصلية القياس لما يتضمن من رأي، ولما يؤدي إليه من تدخل للمخلوق في شرائع الخالق. وغني عن البيان أن إخراج ابن تومرت للعقل والقياس كأصليين من ميدان الشرع منسجم تمام الانسجام — بل مؤسس كذلك — مع ثورته الدينية والسياسية ضد فقهاء المرابطين الذين، وانطلاقاً من اهتمامهم بفروع الفقه فقط، كانوا يرفعون الظن والرأي إلى مرتبة الاصل.

ب - أصول الأحكام الشرعية عند ابن تومرت

بعدما أبطل المهدي أصلية العقل والظن والرأي والقياس، حدد بعد ذلك أفراد

(144) أع 164

(145) أع 48

الأصل الشرعي في ثلاثة : القرآن، السنة، والاجماع (46)، ليؤكد مرة أخرى على الطابع الإلهي — والإلهي فقط — للحكم الشرعي. وليحدد كذلك منهج وطرق استنباط الحكم الشرعي من أصله الإلهي. بحيث كان عليه أن يخول للعقل وللظن والقياس أدواراً في صياغة الأحكام، لتقنين الحياة الروحية والاجتماعية للمغرب الوسيط.

(1) وإذا كان القرآن — لأسباب عديدة — سرعان ما جمعه المسلمون بين دفتي كتاب واحد مؤسسين بذلك في نفس الوقت متنه اللغوي والتعبدي النهائي، لا يثير أية مشكلة عند استدعائه لتأصيل الأحكام، فإن السنة، الحديث (47)، وكذلك الاجماع أثارا تاريخياً عدة مشاكل في هذا الصدد. من بين هذه المشاكل بخصوص السنة ما هو معروف في تصنيف المسلمين للحديث الى صنفين :

الاحاديث المتواترة التي نقلت عبر سلسلة من الرواة متصلة ومحكمة. والاحاديث الآحاد التي نقلت عبر راوٍ واحد أو مجموعة صغيرة من الرواة.

فبالنسبة للأحاديث الأولى فإنها عند المهدي تُفيد العلم القطعي فيما يتصل بالشرعية. وبالتالي فهي لا تطرح أية مشكلة في عملية استدعائها لتأسيس الأحكام الشرعية.

أما الأحاديث الثانية، فلقد اعتبرها المهدي ظنية لاتفيد العلم القطعي وبالتالي فلا يمكن أن تعتبر أصلاً للأحكام.

إلا أن هذه الأحاديث كانت خلال التاريخ التشريعي للإسلام، من وراء عدة أحكام شرعية. فالفقهاء ما كانوا ليستطيعوا تقنين مجتمعاتهم دينياً بدون العمل بالأحكام المستفادة من هذا الصنف من الحديث، والمهدي كفقيه وكأصولي استشعر هو كذلك هذه المشكلة وهذه الضرورة. لذلك سارع بكتابه إلى إثبات أن الخبر الواحد رغم أنه لايفيد العلم القطعي، فإنه يوجب العمل. ولقد برر ذلك انطلاقاً من القرآن «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (48). ومن السنة المتواترة «بلغوا عني ولو آية». ومن الاجماع، فيما كان عليه الصحابة من العمل بخبر الواحد. كما

(46) أعز 18

(47) يعد نقده وتحقيقه، وتسجيله بالصحاح

(48) الحشر 7

عمد المهدي بعد ذلك إلى تبيان طبيعة وشروط القيام بهذا العمل، أي شروط تحويل أخبار الآحاد أدواراً فيما يتعلق بالاحكام. بحيث تصبح هذه الاخبار أمارات للاحكام يثبت عندها الحكم، ولا يثبت بها الحكم. متى تحققت عدالة راويها أو روايتها. هذه العدالة المتحققة، تستدعى في هذا الصدد لتقوية جانب اليقين بخبر الواحد وإضعاف جانب الظن فيه (49).

واضح إذن أن المهدي لم يخول لأخبار الآحاد إلا أدواراً نسبية ضمن شروط معينة في تأسيس الاحكام، ليوفق بين ضرورات العمل بأحكام أخبار الآحاد التي عبر عنها قائلاً :

«فلما لم يكن بد من الاخذ (...) ولم يتمكن التواتر في كل الاحكام أمرنا بقبول أخبار الآحاد ووجب العمل عندها» (50) وبين هاجسه في تأسيس فقه انطلاقاً من أصوله الالهية القطعية فقط.

2) الاجماع : لقد اعتبر المسلمون الاجماع أصلاً من أصول الفقه. ليتمكنوا من مواجهة بعض المشكلات التي تعرض خلال تطور المجتمعات، والتي لم تتحدث عنها النصوص المقدسة. ولقد عمل على تثبيت أصلية الاجماع لمواجهة أخطار الرأي والقياس بالفقه الاسلامي. وما يمكن أن تؤدي إليه من اختلاف في الشريعة واختلاف في الامة.

ابن تومرت انخرط في نفس هذا التقليد ليثبت أصلية الاجماع، غير أنه لم يخصص أي فصل من فصول فقهه التنظيري من كتابه للحديث عن الاجماع. لذلك يتحتم علينا في هذا الصدد الرجوع الى فصول الفقه التطبيقي من كتاب أعز ما يطلب. «ككتاب تحريم الخمر، والكلام في الصلاة، وكتاب الطهارة، الخ...»... لتتمكن من تلمس مفهوم ودور الاجماع عنده. نجد المهدي يستخدم الاجماع كأصل من أصول الاحكام بجانب استخدامه للأصليين الآخرين ليستنبط بعض الاحكام المتعلقة بالطهارة (51)، والمتعلقة بتكفير تارك الصلاة. ولقد أثبت المهدي أصلية الاجماع اعتباراً وانضباطاً كذلك للتعليم المقدس الذي يمجّد الاجماع ويدعو اليه مثل الحديث القائل

(49) أعز 23 - 27

(50) أعز 53

(51) أعز 85

: «ما اجتمعت أمتي على ضلال» ومثل الآية القائلة : «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين (... ...) ونصله جهنم وساءت مصيرا.» (53)

هكذا دعم ابن تومرت إثباته لأصلية الاجماع لاعتبارات دينية ودنيوية. والاجماع عنده محدد بإجماع أهل المدينة المنورة. اعتبارا من كون الصحابة حسب التعليم الديني، هم أفضل قادة الأمة الإسلامية. بالإضافة إلى كونهم كانوا أقرب الناس إلى فضاء المدينة المنورة، وأقدرهم على فهم وتمثل الوحي والسنة. وغني عن البيان أن تحديده للاجماع بهذا الشكل يتضمن حاجته في التأكيد على الطابع الإلهي والالهي فقط للحكم الشرعي، والتأكيد كذلك على مواجهة أية محاولة لتأصيل الاحكام الشرعية انطلاقا من الانسان.

13 حول القياس : القياس جعله بعض الفقهاء أصلا من أصول الفقه لبواجهوا به، إلى حد ما، دور الرأي في الفقه. وبالتالي في اختلاف الفقه وتعددده، واختلاف الأمة وانقسامها. ولتتمكنا كذلك — وأساسا — من رفع حكم مستنبط من أصل ما، إلى درجة الأصل قصد استنباط حكم آخر منه عبر البحث عن علة مشتركة بين الحكمين. وبمعنى آخر، تأسيس أحكام شرعية لا حوال تعرض خلال تطور المجتمعات لم يرد بشأنها أي نص مقدس، عبر قياسها على أحوال أخرى عرفت بالسابق وتحدثت عنها النصوص المقدسة. وذلك لاجتماع الاحوال في علة مشتركة بينهما. القياس هو وسيلة لتحطيط النصوص المقدسة، وجعلها تحكم على حالة لم تتحدث عنها سابقا انطلاقا من تذكرها لاحكام وضعتها بخصوص أحوال اجتماعية أخرى تجمعها مع الحالة الأولى علة مشتركة.

من الطبيعي أن يرفض ابن تومرت هذا القياس، لاعتباره أن الاحكام الشرعية أحكام إلهية غير خاضعة بالضرورة إلى علل ما. ولاستحالة انقلاب الحقائق عنده، أي انقلاب الفرع أصلا. بالإضافة إلى ذلك وكما سبقنا الإشارة إليه فإن ابن تومرت ينخرط مؤسسا في إطار الفكر المغربي، الذي تميز عن الفكر المشرقي برفضه لقياس

(52) أعز 103

(53) النساء 115

الغائب على الشاهد في جميع المجالات. لذلك جهد المهدي في إبطال أصلية هذا القياس (54).

ولقد تميز بحث المهدي في القياس بالاضافة إلى رفضه لأصليته، بتبيين بطلان الأدلة التي استند عليها أصحاب القياس في جميع المجالات. (55) وبالتالي بطلان الأحكام الناتجة عن القياس في مسائل فقهية معينة (56). ولقد قدم هذا المبحث الدليل على أصالة الفكر التومرتي وعلى تجانسه وعدم تناقضه. بحيث اتضح - رفضه للقياس ميدان الشرع تمام الانسجام مع رفضه - وتعريضه - للقياس في ميدان العقيدة. لقد بين المهدي كيف لا يؤدي هذا القياس إلا إلى التشبيه والتجسيم والتعطيل، ونفي وجود الباري سبحانه. كما توصل إلى ذلك أصحاب قياس الوجود وقياس العادة وقياس العلل وقياس الأفعال (57).

وكما تميز مبحث المهدي برفضه لهذا القياس، فلقد تميز كذلك ببلورته لنوع آخر من القياس رافعا إياه كالاجماع إلى مرتبة الأصل. لقد اقترح ابن تومرت قياسا آخر سماه «القياس الشرعي» وعرفه «تساوي الغيريين في الحكم» (58). كما عمد إلى التمييز داخل هذا القياس بين الفاسد والصحيح منه، مع التنبيه إلى أنه باب كبير واصل دقيق وفيه زل أكثر الناس، ولم يعرفوا تحقيق القياس» (59).

ولقد أعطى ابن تومرت عدة أمثلة لتوضيح تصوره للقياس. فحسب المهدي يمكن للمفقيه أن يستنبط حكما ضد من يتجاوز التأفف في إذابة والديه، بقياس عمله هذا على الحكم الذي يمكن استنتاجه من الأصل - الآية القائلة : «ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما» (60). وهو ما سماه المهدي بالتنبيه بالأدنى على الأعلى. كما يمكن لأي فقيه

(54) أعز 163 - 173

(55) ففي مجال العقيدة مثلا يقول المهدي «بطل قياس الغائب على الشاهد، إن لاجماع بينهما لأن كل واحد منهما مضاد للآخر، ذا الله يفعل وذا العالم لا يفعل (...) فإذا بطل هنا. بطل به التشبيه وبطل به قياس الغائب على الشاهد». أعز 168

(56) أعز 175 - 176 بين المهدي كيف أخطأ الفقهاء مستخدمين القياس بخصوص مد الموقدة

(57) أعز 167 - 173

(58) أعز 163

(59) أعز 173

(60) الامراء 23

كذلك أن يستنبط حكماً ضد المانع لفضل الطعام بقياس عمله هذا على الحكم الذي عبر عنه الحديث القائل : «لا يمنع أحدكم فضل الماء ليمنع به فضل الكلال». وهذا هو ماسماه المهدي بالتنبيه على المعنى الجامع بين الغييين المتساويين. يتضح إذن أن القياس المقبول عند ابن تومرت ليس هو قياس الغائب على الشاهد بل هو، إن صح التعبير، قياس الشاهد على الشاهد، إن هذا القياس المتضمن بالنص المقدس لا يتمع بأي استقلال ذاتي عن النص. إنه فقط وسيلة من وسائل التعامل مع النص لأكثر ولأقل. هذا ولقد اشترط المهدي عدة شروط ليكون هذا القياس صحيحاً مفضياً إلى الحق. من أهمها : أن يتحقق التساوي في الحكم بين طرفي القياس في الوجوب والتحليل والتحريم، وأن لا يرد خير أو عمل يقابل أو يختلف عن الحكم المستنتج قياساً. فالقياس في النهاية عند ابن تومرت هو بمثابة اجتهد داخل في إطار النص، ومتوجه لمحاربة من كانوا يقولون بأن كل مجتهد مصيب (61)، فاجتهد المصيب هو الذي يتقيد بالنصوص المقدسة، باحثاً عن تساوي الغييين في الحكم من خلال ما يدل عليه اللفظ وتتضمنه الأصول الراجعة إلى الأمر والنهي الالهي. المهدي لا يخول إذن إلا أدواراً نسبية وضيقة جداً ومشروطة إلى أقصى حد للقياس كأصل. لذلك لم يستخدمه في فقهه التطبيقي إلا نادراً (62).

لقد أقصى المهدي، العقل والظن والرأي وقياس الغائب على الشاهد من ميدان الشرع كأصول لبني هذا الأخير على القطع، انطلاقاً من الأوامر والنواهي الإلهية وذلك قصد تقنين وتنظيم الحياة الروحية والاجتماعية للأفراد والجماعات. تقنيناً وتنظيماً منسجماً مع إرادة الله، وليس مع إرادة البشر الذين رفعوا العقل والظن والقياس إلى درجات الأصل. هكذا استهدف المهدي سلب كل سلطة دينية ودنيوية لفقه المرابطين القائم على الفروع والمبتعد عن الأصول الطبيعية للمشرعة الإسلامية لأحياء الدين والشرع وتجديدهما، ولتبرير ثورته الثقافية والسياسية ضد المرابطين.

(61) وفي ذلك يقول : «وجعلوا هذه المقالة سلماً لهدم الشريعة، وصبروا الحلال حراماً، والحرام حلالاً، وجعلوا الشرع متناقضاً.» أعز 25.

(62) لم يستخدم المهدي القياس إلا مرة واحدة في فقهه التطبيقي «وقسنا دم الحوت على لحمه لما رأينا صيد البحر مخالفاً لصيد البر من وجوه» أعز 99.

V - وبعد لقد حاولنا تقديم قراءة لجزء من كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت. للجزء المتعلق بالعقيدة والشريعة عنده وما زالت الأجزاء الأخرى - وهذا الجزء كذلك - تنتظر من الباحثين والمهتمين دراسات وافية، وقراءات متعددة ومتنوعة. كما أن استمرارية التومرتية ومختلف مظاهرها وتحولاتها بالحياة الثقافية والاجتماعية للمغرب الوسيط، لم تحظ بعد بدراسات شافية ووافية. ولقد حاولت هذه القراءة كذلك إثبات مدى أصالة الفكر التومرتي المغربي. ومدى خطأ الدراسات والمحاولات التجزئية التي فجرت فكر المهدي وردته إلى أجزاء (شيعية، غزالية، معتزلية، أشعرية) مشرقية، ضمن نظرتها العربية المشرقية الضيقة في تفسير مجموع الابداع العربي الاسلامي. غير أن هذه القراءة وكما سبقت الإشارة إلى ذلك لم تتعرض لأجزاء أخرى من كتاب ابن تومرت، كالأجزاء المتعلقة بمباحثه الطبيعية ونظرياته في المعرفة. وكذا الأجزاء الأخرى المتعلقة بنظرياته وممارسته السياسية، لذلك وحتى لاتغلق هذا الحديث، فسوف أشير في شكل ملاحظات سريعة إلى الجانب الذي ما فتئ ينتظر أبحاثا ودراسات مركزا على مسألتين اثنتين : تصحيح نظرة الباحثين لعصمة ولمهدية ابن تومرت، وتقديم خطاطة عامة لدراسة استمرارية وموروث التومرتية.

لقد انتظم الفكر والعمل السياسي التومرتي بثورته الثقافية والدينية. ونظرا لما تضمنته هذا الفكر وهذا العمل من حديث عن الإمامة والعصمة، فلقد اعتبره بعض المدارس فكرا صادرا عن تصورات وعقائد شيعية في الإمامة والعصمة. غير أن قراءة متفحصة للمباحث السياسية بأعز ما يطلب ككتاب الإمامة، وكتاب الجهاد، وللممارسات السياسية اليومية للمهدي، تبين لنا بكل وضوح أن ابن تومرت بعيد كل البعد عن الشيعة في هذا المضمار. ولا عجب في ذلك فمشروعه العقدي والتشريعي وكذلك نظريته في المعرفة(63). لا تتضمن أية تصورات أو منطلقات غنوصية شيعية بل العكس هو الصحيح. فبتحويله للعقل أدوارا في تأسيس العقيدة وفي استنباط الشريعة انطلاقا من النصوص المقدسة(64)، لم يترك أي مجال ولا أي دور

(63) طرق المعرفة عنده محصورة في العقل والسمع والحدس.

(64) أغلب الأحاديث من هذه النصوص المقدسة، رواها المهدي عن عائشة زوجة الرسول (ص) التي أتحدث منها الشيعة موقفا سلبيا معروفا.

للامام أو للمعصوم في هذا المضمار كما تركه له العقائد الشيعية. بالإضافة إلى ذلك، فتصوره للامامة قريب جدا من تصورات السنة للامامة كضرورة دينية وسياسية، فالانسانية من وجهة نظر السنة وعموم المسلمين، لا يمكن أن تترك لهاها بعد وفاة الرسول(ص) من دون أئمة قادة. هؤلاء الأئمة الذين عددهم ورتبهم ابن تومرت تعديدا وترتيباً غير شيعي. بحيث وضع على رأس القائمة بعد الرسول : أبا بكر وعمر وعثمان بن عفان من دون أن يضمن قائمته أئمة الشيعة الاسماعلية. أو الاثنا عشرية.

وتصوره للمهدوية وللعصمة المرتبطتان بالامامة لم يكن تصورا شيعيا بل كان تصورا سنيا محضاً. ففكرة المهدوية أو المهدي المنتظر كانت دائما وأبدا ثابتا أساسيا من ثوابت الخيلة الاسلامية. فالمسلمون لم يكن يودهم في انتظار الوعد والوعيد الا لئلا أن ينتجوا ويعيدوا إنتاج هذه الفكرة باستمرار. رجوع المهدي الخالص، كتصعيد لما كانوا يعانونه داخل مجتمعاتهم المضاعطة والقاهرة.

لذلك وجدنا المهدي يضمن أراءه وممارسته السياسية ضد المرابطين، فكرة رجوع المهدي والعصمة، من دون أن يتطرق كالشيعة في تصوره للعصمة التي رفعوها إلى مرتبة عصمة الانبياء. بينما عصمة ابن تومرت لم تزد عن كونها عصمة للامام من «الباطل والظلم» استهدفت استقطاب الاتباع، وتبديد الشعور باليأس الذي كان يحتاج صفوف الموحدين بعد بعض الهزائم التي كانت تلحق بهم من طرف المقاتلين المرابطين.

أما عن استمرارية التومرتية، فلقد أثرت التومرتية في جميع مجالات الحياة المغربية الوسيطة، كتثورة ثقافية ودينية كبرى. دشنت مرحلة أساسية لظهور ولتطور ثقافة جديدة، ولبروز تصور جديد للدين كعقيدة وشريعة. فلقد ساهم الفكر التومرتي بعلاقته الوطيدة بالسلطة الموحدية في تعديل كفة الصراع وممارسة العنف بين أقسام ومعالم الثقافة المغربية. لقد عمل هذا الفكر على تسييد أجزاء من هذه الثقافة (الأصول، التفسير، والفلسفة، والمنطق، والعلوم البحتة إلخ...) التي عمل في السابق على تهميشها من طرف السلطة، ومن طرف أجزاء ثقافية أخرى. ولا عجب في ذلك، فثأثير عقيدة المهدي ظاهر في حي بن يقظان لابن طفيل وكذا في بعض

أعمال ابن رشد الذي اهتم بتأليف تعليق على عقيدة المهدي (65). وتأثير الفكر التومرقي ظاهر بعدما خضع لعدة تحولات متمثلة في تأويل أشعري لبعض أطروحاته من طرف المهتمين به — في موجة التصوف التي اجتاحت بلاد المغرب على العهد الموحد (66) والمريني. كما أن تأثير التومرية لم ينحصر ببلاد المغرب فقط، كما نشهد بذلك فتوى ابن تيمية ضد ابن تومرت، التي ذهب فيها نتيجة سوء فهمه للفكر التومرقي، وعدم اطلاعه على كل أجزائه، إلى تقريب المهدي من الفلاسفة والمعتلة قصد تكفيره. كما أخذ فيها ابن تيمية كذلك على المهدي محاربه للمرابطين وتمييزه للموحدين (67). وهذا ما تشهد به التأليف الكثيرة التي وضعها عدد من المغاربة وغير المغاربة حول فكر ابن تومرت لحساب الزهد والتصوف في غالب الأحيان. ونخص بالذكر هنا تعليق الشيباني الطرابلسي (68). كما تشهد به كذلك ترجمة «مارك دوطوليد» (69) لعقيدة المهدي إلى اللاتينية لحساب الكنيسة التي كانت تحضر آنذاك حملاتها الصليبية على الاسلام وعلى العروبة. إن موروث ابن تومرت، موروث ضخم، وما فتىء بحاجة إلى جهد مكثف للباحثين والدارسين المهتمين بالفكر المغربي الوسيط.

(65) هذا التعليق الذي يعتبر مفقودا لحد الآن، ولقد أشار «كوتيه» إلى تأثير المهدي في فكر «ابن رشد» بكتابه: نظرية ابن رشد حول علاقة الدين بالفلسفة. باريس. 1909

Leon Gautier, La théorie d'Ibn Rochd sur

Les rapports de la religion et la philosophie

Paris 1909

وأهم دراسة لهذه المسألة هي دراسة «أيرفوا» «الفكر الموحد في العمل الرشدي». أنظر هامش رقم 10 موجة التصوف التي تقف على آثارها من خلال كتاب الشوق إلى رجال التصوف للنادلي. طبعة «أ. فور» 1958

هذا ويبدو بأن التصوف والزهد كانت ظما كذلك علاقة طردية بفكر المهدي العقلاني

(67) فتوى ابن تيمية. سبقت الإشارة إليها.

(68) لقد ألف أبو عبد الله بن يحيى الشيباني (القرن 8 هـ) تعليقه على عقيدة المهدي لحساب الزهد وحلقات التصوف. هذا التعليق متوفر بالمكتبة الوطنية بباريس. قسم المخطوطات الشرقية. مجموع النسخ المغربية رقم 5296 من ورقة 63 إلى ورقة 91.

هناك تعليقات وشروح أخرى حول فكر المهدي بن تومرت في شكل مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط :

— الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة «لأبن النقاش»

— شرح أعز ما يطلب، مجهول

وبدار الكتب الوطنية بتونس :

— شرح المرشدة، «للسكوني»

— شرح المرشدة، «السوسي»

— الدرة المشيدة في شرح المرشدة «لأبن عباد»

من مصادر النقد الأدبي في العصر المريني

عبد السلام شقور

سأحصر عملي هنا في تقديم دراسة وصفية تاريخية لعدد من مصادر النقد الأدبي المؤلفة في العصر المريني، على أن أعود إلى هذه المصادر في فرصة أخرى إن شاء الله لاستقراءها.

وتشترك هذه المصادر النقدية في أمرين اثنين :

فهي أولا : لمؤلفين مغاربة لايشك أحد في مغربييتهم، (باستثناء ابن المرحل) ثم إنها ثانيا : مؤلفة في عصر واحد، هو العصر المريني.

ولن أتحدث عن العصر الذي برزت فيه هذه المؤلفات، كما أنني لن أترجم لأصحابها، ذلك لأن هدي كما أسلفت، تقديم وصف لمجموعة من المصادر النقدية ليس غير، إلا أنه ربما كان من المفيد الإشارة إلى الوضعية الحالية للدراسات في باب الكشف عن تراث المغرب النقدي وقراءته.

ومن المؤكد أن البحث في التراث النقدي في أدبنا القديم ما يزال في أشواطه الأولى، فما تزال معلوماتنا محدودة بخصوص مصادر النقد عندنا، كما أننا نجهل الكثير عن أعلامه.

وقد برزت في السنوات الأخيرة على الخصوص، كتابات تعرف ببعض أعلامه وقضاياه⁽¹⁾، ويعكف حاليا مجموعة من الأساتذة الباحثين على تحقيق ودراسة عدد من

(1) منها ما كتب عن عياض، والسجلماسي وأبي القاسم السبتي وابن البناء.

النصوص النقدية المغربية. ومع هذا وذاك، فإننا ما زلنا بعيدين عن تحقيق ما تم - على الأقل - في مجال دراسة النقد الأدبي في المشرق، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الاهتمام بهذا الموضوع....

قلت من قبل، إن مؤلفي المصادر التي سنقدم وصفا عنها عاشوا في عصر سياسي واحد، وفي جو ثقافي واحد كذلك، ويمكن أن أضيف الآن بأنهم يكونون سلسلة مترابطة الحلقات، طرفها الأول أبو الحسن علي ابن بري، وطرفها الآخر ابن مرزوق الحفيد، وتتكون هذه السلسلة من ابن بري وأبي القاسم السبتي (2) ومالك ابن المرحل وابن مرزوق الحفيد، لكل واحد من هؤلاء تأليف أو أكثر في مجال النقد أو في مباحث ذات علاقة حميمة به، ورائد هذه المجموعة، وأحد شيوخها المقرئ والناقد ابن بري (3) وإذا كنا قد اشتطنا عدم التعرض لترجمة هؤلاء الاعلام، فهذا لا يمنعنا من ذكر أحد الشيوخ الكبار الذين كان لهم الفضل في تنشيط الدراسات البلاغية والعروضية بمؤلفاته وحلقات دروسه، ونعني به أبا بكر القللويسي، صاحب التأليف الشهيرة في العروض والقافية، ومن تلاميذته ابن بري وابن البناء (4).

يتحدث ابن بري عن شيخه أبي بكر وينقل عنه في كتابه «شرح الغموض من مسائل العروض» ومما قاله في حقه : «فعنيت ببسط مسائله - مسائل عروض ابن السقاط. وإيضاح دلائله وضبط أصوله، وتهذيب فصوله، وانتخاب لبابه.... حسبا أفادنيه الشيخ المبرز في هذا الفن : أبو بكر القللويسي رحمه الله، قرأت عليه المختصر المذكور وسمعته كله من لفظه» ومن مؤلفات القللويسي :

1 - الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض، وهو خلاصة مركزة تطرق فيها لقضايا علم العروض، ويقع في ستين ورقة في النسخة التي وقفت عليها.

(2) لن نتحدث هنا عن «رفع الحجب المستورة، إذ شهرتها تغني عن التعريف بها وإنما سنقف عند كتاب «رياضة الآي في شرح قصيدة الخزرجي».

(3) كانت كتب ابن بري في العروض والقافية رائجة في عصره وفي العصور التالية، ووقع النقل عنها كثيرا، وتوه بها ابن مرزوق الحفيد.

(4) الجدوة 288/1، وابن البناء، تلميذ للقللويسي فيما كتبه في باب النقد الأدبي.

2 - زهرة الظرف، وزهرة الظرف في بسط المجمل من العروض وهو في خمس وعشرين ورقة.

3 - النكت المسموعة في نكت القوافي حسب الاتفاق والاختلاف، وموضوعه علم القافية، وهو في ثلاثين ورقة. ومن خلال هذه التصانيف يبدو أن القللو سي كان شديد العناية بعلمي العروض والقافية، وقد أشاع الاهتمام بهذين العلمين بين جماعة من تلاميذته، بمؤلفاته هذه، ومن أنجب تلاميذته وأبرزهم أبو الحسن ابن بري.

ابن بري ومؤلفاته النقدية :

1 - الكافي في علم القوافي وهو كتاب صغير الحجم، في اثنتين وعشرين ورقة، وموضوع الكتاب علم القافية، يشتمل على مقدمة وفصلين، وثلاثة أقسام تدرج تحتها - كما قال - أبواب :

المقدمة في اشتقاق لفظ القافية، وموضوعها لغة وعرفا

الفصل الأول : في أقسام القوافي

الفصل الثاني : في أقسام علم القوافي وأبوابه

القسم الثاني : في الحركات

القسم الثالث : في العيوب

ونثيت فيما يلي مقدمة الكتاب

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما قال الشيخ الامام البديعي (6) صاحب الحظ الاعلى أبو الحسن علي بن بري عفا الله عنا وعنه، وغفر لنا وله، بفضلته ورحمته.

أما بعد، حمدا لله كما ينبغي كماله، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله، فأقول : إن علم القوافي أولى ما عني به من ينتمي إلى العلوم الادبية، ويثابر عليه طالب الفنون العربية، ولذلك دونه أكابر العلماء، وانتحلته جلة القدماء كالخليل وسيبويه، والفراء

(5) شرح الغموض من مسائل العروض ورقة 70 ضمن مجموع.

(6) البديع، والبديعي يقصد بهما في عصر المؤلف، النقد والناقد (البلاغة) فهذا كتاب المنزع البديع...

يتطرق إلى سائر أبواب البلاغة، وهو كتاب بلاغي نقدي.

والاخفش والرجاج، ونظرائهم، وقل ما ترى من نظر شيئاً من علم اللسان إلا وله فيه باع مديد، واعتناء شديد، وقد قصدت بوضع هذا المختصر الملقب بالكافي في علم القوافي إلهام نفسي بعض ما كنت استفدته منه مما لايسع جهله، ولا يثقل حمله وجعلته منظوماً على مقدمة وفصلين، وثلاثة أقسام تندرج تحتها أبواب....»

2- شرح الغموض من مسائل العروض، من إنشاء ابن الحسن علي بن بري، كما ورد في طالعة إحدى النسختين اللتين وقفت عليهما، إحداهما من نسخ ناسخ ذكر في نهاية الكتاب أنه في دار غربة، ولعله أحد النازحين من الاندلس إلى المغرب، والثانية تقع ضمن مجموع كان في ملك المولى زيدان، تقع الأولى في مائة وخمسين ورقة (300 ص)، وموضوع الكتاب شرح عروض ابن السقاط الشهيرة وهو مختصر يقع في ورقات... صدر ابن بري شرحه مختصر ابن السقاط بمقدمة في خمس عشرة ورقة (30 ص) تناول في هذا التصدير، بعد التحميد، قضايا الشعر والنقد، لخصها تحت أبواب أربعة.

وفيما يلي مقدمة الشرح :

«بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله
قال الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن الحسين ابن بري عفا الله عنه :

الحمد لله رب العالمين، وصلواته الكاملة على محمد نبيه الامي الامين، وعلى آله وصحبه الاكرمين، أما بعد : فأني استخرت الله سبحانه واستعنته في وضع شرح على مختصر أبي عبد الله السقاط رحمه الله في وللعروض إذ كانت دواعي المبتدئين متوفرة على تعلمه وافتتاحهم مقفل هذا العلم بتفهمه، لعمق مسلكه، ويسر مدركه، على ما تخلله من الخلل، وتخطأ مسالكه من الخطأ والخطل، لكنهم أقالوا عثاره، ومسكوا منه بأثاره، وحملوه محمل الرمز لهذا العلم والاشارة، فعينت ببسط مسائله، وإيضاح دلائله، وضبط أصوله، وتهذيب فصوله، وانتخاب لبابه، وشرح أسمائه، وجلبت في هذا الشرح من أقاويل المتقدمين والمتأخرين ما يغني الناظر عن مطالعة عدد من الدواوين....» (7).

(7) شرح الغموض ...

وتتوالى أبواب المقدمة، مقدمة الشرح الذي وضعه ابن بري على هذا الشكل :
الباب الأول : تناول فيه ابن بري. العلوم الضرورية في نقد الشعر ومما قال فيه :
«اعلم أن الشعر تنجاذبه علوم أربعة، وهي علم الأوزان، وعلم القوافي وعلم البلاغة
وعلم النقد...» (8)

ثم فصل القول في كل علم من هذه العلوم...

الباب الثاني : في ذكر حقيقة النظم والشعر والفرق بينهما.

وقد ورد فيه قوله : «وقال قدامة : الشعر قول موزون مقفي، فلم يشترط موافقة أوزان
العرب، وكان الشيخ أبوبكر رحمه الله (9) يقول : هو النظم من كلام العرب أو ما وافقه
وزناً ومهيئاً، فقوله : النظم، اعلام بجنسه من الكلام، وقوله من كلام العرب أخرج به
نظم من عداهم، وقوله ما وافقه، ليشمل الشعر العربي والمولد وقوله وزناً إعلام بمراده
من الموافقة ... فظهر بهذا أن النظم جنس يشمل الشعر وغيره من المنظومات
كالتراسيع وغيرها، فكل شعر نظم، وليس كل نظم شعراً، فظهر الفرق بينهما ... »

الباب الثالث في معنى العروض وحده : ومن كلامه في هذا الباب قوله :
«... وقد صرح الجاحظ، وهو من علماء اللسان، بدم علم العروض، فقال : هو
علم مولد، وأدب مستبد، ومذهب مرفوض، يستنكد العقول بمستفعلن وفعلون، من
غير فائدة ولا محصول، والجواب أن الحق الذي يعترف به كل منصف، أن لهذا العلم
شفوقاً على سواه من علوم الشعر، لصحة أسبابه وإطراد قياسه...» ثم يورد الناقد
نصوصاً شعرية كثيرة لقدماء حاد أصحابها فيها عن الأوزان، منها أبيات لعبيد بن
الأبرص، وأمية بن أبي الصلت.

الباب الرابع : في أحكام الخط في العروض، وبالحديث عن الكتابة العروضية
وطريقته ينتهي هذا المدخل الذي مهد به ابن بري لشرح عروض ابن السقاط.
وطريقة المؤلف في كل الأبواب، وحتى في الشرح، أن يجمع بين ذكر القواعد

(8) شرح الغموض ...

(9) شبيهة القلوبي.

(10) انظر مجلة الفيصل 1978/12/19 فيها مقال عن الكتاب، وانظر كتاب الدكتور محمد بن شقرون الحياة

والتطبيق، لذلك فإن كتابه مشحون بنماذج من الشعر العربي وهو يخالف بذلك شرح أبي القاسم السبتي على الخزرجية، وشرح ابن مرزوق الحفيد عليها.

3 - اقتطاف الزهر لعل بن بري، وهو تلخيص لكتاب «زهر الآداب للحصري» 10 والكتاب في رأي د. بن شقرون ليس مجرد اختصار لكتاب «زهر الآداب للحصري» بل أضفى ابن بري على زهر الآداب من عنده.

4 - رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجي : لابي القاسم الحسن السبتي والكتاب شرح للقصيدة الخزرجية ومن نسخه نسخة الاسكوريال وقد كتبت سنة 871 وهي في 241 ص ونسخة المكتبة العامة بتطوان وهي حديثه نسبيًا، إذ كتبت في 13 جمادى الأولى عام 1230هـ، هي في 120 ص وهذا الشرح كان شائعاً لدى القراء في القرن الثامن وما بعده، فقد ذكره ابن الخطيب (12) وابن مرزوق الحفيد، ومما قاله في حقه : لولا ما فتح السيد الشريف العلامة وحيد الدهر.... أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني الغرناطي رضي الله عنه من فتح أفعال رموزها - يقصد رموز الخزرجية ما انتفع بما حبا فيها ناظمها....» (13)

وفيما يلي مقدمة شرح الخزرجية لابي القاسم السبتي : أثبتنا لاهيتها وغرايتها : (14) «بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
قال الشيخ الفقيه الامام العلامة القدوة المتقين القاض الشريف الاكمل أبو القاسم سيدي محمد بن أحمد بن محمد الحسني أكرمه الله ونفعنا به وبأمثاله :
الحمد له الذي بحمده نستفتح وهو الفتاح العلم، وإياه نسترشد، فبنور إرشاده يتجلى لنا عن المشكلات ليلها البهيم وإليه نرغب إذ يشرح صدورنا لشرح ما عسر فهمه، فلولاة لكننا في أودية الضلالة نهيم، وصلى الله على سيدنا محمد....

أما بعد فإن بعض أصحابنا الفضلاء القادمين على هذه الجزيرة من بر العدو، أطلعني على قصيدة في العروض منسوبة إلى ضياء الدين الخزرجي زعم أنها بكر لا تستطاع، وعقيلة لاتعلق بنبيلها الاطماع... فقرأتها قراءة من ينكر ويعرف،

(11) ن.م. وقد سرد الدكتور بن شقرون قائمة مصنفات ابن بري فلننظر في كتابه المذكور.

(12) الاطاعة انظر بعض نسخها في دار الكتب الناصرية بتمكروت 2609, 82083 والخزانة الاحمدية بتونس.

(13) المفاتيح المرزوقية ابن مرزوق الحفيد الورق الاول.

وتصفحتها ومهماتها الشواغل التي أنا بسببها عن إمعان النظر تصرف ولم أزل ألتبس وقتا فيه أتفرد وأعد نفسي بخلوة فإذا هي غريبة في منزعنا النبيل، بدیعة إذا تأملها أولو التحصيل... ولكني رمتها فما امتنعت، وكلفتها وضع القناع فوضعت، وهذا أول القصيدة :

وللشعر ميزان يسمى عروضه... (14)

ثم شرع في الشرح، وهو يهجم مباشرة على معاني الآيات دون الوقوف على ألفاظها، بخلاف ابن برى وابن مرزوق، وغير بعيد أن تسفر القراءة المتأنية لهذا الشرح عن حقائق هامة، خصوصا وأن أبا القاسم السبتي علم من أكبر الاعلام في التراث النقدي المغربي.

5 - الدوبيت لابن المرحل :

وقفت على رسالتين صغيرتين لابن المرحل في عروض «الدوبيت» وذلك ضمن مجموع كتب يخطط واحد يتضمن نصوصا في علمي العروض والقافية. ومن هذه النصوص نسخة ثانية يبدو أنها متأخرة عن الأولى من كتاب «شرح الغموض من مسائل العروض» لآبي الحسن علي ابن برى : الدوبيت في ست صفحات، وهي تامة ومقروءة على العموم، غير أن الناسخ، كان فيما يبدو، ينقل عن أصل غير واضح، فترك مكان بعض الكلمات فارغا، ولكن هذا لا يمنع من الاستفادة منها :

قال ابن المرحل بعد التحميد والصلاة على الرسول الاكرم :

«إني رأيت النوع المعروف بالدوبيت من أوزان الكلام المنظوم مستقيم البناء، مستعذبا في الغناء، إلا أن بعض الناس يخلط في النظم عليه، ويسلك مسلك العجم في الزيادة فيه والنقص منه، حتى يخل، فصنعت له ميزانا، وبينت ما يجب أن يلتزم فيه وما يحسنوما يقبح قياسا على الانواع العربية، واتباعا للاكثر في المساق، والاعذب في المذاق....»

فالرسالة تتعلق إذن، بعلم جديد، هو علم أوزان هذا اللون الشعري المستحدث،

(14) رياضة الآتي في شرح قصيدة الخزرجي لآبي الحسن السبتي الورقة الأولى نسخة المكتبة العامة بتطوان.

ومنها نسخة بالاسكوريال وهي المعتمدة هنا، وأخرى بالمكتبة العامة بالرباط، وفي الحزاة الاحمدية بتونس

نسخ متعددة منها.

فقد رأى ابن المرحل أن هذا اللون من الشعر جدير بقواعد تضبطه، وتمنع الخلل فيه، واعتمد في ضبط قوانينه على عناصر ثلاثة كما قال وهي : الانواع العربية، واضطراد الانساق، والعذوبة في المذاق، وبذلك لم تكن هذه القواعد غريبة عن الاذن العربية، وقوله بأنه اعتمد على اضطراد الانساق يقضي بأنه سيبعد من النصوص ما شذ عن ذلك.

وبعد أن قدم ابن المرحل قواعد هذا الفن الجديد معتمدا في ذلك على نماذج كثيرة أوردتها، وأنهى الحديث بما اعتقده شافيا في الموضوع، قال : «وقد اخترعت هذا الميزان..... وهو اختراع نبيل لم نسبق إليه.»

هكذا يتحدث ابن المرحل بلغة المعتر بما اكتشفه من قوانين الدوبيت التي اخترعها كما قال.

وتنتهي هذه الرسالة بقوله : «والمنصف من استنبل هذا العمل واستصلحه، ورأى أن صاحبه قد بين طريقا للنظامين وأوضحه، وإلى الله الرغبة في التوفيق والهداية إلى سواء الطريق.»

6- الرسالة الثانية : تقع الرسالة الثانية في اثنتي عشرة صفحة، ونصف الصفحة، سقطت أسطر من المقدمة تتضمن فيما يبدو التحميد... وفقرات في الوسط. وقد ورد في مقدمتها : «وجعلت الكلام في ذلك، أي في أوزان الدوبيت، في ثلاثة فصول.»

الفصل الاول : «في تأصيل ما اخترته وانتقيت ما اخترعته من القانون لما اتصل بي من سماع الدوبيت.»

الفصل الثاني : «في بيان الزحف والعلة وحيث يدخلان ولقب تغيير كل جزء من تفاعيله مع اشتقاقه من اللغة على طريق علم العروض وسبيله الذي عليه جرى.»

الفصل الثالث : «في إثبات صحة الوزن الذي ادعى كثير في ذوق طبعه، وانكسار سماعه لكونه لم يجز قط بسمعه، والاستشهاد على سوغه في القياس بكثرة ما سمع منه في أشعار الناس، حتى لايسع فيه الانكار إلا لبهاث مكار، إذ هو في الاشتهار أصح من ضياء النهار.»

فموضوع الرسالة إذن قوانين أوزان الدوبيت، هذه القوانين التي اخترعها ابن

المرحل اختراعاً كما قال، واشتق لعلمه هذا مصطلحات خاصة، من اللغة كما صنع العروضيون، واحتج لهذه الأوزان المخرعة أو القوانين المخرعة على الأصح بنصوص كثيرة حتى يقطع السبيل على كل معترض بحيث لا يسع إنكار هذا العلم إلا لبهاث مكار. وعليه نكون أمام أقدم نص ينظر لشعر الدوبيت ويضع له قوانينه، وابن المرحل لا يميل من التكرار بأنه هو الذي اخترع قوانين أوزان الدوبيت، وأن أحداً لم يسبقه إلى ذلك.

ونتابع فصول هذه الرسالة على الشكل التالي :

الفصل الأول : «اعلم أن الوزن الذي يقال له الدوبيت معناه عند العجم زوج بيت، المقول فيه عند العرب بيتان، إذ هو مزدوج النظم، وقد جرى على قياس العجم في إضافة اسم عدد التثنية إلى العدد كما فعل بعض شعراء العرب.»

ويسوق ابن المرحل في هذه الرسالة نصوصاً شعرية كثيرة لكل من الكاتب الأبرع المجيد الاعرف أبي محمد بن زين وأبي الفرج الجوزي، وأبي عبد الله محمد الأصبهاني، صاحب الخريدة إلى جانب نصوص لم يسم قائلها.

الفصل الثاني : «اعلم أن الزحاف هو التغيير في الأسباب في حشو البيت.. وليس يصير الزحاف من غيوب الشعر المستقبحة. قال ابن سلام : هو (أي الزحاف) مثل الحول والقبل والثلث في الجارية، قد يشتهي ويستحسن منه اليسير فإذا اشتد هجر وحكي عن أبي عبيدة : هو في الشعر بمنزلة الرخص في الدين، لا يقدم عليها إلا فقيه، فلذلك لا يقدم على الزحاف إلا حاذق...»

الفصل الثالث : «اعلم أنه قام الدليل على أن الجزء الثالث من تام بناء الدوبيت مستفعلن بلا ريب إذ المسموع منه أكثر من أن يخصى، فما أنشده العالم أبو الفرج الجوزي :

ناحت سحرا حمامة في غصن قد جرعتها الفراق كأس الحزن...

الخ.»

وبآخر هذه الرسالة، ورد قوله : «كمل بحمد الله تعالى، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.»

6 - شرح الرسيطة الكبرى :

القصيدية والشرح كلاهما لابن المرحل، والقصيدية هي معشرات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر ميلاده، وغزواته يستهلها الشاعر بقوله :
إلى المصطفى أهديت غر ثنائى.... إلخ.

وقد وقفت على نسختين من القصيدة وشرحها، إحداها حديثة نسبيا، فقد ورد في آخرها ذكر تاريخ النسخ، دون اسم الناسخ، وهو 1130هـ، وخطها مغربي جميل، ويبدو أنها نسخت لواحد من الأعيان، فالنص بقلم، والشرح بقلم مغاير، والعنوان بخبر مذهب، وهذه نسخة المكتبة العامة بالرياض. أما النسخة الثانية، فهي نسخة الاسكوريال، وهي في خط واضح كذلك، غير أن عدد أوراقها يزيد على عدد أوراق النسخة الأولى (الأولى في 75 ورقة، والثانية في 99 ورقة أي 150 ص و 198 ص).

وقد ورد في آخرها ما يلي : «وكان الفراغ من تقيد هذه النسخة يوم الأحد سادس عشر شوال عام 742 (توفي ابن المرحل عام 699).

منهج الشرح ومصادره، وقيمه : يورد المؤلف بيتين أو أكثر ثم يشرح في الشرح، مبتدئا بالشرح اللغوي، ومنثقلا بعد ذلك إلى الشرح الأدبي، والتاريخي، وهو في هذا يعود إلى المعاجم اللغوية المعروفة، وبعد الشرح اللغوي ينتقل إلى شرح المعنى، وهنا نجد الكاتب يعتمد على كتب السيرة خاصة، ومن الانصاف القول إن الوقفات النقدية الصرفة في هذا الشرح قليلة جدا، ومع ذلك لا يمكن لدارس النقد الأدبي لهذه الحقبة أن يتجاهله.

7 - مقدمة إحدى المعشرات :

هناك أكثر من نسخة من المعشرات التي يستهلها ابن المرحل بقوله :

أما لي إلى قبر الرسول مبلغ
سلاما فقد أفنى الزمان دمائي

من ذلك واحدة نسخت عام 892هـ، ومنها نسخة تصاحبها مقدمة من تأليف ابن المرحل كذلك، وفي هذه المقدمة وقفات نقدية هامة، تلمس البحث في القافية ومن هذا التقديم قوله : «فهذه المعشرات نظمها المملوك في يد سيد الخلق، المبعوث بالهدى، ودين الحق، محمد صلى الله عليه وسلم... والتزمت أن يكون أول كل حرف من أبياتها لازما لحرف آخر، فصارت هذه المعشرات لزومية من الطرفين، وهذا عمل لم أقف عليه، ولا ظننت أن أحدا سبقني إليه.

إلا أن حرف الظاء والغين المعجمتين اضطرتت فيه لقلة دورهما إلى أن كررت قافيتين في حرف الصاد بخيلة جائزة، وقسمت حرف الغين في لزوم قوافيه على قسمين....»

ورغم قصر المقدمة فإنها تشرح لنا ألوانا من الأساليب الشعرية، كما تضع أصابعنا على نقطة هامة تتصل بالقافية وهي قلة تردد بعض الحروف (الأصوات)... وهذا كله يدخل كما لا يخفى في باب النقد الأدبي، ومن ثم اعتبرت هذه المقدمة من مصادر النقد الأدبي، ومقدمة الدواوين كانت وما تزال من أهم المصادر النقدية على أي حال.

8 - المفاتيح المرزوقية لحل أقفال واستخراج خبايا الخزرجية (14) : يقع هذا الشرح في مجلد كبير، من 294 ورقة الحجم الكبير أي في 600 ص، وذلك حسب نسخة الاسكوريال التي اطلعت عليها، وتاريخ كتابة هذه النسخة 1007هـ، واسم الناسخ : ابراهيم المالكي اللقاني، ذلك أنه ورد في آخر المخطوط : «وهذا آخر ما تيسر من الشرح، والحمد لله رب العالمين مولى النعم، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وآله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ثم ورد ما يلي : تم ترقيمه وتنظيمه على يد الفقير الحقير الفاني ابراهيم المالكي اللقاني، وهي نسخة مقروءة، في حالة جيدة، وقد كانت في ملك المولى زيدان وفيما يلي مقدمتها :

«قال الشيخ... الحافظ... أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق رضي الله تعالى عنه ونفع به، ورحم أسلافه بمنه وكرمه :

الحمد لله الذي تفضل بإيجاد الموجودات، وفضل الآدميين على كثير منها بصفات، وخص العرب من بينهم بزيادة الكرامات.... ولما تعين لهذا الأمر كون معرفة النحو من المفروض، لزم بطريق مساواة الأمثال أن يشاركه فيه أخوه علم العروض، وقد دلت الشريعة على أن لموضعها عندها اهتماما، وأعلن صلى الله عليه وسلم بفضله اعلاما.... ولولا ما فتح السيد الشريف العلامة وحيد الدهر أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسن الغرناطي رحمه الله ورضي عنه من حل أقفال

رموزها، ما انتفع أحد بها خباً فيها ناظمها.... ثم ظهر لي أنه بقي من حل تركيب ألفاظها ما لا بد من ذكره، ومن إظهار محاسن معانيها، وإيضاح بيانها وزينة بديعها، وما ينبغي التنبيه عليه، وسميته بالمفاتيح المرزوقية لحل اقفال واستخراج خبايا الخزرجية» ثم أثبت بعد كلام له، يبين يظهر أنهما من شعره وهما :

الله يعلم أني ما تعبت له إلا رجاء دعاء من أخي ديني
أن يسأل الله لي عفواً ومغفرةً ومن عذاب لظي بالفضل ينجليني
المؤلف يثبت يبين أو أكثر من منظومة الخزرجي ثم يشرحها، وهو في شرحه يختلف عن أبي القاسم السبتي فلا يكتفي بشرح المعنى ولكنه يجمع بين شرح الالفاظ وشرح المعاني، وهو في كل ذلك ينتقل بين كتب اللغة والادب والمنطق..

مهد ابن مرزوق لشرحه على غرار ما صنعه شيخ شيوخه (115) : ابن برى وهو في هذا التقديم يتكئ بشكل كلي على أبي برى في كتابه «شرح الغموض» وقد صرح باسمه في هذه النقول أكثر من مرة، وذلك حيث يقول مثلاً : انتهى كلام ابن برى، ومما ورد في المدخل الذي خصه للحديث عن الشعر والنظم والوزن والقافية قوله : «الشعر لغة : العلم والفطنة، وهو مصدر... قال الجوهري : شعرت بالفتح أشعر به شعراً، أي فطنت له، ومنه ليت شعري أي ليتني علمت... والشعر واحد الاشعار، وشاعر أي صاحب شعر كالابن، وسمي شاعراً لفطنته....

واختصاص اسم الشعر بالكلام الموزون على الوزن الخاص، وإن كان حقه الصادقية على كل معلوم للشعورية كاختصاص الفقه بالفتيا، وإن كان لغة الفهم مطلقاً، والنحو بالعلم المعهود، وإن كان لغة القصد مطلقاً... قال ابن رشيق فسمي شعراً لأن العرب شعرت به. أي فطنت له، وكان الكلام نثراً، فاحتاجت العرب إلى الغناء لذكر محاسنها وأيامها، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام، فلما تم سموه شعراً لانهم شعروا به، انتهى، وقال ابن جنى : العرب تطلق اسم الجنس على نوع منه تعظيماً له، كأنه الجنس كله وغيره من الأنواع محمول عليه كقولهم للكعبة. بيت الله، والبيوت كلها لله سبحانه، والجوهر للدرّ لنفسه، مع أن كل متميز جوهر... والشعر من هذا لعظم منزلته عند العرب ولقوله صلى الله عليه وسلم : إن من الشعر

(115) في فقرة من «المرزوقية» قال ابن مرزوق : شيخ شيوخنا.. ابن برى.

لحكماء أو حكمة، وحضّي السلف رضوان الله عليهم، على تعلمه بقصد فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم...

أما حده اصطلاحاً ففي كلام ابن برى ناظم الدرر اللوامع الشيخ المشهور أحد شيوخ شيوخنا رحمه الله وغيره، ما يتقيض أن معرفة حده في الاصطلاح تتوقف على معرفة حد النظم، فقال أي ابن برى : النظم لغة الجمع، نظمت العقد (16) جمعت لآليه، والقوم ألقت بينهم، وكثر استعماله في جمع مخصوص بجواهر العقد....

واصطلاحاً قال شيخنا أبي بكر (17). الكلام الموزون الذي قصد وزنه، فارتبط لغة وقافية... وهذا الحد يشمل أنواع المنظوم من شعر وغيره من الأعارض المخترعة، لكل إقليم على طباعهم، معرباً أو ملحوناً، والشعر كما قال الخليل ما وافق أوزان العرب، فعلى هذا لا يسمى شعراً ما خرج عن أوزانهم كقول أبي العتاهية :

عتب ما لخليل حزين وحالي عتب مالي أراه طارقاً مذ ليالي
..... وقال قدامة : الشعر كلام موزون مقفى، فلم يشترط أوزان العرب، وقال الشيخ (18) هو النظم من كلام العرب أو ما وافقه وزناً ومهيماً فالنظم جنس يشمل كل ما جنسه من الكلام، وكلام العرب يخرج نظم غيرهم، وما وافقه يشمل العربي والمولد....

انتهى كلام ابن برى باختصار »

إن شرح ابن مرزوق على الخرجية كتاب ضخيم يتضمن فنونا شتى، جمع فيه مؤلفه آراء السابقين وأقوالهم، في الشعر وما يتصل به من قضايا نقدية، وقد اعتمد فيه صاحبه على عدد من النقاد المغاربة، وأهمهم ابن برى، وأبو القاسم السبتي، لم يكتف بإثبات آراء غيره، بل تجده يناقش ويثبت ما يراه أهلاً للإثبات، وينفي ما يراه غير ذلك.

وفي الشرح مباحث متفرقة في اللغة وغير اللغة فمنه ما كتبه حول تعريف الشعر،

(16) ابن مرزوق ينقل هنا من كتاب «شرح الغموض» لابن برى.

(17) الكلام هنا لابن برى، وأبو بكر هذا هو القللوسي.

(18) ما يزال الكلام كلام ابن برى، والشيخ شيخ ابن برى : أبي بكر القللوسي.

وهو يورد نصوصا لابن الرومي وأبي العتاهية والمهلهل وامريء القيس، ونصوصا من شعر المولدين، ومنه هذا النص الشعري الشبيه بشعر بعض المحدثين في زماننا تثبته كما وجدناه :

«خير صحبتك ذو المواهب في النوائب
والنصائح في التشاور والتزاور
والمكاثير في التشاجر !
لا الموارى في حضورك
واغنيابك في مغيبك
والمهتك للسرائر»

والشرح أخيرا جدير بدراسة مفصلة تكشف عن جوانبه كلها.

وقبل إنهاء هذا العرض الذي وقفنا فيه، كما شرطنا ذلك في مقدمته عند تقديم وصف لمجموعة من المصادر النقدية المؤلفة في العصر المريني، أقدم مجموعة من الملاحظات، وهي لحد الآن ليست إلا ملاحظات ليس غير، خرجت بها من قراءة المصادر المذكورة :

- إن وجود هذه المؤلفات وغيرها مما لم أتعرض له لشهرته أو لسبب آخر يدل على أن العصر المريني شهد حركة نقدية هامة، هذه الحركة التي كان من أعلامها كل من أبي القاسم السبتي وابن برى وابن المرحل، وابن مرزوق الحفيد، والسجلماسي صاحب المنزع البديع، وابن البناء مؤلف «الروض المريع» وغيره من المؤلفات النقدية، وابن رشيد صاحب إحكام التأسيس في أحكام التجنيس، وابن خلدون.....

- وقد حظى علم العروض وعلم القافية بقسط وافر من اهتمام الدراسات النقدية في العصر المريني، آية ذلك هذه المصنفات التي عرضناها في الصفحات السابقة، ولم يقتصر البحث على عروض الشعر النصيح الذي يحترم عروض الخليل، بل تجاوزه إلى البحث في ألوان أخرى من الشعر عرفت بعروض البلد، والدوبيت، والمتأمل للصفحات التي خصصها كل من ابن برى، وابن مرزوق للكلام عن حدود الشعر وعن الأوزان الجديدة والأعاريض المستحدثة، وابن مرزوق لم يتردد في إثبات نموذج من ذلك في كتابه، يستنتج أن الشعر الثائر على عروض الخليل كان شائعا في هذا عصر.

- وكما يلتقي هؤلاء الاعلام مؤلفو المصادر النقدية المذكورة، في الانتماء إلى عصر واحد، ويجمعهم اهتمام مشترك، فإنهم تلاميذه بشكل أو آخر لشيخ هذا اللون من الدراسات نعني به أبا بكر القلوسى، ومن تلاميذته المباشرين ابن برى وابن البناء، ومن تلاميذ تلاميذ هؤلاء ابن مرزوق الحفيد وبذلك تشكل هذه المجموعة حلقة تستحق دراسة خاصة عسى الله أن يعيننا على إنجازها.

مصادر البحث

- 1 - شرح الغموض من مسائل العروض لابن بري الإسكوريال : 288
- 2 - الكافي في علم القوافي لابن بري الإسكوريال : 330
- 3 - معشرات مالك ابن المرحل الإسكوريال 398
- 4 - المفاتيح المرزوقية لابن مرزوق الإسكوريال : 332
- 5 - شرح الغموض (نسخة ثانية) الإسكوريال : 410



في التحليل التناظري أو نحو مفهوم سيميائي لتماسك النص

أحمد بلشهاب

إذا كانت السيميائيات تضع إمكانية لتحليل مستويات الكلام إلى عناصر دنيا. فإنها تقدم إمكانية أخرى لكشف الكيفية التي تنتظم وفقها هذه العناصر لبناء خطابات متماسكة انطلاقاً من فرضية أن النص، على المستوى الدلالي، متميز بالتركارية الدلالية التي تؤمن استمرارية موضوعه، إن هذه التركارية للسّمات المتطابقة شرط لازم لنقل الخبر نقلاً متسقاً. إن الكلام بهذا المعنى إسهاب أو حشوية لمتواليات لغوية متقاربة دلالياً.

لدينا، على مستوى الملفوظ، نمط من تماسك المعنى متحقق بتكرار سمات متشابهة .. لنأخذ المثال التالي :

أكرم الرجل الضيف

ان / أكرم / في اللغة الإبلاغية تقتضي :

1 - حضور فاعل مفرد أو جمع

2 - فاعلاً حياً، إنساناً

3 - حضور شيء (مفعول). مفرد أو جمع

4 - شيئاً، حياً، ملموساً، مقبلاً للاكرام

ويلاحظ أن / أكرم / تقتضي بالضرورة فاعلين (الفاعل / الشيء) وتحدد مسبقاً

سماتهما الدلالية، بمعنى آخر أن / أكرم / تتضمن ذاتياً السمات الدلالية : حي،

إنسان، ملموس. أما الفاعلان (الرجل والضيف) فهما إسهاب سياقي، لكنهما

يحققان للملفوظ تجانسه لكونهما ينتميان لنفس الحقل الدلالي للوحدة المعجمية /
أكرم /

لنقارن :

أكرم الرجل القطار

هذا الملفوظ ملتبس ولا يمكن أن يقرأ كما هو متمظهر على مستوى التوزيع لأنه حصل انتهاك لقيود الاختيار الضرورية لإقامة معنى، وهو انتهاك أوقف استمرار الحشوية السياقية التي انطلقت في البداية / أكرم الرجل / بإقحام حقل دلالي متباعد عنها / القطار / باعتباره لا يمتلك معها سمات سياقية مشتركة.

إن إقامة خطاب موحد يفترض تجميع السمات المتكررة المكونة للحقل مع التشطيط على العناصر الجديدة المشوشة. ولهذا تشبه Anne, henault هذا النمط من تماسك الخطاب بلعب الدومينو الذي يتطلب الا تجميع سوى القطع المقدمة للاشكال المتجانسة على سطح التجاور وعلى طول المتوالية (1).

ان السمات الدلالية المتطابقة والمتكررة في الخطاب لبناء وحدته هي التي نسميها السمات السياقية أو التناظر isotopie. وإيضاح هذا المفهوم الأخير نأخذ المثال التالي :

الكلب يعض

حيث

/ يعض / يقتضي فاعلا

مفردا أو جمعا

حيا

حيوانا أو إنسانا

وفهرسة سمات الفعل بمعزل عن الفاعل تجعلنا أمام متناظرين : / الحيوانية / الإنسانية / بيد أن وجود الفاعل الحيوان (الكلب) في المثال يختار المتناظرة الأولى / الحيوانية / فعناصرها منتمية لنفس المقولة الدلالية ومحددة بعلاقة متماسكة حاصلة بتكرار التشابهات. ونسجل أن التكرار ليس هو المتناظرة وإنما هو عمادها، كما أنه

1) Anne. HENAUULT : Les enjeux de la sémiotique I.P 80. Paris. PUF. 1979

لا يكون منتظماً دوماً لأن المناظرة ليست بالضرورة مغطاة بالوحدات الدلالية المتجاورة. ان فرنسوا راستيه R. Rastier يعرفها بأنها حزمة من العناصر أو مجموع غير منتظم⁽²⁾، ولهذا تبتعد المناظرة عن التوزيع وتتخذ خاصية خطائية.

بمفهوم التناظر الذي نقل من الفيزياء والكيمياء إلى حقل الأدب درست مسألة التناص وتماثل الخطابات. وقد صاغه غريماس Gréimas. فهو شكل متواز لمفهوم التكرارية الدلالية التي تحدث عنها جاكبسون Jakobson. ولأن تشكل النص لم يظهر لغريماس في جميع الأحوال مكوناً من العناصر التابعة للحشوية السياقية فقد تعددت تعاريفه لمفهوم المناظرة، لكن أكمل تعريف يحتفظ فيه غريماس بمفهوم التكرار نجده في كتابه (في المعنى 1970. Du Sens) حيث نفهم من المناظرة أنها (مجموع المقولات الدلالية الحشوية التي تسمح بقراءة حكاية قراءة متسقة كما هي ناتجة عن قراءات جزئية للملفوظات يعد فك إلتباساتها)⁽³⁾. ان المقولة تحدد عند غريماس برفع التباس النص مما يوحي بأن المناظرة تتكون مما هو أكبر من الجملة. بيد أن غريماس يشير في كثير من المناسبات بان الحد الأسفل للمتناظرة يمكن أن يكون الجملة أو المركب الذي يجمع على الأقل شكلين سمائيين متطابقين : (في المركب المقاتلون لدينا المقاتل + ون. وتكون واو الجمع أداة لتحديد جمع المذكر السالم وبهذا نسجل حشوية في الجنس). ان أدنى تكرار في المحتوى الدلالي يقيم متناظرة. لكن المهم ان التكرار هنا ليس تائهاً وإنما هو ينزع بالنص إلى التلاحم لأنه بمجرد قيام متناظرة تنشأ صلات علائقية سيمية بين عناصرها المركبة مما يجعل النص يبدو عند القراءة مجموعاً تراتيبياً. غير أن هذا لايعني ان كل نص ينسب على متناظرة واحدة. وإنما ان المناظرة، رغم تواجد مثيلاتها في النص، تنشئ شبكة من الصلات الدلالية. وأمام تعدد المتناظرات داخل النص تنهض مشكلة كامنة في كيفية وصف تلك التي لها الهيمنة سواء على مستوى عدد ظهوراتها أو على مستوى الدور الذي تلعبه في تقدم المقطوعة. ومن أجل التغلب على هذه الصعوبة أقترح تعريف يتناوب على معيارين كيفي وكمي : فامتناظرة المركزية هي المُميزة بارتفاع عدد لكسيمات المعجم المتطابقة وقيامها بدور

2) François Rastier : Systématique des isotopies. in essais de sémiotique poétique P. 80. Paris. coll. Larousse 1972

3) A. J. Greimas : Du Sens p. 188. Paris - SEUIL 1970

وظيفي يتضمن تحريك الخطاب وتطويره لأن حولها تتكون وتتحدد الارتباطات. وتفسير نص موحد يتضمن تعدد المتناظرات يقدم غريماس خطابا ثنائي المتناظرة Bi-isotopie لنادرة فرنسية في حفلة : يشرح مدعو آخر بإطراء الأكل، المعاملة، الضيافة جمال النساء. وفي النهاية يذكر «التواليات» الفاخرة «jolies toilettes» فأجاب المدعو الآخر : لا أعرف وإن كنت لم أزرها(4). الحكاية تكمن في الوحدة المعجمية / التوليت / التي تصلح في الفرنسية مرة لعقد متناظرة / اللباس / (إصلاح الهندام، تسريحات الشعر للسيدات، إعادة الأصباغ إلى الوجه) ومرة لعقد متناظرة / الهندسة [(الديكور، المغاسل، النظافة).



المتناظرتان مرتبطتان بالعنصر الرابط المشترك «التواليت» الذي يغطي سيميمين متمايزين (التواليت بالمعنى الأول : اللباس / الموضيعة. والتواليت بالمعنى الثاني : الزخرفة) يمتلكان شكلين سمائيين مشتركين (اجتماعية الموقف Socialidal de la situation لأن الموضعة تحيل على سمة : اجتماعية. وهي نفس السمة التي تحيل عليها الزخرفة) يقول غريماس «إن اللذة الروحية تكمن في اكتشاف متناظرتين متمايزتين داخل حكاية افترض فيها أنها متجانسة»(5). هكذا تقيم الحكاية دلالة أولى متجانسة : الأكل، المعاملة، الضيافة، جمال النساء، التواليت، التي تكون متناظرة أولى. وعلى هذه الدلالة

4) A. J Greimas : Sémantique structurale, P 70. Paris. Larousse 1966

5) Greimas : ibid p. 71

يتراكب فجأة تغير على المحور التناظري حيث تنعقد دلالة ثانية متجانسة : النظافة، الديكور أو الزخرفة، المغاسل التي تكون متناظرة ثانية.

لم يعالج غريباس في تحاليله القائمة على مفهوم التناظر مستوى التعبير بل انشغل بالدلالة لاقتناعه بأن هذا الجانب لم يأخذ نصيبه من البحث مثلما نالت المستويات الصوتية والايقاعية والتركيبية من لدن اللسانيين والنقاد البنيويين. لذلك بدا مفهوم المتناظرة ضيقا. وقد وسعه أحد تلامذته وهو «فرانسوا راستييه» حين أضاف إلى متناظرة الدلالة متناظرة التعبير (الفونيماتية، الايقاعية، التركيبية) بهدف أن يرصد في النص العلاقات القائمة بين التعبير والمحتوى. يعرف فرانسوا راستييه «المتناظرة بأنها كل تكرار لوحدة لسانية بحيث تكون مجموعا غير منظم. والوحدة اللسانية تعني هنا توحد دال بمدلول، علاقة التعبير بالمحتوى. ويميز فرانسوا راستييه» داخل متناظرة المحتوى بين : أ) المتناظرات السياقية التي تشكل دلالات مشتركة أو حقولا موحدة. مثلاً، يمكن أن يحلل لكسيم «الكروسي» على النحو التالي:

كروسي :

+ مقعد لائنسان

- المسندين

+ له ظهر

ب) المتناظرات السيميائية :

وهي التي تدرس في الخطاب الأدبي، ولأنها ملبسة تحتاج إلى التأويل، وداخل هذه الأخيرة يميز أيضا بين : أ - المتناظرة السيميائية أو الافقية Horizontales وب - المتناظرة الاستعارية أو العمودية Verticales (6). إن المتناظرة السيميائية سياقية استهائية (مثال الكروسي). فتمظهر السيمييمات المختلفة يقيم متناظرة سيميائية بشرط أن يكون كل واحد من هذه السيمييمات يتضمن سمة أو مجموعة سمات مشتركة مع أشكال نواتية للسيمييمات الأخرى. هكذا انعقدت المتناظرة السيميائية / الاحتفال / في المثال السابق من تكرار السيمييمات المتوافقة : الأكل، المعاملة، الضيافة ... إلخ .. أما في المتناظرة الاستعارية فإن العلاقات بين السيمييمات لا تبدو

6) F. RASTIER : ibid P. 84-92

في التكرار بكيفية بسيطة فقد نلجأ من أجل إقامتها إلى التأويل بحيث ينتفي التعارض بين سمات نواتية / سمات سياقية. إن استمرارية الخطاب تحصل في هذه الحال بتكرار السمات النواتية التي تخرق قواعد الاستبدال مقحمة بذلك عوالم غير متجانسة. ولا شك أن هذه هي خاصية الشعر الحديث حيث تغيب التقريرية والروابط التي تحدث اتماسك المنطقي في الخطاب. على هذا النحو يمكن أن نقيم في قصيدة الحب متناظرة سيمية بواسطة السيميات الاستعارية / لب / ، / رغبة / ، / ججم / بامتلاك سمة مشتركة بينها هي «الحرارة».(7)

طبق فرانسوا راستييه «مفهوم المتناظرة المحدد أعلاه على قصيدة تحية Salut للملازمة Mallarmée حيث بدأ بتميز متناظرتين أفقيتين : متناظرة الوليمة ومتناظرة الملاحه(8). وكل متواردة منهما متمظهرة بواسطة عدد من السيميات. متناظرة الوليمة :

/ تحية / : إشارة التواضع.
 / زبد / : زبد الشمياني.
 / بكر / : قصيدة لم تقل من قبل.
 / كأس / :
 / نحن / : الأصدقاء.
 / أنا / : الرئيس.
 / لاهتزاز : إمارات السكر.
 / مؤخر السفينة / : نهاية المائدة، مكان الرئيس.
 / كنان / : منديل.
 / منديل / : منديل المائدة.
 / صاعقة الشتاء / : كانت الوليمة في يناير.

متناظرة الملاحه :

/ تحية / : إنقاذ.
 / زبد / : زبد البحر.

7) José M. POZUELO : La lengua literaria P. 121. Malaga Libreria Agora 1983

8) F. RASTIER : Ibid. P. 86—87

/نحن / : البحارة.
/أنا / : ريان السفينة.
/كتان / : الشراع.
/الاهتزاز / : اهتزاز البحر.
/صخرة : صخرة الشاطئ.
/صاعقة الشتاء / : خطر الأجبار.

يوضح «راستييه» أن النص يتضمن تعدد المتناظرات Polyisotopie مما يتطلب قراءات تأويلية وهو أمر يبين ما يسمى المتناظرة الاستعارية أو العمودية المقامة من سميات منتمية إلى المتناظرتين الأفقيتين. يتكلم «راستييه» إذن عن متناظرة ثالثة عمودية هي متناظرة «الكتابة» : /لاشيء / ، /بكر / ، /نحن / ، /الغربة /، التي تمثل سمات مشتركة مع الملاحية (الكتابة، الغربة، الوحدة) وسمات مشتركة مع الوبئة (شعر، نخبة، بكر (= أصالة)، كأس (=دواء)).

إن فرانسوا راستيه يلفت الانتباه إلى مسألتين أساسيتين، عند تعريف المتناظرة : الأولى تتعلق بوجود التميز بين المتناظرة والحقل الدلالي لأن الحقل شبكة معجمية منظممة بقرابة عائلية : الكلمات في الحقل معطى مثولي بينما المتناظرة تتكون عبر امتداد القراءة وتتغير باستمرار بإدماج عناصر جديدة داخلية في علاقة مع عناصرها الأولى المشكلة. إن القراءة هي التي تنتج بمجرد تقدمها، حقلا تناظريا من وحدات في النص قد لا يكون بينها صلات في المعجم. إن اللكسمين /الكتاب / ، /الليل / رغم تباعد شكلهما النواقي السيميائي يمكن أن يشتركا في النص لتشكيل متناظرة «الكثافة» بعد إعادة تقييمهما(9) Réévaluation. أما المسألة الثانية فتتعلق بالكفاية الخاصة للقارئ في تحديد المتناظرة، فإذا كان المدخل لتحديد الحقل التناظري في نص يعتمد الشروط الموضوعية (الاسهاب لتواليات سيميائية) فمن الضروري الاعتراف بفعالية القرارات الذاتية في استنتاج وتركيب معنى المتناظرة وتعيين تلك التي لها الهيمنة في تعدد المتناظرات، إن هذه المهمة تقتضي من المحلل معرفة بوحدات الحقل الذي يحلله وبالحيط الخارج لساني Extra-linguistique. في الواقع أن «ميشيل أريبي» M.

9) José M. POZUELO : ibid. P. 120

Arrivée وضع أن تحليل فرانسوا راستييه «لقصيدة «مالارسية» فقط يمكن أن يمارسه عارف بطريقتين : طقوس الوثيمة وفي ذات الوقت الأسباب التاريخية التي ولدت القصيدة وكذلك الكون السيميائي للملارسية. إن كفاية القارئ في عملية صنع المتناظرة تطرح مشكلة العلاقة بين نصوصه ونصوص المبدع ولهذا قدم «ميشيل أريبي» عوض التناظر مفهوم التناص (10). يضعنا التأكيد على كفاية القارئ أمام مفهوم تداولي pragmatique للدلالة، وقد يكون هذا في صالح مفهوم التناظر لأنه يعينه طالما أن القراءة تتعدد بتعدد الكفايات إن أمبرتو إيكو Umberto Eco المشتغل بتأسيس سيميائيات تداولية ينطلق في كتابه «القارئ في الحكاية» من أساس إن النص سطح لمتظاهرات لسانية حيث محتواه ينجز بواسطة فعالية تعاونية من طرف القارئ، هكذا نفسر النص بالاستعانة ببعض العوامل التداولية وليس انطلاقاً فقط من نحو الجمل الذي يفعل على أسس تركيبية ودلالية خالصة. ففي التعبير /أولئك أبائي / لا يرتفع التباسه بمجرد تحليل نحوي / أولئك / و /أبائي / ولا بتحليل دلالاته القصصية التي تقيد الإشارة إلى أشخاص بعيدين مرتبطين بالمتكلم بصلات، لأن التعبير المشار إليه يكسب دلالات مختلفة متوافقة مع اختلاف شروط التلفظ، بهذه الكيفية يستخرج القارئ من النص ما لم يقله النص (وإنما ما يفترضه، ما يعد به ..) يملأ الفضاءات الفارغة، يربط ما يظهر في النص بنسيج التناص الذي منه انبثق هذا النص (11).

يعتمد أمبرتو إيكو مفهوم المحور (Topic) الذي يرتبط بالمتناظرة كظاهرتين متمايزتين. إن المحور ظاهرة تداولية، أما المتناظرة فهي ظاهرة دلالية (أو بنية دلالية) (12). وإدراك المحور مسألة استنتاج أو فرضية يصوغها القارئ بمبادرته بكيفية أولية على شكل هذا السؤال : عن ماذا يُتحدث في هذا النص ؟. وعلى أساس هذا المحور يقرر القارئ أن يبسط أو يوقف مسلسل التفسير. فالمحور أداة ميتانصية -صالحة أولاً لتنظيم مسلسل السميوزيس Semiosis. وثانياً لتوجيه الاهتمام إلى تخطيات الكلام. يختبر أمبرتو إيكو مفهوم المحور في الملفوظ التالي :

10) Michel. Arrivé : Pour une théorie des textes poly-isotopes. langage N° 31. P. 53—63

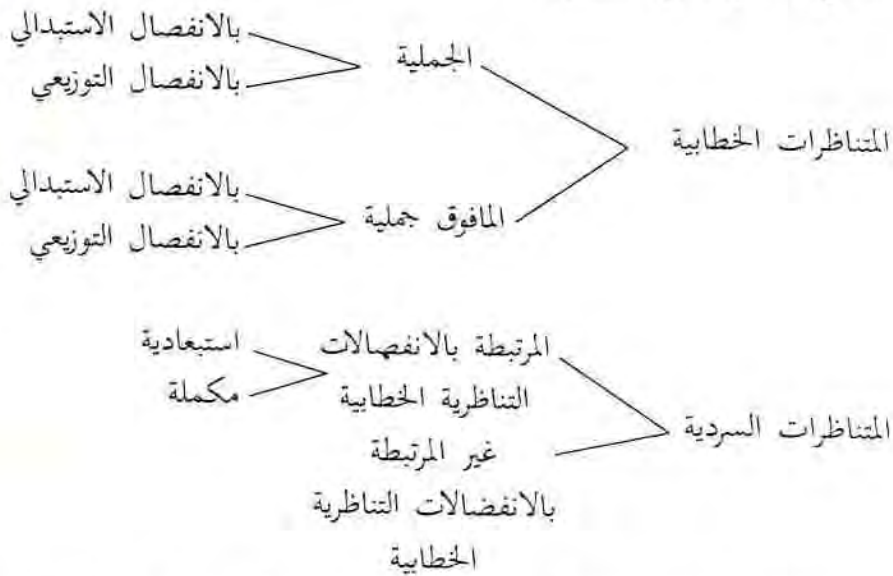
11) UMBERTO. ECO : Lector in Fabula. P. 13. trad. castellana. BARCELONA. LUMEN 1981

12) Umberto. ECO : ibid. P. 125—126

علي يجامع زوجته مرتين في الاسبوع وكذلك أحمد

لاشك ان النص ملتبس، اذ لاندري أيتعلق الأمر بمجرد احصاء تواتر العمليات الجنسية لزوجين، ام يتعلق بالاشارة إلى ثلاثي خائن (رجلان وامرة واحدة). يقرر إيكو أن هذا الغموض يتلاشى اذا فسرنا الجملة كإجابة عن احد السؤالين التاليين :

1 - كم مرة في الاسبوع يجامع علي وأحمد زوجتيهما بالتوالي ؟ 2 - ماذا يجري مع هؤلاء الثلاثة، أي من يمارس الجنس مع من ؟ في حالة (1) يكون المحور (أي الموضوع) هو احصاء العمليات الجنسية لزوجين، اما في (2) فانه يعني العلاقة بين امرأة ورجلين. بفضل المحور يضع القارئ فرضية حول عدد الافراد الملتبسين بالعالم الذي يتضمنه النص. فالكمل يتعلق ان كان النص يتكلم عن اربعة أو ثلاثة افراد مختلفين. وهذه الفرضية هي التي تسمح بتوسيع دلالات خاصة (13). إن المحور يتدخل هنا لتنظيم مسلسل القراءة واستنتاج المعاني في متناظرة. ويقيم أمبرتو إيكو داخل المتناظرة التميزات التالية :



ان الكفاية النصية للقارئ التي توسع الدلالة عبر التأويل ليست كفاية سائبة وانما تتطلب معرفة بنوعين من القوانين :

13) U. ECO : ibid. P. 127

(11) قوانين الملفوظ المتضمنة :

المعجم الاساسي

قواعد التحاول

الاختيارات السياقية والصرفية

القوانين البلاغية والاسلوبية الموسعة

القوانين الايدولوجية الموسعة.

(2) قوانين شروط التلفظ المتضمنة :

الإخبار حول المرسل والفترة والسياق

السياق الاجتماعي للنص، وافتراضات حول طبيعة الفعل اللساني. (14)

يوجد إذن اتجاهان ممكنان في دراسة معنى النص، الأول يفهمه في ضوء الادوات والقوانين التي بلورتها اللسانيات البنوية وسميائيات هلمسليف وجاكسون. والثاني يأخذه بنوعين من القوانين : قوانين الملفوظ وقوانين شروط تلفظه لأنه لا يرى النص في بنيته المثولية، كما يتمظهر في خطيته. وإنما في ارتباطه بال محيط الخارجي. ومن ثم يضع على عاتق القارئ مهمة تحديد المعنى وتوليده. ومع هذا يبدو ان هناك اتفاقاً بينهما حول نقطة إجرائية معينة : فأمام الشذوذ الدلالي للنص (بسبب انتهاك قواعد التأليف) يتم اللجوء إلى التأويل بإعادة بناء عناصر المعاني السياقية وإزالة التعارض السيميائي بينها لتوفير حشوية Redondance سياقية تضمن تماسك النص.

حركة التأويل، وإعادة تقييم العناصر الملتبسة في حدود النص المائل immanent شددت عليها جماعة ليبج البلجيكية لاستنتاج عناصر دلالية مضمرة تفهرس في الحقل المكون أو تقود إلى بناء حقل جديد. ان هذه الحركة هي التي تطلق مسلسل تفكيك المجاز. ان جماعة ليبج Groupe التي قدمت محاولة في بناء بلاغة معتمدة على اللسانيات الحديثة اعطت أهمية كبرى لمفهوم التناظر في كتابها (بلاغة الشعر) لأنه خدمها في دراسة المجاز.

يبدأ جاك دوبوا ورفاقه بتصحيح تعريف غريماس للمتناظرة الذي يكتفي بشرط إنجاني (=الاسهاب السيمي) مقترحين اضافة شرط سلمي (=القطع في الاسهاب)

باعتبار أن العلاقات التركيبية لاتوضع دائما سمات متطابقة. مثلا : أينعت الثمار، يكون ملفوظ متناظرة لأنه يحقق شرط القراءة أو تجميع السمات المتطابقة. اما أينعت الرؤوس فيكون لامتناظرة allotope لأن /الرؤوس / لاتفهرس على حقل الربيع. وهذا الشرط الثاني السليبي يقضي إلى تعريف المتناظرة بأنها (خاصية مجموعات محدودة لوحدات دلالية تحتمل تكرارا متطابقا لسمات متاثلة وغيايا لسمات انفرادية في وضع تركيبى) (15) يتعلق الأمر هنا بشرط ضروري لأن غياب احدى السمات كاف لجعل الخطاب لامتناظرا فيكون الشرطان ليسا متضاربين بل هما متكاملان يفترض أحدهما الآخر. فالحكاية لا يتم نقلها بتكرار السمات المتطابقة، ومن الصعب تصور خطاب مبني على حشوية خالصة ومن ثم لابد من حصول قطع دلالي في المتوالية الخطابية لإقامة متناظرة جديدة. يقول جاك دوبوا أن الحشوية ترفع الالتباس عن الملفوظ باختيار المدلولات في الاستبدال، اما الملاءمة فتفعل في التوزيع. أن ادراك المتناظرة يتطلب كفاية لسانية التي تترجم بقواعد التأليف. ففي قصيدة ملازمة تفك الحشوية : بكر، تحية، شراب، كأس، أصدقاء، غموض النص. وتشكل المتناظرة الأولى : الوليمة. بيد أن هذه العناصر لاتتكرر على امتداد النص بنفس الدلالة، فالكأس مثلا تحمل معنى مزدوجا الأول تعييني والآخر تضميني يأخذ معنى «الدواة» ويصبح العنصر الرابط بين متناظرة الوليمة ومتناظرة قيد البناء : وهذا يقتضي اعادة تقييم بعض عناصر النص، مثلا :

/ بكر / : الاصلة
 / الانحار / : الوحدة والتأمل
 / الكأس / : الدواة

لإقامة الحشوية الجديدة : الاصلة، الدواة، التأمل، التي تشكل المتناظرة الثالثة : الكتابية. هكذا يبدو ان الحشوية عدد محدود من الوحدات اللسانية الضرورية لنقل الخبر، ولكي يتم هذا الاخبار يبقى من الضروري حضور اللاحشوية التي تعارض فجأة المتناظرة الأولى بمتناظرة ثانية. وغني عن البيان ان العلاقة بين الحشوية واللاحشوية علاقة جدلية لاعلاقة نفى وإقصاء، يمكن أن تظهرها في النص غير

15) Groupe. Mu : Rhétorique de la poésie. P. 41, Bruxelles, éd complexe 1977

متجانستين على المستوى التوزيعي لأن اللاحشوية هي ذات طبيعة تركيبية. مثلاً هذه الزهرة / جرح، ولكن بتصحيحهما استبدالاً بما بتصحيح الوحدة / جرح / بمعنى / حمراء / ليصبح التعبير : هذه الزهرة حمراء. أو بتصحيح مركب / هذه الزهرة / ب / هذه الثورة / ليتحول التعبير إلى : هذه الثورة جرح - تتجلى علاقتهما تتقدم في صيغة متجانسة.

مادام النص هو تراكب لعدة متناظرات يصبح من اللازم أن نعرف : 1 - المعيار الذي نتحقق به من انتهاء الوحدة أو الوحدات اللسانية إلى حقل تناظري 2 - ثم الطرائق الممكنة لإعادة تقييم العناصر المقصية أو المشطب عليها لتكون حقلاً خاصاً بها.

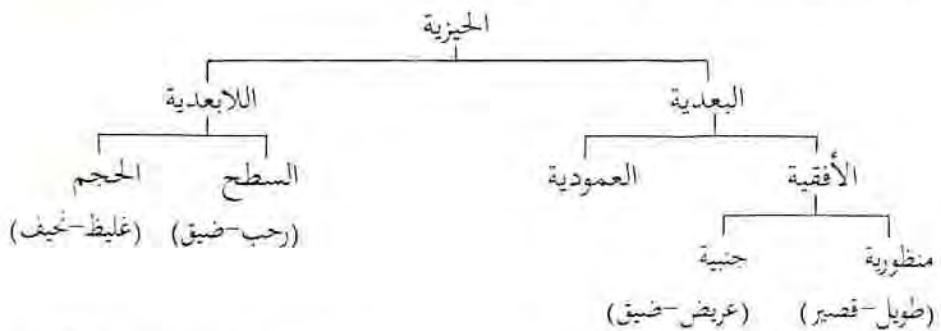
نرى جاك دوبوا ورفاقه أن انتهاء وحدة لسانية لحقل خاضع لاختبار النفي. التعبير (16) : الثلج أسود، ملفوظ لا متناظر allotope وإعادة صياغته بالنفي : ليس الثلج أسود، يقدم جملة متناظرة. الأسود والثلج يشكلان جزءاً من نفس الحقل (حقل اللون). لنقارن المثال التالي : الحرارة مثلثة الشكل، فهو ملفوظ لامتناظر، ومع إعادة صياغته بالنفي : ليست الحرارة مثلثة الشكل، يبقى غير متناظر وإن كان منقياً. في المثال المختار يغير النفي الكيفية الخاصة للشكل المنسوب للحرارة ولكنه لا يلغي اللاملاءمة بين متعارضات. الأبيض والأسود يتعارضان على محور الوضوح Clarté أما السمات الأخرى فهي مشتركة. ما حصل في المثال الأول هو أن سمة أو مجموعة سمات للتوزيع غير متلائمة (سمة السواد في تعارضها مع سمة البياض) والنفي يعيد الملاءمة لها. أما في المثال الثاني (الحرارة ...) فإن عدة سمات توجد غير متلائمة، والنفي لا يعيد الملاءمة إلا لواحدة منها.

أن اختبار النفي يزيل التعارض الذي هو السمة الملازمة للغة : يشير سوسور Saussure أن اللغة تتحدد بالتعارض (القيم الخلافية) الذي يكون الاستبدال بل أن الاستبدال نفسه يعرف كمجموعة من العناصر غير النهائية القابلة لأن يعرض بعضها بعضاً وفق مبدأ الاستدعاء.

الطويل — القصير

الأفقي ← العمودي
الأسود ← الأبيض

ان كل زوج من هذه الأزواج يقوم على محور دلالي يتضمن سماته الدلالية، فرغم تعارض الأسود / الأبيض فان المحور الدلالي الذي يوحدهما هو اللون. ووجود هذا المحور المشترك بين القطبين (الأسود / الأبيض) يوضح انهما منتميان لحقل واحد، ان التعارض القائم بينهما هو في سمة أو مجموعة سمات، لذلك يسهل إزالته بإدخال صيغة النقي عليه. بعبارة أخرى ان التعارض يتمركز - كما يقول إيكو - في وجهة نظر واحدة هي التي تكون المحور الدلالي (17). في ثنائية المرأة / الرجل يتمركز التعارض في محور الجنس. ان الوحدة المعجمية هي مكان تظهر عدة وحدات دلالية بينها علاقة تراثية. يسمى غريماس هذه الوحدات سمات Sèmes لننظر إلى الكيفية التي يفصل بها غريماس النظام السيميائي للحيزية :



يلاحظ أن سمتين (مثلا، منظورية / جانبية) تشغلان قطبي المحور الدلالي (18) (S. VS. nom. S) وهذا ما يجيز للنفي النحوي القيام بإصلاح التعارض وإقامة متناظرة.

بمجرد ما نستنتج حقلًا تناظريًا من الوحدات المتلائمة عبر مسلسل الإدماج نعيد إلى تصحيح العناصر المشطب عليها والتي لم تفهرس على المتناظرة المكونة لنقيم منها اللامتناظرة. يقدم جاك دوبوا بهذا الصدد ثلاث إمكانيات للتصحيح (19).

17) Umberto. Eco : Signò, P. 92. trad. Castellana, Barcelona ed labor. S.A. 1980

18) U. ECO : ibid P. 93

19) Groupe Mu : ibid, P. 51-52

1 - تصحيح العنصر الجديد بأن نضم إليه السمات المتكررة في الحقل وهذا ما يسمح بفهرسته. لنأخذ ملفوظا مكونا من ABC (تنمو الزهرة جرحا) إن A و B (تنمو الزهرة) تقيمان متواردة أولى، وتبقى الوحدة (جرحا) غير مفهرسة. ان تصحيح C يقدم ABC (تنمو الزهرة حمراء / كالجرح) في هذه الحال نتكلم عن مسلسل اعادة التقييم اللاحقة.

2 - تصحيح الحقل المكون بتفريق سمات العنصر الجديد على الحقل. في هذه الحال نكون بإزاء اعادة التقييم استرجاعية. مثال، اجمع فئات ونجمة الحياة. إن /الحياة/ تقتضي اعادة تقييم المقطوعة السابقة. وفي هذا السياق يلاحظ جاك دوبوا إن قصيدة l'abbatros لبودلير تقدم قراءة متسقة لفقراتها الثلاث الأولى بفضل متناظرة معينة من وضوح العنوان، ولكن الفقرة الرابعة تقحم على الملفوظ عنصرا لاتناظريا (=الشاعر) وهو ما يدعو إلى اعادة التقييم الاسترجاعية وبالتالي إلى قراءة ميتاسيميائية Metasémemique للفقرات الثلاث.

3 - هناك امكانية ثالثة تمارس خاصة في حالات تأليف اللامتناظرة. يتعلق الامر بالتعرف على اللاملازمة التي تقود إلى بناء حقل جديد دون ان تلزم بإعادة تقيمه. ان القراءة تكفي بمعاينة القطع على امتداد الخطاب. مثال، المونولوج داخل عملية السرد.

قراءة نص شفوي :

أيام الربيع قالوا جات والزهر في اللشينا
لله يا بوعيون قل لي ماين إنتينا

1 - ان القراءة التالية المعتمدة على مفهوم التناظر كأداة للتحليل تركز على تناظر اختوى، تاركة جانبا، البحث في تناظر التعبير. كما انها تتجاهل، اختيارا، السياق الاجتماعي للنص والأخبارات حول مبدعه، وتنشغل أكثر باستنتاج معاني النص في مثاليته بغاية أن تكشف، من خلال التباس التراكيب وامتداداتها على المستوى التوزيعي Syntagmatique، تماسكا ونظاما استبداليا على المستوى الدلالي. ان مفهوم التناظر الذي حددناه سابقا بأنه إسهاب سياقي لمتواليات سميمائية سيظل عندنا قضية قراءة : يُستنتج بالكفاية النصية الذاتية. على هذا الأساس سنتعامل مع وحدات النص باعتبارها وحدات بلاغية قابلة للتأويل بهدف إنتاج نص مفتوح متعدد

المتناظرات Poly-isotopie وبالنتيجة سوف نميز، استنادا إلى آراء جماعة اللييج في هذا الباب، نمطين من الوحدات البلاغية :

أ - الوحدات البلاغية التي، بالاتفاق، تسمى الوحدات البلاغية المعطاه (ولكوننا نبحت في دلالة النص مثوليا فالأمر يتعلق بوحدات المجاز الذي هو عدول اللفظ عن معناه الأصلي لقريئة مائعة تكون إما لسانية كما في الاستعارة أو سياقية كما في الكناية) وهي تتمظهر على مستوى التركيب وتسمح بالمرور من إدراك المجاز إلى إقامة المتناظرات كما تلعب دور العنصر الرابط المشترك.

ب - الوحدات البلاغية المسقطة projetées الناتجة عن تصحيح (أو إعادة) القراءة لوحداث أخرى مفهومة على متناظرة جديدة، وهو تصحيح استرجاعي. إن الوحدات البلاغية المسقطة تسمح بالمرور من ادراك المتناظرات إلى بناء مجاز جديد.

2 - البحث عن المتناظرات.

1.2 - المتناظرات السياقية.

تسمح القراءة السطحية للنص المقدم باستنتاج متناظرتين متلائمتين :

أ - نطلق على حقل الأولى كلمة «الطبيعة» والوحدات اللسانية التي تظهرها لا تحتاج إلى شرح طويل لأنها لا تتضمن إحالة على موقف التلفظ، فهي تتقدم سياقيا على هذا النحو :

/الربيع / : فصل الربيع حيث يزهر النبات وتُدرك الثمار وتحصل ارتياد الحقول والبساتين.

/الزهر / : النور الأبيض النير ذو الرائحة الطيبة.

/اللشينا / : برتقالة حلوة يُستمتع بمذاقها.

ب - أما المتناظرة الثانية فنعين حقلها بكلمة «المرأة» التي تظهرها الوحدات التالية :

/بوعيون / : عيون المخاطبة (الحبيبة أو المعشوقة) يعيها النداء (يا).

قل / : أي قولي (أنت /المخاطبة). وقد بما كان الشعراء يخاطبون الأنثى بصيغ المذكر للتحايل على أعراف مجتمعهم التي كانت تمنع التغزل بالحرّة جهرا.

/انتينا / : أنتِ أيّها المعشوقة.

إذا قارنا المتناظرين (الطبيعة - المرأة) لا يمكن ان نقول ان الأولى او الثانية لها اهيمنة، فهما متعادلتان في عدد ظهورات سماتهما السياقية المتكررة. ان كل متناظرة تتكون من ثلاثة سميات، ولذا فانهما يتقدمان في السياق بإيجاء الفتوة والخصب والجمال والاستمتاع والشعور بالراحة، ان العلاقة بينهما هي علاقة المشابهة التي ألغت الحدود بين حقليهما المتباعدين مظهريا :

السمات الحشوية	الوحدات السياقية	
	المتناظرة الأولى (الطبيعة)	المتناظرة الثانية (المرأة)
الازهار + الفتوة + الإخصاب + العطاء. البياض + النكهة الاستدارة + الحلاوة + الراحة.	الربيع الزهر اللشينا	أنت القول العيون

ملحوظة : أعدنا تصحيح الوحدة اللسانية /القول / إذ قرأناها مجازا مرسلا تعني «الفهم» (العلاقة الحالية) الذي يتضمن الأسنان البيضاء، النكهة، والاستدارة وهي سمات تتأثر مع سمات الزهر. وقمنا بنفس التصحيح بالنسبة للوحدة /العيون / فأصبحت بجماها سببا (أي آلة) لجلب اللذة والراحة للناظر إليها. يُظهر قرب المعنى بين المستعار منه /الطبيعة / والمستعار له /المرأة / بأن النص يسير نحو نهاية بدون فجوات : يتحرك في سياق حشوية سياقية متجانسة : الربيع ← الزهر ← اللشينا. ثم ينمو طبيعيا بفضل لفظة /العيون / لحملها معنيين : معنى أصلي معهود ومعنى اللذة والراحة وهو ما يتلاءم ويترابط مع صفات /اللشينا /. ان هذه المفظة التي تطلق حشوية طبيعية كذلك (عيون ← قول ← أنت /المرأة) تسهل الانتقال من عالم الطبيعة إلى عالم المرأة وبذلك تخفض المسافة الدلالية بين الحقلين وتدفع بهما نحو تشكيل عالم موحد لا يصدح توقعات المتلقي .. بيد ان هذه الملاءمة بين حقلين

تكشف عن ضيق الحقل الاستبدالي لدى مبدع النص، فالاختيارات المتاحة لديه لمُدح جمال الانثى قليلة جدا تستنفدها بعض عناصر الطبيعة. وهي تعكس طبيعة ذهنية ورؤيته للأشياء. ان رؤيته تتحرك ضمن الأطر والعلاقات القديمة التي ترى المرأة زهرة بيضاء، حقلا للاخصاب، وأداة لجلب المتعة. وواضح ان هذه النعوت والصفات التي تركم على المرأة هي مسجلة في مدونة القيم منذ العهود التاريخية القديمة.

ان اشتراك الحقلين في خصائص متشابهة وتواردتهما متجانسين في سياق النص يوحي بان المتناظرتين متناظرة واحدة لولا التمزق الحاصل على مستوى التركيب بالانتقال من السرد المتضمن راويا خفيا (أيام الربيع قالوا جات ...) إلى الحوار الذي يمسك به راو حاضر (لله يابوعيون قل لي ...) كذلك يتمثل التمزق في العلاقة بين البيتين على صعيد زمانهما : الماضي /المستقبل، حيث يبدو البيت الأول مستقلا يروي حدثا ويصف صورا قائمة أنجزت في الماضي، بينما يتوارد البيت الثاني كنتيجة لما سبقه ولكن ليجسد تمنى حصول كلام مع (الحبيبة) يمكن أن يتم في لحظة آتية.

2.2 - المتناظرات الاستعارية

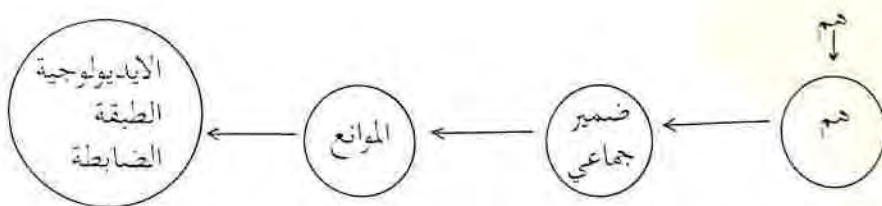
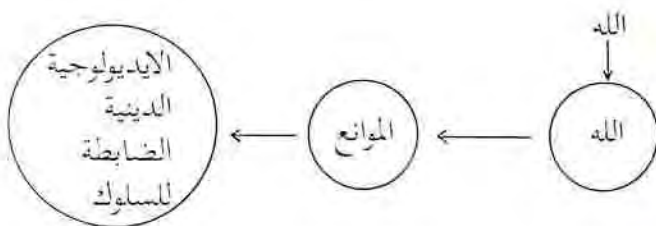
خلال استقرائنا لوحدات الحقلين المكونين اقصينا وحدات في النص فلم نفهرسها على المتناظرة الأولى ولا على المتناظرة الثانية. نفترض انها تكون متناظرة ثالثة، وسوف نطلق عليها كلمة (الموانع). إن الوحدات التي تقيمها تحتاج إلى بعض الإيضاحات :

/هم / : ضمير في (قالواجات)

/الله / : لله يابوعيون

/أنا / : ضمير في (قل لي)

من أجل ان نكون بواسطة هذه الوحدات المتناظرة الجديدة نعتمد إلى استحضار عنصر من المتناظرة الثانية لاعادة ادماجه في مسلسل اقامة متناظرة الموانع، كما سنعمل على بناء الوحدات /هم / ، /الله / بناء مجازيا. على هذا النحو نستحضر وحدة /أنت / من متناظرة المرأة ونضمها إلى وحدة /أنا / ليشكلا متناظرة (الانسان)، وتأخذ من /هم / و /الله / ليس معناهما الحرفي وانما رديفه في الواقع لعلاقة المجاورة بين المعنيين :



ان اعادة تصحيح هذه الوحدات تضعنا امام المتناظرتين التاليتين :

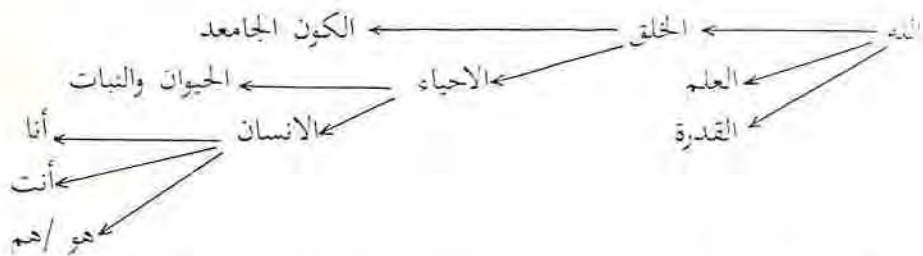
متناظرة الإنسان : أنا
أنت
متناظرة الموانع : الله
هم

وعلى هذه الثنائية : الإنسان / الموانع تتمفصل علاقة السيطرة والخضوع. فعلاقة وحدات متناظرة الانسان يحكسها الاغواء والتملك على الصورة التالية :

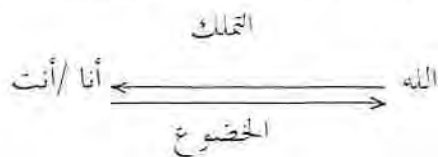
أنت / المرأة :
العطر + العيون + البياض + الجمال
الإغواء
أنا / الرجل :
الثراء + القوة + السلطة + النجاح + المركز
التملك

الإغواء
أنت ← → أنا
التملك

ينتفي الإغواء في العلاقة بين وحدات متناظرة الموانع (الله / هم) لتخضع علاقة انجاذرة والخضوع :



ثم تعود علاقة التملك والخضوع لتحدد وحدات المتناظرتين الثالثة والرابعة :



ملحوظة : ان السمات السياقية اعمولة على الوحدات المفسرة (مثلا، تضمنت المرأة سمات العطر، البياض) هي من انتاج كفاية القارئ الذي يواجه الاشياء من خلال نسق فكري هو بالضرورة نسق اجتماعي من انتاج طبقة اجتماعية في فترة تاريخية معينة. من هنا نعتقد أن الصوفي (أو الشخص المادي في تفكيره) لن يرى في المرأة جمعا كميا للسمات السياقية : العطر، البياض، الجمال. كما ان الله لن يكون في وعي الملحد متضمنا لسمات الخلق والعلم والقدرة. معنى هذا ان استنتاج السمات السياقية في وحدة لسانية لبناء متناظرة يرجع في نهاية التحليل إلى الاستيمولوجي والعلاقات الاجتماعية التي حددت موقف التلطف. ونحن فرقنا تلك السمات السياقية على وحداتها اللغوية لاقتناعا بأن النص المشكل منها هو من الأدب الشعبي العربي الذي تبين عليه رؤية ماضوية رسخت في مدونة القيم الوحدات المشار إليها محملة بالسمات السياقية التي استخرجناها.

3.2 - المتناظرات الدلالية

ان المتناظرات التي درسناها تنتمي إلى مادة المحتوى، وقد تظهرت على مستوى

لكون ايام الربيع جات والتي بسببها الزهر في اللشينا اتوسل اليك ان نخرج معا لليساتين لتعارف ونتحدث.

وتتميز هذه البنية بسلسلة من التقابلات : تقابل في الشخصية بين الجمع والمفرد (هم / أنا). تقابل في الصيغة بالانتقال من الكلام الخبري إلى الكلام الانشائي. تقابل بين العام والخاص، حيث يتحدث في البيت الأول عن الطبيعة ليصبح الحديث في البيت الثاني عن تجربة شخصية في الحب. تقابل بين المقدمة والنتيجة. تمثل المقدمة المكان الذي ستجري فيه الاحداث، ويكون البيت الثاني المتناظرة التي ستنمو حولها الارتباطات.

4.2 - المتناظرات الرمزية

من الدلالة الظاهرة إلى الدلالة الكامنة

بعد ان تم تنضيد متناظرات النص الظاهرة غدا من الممكن اعادة قراءتها وتخفيض عددها بالادماج لاستخلاص البنيات الدلالية الكامنة في النص. نستعيد للوحدتين /الطبيعة / و / المرأة / رمزهما المباشر. ترمز الأولى إلى الحرية والتجدد، اما الثانية فترمز إلى الرغبة والتطلع والحيوية. ان الرمز / الحرية / هو الذي يطلق متناظرة المرأة ويكون سندها، اذ يضع أمامها إمكانية للخروج المزدوج : خروج من السجن القسري (=البيت حيث العزلة) إلى اليساتين والرياض من أجل الاختلاط والتجدد. وخروج على القيود التي تمنعها من التوحد بنصفها الآخر (=الرجل). فالربيع باعتباره فصلا من فصول السنة مناسبة معقولة اجتماعيا تقدم للمرأة للخروج والاختلاط والتحدث في موضوع الحب. انه وسيلة دفاعية ومنفذ ضروري يخلقهما المجتمع لتعبر الرغبات المكبوتة عن نفسها ولتستمر الذات واقفة صامدة. وجود الرمز /الطبيعة في النص له معنى وظيفي توالدي لكونه يوحى للمحبين بالاطمئنان والسلام والسعادة ويقدم لهم فرصة للتحدث فيما كان محرما ويقابل بالقمع.

هناك إذن رغبة ملحاحة لدى الطرفين في الالتقاء والتوحيد، وهذا ما نحملنا على إعادة تقييم العلاقة بينهما، فهي ليست علاقة التملك والأغواء كما أشرنا سابقا، وإنما هي علاقة التماهي identification الرجل يتماهي بالاب قصد الخروج من النرجسية فيستعمل القضيب phallus لامتلاك الولد. والمرأة تتماهي بالأم رغبة في الحصول على القضيب بداخل الذات - أساسا على شكل الرغبة في الحصول على ولد - لتصبح العلاقة القائمة بينهما هي التكامل.

لكن هذه العلاقة مهددة ومحكوم عليها بالتحول إلى علاقة انفصام بتدخل متناظرة الموانع والقيود (=هم/الله). بهذا يتجلى ان النص يضمّر متناظرتين عميقتين : متناظرة الرغبة التي تجسدها سميمات / الطبيعة / ، / المرأة / . في مقابل متناظرة القيود المكونة من سميمات / الله / هم / . وتتميز المتناظرة الأولى أساسا بالحركة في اتجاه إنضاج الإنسجام والألفة، بينما تتصف المتناظرة الثانية بالجمود المعيق لأي انطلاق حرة : تنطلق الحركة بتأثير حاجة وليدة ظرف (=حلول فصل الربيع) مجسدة في شخص يسعى إلى امتلاك المرغوب فيه. بيد أنها لا تستطيع المضي بعيدا في انطلاقها، فالموانع والضوابط الدينية والاجتماعية تعترضها لتسحقها. يتبين ذلك في وقوف الحبيبة موقفا غامضا بإزاء السؤال : قل لي ماين انتينا، إن الحبيبة / المعشوقة ما أندمجت في الجو للإستمتاع باللحظة وسماع عبارات الإطراء والإعجاب من طرف العاشق متخطية بذلك حدود الأخلاق المرسومة، حتى ثارت بداخلها الموانع الدينية والاجتماعية معترضة على أي حوار أو تواصل مع الرجل في شروط غير شرعية. بهذا تنطفئ الرغبة وينزع صاحبها إلى التوافق مع سلطة الواقع. ان سكوت المرأة عن الجواب على عبارات المدح علامة على تشبها بالحياء وامتثالها لأخلاق المجتمع والدين. من هنا يكون المجتمع والدين يلعبان دورا مزدوجا : من جهة يبيحان الوصال بين الجنسين في حدود هي بمثابة أحكام وقيود، ويعترضان على كل محاولة يراد بها تخطي تلك الحدود.

والملاحظ ان المتناظرتين : الرغبة / الموانع تحيلان على ازدواجية أعمق مادامت الرغبة تتحرك في فضاء الحياة، والموانع توحى بالجمود والموت. فهما عنصران لبنية وجودية عميقة قطباها هما الحياة / الموت. وفي هذه النقطة ينبغي أن نلتفت إلى ان البنية العميقة للنص بنية مأساوية، ولكن الشكل الذي يعكسها يستثير مشاعر الفرح والاطمئنان والسعادة يتجلى ذلك في وصف المبدع للربيع والزهرة واللبشينا والعيون، فكأن بعدي النص (الشكل / اختوي) يسيران في اتجاهين متغايرين. والواقع ان المبدع يستعير ألوانا زاهية من الطبيعة تكون وساطة لتخفيض القوى المتصارعة في النص.

أحمد بلشهاب

معجم المصطلحات

Allotopie	اللامتناظرة (أو متغير الموضوع)
Analyse isotopique	التحليل التناظري
Categories classematiques	المقولات (أو الفئات) السياقية
Classèmes	السمات السياقية
Coherence	التماسك
Comptence textuelle	الكفاية النصية
Coreference	التحاول
Enoncé	الملفوظ
Enonciation	شروط التلفظ
Figure Sememique	شكل سيميمائي
Hierarchique	ترائبي
Identification	التماهي
Immenence	المتولية
Indixation	فهرسة
Isomorphisme	التشاكل
Isotopie	المتناظرة (أو المطردة المتواردة)
Iteration	التكرارية
Juxtaposition	التجميع
Lexème	وحدة معجمية
Metasémémique	ميتاسيميميك (أو سمات حول السمات)
Morphème	مورفيم

(Allomorphe)	متغير معنى الوحدة الدلالية
Paradigme	الاستبدال
Poly-isotopie	تعدد المتناظرات
Poly-Semique	تعدد السمات
Pragmatique	التداولية
Presupposition	الافتضاء
Processus de l'intégration	مسلسل الادماج
Redondance	الحشووية
Reevaluation	اعادة التقييم
Retrospectif	استرجاعي
Sèmes (أو الدليلات)	السمات
Sémémique	السميم (الوحدة المعجمية)
Sémémique	سميماتي
Simiosis	السمية (أو السميوزيس)
Superposition	التنضيد
Syntagme	التوزيع
Syntagme	المركب
Test	رائز (أو اختبار)
Topic	الموضوع (أو المحور)

مفهوم التأثير الأدبي عند ابن الأثير في كتابه المثل السائر

أحمد العلوي العبدلوي

إن فكرة تأثير العمل الأدبي على القارئ أو السامع من المسائل التي تنبه لها القدماء منذ عصور بعيدة. ورأوا أن هذا التأثير هو مقياس الجودة الأدبية وأن الأدب الذي لا يتأثر به سامعه ولا يتفاعل معه، لا يصل إلى درجة الجمال، لأن هذا الأدب بمثابة آلة للتواصل الفكري بين الأديب والجمهور.

وفي كتب المؤلفين العرب القدماء إشارات متفرقة إلى الأثر الذي يحدثه سماع أو قراءة نص شعري أو نثري، إلا أن أحداً من النقاد العرب لم يخصص لهذا الموضوع بحثاً مستقلاً، فلم تتجاوز دراستهم النقدية بعض الإشارات التي تدل على أنهم لم يغفلوا هذا الأمر ولم يتجاهلوه كما زعم إبراهيم أنيس.⁽¹⁾

وابن الأثير واحد من هؤلاء النقاد الذين أشاروا إلى علاقة الأدب بالمستقبل. ومدى تأثير هذا الأخير به. وهذه الإشارات أو لنقل الملاحظات جاءت في الغالب كتعقيب على بعض النصوص الأدبية التي ذكرها في كتابه.

فكيف كانت إذن رؤية ابن الأثير حول الموضوع ؟

من المعلوم أن علاقة الأديب بجمهوره علاقة أخذ وعطاء وانفعال، فالأديب يأخذ من مجتمعه اللغة والتقاليد، ويحور هاته اللغة بأسلوبه الخاص تبعاً لتلك التقاليد، «وتبعاً للأصداة التي تثيرها الأشياء في روحه، أي تبعاً لمشاعره، وتبعاً لهذه المشاعر

(1) دلالة الألفاظ ص 128

تتكون العبارة، وهي في كل حالة عبارة نحوية سليمة ولكنها مختلطة بانفعال خاص. (2) وهذا الإنفعال يصبه الأديب على اللغة التي يستخدمها، فتتجدد بذلك استعمالات ألفاظها تبعاً لتجدد انفعالاته.

ولما كان الشعراء قديماً يأتون بالألفاظ المتداولة في مجتمعاتهم، ويستعملونها في تراكيب شاعرية جميلة لم يكن في مستطاع غيرهم من الناس أن يأتي بها، ظنوا أن لكل شاعر شيطاناً يميل عليه أشعاره.

إلا أن فكرة الشيطان هاته لم يعد لها رواج بين النقاد العرب، وأصبحوا يرون أن هناك شعوراً ومقدرة فوق العادية يتوفر عليهما الشعراء فيأتون بأحسن القول، واهتموا الشاعر بالجنون عندما يقول كلاماً لا يقبلونه، لأن الشاعر لا يقول الشعر أو يكتبه لجرد المتعة وتحريك أصابعه، ولكنه يقوله ليتصل بالآخرين، وليبلغهم إحساساته ومشاعره ونظراته إلى الكون والطبيعة، فإذا لم يكن الشعر مرضياً لهم صاحبه بعدم المقدرة الشعرية أو بالجنون.

وقد اتهم ابن الأثير المتنبي بأنه لم يكن في حالة طبيعية عند قوله لاحدى أبياته التي لم يرض عنها صاحبه، فقال معلقاً على البيت الذي يقول فيه المتنبي :

كيف ترثي التي ترى كل جفن راءها غير جفنها غير راق

«وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله في نوبة الصرع التي تنوب في بعض الأيام» (3)

فعلى الكاتب أو الشاعر لكي يرضي الناس عن أعماله أن يلتزم بقيود البناء الهيكلي والتصميم الفني الذي تفرضه عليه قواعد اللغة التي يكتب بها، «فإذا كنا نشبه العمل الأدبي بالحلم، لأن هناك تشابهاً بين رموز صاحب الحلم وخيال الكاتب، أو بين تداعي صاحب الحلم وتفصيل الكاتب لشعره أو لإبداعه الفني، فإن التداعي في العمل الأدبي ليس حراً طليقاً، لأن الكاتب يريد أن تصل مادته إلى جمهوره. (4) ولهذا وجدنا أكثر النقاد لاموا أبا تمام على إفراطه في استعمال المحسنات البديعية في

(2) عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ص 333

(3) المثل السائر 297/1

(4) عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب ص 10

أشعاره، الشيء الذي جعله يخرج في كثير من الأحيان عن العادة المعروفة في نظم الشعر. ورغم أن ابن الأثير يعدّه قمة في الشعر العربي حيث يحتل عنده المرتبة الأولى بين شعراء العرب، فقد واحده كثيراً في هذا المجال، وكاد يهتمه بالجنون عند ذكره لإحدى أبياته في المدح حيث قال : «وما أعلم ما كان حاله عند نظم هذا البيت». (5)

وقد يرجع قول الشاعر في مصدره «إلى الرغبة في التخفيف من عبء خاص وإلى محاولة تحقيق رغبات في عالم الخيال لم تشبع في عالم الواقع». (6) فيكون ذلك مدعاة للإعجاب بهذا الشعر مادام خروجه عن الواقع لا يسبب نفوراً واشمئزاً لدى السامع، وإلا اتهم الشاعر في هاته الحالة بالاختلال العقلي، وهذا ما حصل بالفعل للفرزدق الذي سار بعيداً في عالم الخيال، فتسنى أي يكون هو وحبيبته بعيرين مصابين بمرض معدي مما يجعل الناس تضر بهما وترمي بهما خارج البلد لا لشيء إلا لكي يكونا وحيدين في مكان بعيد دون رقيب، يقول :

ألا ليتنا كنا بعيرين لانرد على حاضر إلا نضل ونقذف
كلانا به عرّ مخاف قرافه على الناس مطلي المشاعر أخشف

وقد عقب ابن الأثير على هذين البيتين بقوله : «هذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين، فإن مراده منهما التغزل بحبوبيه... وهذا من الأماني السخيفة، وله في غير هذه الأمية مندوحات كثيرة». (7)

فليس هناك إذن حرية تامة في أن يتخيل الشاعر أو الكاتب وأن يتكلم كيف يشاء، لأنه يخاطب مشاعر الناس وعواطفهم، وعليه أن يراعي ذلك، إذ «أن كلا من الشعر والخطابة كلام قصد به أولاً وقبل كل شيء التأثير في العاطفة، وسر هذا التأثير يمكن أن يكون عن طريق الجمال في المعنى أو عن طريق الإيقاع والنغم في اللفظ». (8) «والبلاغة بفنونها المختلفة كما هي الآن في لغتنا العربية تخاطب العواطف دون

(5) المثل السائر II/ 325

(6) التفسير النفسي للأدب ص 9

(7) المثل السائر II/ 317 - 318

(8) دلالة الألفاظ ص 197

العقل.» (9) فالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من الوجوه البلاغية، عبارة عن تعابير غير مباشرة أو غير صريحة عن فكرة أو معنى، وهي بالتالي إichاءات تحملها تلك الرموز اللغوية التي يستعملها الأديب، ومع أن كل ماحولنا يثير الوحي، وليس الشعر وحده مصدر إichاء (10) - كما يقول كروتشه - فإن الإichاء ميزة الفنون جميعا. إنها تثير الخُلم وتترك لمتذوقها مجال التفكير والإستنتاج. لهذا يُستقبح بعض الشعر التعليمي، لأنه يقول ما يجب أن تستنتجه بنفسك (11).

فالكلام الصريح في الشعر أو النثر لا يبلغ من القوة ومن التأثير في نفس السامع ما يبلغه الكلام الموحى المليء بالتصورات والتخييلات، ولذلك يرى ابن الأثير أن «الفائدة من الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عيانا، ألا ترى أن حقيقة قولنا «زيد أسد» هي قولنا «زيد شجاع» لكن فرق بين القولين في التصوير والتخييل، فالغرض المقصود من قولنا «زيد أسد» أن يتبين حال زيد في اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الإقدام وغير ذلك مما يجري مجراه، إلا أنا لم نجد شيئا ندل به عليه سوى أن جعلناه شبيها بالأسد حيث كانت هاته الصفات مختصة به، فصار ماقصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا زيد شهيم شجاع قوي البطش جريء الجنان وأشباه ذلك، لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به، أعني الأسد، وأما زيد الذي هو المشبه فليس معروفا به وإن كانت موجودة فيه» (12).

ويرى عزالدين اسماعيل أن دراسة البلاغيين العرب وخاصة ابن الأثير للاستعارة والتمثيل توقفنا على أشياء قريبة من قانون «استوفر» الذي يرى أن الشعر إلى جانب اتصاله بالعاطفة والعقل يتصل أيضا بالجانب الحسي (13). وفي ذلك يقول ابن الأثير: «إنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه

(9) بدوي طبانة : البيان العربي ص 294

(10) روز غريب : النقد الجمالي ص 109

(11) نفس المرجع ص 97

(12) المثل السائر 63/1 - 393

(13) الأمس الجمالية ص 372

أو بمعناه، وذلك أؤكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه» (114). وهذا ما كان عليه الأدباء العرب الذين كانوا يحاولون أن يقربوا إلى الأذهان أفكارهم وأحاسيسهم بنقل الفكرة من شكلها المعنوي إلى صورة محسوسة يفهمها كل الناس.

والصورة المحسوسة التي تعبر عن فكرة أو عاطفة لا تبلغ إلى نفس السامع إلا إذا كانت جميلة. «والجميل - كما يقول عبد القاهر الجرجاني - جميل لتأثيره في النفس، وإثارة المشاعر والذكريات، أو لإثارة الملكات والحواس بتحريكها حتى تفتن إلى الحسن المعنوي وتصله بألوان الحسن المادي الذي تراه في الطبيعة.» (115)

وهذا المقياس النفسي للجمال الذي يراه الجرجاني، لا يبعد عن نظرة ابن الأثير حول الجمال الأدبي عند رده على النقاد العرب الذين يكادون يجمعون - باستثناء الجرجاني - على أن الأبيات التي يقول فيها الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ومالت بأعناق المطي الأباطح (116)

يرجع جمالها إلى شكلها الذي أبدع الشاعر في وصف ألفاظه، وأما معناها فهو ظاهر جلي، ولهذا فلا جمال فيه. وكان رد ابن الأثير هو أن هذه الأبيات يرجع جمالها إلى ما فيها من خيال خصب ومن عواطف جياشة لا تظهر إلى السطح إلا بعد التنقيب عن المعنى البعيد لكلماتها وخاصة لفظة «كل حاجة» التي «يستفيد منها أهل النسيب والرفقة والأهواء والمقة مالا يستفيده غيرهم ولا يشاركونهم فيه من ليس منهم ؛ ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة، فمنها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلي للإجتماع إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به... وأما البيت الثاني فإن فيه أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وفي هذا ما نذكره لتعجب به وبمن عجب منه ووضع من معناه، وذلك أنه لو قال : أخذنا في أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب. فإنه قد شاء عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الالفين

(14) المثل السائر 394/1

(15) البيان العربي ص 192

(16) هناك بيت ثالث يوجد بين البيتين المذكورين ولم يذكره ابن الأثير في كتابه وهو :

وشدت على حذب المهاري رحلتنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

والجدل يجمع شمل المتواصلين... ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه الخيون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلوخ والإيحاء دون التصريح، وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب من أن يكون كشفاً ومصارحة وجهراً.» (17)

فمن هذا التحليل يطالعنا ابن الأثير بمقياس جديد للجمال الأدبي، وهو مدى مقدرة الأدب على إثارة العواطف. والواقع أن للعاطفة مقاماً هاماً في الشعر العربي، لأن معظمه غنائي يتناول المدح والثناء والفخر والمجاء والحماسة والغزل وما أشبه ذلك من مواضيع ذاتية. ولكن ليس معنى هذا أن الشعر إذا كان الجانب العاطفي فيه غير قوي لا يصل إلى درجة الجمال عند ابن الأثير. فما أكثر ما استجاد أشعاراً للبحثري. ووصفها بالحسن، وكان سبب استجادته لها ما تضمنته من رشاقة اللفظ وحسن السبك وتوافق النغم، لأنه «أراد أن يشعر فغنى» (18)

مما تقدم يمكن القول أن ابن الأثير يكاد يوافق الفيلسوف الألماني «كروتش» في توفيقه بين مذهب الرومنطيقية القائلين باعتبار العاطفة أهم أركان الأدب، ومذهب القائلين بنفي العاطفة من الفن، ويتزعمهم بودلير وفلوبير؛ وحجة هذا الفيلسوف «أن العاطفة هي المادة الخام أو المواد الأولية التي يستمد منها الفنان ويحولها بواسطة الخلق إلى مادة غير مادة العواطف والأفكار، والفن يعدل العاطفة ويهدئها ويظهرها في شكل الخيال والتصوير - لا التأوه والتنهد - ويسترها وراء برقع الإيحاء والغموض» (19).

وهذا هو الشكل الذي ظهرت عليه الآليات الشعرية المشار إليها، فالعواطف التي تحمّلها والتي أشار إليها ابن الأثير ليست ظاهرة على السطح، فليس هناك تأوه ولا تنهد، وإنما هناك غموض وإيحاء يسترها ولا تظهر إلا لمن بحث عنها وراء الألفاظ. وقد اهتم ابن الأثير بقضية الغموض في الأدب وما يوقعه هذا الغموض في السامع من حالات نفسية، فهو يرى «أن الإبهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكير واستعظام لما قرع سمعه، وتشوق إلى معرفته والإطلاع على كنهه» (20).

(17) المثل السائر 353/1 - 355

(18) نفس المرجع 380/1، 369/II

(19) النقد الجمالي ص 87

(20) المثل السائر 27/II

هذه الحالة الشعورية التي يحدثها الجانب المبهم في الأدب قد ترفع من قيمته لدى المستمع أو القارئ الذي يحاول جهد المستطاع أن يفك تلك الرموز الغامضة التي عمدها إليها الأديب والتي تحمل من العواطف والأفكار ما يجعل السامع يشارك الأديب في إحساساته وشعوره التي ضمنها شعره أو نثره.

والحقيقة أن العواطف والأفكار التي يحملها الشعر لم يخلقها الشاعر - كما يقول ميخائيل نعيمة - وإنما هي عواطفنا وأفكارنا صوب الشاعر أبصارنا إليها، وتركنا نستجلب ألوانها وتنفضص معانيها ونحن نظن أنها أفكار الشاعر وعواطفه. (21).

وفي هذا الرأي ما يفسر قول ابن الأثير في لفظة «كل حاجة» في الأبيات السابقة الذكر. بأنها يستفيد منها أهل الحب والغرام مالا يستفيده غيرهم ؛ فالإستفادة من هاته اللفظة الغامضة الدلالة خاصة بجماعة معينة وليست عامة، لأنها حركت عواطفهم، فرأوا فيها أنفسهم ولم يروا عواطف الشاعر ولا أفكاره.

ولكن تأثير الأدب على السامع لا يقف عند هذا الحد، بل إنه يؤثر فيه تأثيراً مباشراً يختلف باختلاف نوع الأدب الذي يسمعه والحالة النفسية التي يكون عليها. وقد حكى لنا ابن الأثير حكاية صغيرة توضح هذا التأثير، وهي أن أحد الوعاظ قال في كلام له وحوله جماعة من الناس «جَنَّتْ جَنَّتَاتُ وَجَنَّتَاتُ الْحَبِيبِ» فصاح رجل من الحاضرين في المجلس «وماد وَتَعَاشَى» فقال له رجل كان إلى جانبه : ماالذي سمعت حتى حدث بك هذا ؟ فقال : سمعت جيما في جيم في جيم فصحت» (22)

فالظاهر من الحكاية أن هذا الرجل لم يكن تكرر الجيم وحدها هو الذي أحدث به تلك الحالة الشعورية، وإنما هناك حرف آخر يتكرر في هاته العبارة إلى جانب الجيم وهو حرف النون ؛ ومعلوم أن حرفي الجيم والنون هما أصل كلمة جنون فرما كان من تأثير ترديد هذين الحرفين أن ظن الرجل أنه قد حدث للمتكلم عنه نوع من الجنون إلى أن أغمى عليه، فصاح بهذا الكلام في حالة لاشعورية، وكأنما يريد أن يتم حكاية الواعظ.

وقد وصف ابن الأثير مثل هاته الحالة بأن صاحبها يكون مسحوراً أو في حالة

(21) العريال ص 102 - 103

(22) المثل السائر 1/ 297

سكر. «لأن خير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته» (23) وهذا «أعجب ما في العبارة المجازية لأنها تنقل السامع عن حالته الطبيعية في بعض الأحوال، حتى إنها ليسمح بها البخيل، ويشجع بها الجبان، ويحكم بها الطائش المتسرع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كشوة الخمر، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو إقدام على أمر مهول، وهذا هو فحوى السحر الحلال» (24)

وإذا كان الرجل المذكور في القصة لم يفهم معنى العبارة المجازية التي ذكرها الواعظ، وإنما أثرت فيه ألفاظها الظاهرة فقط، فإن هاته الحالة لا تنطبق تمام الإنطباق على ما أراده ابن الأثير من العبارة المجازية التي تنقل السامع عن حالته الطبيعية، إذ أن المعنى الذي ترمي إليه هذه العبارة المجازية والغموض الذي يكتنفها ويحاول السامع فك رموزه هو الذي يحدث به تلك الحالة الشعورية كما وصفها صاحبنا.

إذن، من مقاييس الكلام الجميل عند ابن الأثير نقل السامع من حالته الطبيعية إلى حالة غيرها. وهذا يذكرنا بمقياس الشعر عند أصحاب نظرية الشعر الصافي الذين يزعمون أن للشعر مقدرة خاصة على التأثير في القاريء بطريقة تشبه السحر (25). إلا أن التأثير الاستطيفي يختلف عن أثر السحر في كونه هدوءاً نشيطاً لا جموداً وانقياداً أعمى. (26) والخلاصة أن ابن الأثير قد لمس مظاهر العلاقة بين الأديب وجمهوره وبين الأدب والنفس، فتنبيهه إلى الظروف التي توائي نفس الشاعر أو الكاتب فتشفيء الأدب، كما أحس بتأثير الأدب في النفس وإثارة ألوان من المشاعر والعواطف والأفكار تبعاً لفك المستمع لغموض الرموز الأدبية التي استعملها الأديب. غير أن ملاحظاته لم تتجاوز مرحلة الإحساس المبهم إلى مرحلة الشرح الموضوعي، فلم يحدد معالم التجربة شعرية، كما لم يشرح لماذا تتأثر النفس بهذا العمل الأدبي أو ذاك شرحاً علمياً، ولهذا لم يخصص حثاً لهذا الجانب، فكل ما هناك ملاحظات وتعليقات بين النصية والأخرى أعطينا بعض الضوء عن آرائه في الموضوع.

(23) نفس المرجع 177/1

(24) المرجع نفسه 63/1

(25) النقد الجمالي ص 106

(26) نفس المرجع ص 109

المراجع

- ابن الأثير ضياء الدين : — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة مصطفى البايي الحلبي، القاهرة 1939.
- ابراهيم أنيس : دلالة الألفاظ طبعة لجنة البيان العربي ط.2 القاهرة 1963.
- بدوي طبانة : البيان العربي دار العودة بيروت 1972 الطبعة 5.
- روز غريب : النقد الجمالي وأثره في النقد العربي دار العلم للملايين بيروت 1952
- عز الدين اسماعيل : الأمس الجمالية في النقد العربي دار الفكر العربي القاهرة 1968
- التفسير النفسي للأدب — التفسير النفسي للأدب دار المعارف القاهرة 1963
- ميخائيل نعيمة : الغربال مؤسسة نوفل، بيروت 1978 الطبعة 11.



مصطلح «أدب الأطفال»

محمد أنقار

(1) يثير مصطلح «أدب الأطفال» مجموعة من الإشكالات المتصلة باللغة والدلالة و الاجراء. وتباين ملامح تلك الاشكالات على مستوى خصوصيات الاداب القومية، ثم على مستوى الاجناس الادبية ذاتها. ومع ذلك، فإن البحث في مظاهر «أدبية» أدب الاطفال يمكن أن يكون غاية أساسية، وقاسما مشتركا بين سائر الاتجاهات النقدية، مهما اختلفت لديها تسميات تلك الادبية.

والملاحظ أن الخوض في مثل تلك الاشكالات قد عرف، على صعيد النقد الغربي، محاولات جريئة لضبط و تصنيف ثم اختبار الاحتمالات المختلفة التي يثيرها المصطلح، بينما ظل النقد العربي مفتقرا إلى الدراسات المنهجية والاجتهادات النظرية رغم التراكم الكمي وتعدد التجارب النوعية التي يعرفها أدب الاطفال في العالم العربي. صحيح أن جماعات عربية قد حاولت «أن تتابع الحوار حول الاتجاهات الجديدة في مسائل أدب الاطفال، فعزا بعضهم هذه التحولات إلى مؤثرات داخلية وخارجية من شأنها ان تصوغ، أو تساهم في صياغة نظرية أدب الأطفال، ولكن هذا الحوار يعاني من التعميم من جهة، وفقدان الصلة الفعالة بين إنتاج أدب الأطفال ووعيه. لنلاحظ على سبيل المثال تلك الحماسة البادية في مجهود النادي الثقافي العربي ببيروت المكرس لثقافة الأطفال(1)، ولنلاحظ ما غلب على هذا المجهود من حساسية تربوية ونية صادقة خالصة لوجه الطقولة كشفنا عن الاختيارات المترددة في عملية النهوض بأدب الأطفال. إن مربية من النادي تريد أن تصل «بمجموعة الأطفال إلى إبداع شكل

(1) انظر : النادي الثقافي العربي : الاتجاهات الجديدة في ثقافة الأطفال. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت [د.ت].

تعبيري جديد، شكل هو الأقرب إلى عالم الأطفال الحقيقي الذي لا يعرفه أحد بشكل كاف». بينما يركز غالبية الباحثين على أهمية مخاطبة الأطفال، فجرت استطلاعات ومناقشات حول مدار «خطاب» الطفولة ودوائر التلقي والتأثير التي تجعل من الاطفال أبناء مملكتهم حقًا. أجل إنها اختيارات مترددة» (2) حائرة يصعب القول عنها. إنها قادرة على بلورة وعي عربي حقيقي حول أدب الأطفال.

تبعًا لمجموع تلك الاعتبارات، فالمعتقد أن كل مقارنة عربية للمصطلح، تكون مرغمة - في الوقت الراهن - على استحضار النموذج الغربي، واستلهاهم مفاهيمه النظرية من قريب أو بعيد، مادامت الريادة تُعقد في هذا المجال للمبادرة الغربية.

(2) إن النتائج الأدبي الذي يوجّه لجمهور الأطفال قد يُسمى، على صعيد اللغة العربية، «أدب الطفل» أو «أدب الأطفال» أو «الأدب الطفولي» أو «أدب الطفولة» أو «الأدب الطفلي» أو «أدب الصغار» أو «أدب الأحداث» أو «أدب النشء». وإذا تجاوزنا، لغويًا، الفروق الجوهرية بين ألفاظ (الطفل - الأطفال - الطفولي - الطفولة - الطفلي - الصغار - الأحداث - النشء) ؛ لاحظنا أن القصد من توظيف مجموع تلك التسميات قد يكون واحدًا، وإن اختلفت في الواقع الدلالات الممكنة. وتبعًا لهذه المفارقة، يحق أن نتساءل : ماهي طبيعة هذا القصد ؟. أو بصيغة أخرى ؛ ماهي دلالة هذا الأدب الذي اصطُح على تمييزه بمجموع تلك التسميات ؟. الحقيقة أن ما بين أيدينا من مصادر عربية لايساعد على تقديم جواب مقنع. أما المحاولات التعريفية للمصطلح فتتسم بالندرة. وبعد بحث طويل في ركام من الكتابات حول أدب الأطفال، عثرنا على تعريف هادي نعمان الهيتي الذي يقول :

أدب الأطفال فرع جديد من فروع الأدب الرفيعة، يمتلك خصائص تميزه عن أدب «الكبار» رغم أن كلا منهما يمثل آثارًا فنية يتحد فيها الشكل والمضمون. وموضوع هذا الأدب هو عرض للحياة من خلال تصوير وتعبير متميزين. وإذا أريد بأدب الأطفال، كل ما يقال إليهم بقصد توجيههم فإنه قديم قدم التاريخ البشري ؛ حيث وجدت الطفولة. أما إذا كان المقصود به ذلك اللون الفني الجديد الذي يلتزم بضوابط فنية ونفسية واجتماعية وتربوية ؛ فإنه - في هذه الحالة - مايزال من أحدث

(2) عبد الله أبو هيف : أسئلة أدب الأطفال مجلة (الموقف الأدبي). ع 127. تشرين الثاني 1981،

الفنون الأدبية. وعليه، فإن أدب الأطفال في مجموعته، هو الآثار الفنية التي تصور أفكاراً وإحساسات وأخيلة تتفق ومدارك الأطفال وتتخذ أشكالاً : القصة والشعر والمسرحية والمقالة والأغنية(3).

إن تعريف هادي الهيبي ينتبه إلى الفرق القائم بين أدب الأطفال الذي ينجز بقصد الارشاد (أي في إطار التربية الخاصة)، وبين ذلك الأدب المتميز بمجموعة من القيم الفنية والنفسية والاجتماعية والتربوية المناسبة لمختلف مدارك الطفولة. والواقع أن هذا الفرق يبدو حاسماً ومبدئياً في سبيل التنظير لأدب الأطفال ؛ ومع ذلك فإن الاسئلة التي لايجيب عنها التعريف هي : إلى أي حد يُعتبر أدب الأطفال جنساً أدبياً متميزاً عن باقي الأجناس الأدبية المتداولة ؟. هل صحيح أن أدب الأطفال يعتبر مقابلاً لأدب الكبار ؟. وإذا كان الأمر كذلك ؛ فماهي الخصائص الأدبية التي تميزه عن أدب الكبار ؟. ثم، هل هناك فروع أدبية رفيعة وأخرى وضيعة - كما يمكن أن يستنتج من تعريف الهيبي - حتى ينتسب أدب الأطفال إلى الأولى دون الثانية ؟. إن ما يمكن قوله بإيجاز عن هذا التعريف هو أنه يقصد إلى وضع أدب الأطفال في الاطار الأدبي العام دونما اعتبار للمفارقات المحتملة التي قد تسمح بتأصيل منظور أدبي على أسس متناسقة. لذا، فإن عبد الله أبو هيف أدخل كتاب الهيبي المشتغل على التعريف المذكور ضمن الدراسات التي «تعتمد على مآثور القول من المعلومات والنظريات في تقسيم المراحل العمرية، ولا تباشر المبادئ الإبداعية لفنون أدب الأطفال في علاقتها الحية بجمهور الأطفال، وبخاصة اختبار التحولات الناتجة عن العمل في إبداع أدب الأطفال»(4).

(3) أما اسماعيل الملحم فلم يشأ تقديم تعريف للمصطلح بقدر ما هدف إلى تحديد جانب من ماهية أدب الأطفال عند ما اعتبر أن «كل أدب يستطيع أن يتفاعل مع الكائن البشري في هذه المرحلة من مراحل الحياة [أي الطفولة] يمكن أن نطلق عليه تسمية (أدب الأطفال)، ونطلق على كاتبه تسمية (كاتب لأدب الأطفال)، سواء كان راشداً أو دون مرحلة الرشد».(5)

(3) أدب الأطفال. وزارة الاعلام. بغداد 1978. ص 71-72. سلسلة دراسات (127).

(4) مرجع سابق، ص 81.

(5) الأطفال والأدب .. منطلقات سيكولوجية وتربوية. (الموقف الأدبي) ع 103 تشرين الثاني 1979.

بديهي أن هذا التحديد لا يهتم بأدب الأطفال كجنس أدبي له نسقه الخاص. إن الطفل العربي مثلاً قد يتفاعل سلبيًا أو إيجابيًا مع خرافة أو حكاية عجيبة تُروى له، أو مع نص من نصوص «ألف ليلة وليلة» أو «كليلة ودمنة» أو زكريا تامر. ومع ذلك فإن هذه الأعمال لا تندرج كلها ضمن أدب الأطفال حسب التحديد السابق، لأن جلها لم يدخل في اعتباره مخاطبة الطفل. إن بعض نصوص «ألف ليلة وليلة» ليست من قبيل أدب الأطفال إلا عن طريق الصدفة، لأنها تخاطب الراشد أولاً، بينما الطفل هو قارئ محتمل، والعكس صحيح في كتابات زكريا تامر الموجهة للأطفال.

«إننا في بحثنا كثيرًا ما نهمل دراسة المخاطب [بفتح الطاء] ولا ننتبه إلا للعلاقة بين المتكلم والمخاطب. ذلك أننا نفترض أن المتكلم موجود في الخطاب ونفترض أن المخاطب لا يوجد إلا خارج الخطاب. لكن يكفي أن نخلل بدقة خطابًا ما ليتبين لنا أنه يرسم صورة واضحة للمخاطب» (6). ومن هنا فإن أدب الأطفال لا يمكن أن يحدّد كنسق إلا إذا كان الطفل داخل دائرة الخطاب. وبمثل هذه الصورة يمكن أن نحدّد من الاطلاق الوارد في اقتراح اسماعيل الملحم.

(4) إن الاقتراح المذكور يفترض تحقق نسبة من التفاعل بين الطفولة ومجموعة من النصوص حتى يمكن أن يوجد أدب للأطفال. وإذا تجاوزنا المحاولات العربية، وجدنا «معجم الآداب» الفرنسي يرى الإشكال من زاوية مغايرة يمكن اختزالها في ثنائية (الراشد ← الطفل) أو (المخاطب ← المخاطب). ذلك أن صعوبة أدب الأطفال - باعتباره جنسًا أدبيًا - تكمن في الانقطاع القائم بين الطفل (الذي يقرأ لكنه لا يكتب شيئًا) وبين الراشد (الذي يكتب وينشر أو يشتري كتبًا للطفل، ولكنه لا يقرأها تمامًا، أو يقرأ منها شيئًا قليلًا). إنه من الصعب إيجاد علاقة اتفاق بين الطرفين. وعلى الرغم من أن الأبحاث الحديثة حول سيكولوجية الطفل قد خففت من حدة هذا الحاجز؛ إلا أنها لم تستطع أن تزيله. (7)

الواقع أن صعوبة التواصل التي يتحدث عنها المعجم المذكور، أصبحت في الآونة الأخيرة تتخذ صيغة مغايرة بفضل التطور الهائل الذي عرفه نقد أدب الأطفال في أوروبا وأمريكا. إذ نتيجة لهذا التطور أصبح النقد يساعد الآباء والمربين في الاقتراب

(6) عبد الفتاح كيليطو : الأدب والغربة. دار الطليعة. بيروت. ط. الثانية 1983. ص 43.

(7) Dictionnaire des Littératures. Publié sous la direction de Philippe Van Tieghem. Avec la

collaboration de P. Josserand. Tome I, P.U.F, Paris 1968. PP. 1262-1263

أدبياً من عالم الأطفال من خلال ما يقدمه لهم من قوائم الاختارات الأدبية المناسبة تختلف مراحل الطفولة. ومع ذلك، يجب الاعتراف بأن الصعوبة تظل قائمة. إلا أننا لا نعتقد أن الأبحاث السيكولوجية هي القادرة وحدها على التخفيف من حدة الصعوبة. إذ في سبيل إيجاد تواصل أدبي بين الراشد والطفل ؛ لأبد من الاستناد على طبيعة أدب الأطفال ذاته لاستخلاص الحد الأدنى من الأدبية الذي يمكن للطرفين أن يتفقا عليه.

(5) تفتتح الباحثة الفرنسية إيزابيل جان كتابها عن «الأدب الطفولي» بالتساؤل المركب التالي : هل يوجد أدب طفولي ؟. وفي أي شيء يتجلى هذا الأدب ؟. وترى أنه يمكن الإجابة - بجرأة - بـ «نعم»، وأن هذا الأدب مريح اقتصادياً (على الأقل في فرنسا)، وأنه يتجلى في ميادين عديدة (المجاميع ALBUMES /الشرائط المصورة /القصص المأخوذة من الفولكلور /القصص المقتبسة أو المبسطة أو المجترأة من الآداب الكلاسيكية). وتؤكد جان وجود أدب خاص بالأطفال له خصائصه المتميزة، وأن هذا الأدب يمر الآن بمرحلتين تطورت وانتقالاً (8). إلا أن تميزه بتلك الخصائص النوعية لا يعني، على أي حال، التقيص من شأنه. إننا نتساءل لماذا نضع شكلاً أدبياً ما في منزلة ممتازة، ونعتبره الشكل الوحيد الصالح كأنه يملك وحده الحق كي يسمى «أدباً» ونستعمله كضابط للمقارنة، بيد أن ما يهم في الواقع هو التعبير الإنساني في أبعد امتداداته، بغض النظر عن مكان ولادته وعن الطريقة التي يتجلى فيها ؟ إن القدرة على الإبداع وعلى إعطاء الخيالي شكلاً، ورفض نظام الدرجات، وتحدي التقييمات التي تفرضها العادات الاجتماعية، ومحاولة تكسير أغلال النزعة الأكاديمية ؛ تعني أن نكون في وفاق مع الحركة الفنية لعصرنا. وهذه الحركة التي عرفت كيف تكشف فن البدائيين ؛ عليها - بالطريقة نفسها - أن تجعلنا نفهم أن الآداب الشفوية، وأغاني المرضعات والرواية الشعبية تستحق بدورها أشكالاً تعبيرية أخرى، وأنها تخفى في طيات تطورها كنزاً مثيراً قادراً على أن يقدم لنا لحظة لطيفة ونعمة لم نسمع أبداً. ويجب على تلك الحركة أن تقوم بالدور نفسه مع الأدب الموجه للأطفال (9).

ISABELLE JAN : La littérature enfantine. Ed. Ouvrieres. Paris 1984, (4^e édition). PP : (8)

7-13.

IDEM, 178-179.

(9)

يمثل هذه الكلمات الشعرية تجيب إيزابيل جان عن التساؤل الذي افتتحت به كتابها. ويمكن القول بأن هذه الباحثة قد حققت غايتين أساسيتين بالنسبة لمصطلح أدب الأطفال : فقد أثبتت من ناحية أنه ليس فرعاً من فروع الأدب الذي نتداوله (كما سبق أن ادعى هادي نعمان الهيبي)، بمعنى أنه لا يوجد «أدب صغير» في مقابل «أدب كبير»، وأنه، من ناحية ثانية، يشارك مطلق الأدب في المتح من المصدر الانساني، وبذلك يمكن أن نتكلم عن «أدب الأطفال» باعتباره «أدباً آخر» يساهم في إنجاز إنسانية الأدب عامة.

(6) إذا ابتعدنا قليلاً عن هذه النتيجة، وجدنا بعض الباحثين لاكتفي بالمقابلة بين أدب الصغار وأدب الكبار، بل يتجاوزها إلى إنكار ونفي وجود أدب للأطفال لسبب منطقي واضح هو : ان الطفل يعتبر أيضاً كائنًا بشرياً. ويستشهد أصحاب هذا الرأي بروايتي «أسفار جليفر» و «روبنسون كروزو» اللتين قصداً بهما البالغون أصلاً، لا الأطفال، وبعدئذ أدت شعبيتهما بين الصغار إلى اعتبارهما روايتين للأطفال. (10)

يرد الكاتب التركي عزيز نسين على هذا الرأي قائلاً : إن هذه الموضوعية قد استندت على مثالين، متجاهلة بوضوح مئات الكتب المؤلفة خصيصاً للأطفال والمحبوكة لديهم، بينما هناك ملايين الكتب الموضوعية للبالغين قد فشلت في إثارة اهتمام الأطفال. بالإضافة إلى ذلك، فإن المبدأ القائل «إن الأطفال هم أيضاً كائنات بشرية» يبدو كأنه يحيط من قدر الأطفال، إذ أن مثل هذا المبدأ يحمل في طياته فكرة ترى أن الكتابة للأطفال تتم بطريقة شبه طفولية ليست ذات مستوى عال من المهارة.

طالما أن هناك اختلافاً في حياة الانسان بين عمر الطفولة وعمر النضج - يتابع عزيز نسين - فلا بد أن هناك أيضاً اختلافاً لا يمكن تجنبه بين أدب للبالغين وأدب للأطفال. كما توجد أيضاً تباينات ملموسة في الطرق التي يدرك بها الأطفال والبالغون الزمان والمكان والعالم :

ليس هناك مخلوق واحد على الأرض لديه طفولة بطول طفولة الانسان. ولأن الطفولة لدى الانسان هكذا بينما النضج سريع المرور ؛ فإن إدراك الزمن ليس هو

(10) عزيز نسين : هل هناك أدب للأطفال ؟ ترجمة : عادل صادق. مجلة (الأقلام). ع 7. س 16. تموز 1981، ص 177.

نفسه بالنسبة للطفل والبالغ. ونحن قادرون على إدراك هذا من خبرتنا الخاصة. فعندما كنا أطفالاً كانت العطلة تجري ببطء شديد، بينما تمضي أيام العطلة ونحن كبار في غمضة عين.

ومن أجل إدراك الاختلاف في قدرة الأطفال والكبار على فهم المكان فإن كل ما على البالغ فعله هو القيام بزيارة لأماكن طفولته. ونحن أطفال كانت تبدو كل الأشياء كبيرة لنا : الغرف، الشوارع، الساحات الخلفية، أما عندما نكبر فإننا لانملك إلا أن ندهش : كيف أمكن أن نكون مخطئين في تقديراتنا إلى هذا الحد ؟ إضافة إلى الزمان والمكان فإن الأطفال والكبار يختلفون أيضاً في إدراك العالم. فرغم عيشهم في هذا العالم الواحد، فإنهم يحيون عملياً في عالمين مختلفين نظراً لأنهما يدركانه بصورة مختلفة. وتبعاً لذلك فإنهما يفهمان الأعمال الأدبية أيضاً بشكل مختلف تماماً. وهذا الاختلاف لا ينفي امتلاك الطرفين القدرة على الفهم كل بطريقته الخاصة، كما لا ينفي أن يتم، في بعض الحالات، تقييم بعض الأعمال الأدبية بصورة متساوية من الجانبين عندما تكون أعمالاً قادرة على إثارة إعجاب الجميع كـ «أسفار جليفر» و «روبنسن كروزو» (11).

نتيجة لكل هذه المعطيات يمكن القول مع عزيز نسين بأن الطفل يفهم الأدب بصورة مغايرة لفهم الراشد حتى وإن كان كل منهما يعتبر كائناً بشرياً. كما أن تقنيات أدب الأطفال ليست من الدرجة الثانية، وأن الحديث عن أدب حقيقي للأطفال يجب أن يأخذ بعين الاعتبار خصائص عالم الطفولة.

* * *

يمكن أن نتوقف قليلاً لتركيب النتائج التي انتهينا إليها لحد الآن فنقول : إن إطلاق مصطلح أدب الأطفال ليعني تجاوز دائرة وإنسانية الأدب الذي تتداوله، كما لا يعني الحديث عن أدب أصلي وآخر فرعي. وهذه الوضعية لاتجعل أدب الأطفال يقابل مقابلة حاسمة أدب الكبار، كما لا تجعله استمراراً له حتى وإن انتمى الأدبان إلى عالم واحد. إلا أن هذه الوضعية لاتنفي وجود أزمة تواصل بين الراشد والطفل، كما أنها لاتحرم، في الوقت ذاته، أدب الأطفال من خصائص نوعية على مستويات شتى أبرزها ضرورة استحضار الطفل كمخاطب أساسي. وإذا كان البحث العلمي قد أشبع

(11) المصادر نفسه، ص : 178.

الخصائص النفسية والأخلاقية والعقلية والفسيولوجية والفنية (بالمفهوم الواسع للفن) لأدب الأطفال درساً وتمحيصاً ؛ فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالبعد الأدبي ذاته لذلك الأدب. صحيح أن نقد أدب الأطفال قد تطور في العقود الأخيرة تطوراً لافتاً، كما سبقت الإشارة، إلا أن هذا النقد قلماً كان يمس البعد المذكور. اعتباراً لهذه الحقيقة، واستكمالاً للنتائج السالفة ؛ سنخصص الملاحظات التالية لفحص مصطلح أدب الأطفال بالنظر إليه في ذاته، وفي الطبيعة الخاصة لتكوينه.

(7) يحيل تعبير أدب الأطفال على مجموعة من المصطلحات المصاحبة التي تتبر بدورها إشكالات شتى كـ «الأدب النسوي» و «الأدب الرنخي» و «الأدب الإسلامي» و «الأدب الجاهلي» و «الأدب الفارسي». وإذا كان من الصعب البث في دقة تركيب هذه المصطلحات، فإن فحصها بسرعة يبرز أن أدباً ما يمكن أن يتميز من خلال التأكيد على المجموعة الجنسية التي تنتجه (النساء) أو المجموعة العرقية (الزنج) أو الموضوع (الاسلام) أو العصر (الجاهلي) أو الأمة (الفارسي).

وجلي أن كل هذه المصاحبات لا تندخل في اعتبارها جمهور المتلقين (إذ الأدب الإسلامي مثلاً قد يخاطب أيضاً حتى غير المسلمين). كما أنها جميعاً، وهذا هو الأهم، تبدو قابلة كي تحدد من جديد، وبصورة أدق، من خلال تشرح طابعها الأدبي ذاته. وإذا قارنا مصطلح أدب الأطفال بالمجموعة السالفة أمكننا تقرير الحقائق التالية :

- إنه أدب يتمتع بأدبية مشروطة.

- إن جمهور الأطفال هو الذي يشرط - من خلال القراءة أو الاستماع - تلك الأدبية.

- إنه مصطلح لا يحدد طبيعة الفئة المبدعة نظراً لنسبيتها (الراشدون - الأطفال أنفسهم - نصوص مجهولة المؤلف).

وإذا شئنا تدقيق المعطيات أمكننا اختزال كل تلك الحقائق في الثنائية التالية (الأدبية ⇌ الطفولة). وهذه الخطوة سنكون قد بدأنا السير في النهج القويم القادر على مقارنة المصطلح في ذاته.

(8) إن خصوصية النصوص الموجهة للأطفال تنبع، في الواقع، من خصوصية عالم الطفولة. والاختلاف القائم بين الباحثين في تحديد طبيعة أدب الأطفال تنبع أساساً من التباين الواسع في فهم تلك الخصوصية. وإذا استطعنا تجاوز الفهم السطحي

لثلك الخصوصية، ثم حاولنا ضبط الحد الأدنى لعالم (الطفل / الطفولة) ؛ فإننا سنكون حينذاك قد كشفنا عن أبرز واجهة من واجهات الإشكال.

لقد سبق أن لاحظنا مع عزيز نسين بأن عالم الأطفال يتميز عن عالم الكبار من حيث إدراك الزمن والمكان والعالم. ومن الممكن أن نضيف الآن إلى هذه المستويات الثلاثة مستويات أخرى دون أن تقع في الشطط. إلا أننا حتى مع تلك الاضافة سنظل بعيدين عن تحديد ماهية (الطفل / الطفولة).

إن المهتمين بعالم الطفل يدركون جيداً، وقبل غيرهم صعوبة ضبط تلك الماهية. والمعروف أن دلالة (الطفل / الطفولة) قد مرّت عبر التاريخ بمحطات شتى، وأن مواقف خطيرة وجازمة تتخذ من الطفل بسبب تباين دلالات تلك اللفظة لدى الشعوب. وقد ناقش جان شاتو خلال بحثه عن ماهية الطفل مجموعة من التحديدات التي اعتبرت الطفل هو الرجل الصغير، أو هو ذلك الكائن البشري الذي يتميزّ بسمات فيسيولوجية محددة، أو هو ذلك الكائن الذي ينمو، أو هو رجل مُقبل، أو هو ذلك الكائن الذي يمكن أن يعرف من حيث نشاطه التلقائي في اللعب.

لقد لاحظ جان شاتو أن مجموع هذه المحاولات قد طمحت إلى ضبط ماهية الطفل من حيث محتواه CONTENU، أي من حيث أفعاله ونشاطه وتكوينه الجسمي. ثم تساءل : لماذا لانطلق هذه المرة للبحث من خلال الاطار المشتمل على ذلك المحتوى CONTENANT. بمعنى أن نبحث في تلك القوة التي تنظم مجموع معارف الطفل وتتحكم في ألعابه ؟. لماذا لانعرف الطفل من زاوية وجوده، أي من حيث المبدأ الذي يتمركز وسط كل تلك الاعتبارات ؟.

من خلال هذين التساؤلين انتهى جان شاتو إلى أن الطفولة يمكن أن تعرف كاندفاع إلى الأمام، كانطلاق نحو آفاق عدّة، كمجموعة مقاصد وكجراًة. وهذا الاندفاع سوف يخضع فيما يعد للبنى الاجتماعية، ومع ذلك تظل الطفولة هي مرحلة العمر السعيد حيث يبقى الاندفاع القديم، بعيداً عن الالجام والاجبار، كأنه يتجه نحو بلدان معروفة. (12).

إن النتيجة التي وصل إليها جان شاتو في تعريفه للماهية الأساسية للطفل ترتبط

JEAN CHATEAU : "Qu'est ce qu'un enfant ?". IN : Psychologie de l'enfant. Publié sous la direction de Maurice Debesse, Lib. Armand Colin, 1956, Ed. Bourrelrier, PP : 18—21.

من ناحية بمفهوم الاندفاع المشروط، ومن ناحية ثانية برصد ماهو ثابت بين كل أنواع «الطفولات» الممكنة. إنه لايرفض تباين خصائص النمو التي تميّز مراحل الطفولة حسباً يمكن أن يظهر للوهلة الأولى، بقدر ما يعتبر تلك الخصائص معطيات متحولة لاتسمح بضبط الخط الثابت في تلك المراحل. (13)

(9) إن تمييز السمات الثابتة لعالم الطفل بالصورة السابقة، يمكنه أن يفتح أمامنا المجال للبحث عن خصوصية «أدبية» النصوص التي تخاطب ذلك الطفل. إن كتب الأدب والنقد عندما تبسط الحديث عن أصول الأجناس الأدبية الموجهة للكبار لاتنسى أن تستحضر، بطريقة ضمنية أو صريحة، جمهور المتلقين وطبائعهم الثقافية والنفسية والاجتماعية. مثلاً إن الحديث عن القصة القصيرة باعتبارها خطاباً أدبياً ذا قدرة تأثيرية تختلف اختلافاً واضحاً عن قدرة تأثير الرواية ؛ هو في الواقع حديث عن مدى تأثير تقنيتين أدبيتين في فئة معينة من الجمهور. ولقد سبق أن أوضحنا ذلك عندما ذكرنا بأن تحليلاً دقيقاً لخطاب ما سيكشف لنا أنه يرسم صورة واضحة للمخاطب. إن الحديث النقدي عن «أوليس» لجيمس جويس، هو حديث يستلزم جمهوراً من الراشدين لن يكون بينهم طفل أبداً. صحيح أننا قد نعثر على طفل قادر على قراءة هذا العمل الأدبي، ولكنه مع ذلك لن يكون بالضرورة قارئاً في مستوى خطاب هذا النص.

إن كل أدب حقيقي للأطفال هو الذي يوظف مختلف التنويعات الأدبية لتحقيق غايتي المتعة والتسلية قبل أية غاية أخرى. هو ذلك الأدب الذي يواكب الاندفاع المفتوح المشروط، ويجعل غايات التربية والتعليم والتهديب تحتل مراتب ثانوية. وتلك التنويعات لاتخرج، في الواقع، عن القيم السائدة في مطلق الأدب، ولكنها ليست في الوقت ذاته قيماً سائبة قد تنطبق، تبعاً لعموميتها، على كل الآداب. إن كتاب أحمد نجيب عن «فن الكتابة للأطفال» (14) مثلاً هو من هذا القبيل الذي يسع كل شيء إلا تقنية الكتابة للأطفال.

(13) «فن قصص الأطفال بالمغرب». بحث تقدم به كاتب هذه السطور لنيل دبلوم الدراسات العليا. كلية الآداب. فاس 83-1984، ص 9.

(14) صدر عن : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. مصر 1968. سلسلة «دراسات في أدب الأطفال» (11).

إن كل نص قد يصبح أدباً للأطفال متى خضعت عناصره كلها، وبدون استثناء
للمسمات التي يفرضها ذلك الاندفاع المتدرج المشروط. بمعنى أن بناء النص هنا
لايستجيب فقط لمتغيرات خصائص النمو، ولا يخضع للقواعد الأدبية، بل يتجاوز كل
ذلك ليصبح مواكباً لذلك التفتح السعيد الذي يطبع بحق كل الطفولة.

إذا تجاوزنا الاطار الشامل لأدبية النصوص الموجهة للأطفال ؛ أمكننا الحديث عن
خصائص نوعية متباينة تقتضيها تقنية كل جنس أدبي على حدة، وتستلزمها الوسائط
الثقافية المتعددة. فالتركيب الفني للقصة الموجهة للأطفال المرحلة المتوسطة مثلاً ليس
هو بالضرورة تركيب التشيد أو المسرحية الموجهة للأطفال المرحلة ذاتها(١). كما أن بناء
رواية موجهة للأطفال المرحلة المتأخرة لن يكون منطبقاً على بناء شريط مصور منجز
أيضاً للأطفال تلك المرحلة.

إن الأدبية التي نتحدث عنها في هذا المجال تستفيد، في حدود، من نتائج علم
النفس وعلم التربية ولكنها ليست تابعة لهما، ومن هنا ذلك التصور الخاطئ الذي
يرى في أدب الأطفال فرعاً من فروع علم النفس أو علم التربية. ومثل هذا التصور
هو الذي يسود بحدة في العالم العربي، وهو الذي لايفسح المجال لتعميق النظر في
طبيعة هذا الأدب. صحيح أن الصورة الحديثة لأدب الأطفال قد برزت على يد رجال
التربية ؛ ومع ذلك فإن هذا الأدب ليس حكراً على تلاميذ المدارس ولا على الأطفال
المتعلمين. إنه خطاب يملك وسائل شتى يستطيع أن يتجه بها إلى طفل ما قبل
المدرسة، والطفل الجري، بل وحتى إلى الطفل الأمي.

تبعا لهذا المنظور، تتسع دائرة الأدبية التي نحن بصددتها لتفرز مجموعة هائلة من
التنوعات التي تشمل النصوص المكتوبة والمرويات والمصورات وأنماطاً تعبيرية أخرى
تقتضيها غبطة الطفولة وليس تصورنا القبلي للأدب. ومن هنا نعتقد أن تاريخاً حقيقياً
لأدب الأطفال لم ينجز بعد نظراً لأن التنوعات الأدبية للأجناس والوسائط لم تنجز
هي الأخرى لحد الآن. وماهو موجود في هذا المضمار لايتجاوز في معظمه الرصد

(١) على الرغم من اختلاف الباحثين في تحديد مراحل الطفولة ؛ يمكننا قبول التقسيم التالي :

- (1) المرحلة الأولى (من الولادة إلى نهاية السنة الثانية)
- (2) المرحلة الثانية (من السنة الثالثة إلى نهاية السنة الخامسة)
- (3) المرحلة الثالثة (من السنة السادسة إلى السنة الثامنة)
- (4) المرحلة الرابعة (من السنة التاسعة إلى البلوغ).

الخارجي لبعض أجناس الأدب الموجه إلى جمهور معين من الأطفال.

(10) إن الأدبية التي نعالجها تتخذ إذن مظاهر عدة من حيث المفهوم الحقيقي للطفولة، ومن حيث الغاية وعناصر الأدب وتباين الأجناس والوسائط، وكذا من حيث صلتها بعلمي النفس والتربية. إلا أن مظهرها الأصيل يتجلى من خلال علاقتها الجدلية مع مصطلح الطفل، وتكوينهما لنسق تعبيري جديد. إن كل تصور لا يستثمر هذه الجدلية سيظل بعيداً عن رصد حقيقة أدب الأطفال. لذا، فإن إيزابيل جان تقترب كثيراً من الحقيقة عند ما ترى : أن الأمر الهام في أدب الناشئة ليس أن يكون أولاً يكون من الأدب، بل أن يكون «طفولياً». (15)

نخلص من كل ذلك إلى القول بأن إطلاق مصطلح أدب الأطفال لايحيل ضمناً على طفل بعينه أو مرحلة طفولية بالذات أو على علاقة تقابلية بين الصغار والكبار أو على قطيعة بين عالم الأطفال وعالم الراشدين. إن أطفال ذلك المصطلح يتمتعون بخصوصية متسمة بالمفارقة. إنها خصوصية قابلة للضبط والمخاطبة بصورة راجحة، ولكنها ليست متمنعة حتى يمكن أن نقول إن أدب الأطفال هو خطاب مستحيل أو زائف. وهذه الخصوصية الراجحة يستطيع أن يستشرفها بدرجة جيدة ذلك «الإنسان» الذي لم يقطع بعد الصلة بعالم طفولته الرحب، أي بإحدى علامات إنسانيته. ومثل هذا «الإنسان» هو الذي يملك مؤهلات كبيرة لمخاطبة الأطفال، وإن كان ذلك الخطاب يحتاج إلى درجة عالية من التقنية والتدريب. ولكن مع ذلك، فإن شرط امتداد الطفل في الراشد له اعتباره القوي في هذا المضمار. لذا فإن الذاكرة الشعبية قد تنوب عن ذلك الإنسان في القيام بمهمة الابداع.

هذا إذن هو الطفل الحقيقي الذي يجب أن يُدرك من مصطلح «أدب الأطفال». وهذا أيضاً هو طفل ثنائية (الأدبية ↔ الطفولة).

(11) نستطيع الآن أن نقرر بأن ما استعرضناه من أفكار، قد تم إدراجه من خلال سبيلين : الأول عرضنا فيه وناقشنا طائفة من الآراء المتصلة بـ «أدب الأطفال» من حيث هو ظاهرة أو إشكال. والثاني حاولنا من خلاله الوصول إلى طبيعة المصطلح في حد ذاته، واللاحاق على أدبيته وترابطها الجدلي مع «الطفل» باعتباره بؤرة الخطاب.

ونود الآن أن نوضح تساؤلين لأبد أن يكونا قد دارا بخلد القارئ وهو يتابع الأسطر السابقة.

أ) إن صورة الطفل التي استندنا عليها في إنجاز هذه المقاربة قد جاءت متسمة بهالة مشرقة، وبأوصاف شفافّة رقيقة (السعادة/الغبطة/اللطف...)، بينما الواقع يقول لنا بأنّ وضعية الأطفال - على الأقلّ في وطننا العربي - ليست بمثل تلك السعادة. فما سرّ هذه المفارقة إذن؟

الحقيقة أن عمر الطفولة في حد ذاتها كان وما يزال وسيظلّ مرحلة العمر السعيد الذي يستلهم منه أدب الأطفال غبطته وإنسانيته حتى وإن شوّه البشر معالم هذه الصورة الجميلة، وحرّموا الصغار من العطف والطمأنينة والمرح. بمعنى آخر، إن أدب الأطفال باعتباره أدب العمر السعيد يستطيع أن يبحث عن ذاته الحاملة حتى في الواقع المزري للطفولة، بين مظاهر الحزن والفقر والشقاء. إن غبطة الطفولة نشعر بها قوية مع بؤس «سندريللا» وفقر «علي بابا» وخوف «أليس». وأكثر من ذلك، يمكن أن نقرّ بأنّ أدب الأطفال لن يستطيع أن يحقق إنسانيته كاملة ما لم تعالج نصوصه سعادة الطفولة وهي مهددة بمظاهر الحرمان العديدة.

ب) إن بحثنا عن «أدبية» أدب الأطفال قد يعني قطع الصلة بينه وبين الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي قد يفرز ذلك الأدب. فهل هناك بالفعل قطيعة حقيقية؟

إن مما لاشك فيه أن أدب الأطفال لا يمكن أن يكون بتأثراً نتاجاً لغويّاً أو فنياً معلقاً في سماء لا تربطها بمادية الأرض أية وشيجة. فنحن نستطيع تحديد كثير من خصائص ذلك الأدب باعتباره نتاجاً اجتماعياً، أو سلعة استهلاكية أو خطاباً إيديولوجياً. إلا أننا سنكون حينذاك قد قدمنا، قبلياً، إجراءات التأويل والتفسير على مرحلة الكشف عن الماهية الحقيقية للأدب. إن الأدبية التي نقصدها تمثل الحد الأدنى للاعتبارات التقنية التي يقتضيها تركيب (أدب الأطفال). ومتى تم ضبط ذلك الحد؛ صار بالإمكان فتح النص على المكونات الخارجية للخطاب.

* * *

إن هذه المقاربة التي أنجزناها لمصطلح أدب الأطفال لا تعدو أن تكون مشروعاً تنظيرياً أولياً. ويجب أن نعتز بأن قلة الدراسات المونوغرافية عن نظرية أدب الأطفال

وأجناسه وأسلوبه وإشارته تجعل من هذا المشروع عملاً يشكو من النقص. ومهما يكن من أمر، فإن ماتم عرضه في الصفحات السالفة، يمكن تلخيص استنتاجاته في الملاحظات التالية :

I إن مقارنة مصطلح «أدب الأطفال» يمكن أن تتم إما باتباع خطة التعريف أو خطة التنظير. والملاحظ أن المحاولات العربية في هذا المجال لا تتجاوز - على ندرتها - التعريف الظاهري إلى التقصي والتنظير بغية تأصيل هذا الأدب، لذا يصبح من اللازم استلهم نتائج الدراسات الغربية في سبيل إثراء البحث العربي عن طبيعة ذلك المصطلح.

II إن «أدب الأطفال» هو الذي يوجّه بصورة أساسية للأطفال، وهو الذي يرسم للطفل المخاطب - صراحة أو ضمناً - صورة واضحة.

III إذا كان الراشد يتدخله بين الطفل وأدبه قد جرّ بعض الباحثين إلى الحديث عن قطيعة أو أزمة ؛ فإن نقد أدب الأطفال المعاصر قد خفف كثيراً من غلواء تلك الأزمة، وأصبح عاملاً مساعداً ومسهلاً للأمورية الآباء والمربين والكتاب في تعاملهم الأدبي مع الأطفال.

IV لا أحد يستطيع أن يشك في الوجود الكمي أو القيمة الاقتصادية لأدب الأطفال. ومع ذلك، فإن الذي يكشف عن الوجود الحقيقي لذلك الأدب هو بعده الانساني الذي هو في الواقع امتداد لانسانية الأدب الذي نتداوله نحن الكبار.

V إن الذي ينكر أو ينفي وجود أدب خاص بالأطفال، يستند إلى مقولة أن الطفل لا يختلف عن الراشد من حيث أن كلا منهما يعتبر كائناً بشرياً. إلا أن حقيقة الطفولة وطريقة تفاعل الأطفال مع كتبهم تثبتان أن أدب الصغار يفهم من قبلهم بصورة مغايرة تماماً لفهم الراشدين.

VI إن أدب الأطفال ليس فرعاً من فروع أدب الكبار، وليس مقابلًا أو استمراراً له حتى وإن كان، مثله، يستفيد من التقنيات الفنية ويستلهم الروح الانسانية. إن هناك أدباً يجمع الآداب كلها، ثم هناك خصوصيات وثوابت تقتضيها طبيعة الأجناس والتنوعات الأدبية.

VII إن السبيل الذي يجب أن نسلكه لضبط ماهية هذا المصطلح تكمن في البحث عن العلاقة الجدلية التي تختزلها ثنائية (أدب - الأطفال). بمعنى أن نفحص

طبيعة هذا التركيب في ذاته، وتحدد المستويات «الأدبية» التي يقتضيها، جدلاً، «الطفل» من حيث هو مخاطب أساسي.

VIII إن «طفل» الثنائية السالفة ليس رجلاً صغيراً، أو كائناً بشرياً ينمو، أو رجلاً مُقبلاً، أو طائفة أخرى من المتغيرات. إنه في جوهره اندفاع سعيد ومشروط. إنه انطلاق نحو آفاق عديدة. إنه مجموعة مقاصد وجرأة، على أساس أن يخضع ذلك الاندفاع فيما بعد للبنى الاجتماعية.

IX إن أدب الأطفال الحقيقي هو الذي يساير «طفل» الاستنتاج السابق، ويقدم له أولاً المتعة والتسلية قبل الفائدة والتعليم والتهديب، ثم يُخضع شتى التنويعات والعناصر الأدبية لطبيعة تلك القوة المندفعة.

X إن «أدبية» أدب الأطفال ليست، في الواقع، غريبة عما نعرفه من قيم تقنية في الأدب الذي نتداوله، ولكنها تتميز عنه، في الوقت ذاته، من حيث تدخلها في تكييف جميع مكونات أدب الأطفال، وطبعها بضوابط خاصة.

XI إن «الأدبية» التي تصنفها، قد تستفيد من الميادين الاجتماعية أو الاقتصادية أو النفسية أو التربوية. ولكنها إذ تفعل ذلك، فلكي تبني خطابها الخاص ومنطقها الذاتي.

XII إن «الأدبية» التي نحن بصدد تحديدها تتسم بالشمول من حيث أنها تخاطب طفولة الطفل كيفما كانت وضعيته التعليمية والاجتماعية (تلميذ - متعلم - حرفي - أُمي). وهي، من ناحية أخرى، تعتمد على وسائط تعبيرية شتى بما فيها المصوّرات والمرويات والأدب الشعبية.

XIII إن «الإنسان» الحقيقي الذي يستشعر - وهو في مرحلة الرشد - نبض الطفولة في أعماقه، هو الذي يملك - قبل غيره - القدرة على إنجاز أدب طفولي ناجح متى كان ملماً بالتقنيات التي يقتضيها ذلك الانجاز. كما أن روح الطفولة التي تحتزنها الذاكرة الشعبية هي التي تجعل هذه الذاكرة قادرة على أن تنوب عن الراشد في مخاطبة الطفل في عديد من المواقف.

XIV إننا لانستطيع - الآن - أن نتجرأ لتحديد ماهية مصطلح «أدب الأطفال» في بضع كلمات، ولكننا نرى فيما قدمناه، علامات يمكن أن تكون معالم واضحة لمقاربة المصطلح.



البحث اللساني والمناهج الأدبية

عبد العزيز الحلوي

تمهيد : طرح الاشكالية وحصر الموضوع.

يستفاد من موضوع هذا العرض مسلمة فحواها أن البحث اللساني الحديث قد ساهم في ارساء قواعد مجموعة من المناهج الادبية المرتبطة بالدرس اللساني في أوروبا، وأن هناك علاقة جدلية بين الدراسات اللسانية من جهة وتطور المناهج الادبية الحديثة من جهة ثانية.

والواقع أن علم اللغة الحديث قد شهد منذ (فرديناند دي سوسير) (Ferdinand de Saussure) اقبالا كبيرا وحقق انتصارات هائلة سواء على مستوى التنظير أو التطبيق، الشيء الذي جعل أسسه الابستمولوجية تغزو كافة ميادين المعرفة المتصلة بالعلوم الانسانية.

ولم يكن الادب لينعزل - بحكم طابعه اللغوي الانساني - عن موجة التأثير هذه، ولا لينزوي متقوقعا عن نفسه، مجترالاجاده المرتبطة بالماضي القريب أو البعيد، بل إنه قد دخل هو الآخر في حلبة التغيير، واستفاد من كافة المناهج التي تسلط أضواء كاشفة على خصوصياته الشكلية والمعرفية.

وينبغي ألا ننسى - منذ البداية - الطابع اللغوي للابداع الادبي، واعتماد الادب على المستوى اللغوي ذي البعد الفني للتعبير عن الذات في علاقتها مع نفسها وفي ارتباطها بموضوعات العالم الخارجي.

إن الناظر إلى المرحلة الدقيقة الحاسمة التي يعيشها العرب اليوم، تستوقفه ظاهرة في

غاية الاهمية والخطورة، هي طغيان جانب الأخذ على جانب العطاء، وهي ظاهرة تفرض نفسها بحكم المرحلة التاريخية والحضارية التي نعيشها، ومن هنا يستمد مثل هذا البحث مشروعيته. فمناهج الدراسات الادبية في أوروبا قد تطورت ولانزال، ونحن أحوج ما نكون إلى تتبع مراحل هذا التطور جريا وراء النهضة الادبية المنشودة ولأجل أن نملاً فراغا في حياتنا الثقافية سببته لنا ظروف التخلف.

لقد ارتبطت المناهج الأدبية والنقدية في أوروبا بكافة مجالات العلوم الانسانية وعلى رأسها التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، وحاولت الافادة من النتائج التي توصلت إليها هذه العلوم، بل إنها قد توسلت أحيانا بمناهج العلوم الدقيقة محاولة بواسطتها سير أغوار العمل الادبي.

ولانريد هنا - بإطلاقا - أن نحكم هذه المناهج، أو نبرز مآلها وما عليها، إيماننا منا بأن لكل منهج طابعه الاجرائي المحدود، الذي يرتبط نجاحه أو فشله بطبيعة العمل الادبي من جهة وبمستوى مهارة تطبيقه من جهة ثانية وبامكانياته في التغلغل إلى أعماق الابداع الادبي من جهة ثالثة.

والذي يهمنا في هذا البحث المتواضع هو أن نشير إلى أن المسيرة التطورية للمناهج الادبية قد انتهى بها المطاف الآن إلى الربط بين الخطاب الأدبي والدرس اللغوي، وهو ربط يستند أصوليا إلى الطابع اللغوي الذي يعتبر أكثر الجوانب بروزا في الانتاج الادبي.

وهذا يستدعي منا أن نكشف العلاقة القائمة بين مستويين من الخطاب : الخطاب التداولي العادي والخطاب الادبي، ومن خلال هذا الكشف سنستطيع أن نتبين خصوصيات هذا النوع الاخير من الخطاب.

١. أسس التمييز بين الخطاب الابلاغي le discours de communication والخطاب الادبي le discours litteraire :

هناك - ولاشك - صلة وطيدة بين هذين النوعين من الخطاب. ذلك أن أداة الادب هي اللغة، وهي من أعظم أدوات الانسان في تعامله مع عالمه وفي السيطرة عليه .. وهي بالاضافة إلى كونها أداة للتواصل، تلعب في الأدب دورا جماليا فضلا عن وظيفتها الاساسية التي هي الابلاغ. كما أن تطور هذه الأداة من النافع إلى

الجميل، من مجرد تسمية الأشياء إلى القدرة على تكوين المفهوم والتعميم والتجريد والرمز يتخذ شكلا خاصا. لم يتضح للغة (بعدها الفني) إلا بمرور ملايين من السنين من التجربة الروحية والاجتماعية والمعاناة الذهنية والجسمالية ومن النضج النفسي والعضوي للانسان(1)

فالبناء اللغوي - لأية لغة - إنما ينهض على وحدات أولية، هي الوحدات الصوتية، التي لايزيد عددها في لغة من اللغات عن بضع عشرات والوحدة الصوتية، أو الصوت اللغوي : الفونيم le Phonème، لأمعنى لها وحدها، إنما هي الوحدة الأساسية الصغرى التي تبنى منها الكلمات. وتتميز كل لغة بملامحها الصوتية الخاصة أي أن كل لغة من اللغات تستقل بنظام فونيمي محدد(2)

وهذا البناء اللغوي الذي نتج عن نضج طاقتي التجريد والتعميم عند الانسان، والذي يكشف عن قدرته الخلاقة في مجال التصوير الذهني واستخدام الرموز، يوجد في الخطاب «العادي» أو الاستعمال النفعي للظاهرة اللغوية، كما يوجد أيضا في الخطاب الأدبي. غير أنه يمكننا القول بأن هذا الأخير يمثل حلقة متأخرة من حلقات التطور، فهو فن من فنون القول أفرزته شروط تاريخية وحضارية معينة، وهو - إذا شئنا - مستوى راق من مستويات استعمال اللغة.

وإذا ثبت هذا، فإن بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي خصائص مشتركة وبينهما أيضا فوارق. فهما يلتقيان في الشروط الأساسية التي يقوم عليها الخطاب أيا كان، ويختلفان في الموصفات الشكلية والوظيفية.

أما الشروط الأساسية التي يقوم عليها الخطاب كيفما كان نوعه فيمكننا توضيحها باستعراضنا لنظرية الإخبار *théorie d'information* كما ضبطها منذ سنة 1949 كل من شانون (Shannon) ووافر (Weaver)، وتقضي كل عملية تخاطب - حسب هذه النظرية - جهازا أدنى يتكون من باث *émetteur* ومتقبل *récepteur* وناقل *Véhicule*. فأما الباث فهو المتكلم ويقوم بعملية التركيب *le codage* أو *l'encodage* أي صياغة المفاهيم والمتصورات المجردة في نسق كلامي محسوس، يُنقل

(1) مقدمة في نظرية الأدب للدكتور عبد المنعم تليمة، ص : 11.

(2) نفس المرجع، ص : 14، نقلا عن ليونارد بلومفيلد من كتابه *Langage*.

عبر القناة الحسية بواسطة الاداة اللسانية، وأما المتقبل وهو المخاطب فيقوم بعملية التفكيك le décodage، والملاحظ أن عملية التركيب تنطلق من المتصور المجرد لتجسيمه في قالب كلامي محسوس بينما تنطلق عملية التفكيك من موضوع حسي لارجاعه إلى مدلولاته المجردة(3). وقد تطورت هذه النظرية أشواطاً في مجال البحث اللساني الحديث إلى أن وصلت اليوم إلى نموذج جاكسون (Jakobson) القائم على تدقيق عناصر جهاز التخاطب الستة وتحديد وظائف الكلام بحسب تصنيف هذه العناصر، وباعتبار أن بنية الكلام تكون مصطبغة بسمات الوظيفة الغالبة la fonction prédominante ويطول بنا الكلام إذا نحن حاولنا أن نستعرض نظرية جاكسون في هذا المجال وسنكتفي بالاحالة على كتابه Essais de linguistique وخاصة الصفحة 218 من الجزء الأول منه حيث يتحدث عن تداخل الوظيفة الشعرية مع باقي وظائف اللغة في جميع أصناف الخطاب في الوقت الذي تكون فيه الوظيفة الغالبة في الخطاب الأدبي. يقول جاكسون ما نصه :

La fonction poétique n'est pas la seule fonction de l'art du langage, elle en est seulement la fonction dominante, déterminante, cependant que dans les autres activités verbales elle ne joue qu'un rôle subsidiaire accessoire.

وإذا كانت نقطة الالتقاء بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي تكمن في الطبيعة اللغوية لكل نص إبداعي أدبي، فإن هذا الطابع اللغوي (الشكلي) يجعل من النص موضوعاً مشتركاً في الدراسة بين عالم اللغة ومنظر الأدب والناقد الأدبي. لكن، إذا كانت هذه - بالذات - هي النقطة المشتركة بين الخطابين، فأين تكمن الفوارق ؟ إن لغة الأدب تتميز عن لغة الخطاب النفعي بخاصية أساسية لأنها خاصية مرتبطة بأصل نشأة الحدث اللساني في كلتا الحالتين : فبينما ينشأ الكلام العادي عن مجموعة انعكاسات répercussions مكتسبة بالمران والملكة نرى الخطاب الأدبي صوغاً للغة عن وعي وإدراك.(4)

وقد عرف (تَرْفُطَان تودوروف) (Tzvetan Todorov) الخطاب الأدبي بانقطاع

(3) انظر ص : 23 - 24 من : Jean-Michel Péterfalvi : Introduction à la psycho-linguistique

P.U.F. 1970

(4) ص : 69 من -I- La grammaire Française René-Léon Wagner :

الشفافية عنه، معتبراً أن الحدث اللساني «العادي» هو خطاب شفاف transparent نرى من خلاله معناه، ولانكاد نراه في ذاته، فهو منفذ بلوري لايقوم حاجزاً أمام أشعة البصر. بينما يتميز عنه الخطاب الأدبي بكونه تَخْنًا opaque غير شفاف، يستوقفك هو نفسه قبل أن يمكنك من عبوره أو اختراقه، فهو حاجز بلوري طلي صوراً ونقوشاً وألواناً فصد أشعة البصر أن تتجاوزَه (5) يقول (تودوروف) :

“... Il existe deux pôles dans la conscience humaine du langage : le discours transparent et le discours opaque. Le discours transparent serait celui qui laisse visible la signification mais qui est lui-même imperceptible : ce serait là un langage qui ne sert qu'à "Se faire entendre". En face de lui, il y a le discours opaque qui est si bien couvert de "dessins" et de "figures" qu'il ne laisse rien entrevoir derrière ; ce serait un langage qui ne renvoie à aucune réalité, qui se satisfait en lui-même. Tous les énoncés linguistiques se situeraient dans l'espace entre ces deux pôles, se rapprochant plus ou moins de l'un ou de l'autre”

أما جماعة (مو) Le groupe (mu) فيعرفون الخطاب الأدبي بكونه «خلق لغة من لغة» أي إن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة هي لغة الأثر الفني، ويعتبر هذا التعريف فكاً لاشكالية الوجود والعدم، فالحدث الأدبي «خلق» ولكن الخلق متعذر إذ «لاشيء يخلق، ولاشيء يفنى، وكل موجود متحول» فالخطاب الأدبي تحويل Transformation لموجود (6).

ويرى هؤلاء أنفسهم أن جسر الانتقال بين صنفَي الافراز الكلامي أي بين الخطاب الإبلاغي والخطاب الأدبي، إنما يتجسم في الوظيفة البلاغية la fonction rhétorique وهو مصطلح عوضوا به مصطلح جاكسون : الوظيفة الانشائية la fonction poétique (أو الوظيفة الشعرية كما يحلو لبعضهم أن يترجموها).

هذه باختصار أهم الفوارق المميزة للخطاب الأدبي عن الكلام العادي، وقد أشرنا

(5) ص : 102 من Tzvetan Todorov : Littérature et signification

(6) ص : 19 من Le groupe (mu) : Rhétorique générale

- منذ قليل - إلى أن النص الأدبي صار موضوعا للبحث اللساني، ومعنى ذلك أن اللغويين أخذوا يستخدمون «أدواتهم» اللغوية في تناول النص الأدبي، وهو ما يعرف اليوم بالاسلوبية أو علم الاسلوب.

II . الدرس اللساني والخطاب الأدبي :

مما لاشك فيه أن الدرس اللغوي كان - منذ القدم - متصلا بالنص الأدبي، وكثيراً ما اتخذ النحو الوصفي التقليدي نصوصاً من مستوى رفيع ليستنبط منها قواعده، أو ليعتبرها نماذج معيارية modèles normatifs من فن القول يمكن الاحتذاء بها والنسج على منوالها. ولكن، فرق بين أن يكون النص الأدبي في خدمة الدرس اللغوي وأن يحصل العكس.

إن الذي يهمنا في هذا المقام هو محاولة كشف الروابط التي تربط بين الظاهرة الأدبية ومجالات الدرس اللساني، ومعرفة ما تخصص عنه تناول البحث اللساني للإبداع الأدبي من مناهج أنصبت ميادين الدراسة الأدبية، وكشفت عن مواطن الجمال في الإبداع الأدبي، وزودت النقد الأدبي بمقاييس موضوعية أو أقرب ما تكون إلى الموضوعية.

وأول ما يثير انتباهنا - ونحن بصدد طرح إشكالية العلاقة بين اللسانيات والأدب - الصلة العضوية الموجودة بينهما، وقد ألح عليها كل من رونيه ويليك René Wellek وأوستان وارين Austin Warren محدّذين هذه الصلة على أساس أن اللغة هي القاطع المشترك لدائرتين متداخلتين، فهي للسانيات موضوع العلم ذاته، وهي للأدب المادة الخام شأنها شأن الحجارة للنحات، والألوان للرسام، والاصوات لواضع الألحان(7).

ومن حقائق التاريخ أن لسانيات (دي سوسير) أحدثت ثورة كوبرنيكية في حقل الدراسات اللغوية، ذلك أن موقفه كان بمثابة رد فعل عنيف ضد الدراسات التاريخية المقارنة للغات، مما جعله يعطي الصدارة لما هو «تزامني سکوني» (synchrone, statique) على ما هو «تاريخي تطوري» (historique, évolutif)، وليس هذا الموقف من طرف عالم اللغة الكبير إنكاراً تاماً لكل بعد تاريخي، ولكنه رفض لاسبقية «التفسير التاريخي» على «التفسير البنيوي». وهذا ما دفعه - بالطبع - إلى أن ينادي بأن

انظر ص : 31 - وكذلك ص : 243 من La théorie littéraire

«موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها (en-soi) ومن أجل ذاتها (et pour-soi) (8).

كما دعا (دي سوسير) إلى التفريق بين اللغة المعينة (la langue) ولغة الفرد (la parole)، فاستغل علميا ثنائية تكاملية (un rapport binaire de complémentarité) - هي من مواضع (des conventions) التفكير اللساني وأحكم استغلالها عندما وظفها في أبحاثه فتبعه فيها كل اللسانيين بعده وحاولوا تركيزها في تحليلاتهم فدققوها بمصطلحات تتلون بسمات اتجاهاتهم اللسانية، ومن بين هذه المصطلحات : اللغة والخطاب (Langue - discours) حسب ق. قيوم (Gustave Guillaume) والجهاز والنص (Système - texte) حسب ل - هيالمسالف (Louis Hjelmslev) - وطاقة القوة وطاقة الفعل (Compétence - performance) حسب تشومسكي (Noam Chomsky) - والنمط والرسالة (code - message) حسب جاكبسون (9).

ومن أبرز نظريات (سوسير) في علم اللغة العام تخطيطه لتصنيف اللغة على أسس معيارية (normatives) تنظر إلى أن اللغة مستويات : فمنا سام، ومنها وضع، فمجال اللسانيات يتسع في منظوره ليشمل لغة الخطاب بما تتضمنه من لهجات ولغات مهين ومواضع بعض الأقوام، بل إن هذه الانماط من الخطاب التي تعتبر في العرف الاجتماعي وضعية قد نالت من الحظوة لديه - بما لها من حيوية - ما لم تنله لغة الخطاب الادبي.

وقد عرف (سوسير) اللغة بكونها ظاهرة اجتماعية وكائنا حيا : هي كُـلُّ (un tout) يقوم على ظواهر مترابطة العناصر، ماهية كل عنصر وقف على بقية العناصر بحيث لا يتحدد أحدها إلا بعلاقته بالعناصر الأخرى، فاعتبر الحدث اللغوي جهازاً (un système) تنظم في صلبه عناصر مترابطة عضوياً بحيث لا يتغير عنصر إلا انجر عن تغييره تغير وضع بقية العناصر وبالتالي كل الجهاز، وما أن يستجيب الكل لتغير الجزء حتى يستعيد الجهاز انتظامه الداخلي (10).

(8) انظر كتاب : Ferdinand de Saussure : cours de linguistique générale

(9) ارجع إلى كتاب : د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ص : 38-39

(10) الدكتور عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ص : 50

وقد كان لهذه الآراء وغيرها - مما تقوم عليه دراسات (سوسير) اللغوية - أثر في تطور المناهج الأدبية. ذلك أن النظريات اللغوية الحديثة - منذ سوسير إلى الآن وهي تسعى جاهدة إلى طرح البدائل في ميدان تحليل الابداع الأدبي. ولعل أوسع المناهج، وأكثرها انتشاراً في تحليل النصوص، هي تلك التي تعنى بدراسة إطار الأدب ومحيطه وأسبابه الخارجية ... غير أن الدراسة الخارجية في سعيها إلى تفسير النصوص الأدبية على ضوء سياقها الاجتماعي والتاريخي تقع عادة في «شرك» الشرح التعليلي، أو بالأحرى، شرح الأصول التي انبثق عنها هذا الأدب، وتقف حائرة أمام وصف الاثر الأدبي بالذات، وتحليل بنياته، وتقييم مدلولاته ...

لقد حدثت في مطلع القرن العشرين ردات فعل على المناهج (الخارجية)، تجلت في التحريض على دراسة الأدب من الداخل، والتركيز أولاً وقبل كل شيء على الآثار الأدبية ذاتها (11)

إن دعاة دراسة الأدب من الداخل - على اختلاف مناهجهم وتشعب آرائهم - ينادون بإعادة النظر في المناهج القديمة على ضوء العلوم الحديثة وخاصة علم اللغة العام، ويرون أن طريقتهم أقرب إلى التغلغل في أعماق النص والكشف عن بنياته الفنية.

ورغم أن الكثير من آراء (دي سوسير) قد استهدفت للعديد من المآخذ، ورغم أن كثيراً من نظرياته قد عُدلت وُنقّحت على غرار ما يحدث عادة في سائر العلوم، فمما لا شك فيه أن لسانيات سوسير قد أنجبت مولودين، أحدهما أسبق زمنياً من الآخر. فأما الأول فهو علم الأسلوب الذي ظهر أول ما ظهر بشكله الحديث على يد العالم اللساني السويسري (شارل بالي) (Charles Bally) الذي يعتبر بحق باعث الأسلوبية الأول في العصر الحديث. وأما الثاني فهو منهج البنيوية في البحث. وقد غزا هذا المنهج معظم العلوم الانسانية بما فيها علم الاجناس البشرية (l'ethnographie) وفلسفة العلوم ومجالات النقد الأدبي، إلى درجة جعلت (رولان بارت) (Roland Barthes) يعتبر أنها أصبحت بمثابة «اللغة الشارحة لكل حضارتنا المعاصرة» (12) وبعد

(11) الدكتور موريس أبو ناصر : الاستية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة ص 7-5

(12) الدكتور زكريا إبراهيم - مشكلة البنية ص : 11

أن استفادت البنيوية من معطيات العلوم الدقيقة وخاصة الرياضيات الحديثة رجعت إلى منيعها الأصلي : اللسانيات فطورتها وربطت بينها وبين الأدب ربطاً جديداً، أفضى في نهاية الأمر إلى ظهور ما يسمى «بالأسلوبية البنيوية المعاصرة». لقد احتكت البنيوية بالنقد الأدبي فأنجبا معا «شعرية» poétique جاكبسون و«إنشائية» تودوروف و«أسلوبية» ريفاتير (Riffaterre). كما أن علم العلامات (la sémiologie) قد ازداد هو الآخر ثراء وخصباً في ظل شجرة اللسانيات، إذ امتدت بينه وبين النقد الأدبي وشائج وصلات تجسم شبكتها اليوم نزعة في النقد والتحليل اصططلحت على نفسها بعلامية الأدب (Sémiotique littéraire)، ويتزعمها اليوم في المدرسة الفرنسية (أ. ج. قريماس) (A. Julien Greimas).

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن الأسلوبية علم له قواعده وأصوله، وهو يعالج النص الأدبي من خلال منطلقات مبدئية يحتكم فيها إلى مضامين معرفية، وله مصادرته النوعية (ses postulats)، أما البنيوية فليست علماً ولا فناً معرفياً وإنما هي فرضية منهجية قصارى ما تصادر عليه أن هوية الظواهر تتحدد بعلاقة المكونات وشبكة الروابط أكثر مما تتحدد بماهيات الأشياء (13).

والآن، بعد أن قمنا بهذه الاطلالة العابرة على أهم الاتجاهات الأدبية التي نشأت بين أحضان علم اللغة العام. سنحاول أن نتناول كل اتجاه على حدة محاولين توضيح بعض المفاهيم وإبراز بعض المناهج التي تفرعت عن كل اتجاه. وسنبداً بالحديث عن الأسلوبية باعتبار أنها ترتبط باللسانيات ارتباطاً الناشئ بعلة نشوئه :

1. الأسلوبية ومناهجها :

أشرنا منذ قليل إلى أن الأسلوبية الحديثة برزت إلى الوجود في مطلع هذا القرن على يد (شارل بالي). فمنذ سنة 1902، ادعى هذا العالم أنه قد سن لعلم الأسلوب أسسه وقواعده النهائية وذلك عندما أصدر كتاباً أسماه (Traité de stylistique Française) : «مصنف الأسلوبية الفرنسية». ويظهر أن (بالّي) قد نهج في أبحاثه مناهج العلوم الانسانية. وكان شديد التأثير بأستاذه العالم اللغوي (فرديناد دي

(13) انظر مقدمة كتاب : الأسلوبية والأسلوب للدكتور عبد السلام المسدي ص : 6

سوسير). وأول ما يلتفت الانتباه في بحوث بالّي تمييزه بين العلم وموضوعه أي بين الاسلوبية والاسلوب (14). ويرى (بالّي) «أن اللغة في الواقع تكشف في كل مظاهرها وجهها فكريا ووجهها عاطفيا، وتتفاوت الوجهان كثافة حسب ما للمتكلم من استعداد فطري وحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون فيها» (15) كما «حدد (بالّي) حقل الاسلوبية بظواهر تعبير الكلام وفعل ظواهر الكلام على الحساسية» (16). ويرجع الفضل (لبالّي) في كونه أول من عرف الملفوظ الأدبي بأنه كيان عضوي يحدده انسجام نوعي وذلك في خضم تشريعه للاسلوبية، وقد انتهى به التحليل إلى ضبط هوية النص انطلاقا من علاقة التناسب القائمة بين أجزائه. (17)

ويصنف (بالّي) الخطاب، فيرى أنه نوعان : ماهو حامل لذاته غير مشحون البتة وماهو حامل للعواطف والخلجات وكل الانفعالات، ذلك أن المتكلم حسب (بالّي) «قد يضفي على معطيات الفكر ثوبا موضوعيا عقليا مطابقا جهد المستطاع للواقع، ولكنه في أغلب الأحيان يضيف إليها - بكثافات متنوعة - عناصر عاطفية قد تكشف صورة الأناني صفاتها الكامل وقد تغيرها ظروف اجتماعية مردهاحضور أشخاص آخرين أو استحضر خيال المتكلم لهم» (18).

ثم يحصر (بالّي) مدلول الاسلوب في تفجر الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها عن عالمها الافتراضي إلى حيز الوجود اللغوي، فالاسلوب حسب تصور (بالّي) هو الاستعمال ذاته، فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة والاسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر كما في مخبر كيماوي (19).

والاسلوبية - حسب (بالّي) - يجب أن تهتم أولا وبالذات باللغة التلقائية الشائعة قبل أن تهتم بالخطاب الأدبي، وذلك لأن معدنها ما تقوم عليه اللغة من وسائل تعبيرية

(14) انظر كتاب : Traité de Stylistique française, 3eme édition. Paris Klincksieck 1951. tome1

P. 14-25-26

(15) انظر الجزء الأول ص : 12 من المرجع نفسه

(16) انظر الجزء الأول ص : 16 من نفس المرجع.

(17) انظر نفس المرجع ص : 21 - 22

(18) نفس المرجع، ص : 12 من ج 1

(19) نفس المرجع، ص : 14 - 25 - 26 من ج 1

تبرز المفارقات (les dissemblances) العاطفية والارادية والجمالية، بل حتى الاجتماعية والنفسية (20).

وإذا كان علينا أن نصدر تقييما عاما لاسلووية (بآلي)، فيمكننا أن ننقل ما قاله عنها (جان بول كولان) (Jean - Paul Colin) عندما وصفها بأنها أول اسلووية ملتحمة ومنهجية (cohérente et systématique) (21).

وقد حاول كل من (جيل ماروزو) (Jules Marouzeau) ومارسيل كروسو (Marcel Cressot) أن ينحوا بالاسلووية منحى علميا وأن يشحنها بشحنات التيار الوضعي (le positivisme)، لكنهما فشلا في محاولتهما وأدى ذلك إلى رد فعل معاكس برز على يد الألماني (ليو سبيتزر) (Léo Spitzer) الذي نهج في الاسلووية منهجا انطباعيا ذاتيا يقول بنسبية التعليل واستحالة العلمانية في مجال البحث الاسلوبي (22).

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نعرج على كل الآراء التي قيلت في ميدان الاسلووية، سواء عن منطلقاتها الإستمولوجية أو عن وظيفتها وأهدافها، نظراً لاختلاف الآراء وتشعبها، كما لا يمكننا أن نرصد التطور الذي شهدته عبر سنين طويلة.

ولكن، مع ذلك يمكننا أن نقرر بأن محاولات متنوعة في التصنيف لم تستطع أن تنقذ الاسلووية من تناقضاتها الداخلية الناتجة عن تضارب الآراء وتباين وجهات النظر. وقد تمخضت هذه المحاولات منهجيا عن الاتجاهات الآتية :

- 1 - الاسلووية الوصفية (Stylistique descriptive) التي تقوم على التأثيرات، وهي ذات طبيعة دلالية (Sémantique).
- 2 - الاسلووية التوليدية (Stylistique génétique) التي تستند إلى الاسباب، إلى «المؤلف» وتقرب من النقد الأدبي.

(20) راجع في هذا الصدد الصفحات : 71 - 75 من كتاب : René-Léon Wagner : La grammaire : Française, tome : 1

(21) Rhétorique et stylistique in Comprendre la linguistique.

(22) نفس المرجع السابق.

3 - أسلوبية الأشكال (Stylistique des formes) التي تنطلق من العبارة.
 4 - أسلوبية الموضوعات (Stylistique des Thèmes) التي تنطلق من المحتوى (23).
 إن قضية تقريب الأسلوبية من الأدب التي ظلت في الواقع متعثرة زمنا طويلا، قد أثبتت بحدة منذ عشرين عاما بواسطة صدور كتابين مهمين : أولهما سنة 1963 وهو عبارة عن ترجمة قام بها (نيكولا روي) (Nicolas Ruwet) المؤلف جاكبسون : «محاولات في اللسانيات العامة» "Essais de linguistique générale" وهو مجموعة من المقالات المهمة التي رفض فيها العالم اللغوي الكبير التفرع الثنائي (La dichotomie) لغة / أسلوب وسلط الضوء على البنية الثنائية القطب (La structure bipolaire) للغة (مصلحا ذات البين بين موسير والبلاغة) راسما الخطوط العريضة لوظائف اللغة الستة. إن الوظيفة الشعرية التي تهمننا بالدرجة الأولى تبرز في كل نص ذي منظور فني، وقد بلور جاكبسون نظريته في تعريف هذه الوظيفة بكونها «إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع» :

"La fonction poétique projette le principe d'équivalence de l'axe de la sélection sur l'axe de la combinaison" (24)

ويرى جاكبسون أن «الأسلوبية» فن من أفنان شجرة اللسانيات، ويعرفها بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن سائر أصناف الفنون الانسانية ثانيا، وتحدد ماهية الأسلوب - حسب جاكبسون - بكونها «الوظيفة المركزية المنظمة» (La fonction centrale organisatrice) لذلك كان النص - في منظوره - خطابا تتركب في ذاته ولذاته.

هذه خلاصة ما تهمننا من آراء جاكبسون في كتابه. وثانيهما (أي ثاني الكتابين) يشبه الأول في جوانب متعددة، ويحمل عنوان : «نظرية الأدب» "Théorie de la littérature". ويتضمن مجموعة مقالات للشكلايين الروس نشرها في الثلاثينات من هذا القرن، وقد قام بترجمتها تودوروف. وصدرت في باريس سنة 1965.

(23) التصنيف مقتبس من المرجع المذكور.

(24) Roman Jakobson : Essais de linguistique générale t. 1 p. 220.

والمبدأ الأساسي الذي اعتمد عليه هؤلاء الشكلاونيون ولازموه وبنوا عليه منهجهم في تحليل النصوص وفق الاتجاه الألسني، مبدأ لخصه جاكبسون في جملة واحدة : «إن موضوع علم الأدب ليس الأدب بل الأدبية» أي العوامل التي تجعل الأثر الأدبي أدبيا. يقول جاكبسون :

“L’objet de la science littéraire n’est pas la littérature mais la littérarité”.

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن جاكبسون من أعمدة اللسانيات البنوية، وأنه شارك سنة 1960 في ندوة عالمية حول «الأسلوب» انعقدت بجامعة آنديانا (L’Université d’Indiana) بالولايات المتحدة الأمريكية وكانت هذه الندوة تضم أبرز علماء اللغة ونقاد الأدب وأقطاب علم النفس وعلم الاجتماع، وفيها ألقى جاكبسون محاضرته في موضوع : «اللسانيات والانشائية» “Linguistique et poétique” فأقر بمتانة الصلة بين اللسانيات والأدب وسلامة الجسر الرابط بينهما.

أما في سنة 1967، فقد وفق تودوروف إلى بلورة قواعد أصولية الانشائية وذلك في كتابه «الأدب والدلالة» (Littérature et signification) (25)

إن أعمال كل من جاكبسون وتودوروف تدخل في نطاق ما يسمى اليوم بالتيار البوييتيقي (Le courant poéticien). وكلمة (بوييتيكا) يضيق مفهومها أحيانا فتعني الشعرية، ويتسع أحيانا أخرى فتعني الانشائية والشعر في منظورها، أو بصفة أعم الأدب، يُعْتَبَرُ لغة من نوع خاص، وليس كما يُعْتَقَدُ استعمالا داخل اللغة المشتركة، على حد تعبير الشاعر الأمريكي (رانسوم) (Ransom) الذي استشهد به جاكبسون. وإذا كان (بيير كيرو) قد حدد الأسلوبية بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغته البلاغية (26) فإن هذا التعريف يتدقق شيئا فشيئا إلى أن ينصب في نهاية المطاف على البحث عن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبير ومدلول محتوي صياغته.

وإذ ينتقل البحث من دراسة الشيء في ذاته، إلى دراسة العلاقة بينه وبين شيء

(25) طبعة : Larousse - Langue et Langage, 1967

(26) انظر : ص 65 من : Pierre Guiraud : La stylistique, Coll O.S.J

آخر، فانه يتخذ بعدا بنيويا، إذ البنيوية كما قلنا تركز بالخصوص على العلاقات بين الظواهر التي تشكل وحدة متاسكة.

وهكذا، فإن توسل الأسلوبية بالمنهج البنيوي في البحث قد أفضى إلى ظهور ما يسمى حاليا بالأسلوبية البنيوية (La stylistique structuraliste) ويتولى ريادةها العالم الأمريكي (ميشائيل ريفاتير) (Michaël Riffaterre) وهو أستاذ بجامعة (كولومبيا) متخصص في الدراسات الأسلوبية منذ مطلع العقد الخامس، ومن أبرز مؤلفاته (محاولات في الأسلوبية البنيوية) (Essais de Stylistique Structurale)

وقد انطلق (ريفاتير) من آراء (ليو سبيتزر) محاولا أن يؤسس دراسة أسلوب الكاتب على قواعد أكثر صرامة وأقل ذاتية واختبارية (empirique) من أسس الانطباعيين، فهو في تعريفه للأسلوب قد دنا من الموضوعية العلمية، وذلك عندما حددته اعتمادا على أثر الكلام في المستقبل : إنه «إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها بحيث إذا غفل عنها شوه النص، وإذا حللناها وجد لها دلالات تمييزية خاصة، مما يسمح بتقرير أن الكلام يعبر والأسلوب يبرز» (127).

“Le style est la mise en relief qui impose certains éléments de la séquence verbale à l’attention du lecteur, de telle manière que celui-ci ne peut les omettre sans mutiler le texte et ne peut les déchiffrer sans les trouver significatifs et caractéristiques.

Ce qui revient à dire que le langage exprime et que le style met en valeur ...” (27).

ويعرف (ريفاتير) الأسلوبية بأنها علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيع المؤلف الباث مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المستقبل، والتي بها يستطيع أيضا أن يفرض على المستقبل وجهة نظره في الفهم والإدراك، فينتهي إلى اعتبار الأسلوبية «لسانيات» تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين وإدراك خاص.

يقول (ريفاتير) ما ترجمته :

«فمهمة الأسلوبية إذن هي دراسة اللغة من زاوية المُفَكِّك (Le décodeur) إذ أن

ردود فعله وفرضياته حول مقاصد المُرَكَّب (l'encodeur) وكذا أحكامه المعيارية هي كلها بمثابة استجابات للمنبهات المَرَكِّبة في السلسلة الكلامية. وبهذا تصير الأسلوبية لسانيات لتأثيرات الرسالة ولردود حدث الإبلاغ ولوظيفة الضغط الذي يمارسه على انتباهنا» (28).

“La tâche de la Stylistique est donc d'étudier le langage du point de vue du décodeur, puisque ses réactions, ses hypothèses sur les intentions de l'encodeur, et ses jugements de valeur sont autant de réponses aux stimuli encodés dans la séquence verbale. La Stylistique sera une linguistique des effets du message, du rendement de l'acte de la communication, de la fonction de contrainte qu'elle exerce sur notre attention” (28)

ملحوظة : القارئ المتقبل : le récepteur أو le décodeur

المؤلف البات : l'émetteur أو l'encodeur

وقد استعملنا : المفكك في مقابل le décodeur

المركب في مقابل l'encodeur

وإذا نحن تأملنا وظيفة الأسلوبية كما يراها (ريفاتير)، فسنجد أنها تقوم على الركح الثلاثي الذي يتركز عليه كل خطاب، وهو المرسل والمرسل إليه والرسالة، لكن هذه الوظيفة تتحدد بخاصية التأثير والضغط اللذين يمارسهما الخطاب الأدبي انطلاقاً من مواصفاته وخصوصياته.

ويربط (ريفاتير) خاصية التأثير بحدة المفاجأة، فيقرر بعد التحليل أن قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التي تحدثها تناسباً طردياً *relativement proportionnels* بحيث كلما كانت غير منتظرة كان وقعها على نفس المتقبل أعمق... (29).

ويمكن القول باختصار بأن أسلوبية (ريفاتير) جعلت التفكير ينصب بالدرجة

La fonction stylistique in Essais de stylistique structurale P. 146

(28)

(29) نفس المرجع، ص : 13

الأولى على النص في حد ذاته بمعزل عن كل ما يتجاوزه من مقاييس تاريخية أو نفسية (30).

2 - البنيوية في مجال النقد الأدبي :

قلنا بأن البنيوية قد غرت معظم العلوم الانسانية بما فيها النقد الادبي، وسنحاول الآن أن نترصد أثر البنيوية في النقد من خلال الحركة النقدية الجديدة التي ظهرت بفرنسا وكان من روادها الأوائل المفكر المشهور Roland Barthes الذي أرسى قواعد منهج نقدي نصاني في كتابه «الدرجة الصفر في الكتابة» (Le degré Zéro de l'écriture) الذي صدر سنة 1953 بباريس، وأثار ضجة في الأوساط الثقافية بجامعة السوربون. ترى كيف ينظر (رولان بارت) إلى البنيوية ؟ وماهي البنيوية في نظره ؟ يقول (بارت) :

«ليست البنيوية مدرسة، بل ليست حتى حركة ... إن البنيوية، بالنسبة إلى جميع ممارسيها هي جوهرية، فاعلية، أي هي التعاقب المضبوط لعدد معين من العمليات الذهنية ... إن هدف «أنماط» الفاعلية البنيوية كلها، هو أن تعيد بناء «شيء موجود» بطريقة تبرز قواعد الأداء الوظيفي لهذا الشيء الموجود ... فالإنسان البنيوي يتناول الحقيقي، ويحل تأليفه، ثم يعيد تأليفه ... إن بوسع المرء أن يقول إن البنيوية أساسا فاعلية تقليد، وذلك هو السبب في أنه ليس ثمة فرق تقني، إذا قُصِدَت الدقة الصارمة، بين البنيوية كفاعلية فكرية، من جهة، والادب، بشكل خاص، والفن، بشكل عام، من جهة أخرى ... فنحن نعيد تأليف الشيء من أجل أن نجعل وظائف أدائية معينة تظهر ... ولذلك كان علينا أن نتحدث عن الفاعلية البنيوية لا عن العمل البنيوي» (31)

ويلاحظ من خلال هذه الرؤيا التي يعرب عنها (رولان بارت) هنا، أن البنيوية ممارسة منهجية ذات هدف معين، وهو إبراز وظائف أدائية محددة في النص بواسطة التحليل وإعادة التركيب مع التركيز على ماسماه بالموقع التمايزي لكل شذرة من

(30) نفس المرجع، ص : 7

(31) انظر مقالة (رولان بارت) : الفاعلية البنيوية (1963) نقلها إلى العربية كما أبو ديب / مجلة مواقف ع. 41 - 42 / ربيع، صيف 1981.

الشذرات التي تشكل البنية، هذا الموقع الذي إذا تغير ترتب على ذلك تغير الكل. وقد تقدم أن البنيوية تعطي الأولوية للعلاقات على العناصر في ذاتها.

هذا عن البنيوية، أما عن النقد الأدبي فانه بالنسبة (لبارت) ليس علما، بل هو لغة ثانية تضاف إلى لغة الابداع الادبي، فالناقد يستمد المعاني من المبدع، ويجعل لغته «تطفو» فوق لغة الأثر الابداعي يقول (بارت) :

“Le critique dédouble les sens, il fait flotter au dessus du premier langage de l'oeuvre un second langage, c'est-à-dire une cohérence de signes”(32)

ومن هنا فالنقد - حسب (بارت) - نوع من التشويه (anamorphose) باعتبار أن العمل الأدبي لا يخضع أبداً لانعكاس صرف (فهو ليس شيئاً مرآوياً كتفاحة أو كعلبية)، وباعتبار أن التشويه نفسه - من جهة أخرى - تحويل مراقب، خاضع لضغوط «رؤية» optiques فهو ملزم بأن يحول كل شيء مما يعكسه، وألا يحول إلا تبعاً لمجموعة من القوانين، وأن يكون تحويله دائماً يسير في نفس الاتجاه فهذه هي ضغوط النقد الثلاثة. (33)

ويرى (بارت) أن النص الأدبي يحمل في ذاته دلالات مختلفة ومعاني تتجدد باستمرار على مر العصور، مما يدفع إلى القول بتعدد معاني النص، فالرمز - في نظره - ليس هو الصورة إنه تعدد المعاني :

“Le symbole, ce n'est pas l'image, c'est la pluralité même des sens”.

وهكذا يُظهر (بارت) قابلية النص للانفتاح بسبب خصائص بنيته، لا بسبب عجز الذين يقرأونه عن سبر أغواره، والغوص عن معانيه (34).

ويبدو من خلال النسق الفكري العام لحركة النقد الجديد أن مهمة النقد ليست البحث عن الحقائق وإنما هي الكشف عن اللغة التماسكة في الابداع وعن «الميكانيزمات» التي تقوم عليها الخصائص الشكلية للعمل الأدبي.

(32) انظر تنمة كلامه عن هذا الموضوع في كتاب Critique et Vérité P.64

(33) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(34) انظر ص : Critique et Vérité p. 64

III . الاتجاهات الالسنية في تحليل النصوص :

لا أريد ان أتحدث في هذه النقطة قبل أن أسجل تحفظين اثنين : أولهما أن هذه الاتجاهات مهما تعددت أسماؤها، وتنوعت مدارسها، فإنها تلتقي في الخطوط العريضة لمناهج التحليل إلى درجة تجعلها تكاد تشكل اتجاها واحداً. وثانيهما : أن الاختلاف الموجود بينها هو اختلاف على مستوى العمليات الاجرائية الجزئية وعلى مستوى التفاصيل، لا على مستوى المنطلق الاستيمولوجي والاصول العامة. ومعنى ذلك أن كل اتجاه يركز على جانب تقني معين، وعلى منطلقات نظرية ومعرفية معينة، يرى أنها تسلط مزيداً من الضوء على التحليل، دون أن يغفل بقية الجوانب.

وسأقتصر هنا على ذكر ثلاثة اتجاهات :

1 - الاتجاه البلاغي الجديد : وهو الاتجاه الذي عمد إلى إحياء مفاهيم البلاغة القديمة وتوظيف مقولاتها توظيفاً جديداً. ومن يمثلون هذا الاتجاه الباحث الفرنسي (جيرار جونييت) (Gérard Genette) الذي يشرف حالياً على سلسلة (Poétique) التي تصدر عن مطابع SEUIL بفرنسا. وقد عبر (جونييت) عن هذا الاتجاه في كتاب من ثلاثة أجزاء عنوانه (FIGURES) أو (وجوه بلاغية). وفي مقدمة الجزء الثاني من هذا الكتاب يتطرق الكاتب لمشكل استعمال التحليلات البلاغية في مجال الانماط الحكائية، (القصة، الرواية ...). وبعد طرح هذا المشكل، يتصدى الكاتب لدراسة (البحث عن الزمن الضائع) لبروست، معتمداً في ذلك على مصطلحات مستمدة من المعجم البلاغي الكلاسيكي، غير أنه لا يستعمل هذه المصطلحات القديمة بنفس الدلالات التي كانت لديها في القديم، ومعنى هذا أن بحوثه ودراساته تدخل في نطاق الجهود التي تبذل في سبيل تجديد البلاغة الكلاسيكية، خصوصاً تلك التي يقوم بها كل من (جاك ديويو) (Jacques Dubois) وجماعته المعروفة بجماعة (مو) (Groupe mu)، هذه الجماعة التي اشتركت في وضع (البلاغة العامة) (Rhétorique générale)، وهو الكتاب الذي صدر عن دار LAROUSSE سنة 1970، وتهدف هذه الجماعة - من خلال أبحاثها ودراساتها - إلى إعادة النظر في الأساليب البلاغية اعتماداً على ما جد في ميدان الأسلوبية ونظرية الأدب والنقد الحديث الذي يقوم به مبدعون ونقاد في نفس الوقت.

2 - الاتجاه السيميولوجي أو السيميائي (أو العلامي) :

ويرتبط هذا الاتجاه باسم عالم الدلالة الفرنسي Julien Greimas الذي تجاوزت اهتماماته ميدان اللغويات، فانصب على دراسة العلامية العامة أو علم العلامات (La sémiologie). والذي يهمننا من هذا الاتجاه هو الاسهامات التي قدمها في ميدان التحليل الأدبي، وبالضبط في نطاق فرع من فروع هذا العلم المتشعب، ذلك الفرع الذي اصطلح على تسميته بعلامية الأدب (Sémiotique Littéraire) وقد خصص (كريماس) جزءاً من كتابه الهام (عن المعنى) (Du Sens) لدراسة بنية الشخصيات الحكائية. كما أفرد كتاباً بآتمه لدراسة الدلالات الحكائية لدى (Guy de Maupassant) وذلك في كتاب (Sémiotique du texte) (علامية النص) الذي صدر سنة 1976. ويرجع الفضل إلى (كريماس) في وضع مصطلحات جديدة أضحت اليوم معروفة لدى الدارسين المهتمين بأنماط الحكى سواء منها الرواية أو القصة القصيرة أو الخرافة الاسطورية أو الحكاية الفولكلورية أو قصص الأطفال. وحسب هذا العالم، فإن مشاركة الشخصية الروائية في الاحداث لابد أن تندرج تحت واحد من النظامين التاليين :

1 - فاعل أو مفعول فيه (ذات أو موضوع)

2 - المساعدة أو المعارضة.

فهذه بعض من مصطلحات (كريماس) التي ابتدعها ودخلت في نطاق نظرية الرواية.

3 - الاتجاه الشكلياني :

يمكن القول - بلا مجازفة - بأن الاتجاه الألسني في تحليل النصوص الأدبية بدأ مع الشكليانيين الروس (Les Formalistes Russes) في حوالي سنة 1910. وهذا الاتجاه يتميز برفضه «اعتبار الأدب نقلاً لحياة الادباء، وتصويراً للبيئات والعصور، وصدى للنظريات الفلسفية والدينية»⁽³⁵⁾، إنه دعوة إلى «البحث عن الخصائص التي تجعل من الأثر الأدبي أدبياً، أو بكلمة أخرى البحث عن البنى الحكائية، والاسلوية،

(35) الدكتور موريس أبو ناصر : الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، ص : 7

والإيقاعية في الأثر الأدبي، ومن خلال البحث عن تطور الأشكال البدائية، وتحولها إلى أشكال مغايرة لأشكالها الأولى في الأدب الحديث» (35). وقد نهج الشكلاونيون اللامان نفس النهج الذي نهجه الروس. ثم انتقلت الشكلاونية أخيراً إلى البلاد الانكلوساكسونية حيث توطدت دعائمها على يد النقاد الجدد أتباع (ريشارد)، الذين ركزوا على وظيفة المعنى والصورة في النصوص الشعرية. كما اشتهر هذا الاتجاه في فرنسا على يد العالم الأنثروبولوجي (كلود ليقي ستراوس)، وعالم المعنى (كريماس) والناقد الأدبي (رولان بارت) ...

والآن، بعد أن تبينا الخطوط العريضة لهذا الاتجاه، يمكننا أن نقف قليلاً عند أصوله المنهجية.

نشأت الشكلاونية الروسية في تجمعين أدبيين هما :

حلقة (موسكو) اللسانية التي تكونت سنة 1915، وحلقة (سان بطرسبورك - ليننكراد) التي عرفت باسم جمعية دراسة اللغة الشعرية (Opoiaz)، وكان يتزعم حلقة موسكو الباحث اللساني (رومان جاكسون)، أما أعضاء جمعية دراسة اللغة الشعرية فكان معظمهم من الطلبة الجامعيين آنذاك، وأبرزهم (شلوفسكي) و(إجناتوم). وهاتان الحلقتان كانتا تشتركان في عنصرين أساسيين يملوران نشاطهما :

الأول : اهتمامهما باللسانيات.

والثاني : تحمسهما للشعر الحديث خصوصاً الشعر المستقبلي (Futuriste).

ويمكن القول بأن الشكلاونية نشأت في إطار أزمة منهجية. هذه الأزمة تجلت في الصراع بين جيلين : جيل الأكاديميين، وجيل طلبتهم. ومن جهة أخرى تجلت في الصراع بين منبرين ثقافيين : منبر الجامعة ومنبر الصحافة. ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن الدراسات الأدبية الأكاديمية، كانت قد توقفت أو توقفت عطاؤها في وقت بدأ فيه خريجو الجامعة يكتبون في الصحف، بدلا من أن يعطوا محاضرات في الجامعة. وقد تجلى نفورهم من الصفة الأكاديمية في عزوفهم خلال المرحلة الأولى عن جمع مقالاتهم ونشرها في كتاب مستقل، هذا مع العلم بأن الشكلانيين لم يكونوا يدعون بأنهم أصحاب منهج.

وقد اهتم الشكلاونيون بوصف تطور الأنواع والأشكال الأدبية بقدر ما اهتموا بالتقنيات والعلاقات داخل النص الأدبي.

خاتمة :

يتضح من خلال ماتقدم أن البحث اللساني الحديث قد ساهم في نشأة وتطور مجموعة من المناهج الأدبية وعمل على تنوعها وخصبها. وهذه المناهج - على اختلاف مدارسها واتجاهاتها - تتميز بخاصية أساسية وهي أنها تنظر إلى الابداع الأدبي - شعراً كان أم نثراً - من زاوية معينة وهي زاوية العوامل الفنية أو التقنية التي تجعل من العمل الأدبي أدبياً، أو إذا شئنا، فإنها تركز على دراسة الخصائص النوعية للإنتاج الأدبي اعتماداً على بنيته العامة وعلى البنى الجزئية التي تشكله، هذه البنى التي تدرس على مختلف المستويات (الصوتية والمعجمية والتركيبية) بهدف سبر أغوار العمل الأدبي والكشف عن بنيته العميقة.

إن تطور الدرس اللغوي قد أعطى إمكانات جديدة لتحليل النصوص، وزود النقد الأدبي بعمليات إجرائية جعلت الدراسة تنصب على الابداع في ذاته ولا تقتصر على العوامل الخارجية التي ينبثق عنها العمل الأدبي.

المراجع المعتمدة

1 - دكتور عبد المنعم تلمية : مقدمة في نظرية الأدب - دار العودة - بيروت ط 1979 - 2

2 - Jean Michel Peterfalvi : Introduction à la psycholinguistique. Paris - P.U.F - 1970.

3 - Roman Jakobson : Essais de linguistique générale (1) Paris, éd. de Minuit, 1970.

4 - René - Léon Wagner, La grammaire française, t. 1 Paris S.E.D.E.S, 1968.

5 - Tzvetan todorov : Littérature et signification Paris - Larousse 1967.

6 - Groupe (mu) : Rhétorique générale Paris, Larousse, 1970.

7 - René Wellek et Austin Warren. La théorie littéraire Paris, le Seuil, 1971.

8 - Ferdinand de Saussure : Cours de linguistique générale. Paris, Payot, 1981

- 9 - د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب - الدار العربية للكتاب ط.
1982 - 2
- 10 - د. زكريا إبراهيم : مشكلة البنية (ضمن سلسلة مشكلات فلسفية - 8 -)
مكتبة مصر - ط ؟ س ؟
- 11 - د. موريس أبو ناضر : الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة دار النهار
للنشر - بيروت 1979.
- 12 - Charles Bally : Traité de stylistique française 3e éd. Paris, Klincksieck,
1951.
- 13 - Jean Paul Colin : Comprendre la linguistique Verviers (Belgique) , Coll.
Marabout Université, 1975.
- 14 - Tzvetan Todorov : Théorie de la littérature. Textes des formalistes
russes, Paris, éd. le Seuil, 1965.
- 15 - Pierre Guiraud : La Stylistique — Paris, P.U.F. 7e édité. 1972.
- 16 - Michael Riffaterre : Essais de Stylistique Structurale. Paris,
Flammarion, 1971.
- 17 - مجلة مواقف ع 41 - 42 ربيع صيف 1981 مقالة رولان بارت : التفاعلية البنيوية
نقلها إلى العربية : كمال أبو ديب.
- 18 - Roland Barthes : Critique et vérité. Essais Paris, Ed. du Seuil, 1966
(Coll. "Tel Quel").
- 19 - Gérard Genette : Figures — Essais Paris, Ed. du Seuil, 1966 (Coll. "Tel
quel").
- 20 - J. Greimas : Du sens - Essais sémiotiques Paris, Ed. du Seuil 1970.
- 21 - J. Greimas : Maupassant — La sémiotique du texte Exercices pratiques
— Paris, Ed. du Seuil, 1976.

المعتمد ملك إشبيلية وشاعرها

بقلم : رفائيل ألبرتي (1)

ترجمة : عبد الله اجيلو

في بداية القرن الثالث عشر كان الشاعر الشقندي، وهو من أحياء قرطبة العتيقة، يحفظ عن أفواه عرب إشبيلية كدليل على رقتهم وتفننهم، هذه القولة الشعبية التي تعبر عن اعتزازهم بمدنيتهم : «لو طلب لبن الطير في إشبيلية وجد». وهذه القولة فيها مبالغة كالتي تتكرر الآن في مدح إشبيلية المغرورة. حليب الطيور ! يا سلام ! بل إنه لا يوجد حتى في الجنة كغذاء سماوي أو كإداة تجميل لتستعمله الحوريات في حماماتهن ليزدن نضاعة إلى جماهن الكامل الأوصاف. إشبيلية وما أدراك ما إشبيلية ! إنها اللطافة وسرعة البديهة والخفة والزغرودة والمغازلة في أمسها البعيد كما هي الآن. إشبيلية (هكذا بصيغة التصغير كما كان يسميها عرب الأندلس).

I

(1) إنها سماء القرن الحادي عشر العالية والمضاءة بهلال بني عباد الدُموي والضارب إلى الزرقة، سماء شاسعة وحاملة في جو يدعو للانشراف والانفتاح على «الخبر الدا» صومعة أبي يعقوب الموحد الرشيقة.

لقد كان الجير إذ ذاك بذخ المنازل البهيج، فهو خدش الشمس بالنهار وهو غبار أبيض من النجوم في الحفلات تحت أشجار الحور والليمون بجانب الوادي جهة

"Pradera de la Plata"

(1) رفائيل ألبرتي : شاعر إسباني شهير ولد بقادس سنة 1903. وهو من الشعراء الأحياء القلائل الذين كانوا يمثلون حيل السابع والعشرين، من أعماله :

"Marinero en tierra", "El alba del alheli"...

إن الجير والموسيقى والشعر والحرب وَلَع المعتمد الذي يعد أكبر وأشعر ملوك الطوائف في إسبانيا. لقد كانت الأندلس تحب البياض، بل وحتى لباس الحداد، بخلاف باقي الدول الإسلامية، كان هنا أبيض. وهكذا وجدت الدموع والمآثم هنا مأوى من ثلج لاحتضانها كما أن القلب الذي أفناه الألم قد وجد وكرا مجيرا أين يخفي ظلمة تعاسته.

والمعتمد ابن النور الاشيلي الذي كان يعشق الضياء ويعشق كل ماهو ناصع، أراد أن تكون مدينته أكثر بياضا من كل مدن العالم كمياه مرآتها الوادي الكبير صاحب مجالس باخوس الخمرية والارتجالات الشعرية.

ولكي يجعل المعتمد مدينته بياضا أصدر أوامره مع تهديد المخالفين بأن يجير السكان المنازل خاصة منها تلك التي تطل على الوادي وأن يحافظوا دائما على لمعان النوافذ الذهبية الكبيرة.

12 وفي هذا الحي المجانب للوادي كانت تقام أشهر السهرات الموسيقية في العالم الغربي تحت ضوء القمر، كما يقول المستعرب الإسباني الكبير «رييرا» (12). وهذا الحي كان ولازال يحمل إسم "TRIANA".

وتحت تأثير الخمر والموسيقى كان شعراء البلاط، يبدعون الاستعارات المعقدة والصعبة التي تعد من ركائز الشعر العربي، وكانت الأزجال والموشحات الشعبية التي تصحبها أنغام العود والصنابجات تنبعث من Pradera de la Plata حيث يتجمع أفراد الشعب للاستراحة، وهنا أنشد أشعاره الأولى الشاب ابن قرمان الذي أصبح فيما بعد زجالا ووشاحا ينتقل عبر البلاطات الأندلسية.

وإلى هنا أيضا كان المعتمد يأتي خفية صحبة وزيره ابن عمار الشاعر والمغامر ليتعاطيا لهوايتهما المفضلة وهي المطارحات الشعرية اللطيفة. ولقد اشتهر ابن عمار بسرعة البديهة في هذا النوع من التحديات، إلا أنه عجز عن إجازة أحد الأبيات التي بدأها المعتمد وهذا القصور جعل هذا الأخير يعثر على زوجة، إنها اعتماد التي اشتهرت أكثر بالرميكية جارية رميك. وهي في الوادي تغسل الثياب، أفلحت في

(12) «خوليان رييرا إي طراغوا» : مششرق إسباني ازداد سنة 1858. عضو أكاديمية اللغة والتاريخ، ساهم بمؤلفات عديدة في ميدان الاستشراق مما أعطاه شهرة في أوروبا وغيرها.

إجازة البيتين. لقد شبهوها بولادة، صافو(3) قرطبة العربية، وإن كانوا قد ذهبوا بعيدا في هذا التشبيه، فإن أميرة إشبيلية الجديدة قد فافت المثقفة القرطبية الكبيرة في احتدامها وهي تطلب من زوجها أمورا غريبة جدا. يحكي ذلك دون خوان مانويل(4) على لسان PATRONIO مستشار الكونت لوكانور : «وقد حدث مرة بقرطبة أن سقط الثلج في شهر فبراير فأخذت الرميكية تبكي ولما سألتها الملك عن سبب بكائها أجابته لأنه لا يتركها تمشي على الأرض، حتى ترى الثلج. وبغية إرضائها أمر المعتمد بوضع غابات من شجر اللوز في سلسلة جبال قرطبة» وهكذا استطاعت الملكة أن ترى كل سنة من توافدها أزهار اللوز البيضاء تتساقط كالثلج في جنبات المنطقة الجبلية الدافئة. لقد كان المعتمد يستجيب دائما بسخاء لكل نزواتها الغريبة. فالملك الشاعر كان قادرا أن يترك فارغة حزينه ملكه من أجل اعتاد، ذلك أن إسعادها كان همه الوحيد، وقد كتب قصيدة تكوّن الحروف الأولى من أبياتها إسمها الحبيب :

عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرامي وصادفت ودي سهل القياد(5)

(3) ثمة رغبة أخرى لاعتاد، وهذه المرة هي عجن الطين لصناعة الطوب. وهي تتفصح في جنبات الوادي مع المعتمد وقعت عينها على امرأة تخلط الوحل برجليها، و PATRONIO أيضا هو الذي يحكي للكونت لوكانور : «... وعندما رأت الرميكية ذلك أخذت تبكي فساءها المعتمد عن سبب بكائها، فقالت لأنها لا تستطيع أن تفعل ما تفعله تلك المرأة» فأمر المعتمد بملء برك بساتينه بالقرفة والسكر والقرنفل والعنبر والكافور، وأزالت اعتاد حذاءها ووضعت رجلها في تلك المعجنة العطرة تغمرها سعادة طفولية.

(3) (SAFO) شاعرة إغريقية، ترأست جمعية أدبية نسوية إلا أن جل شعرها يعد مفقودا ولم يصل إلينا منه إلا. "ODA a AFrodita"

(4) دون خوان مانويل : عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر (1282 - 1348) ورغم أنه كتب كثيرا فإن مؤلفه (كتاب PATRONIO) أو «الكونت لوكانور» هو الذي اشتهر به.

(5) في هذه الأبيات اعتمدنا على : ديوان المعتمد ابن عباد، جمع وتحقيق د. رضا الحبيب السوسي، الدار التونسية للنشر. 1975.

أحوالهم، يتجولون وينشدون قصائد غنائية حماسية يهدونها للامراء والاسياد وكانوا يتسلمون في المقابل ثيابا أو نقودا، ولكن ابن عمار، قبل أن يعرف المعتمد، كان يقنع بأقل من ذلك. فحسب (دوزي) (6) «كان ذلك الشاب الذي لا يعرفه أحد والذي يرتدي أفقر الثياب ويضع على رأسه قلنسوة صغيرة، يثير السخرية في البعض والشفقة في البعض الآخر، وكان يشعر بالسعادة حينما يتفضل أن يلقي إليه أحد الأغنياء ببقية الطعام مقابل أشعاره التي كانت جيدة بالرغم من ذلك».

ولما قدموه للمعتمد في غزوة شلب، اندهش هذا الأخير لعبقريته الشعرية وقرّبه إليه مانحا إياه صداقته الخالصة حيث شاركه فيها الملذات الرقيقة والمغامرات الغرامية. إنها مراهقة ساحرة في قصر الشراييب والتي سيتذكرها عندما سيفارق صديقه ويرقى إلى مرتبة وزير له بالبرتغال :

«ألا حي أوطاني بشلب أبا بكر !

وسلهن هل عهد الوصال كما أدري

وسلم على قصر الشراييب عن فتى

له، أبدا، شوق إلى ذلك القصر

منازل آساد وبيض نواعم

فناهيك من غيد وناهيك من جدار !

وكم ليلة قد بت أنعم جنحها

بمخصبة الاردا ف مجدبة الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجنتي

فعال الصفاح البيض والأسد السمر.

ولما كان لزاما على المعتمد أن يحارب باستمرار طيلة ملكه - مع القشتاليين ومع ملوك الطوائف الآخرين وأخيرا مع المرابطين الذي نفوه - كان يستعمل في أشعاره تشبيهات واستعارات حربية، ففي نفس القصيدة التي يذكر فيها موقعة شلب يقول عن أوتار العود التي تجرحها ريشة العرف :

(6) "Dozy" (دوزي) مستشرق هولندي (1820 - 1883) اشتهر بأعماله التي تناولت الخلافة العربية في الاندلس.

وتطربني أوتارها وكأنني
سمعت بأوتار الطلى نغم البتر
وفي قصيدة أخرى (وهي أيضا من ترجمة غارسيا غومث (17) وبعد الايات الأولى
على الخمر المسكوب في ظلمة الليل حتى بزوع القمر والكواكب يمضي في هذه
التشبيهات الضيائية :

وترى الكواكب كالمواكب حوله
رُفعت ثرياها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين مواكب
وكواعب جمعت سنا وسناء
وأمام الهدايا والهبات من المعتمد كان وزيره ابن عمار يرد مادحا زرد ابن عباد
ورمحه في قصيدة مشهورة :

أثمرت رمحك من رؤوس كراتهم
لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخصبت سيفك من دماء نخورهم
لما عهدت الحسن تلبس أحمر
بعد الحب والحروب والشعر يحل فجأة الشك الذي كان للمعتمد في وزيره عندما
كلفه بغزو مرسية، ذلك أن طموح ابن عمار ورغبته الأكيدة في الحكم جعله يجزو
ليس فقط على وضع قبعة عالية كالتي يستعملها المعتمد في المناسبات العظيمة بل
إنه تخلى عن إسم المعتمد في قراراته بعد أن تمكن من الاستيلاء على المدينة. يلخص
ذلك غونثاليث بالثيا بقوله : «بالإضافة إلى ما سبق، فإن ابن عمار لم ينفذ أمر
المعتمد القاضي بإطلاق سراح ابن طاهر صاحب مرسية المخلوع. كل هذا عجل
بدمار ملك شلب القديم».

وكما أنهما تبادلا قصائد المديح في الماضي، أصبحا يتبادلان قصائد الهجاء اللاذعة
بل وتطفوا في قصائد المعتمد الفأس الحادة والسفاكة عند العباديين والتي سيقطع بها

(17) غارسيا غومث : مستشرق إسباني شهير. عضو الأكاديمية الملكية الإسبانية وهو عضو كذلك
بأكاديمية المملكة المغربية قام بترجمة عدد كبير من قصائد ودواوين شعراء الأندلس.

رأسه. والبيت تلو البيت كان الشعاران الانفعاليان يتعدان عن بعضهما ويقتربان في الحقد والكراهية، تلك الكراهية التي لا يمكن أن تقاس إلا بذلك الود الذي كان يجمعهما، إنها مبارزة حتى الموت لا تليق بالصديقين المرحين صاحبي (PRADERA)

DE LA PLATA)

والمؤثرين على العيال يزداهم
والضارين لهممة الجرار
الناهضين من المهود إلى العلى
والمنهضين الغار بعد الغار
إن كوثرُوا كانوا الحصى، أو فاخروا
فمن الاكاسر من بني الاحرار ...

وهذه الضربة للمعتمد جوابا على بيعة يفتخر فيها ابن عمار بنفسه ويصفها شعرا وكانت ضد صاحب بلنسية ابن عبد العزيز الذي استضاف ابن طاهر ملك مرسية المخلوع. وسيرا حملت حمامة هجاء ابن عمار المعتاظ من بساتين البرتغال في الشرق الاسباني إلى أشجار الزيتون بإشبيلية ذلك الهجاء الذي لم يكن يهدف المعتمد فقط بل وكذلك اعتماد وأهل بيت المعتمد والذي يقول فيه :

ألا حي بالغرب حيا حلال
أناخو جمالا وحازو جمالا

وخوفا من صديقه القديم الذي أصبح لانيبيه بالقصائد بل بخناجر جيوشه الذين بعثهم للقبض عليه، هرب ابن عمار من مرسية فاقترح خدماته أول الأمر على الادفونش السادس إلا أن هذا الأخير خدعه وبعد ذلك توجه إلى ملك سرقسطة الذي عهد إليه بالاستلاء على قلعة «شقورة» وهنا أسر وبيع هو والقصر في المزاد العلني، وكان المشتري هو المعتمد شاعر وملك إشبيلية.

IV

رائعة هي حياة هذا العربي الاسباني التعسة الذي حُكم عليه بالاستنجاذ بأغلاله في إفريقيا. إنه المعتمد الذي كان "El CID" (8) عنده كأحد العبيد في أوائل ملكه

(8) El Cid : بطل من أبطال الف. 11 في اسبانيا - اسمه الحقيقي رودريغو ديان دي بيار. - (1099 - 1030)

والذي أهدي امرأة لعدوه الادفونش السادس والذي أخذ يسترد منه الحواضر والقرى والكروم وأشجار الزيتون موسعا بذلك رقعة ملكه، إنه المعتمد الذي استقدم أبناء الصحراء، أولئك المرابطين الاقوياء (ذوي الوجوه المثلثة والخطب الدينية) ليعتق الاندلس من الكفار.

لقد كان المعتمد سخيا، نشيطا ومتراخيا وكان يكرس حتى الاحداث البسيطة في حياته مستعملا في ذلك استعارات دقيقة على شكل "GONGORA" (9) ولقد رثاه وهو في طريقه إلى المنفى صديقه الوفي ابن اللبانة شاعر «دانية» بهذه الايات :

نسيت إلا غداة النهر كونهم
في المنشآت كأسموات بألحاد
والناس قد ملأوا العيين واعتبروا
من لؤلؤ طافيات فوق أزياد
حُط القناع فلم تستر مخدرة
وميزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فادي
سارت سفائنهم والنوح يتبعها
كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت
تلك القطائع من قطعات أكباد.

كان هذا هو التسديد الذي قدمه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين المرابطي للمعتمد إن شعر الملك العربي الاشبيلي يأخذ بعبه الانساني ويزيد حسرة في المنفى فقصيدته في الرثاء وهو باغمات من أرق وأحزن ما صدر عن قلب إنسان، فالشاعر المقيد يبكي فقدان البساتين وأشجار الزيتون ويرثي أولاده المغتالين وزوجته اعتماد التي

(9) (Luis de Gongora) شاعر إسباني (1561-1627) يعد من أكبر شعراء اللغة الإسبانية في عصرها الذهبي. وهو لا يزال حتى الآن موضع اهتمام النقاد والأدباء، بل إن الاحتفال بذكرى وفاته أعطت إسما لجيل السابعة والعشرين (27) الذي يضم مجموعة من كبار شعراء إسبانيا في القرن العشرين، نذكر منهم غارسيا لوركا، ورفائيل ألبرتي وغيرهما.

تعيش مثله في الاسر والتي أصبحت تغزل للناس وهي تمشي كما تمشي بناتها حافية
القدمين بعد أن ألمها الوحل و«كأنها لم تطأ قبل مسكا وكافورا»، كما يبكي حاسدا
أسرابا من الطيور وهي تطير بكل حرية ويبكي مع ماء واديه الكبير طالبا الرأفة والرحمة
من القيد الذي يكرله :

دمي شراب لك واللحم قد
أكلته لاتهشم الأعظم
يبصرني فيك أبو هاشم
فينشني والقلب قد هشما
ارحم طفلا طائشا له
لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله
جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد
خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لايفهم شيئا فما
يفتح إلا للرضاع فما
وبعد موته أخذ قبره في أغمات يزداد حضورا ووقارا، بل وحتى بعد قرنين من موته
سالت الدموع والقصائد على قبر شاعر وملك الأندلس المهجور والمنبوش :
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا
فأنت سلطان أحياء وأموات
مارئي مثلك في ماض ومعتمد
في أن لايرى الدهر في حال ولا آن.

هكذا بصم زيارته بالدموع أيضا زائر سام هو ابن الخطيب وزير غرناطة، وفي
أبعد من ذلك دوى إسم المعتمد وقصائده. لقد جرفت الرياح في إحدى الليالي وكأنها
«نفخ من الاساطير» إلى القبائل البدوية بالصحراء وبقيت سجيئة بين الخيام والرمال
الساخنة.

يقول الشقندي : «وإن كان كل ملوك الاندلس المعروفين بملوك الطوائف قد

تنازعوا في ملاءة الحضر، فإني أخص منهم بني عباد، كما قال الله تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان).

إلا أن من بين كل هؤلاء ليس هناك من هو أجدر بهذا المديح من المعتمد.

عن كتاب

Prosas, Madrid, Alianza Ed. 1980 - pp. 167-175

من نظرية طفافة القارات الى حقيقة بنائية الصفائح

كمال التركستاني

ان فترة الستينات ستبقى في سجل العلوم مميزة بمغامرات الانسان نحو الفضاء، ومكشال لهذا نذكر أول طيران مداري حول الارض لكاكارين سنة 1961، وكذلك وصول الانسان للقمر سنة 1969.

فانشغال الانسان بهذه الاكتشافات جعله ينسى بأن خلال هذه الستينات قد أحدث انقلابا علميا عظيما في تاريخ الجيولوجيا، أي علوم طبقات الارض. ففي الوقت الذي كان فيه آلاف من الاختصاصيين يبحثون عن وسيلة تمكن الانسان من عبور هذه الحدود الضيقة للارض والذهاب نحو الفضاء، كان هناك علماء آخرون يبحثون في أغوار المحيطات لكي يجدوا حلا لعديد من الالغاز التي لازالت لوقتنا هذا مجهولة.

ففي أوائل هذا القرن وعند وضع خط تلغرافي ما بين أمريكا وأوروبا، اتضح بأن قاع المحيط الاطلسي ليس بخوض تغطيه مواد رسوبية كما كان يعتقد من قبل، بل اتضح أنه عبارة عن سلسلة جبلية أو تجاعيد تقسم المحيط الى قسمين متعادلين تقريبا، هذه السلسلة من الجبال هي ما تسمى بالتجاعيد المحيطية أو الذروة البحرية، وأعلى قمم هذه الجبال تنبثق من فوق سطح الماء مكونة عدة جزر منها اسلاندو والاسور التي توجد عرض مضيق جبل طارق.

فدراسة الشواطئ المتواجهة على جانبي المحيط الاطلسي وكذلك دراسة الحفريات والمغناطيسية في صخور أعماق البحار أوضحت ولازالت توضح لنا أن هذه المحيطات تتوسع، وأن القارات تتباعد الواحدة عن الأخرى وتطفو أفقيا.

— فما معنى طفافة القارات ؟ —

(هـ) أستاذ بكلية العلوم بتطوان.

- وما هو مفهوم بنائية الصفائح وتوسع المحيطات ؟
- ماهي الدلائل والحجج التي مكنتنا من أن نجعل من نظرية طفاوة القارات شيئاً واقعياً وحقيقياً. وإذا كانت هذه القارات تتباعد فما هو المحرك الرئيسي لتباعدها ؟

ان العلوم الحقة تكشف لنا أن القارات تتحرك والمحيطات تتوسع وأن المناخ يتغير والصحاري تنتشر، فكل من أمعن النظر في سطح الأرض اتضح له أن هذه القشرة التي تبدو ثابتة هي في الواقع في تغير مستمر.

فالعديد من علماء طبقات الأرض منهم الجيولوجيون والخضاميون (1) يرون أن الأرض عبارة عن آلة، بل حتى في بعض الأحيان يذهبون بعيداً في تصورهم ليروا فيها جسماً حياً.

فالحقيقة أن الأرض خلقت حوالي 4 ملايين ونصف من السنين، عرفت خلالها فترة من الشباب عندما كان غلافها الغازي وغلافها المائي مجردان من الأكسجين، وبعد ذلك كانت لها فترة نضج، وككل الكائنات الحية لها كذلك مستقبل، حتى أن بعض العلماء لم يترددوا في رسم الخطوط الكبرى لوجه الأرض خلال الخمسين مليون سنة القادمة.

فعلى أي حال يجب أن لاننسى فضل ذلك الانسان الذي جعل من الجيولوجيا علماً تاريخياً، والذي يعتبر الفاعل الأصلي لنظرية طفاوة القارات سنة 1915. هذا العالم هو الألماني ألفريد فيغنير الذي توفي خلال الثلاثينات.

ماذا يقصد من طفاوة أو ترشح القارات ؟، هو تصدع يحدث في القارات مما يجعلها تنفصل وتتباعد الواحدة عن الأخرى.

فقبل فيغنير كان العديد من العلماء يتصورون بأن القارات، يمكن لها أن تطفو عمودياً فوق طبقة جيولوجية مكونة من مادة لزجة.

ولكن فيغنير كانت له فكرة نابغة، إذ أنه تصور أن هذه القارات يمكن لها كذلك أن تطفو أفقياً.

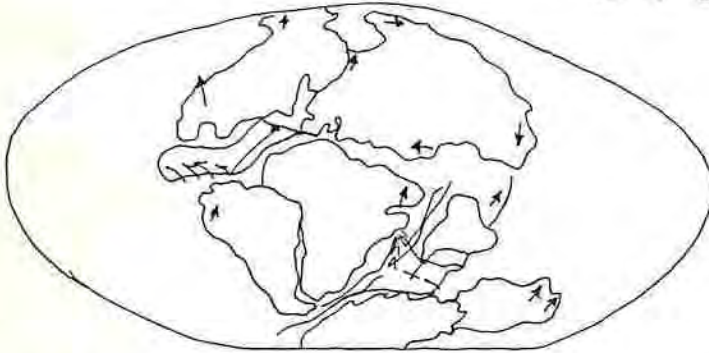
يكفي أن نتصور بأن جميع الكتل الأرضية (القارات) المعروفة حالياً كانت فيما

(1) اختصاص في علم المحيطات océanographes

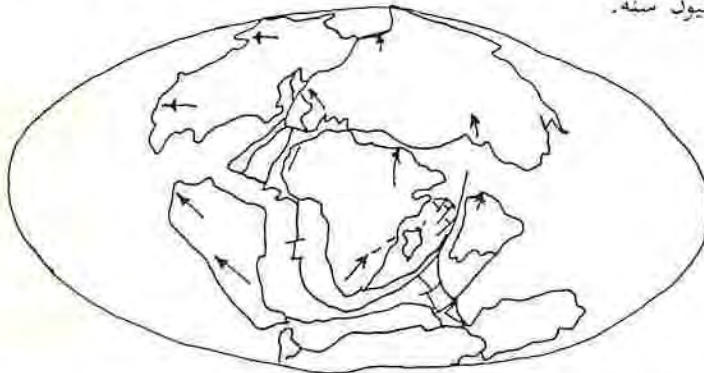
(شكل 1)



أ - الشكل الأول يبين حالة الأرض قبل 200 مليون سنة



ب - الشكل الثاني يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها. وقد بدأت هذه العملية قبل 135 مليون سنة.



ج - الشكل الثالث يبين حالة الأرض قبل 65 مليون سنة.

مضى عبارة عن قارة كبيرة وملتحمة والتي تترحزت فيما بعد وانفصلت الى أجزاء صغيرة نسبيا مكونة للقارات حاليا (شكل 1).

ولكن نظرية فيغير ظلت مدة طويلة من الزمن مرتاب في أمرها، مشكوك فيها من طرف العديد من الاختصاصيين الذين لا يفهمون كيف تترحز القارات أفقيا ولأماهي هذه القوة المسببة للترحز.

ومع تقدم العلوم وتطورها أثبتت خلال الستينات والسبعينات صحة هذه النظرية والتي أخرجت ظاهرة علمية ثابتة تسمى جيولوجياً بينائية الصفائح، والتي تلخص فيما يلي.

ان الغلاف الصخري (القشرة الأرضية) الذي يكون القارات وقيعان البحار وأخطات يمكن أن يقسم الى عدة صفائح كبيرة، وهي :

صفيحة أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وإفريقيا وأوراسيا وأستراليا والمحيط الهادي الشمالي والجنوبي والقطب الجنوبي.

هذه الصفائح تتحرك الواحدة بالنسبة للآخرى بسرعة تقدر ما بين بضع سنتمترات الى 20 سنتمتر في السنة.

فبواسطة مسلاط (1) يمكن ارجاع الى الوراء شريط طفاوة القارات حيث نراها تتقارب تدريجيا وتلاصق ببعضها لتكون قارة كبيرة والتي تسمى بالباني (شكل 1) فمنذ العهد الجوراسي (الزمن الجيولوجي الثاني) حوالي 200 مليون سنة انقسمت هذه القارة الكبرى الى قسمين : القسم الاورواسيوي في الشمال والقسم الثاني في الجنوب اصطلح عليه قارة كوندوانا، يفصلهما محيط مائي يسمى بالتيتس (شكل 1).

وبسرعة انشقت الهند عن الكوندوانا وبدأت سيرها الطويل والمنفرد نحو الشمال (شكل 1).

وبعد ذلك، انقسمت القارة الجنوبية الكوندوانا الى قسمين : من جهة نجد أمريكا الجنوبية وإفريقيا ومن جهة أخرى القارة القطبية الجنوبية وأستراليا. ومنذ 135 مليون سنة (أي العصر الطباشيري)، ظهر المحيط الاطلسي الذي فرق ما بين أمريكا من جهة وإفريقيا وأوروبا من جهة أخرى. (شكل 1)

(2) آلة تسمح برؤية الافلام

ومنذ حوالي 65 مليون سنة، أكملت الهند انزلاقها المنفرد نحو الشمال واندمجت مع القارة الأوروبية، وكانت النتيجة لهذا الاصطدام، أن أصبحت الهند جزءا من القارة، مما أدى الى نشوء سلسلة جبال الهملايا.

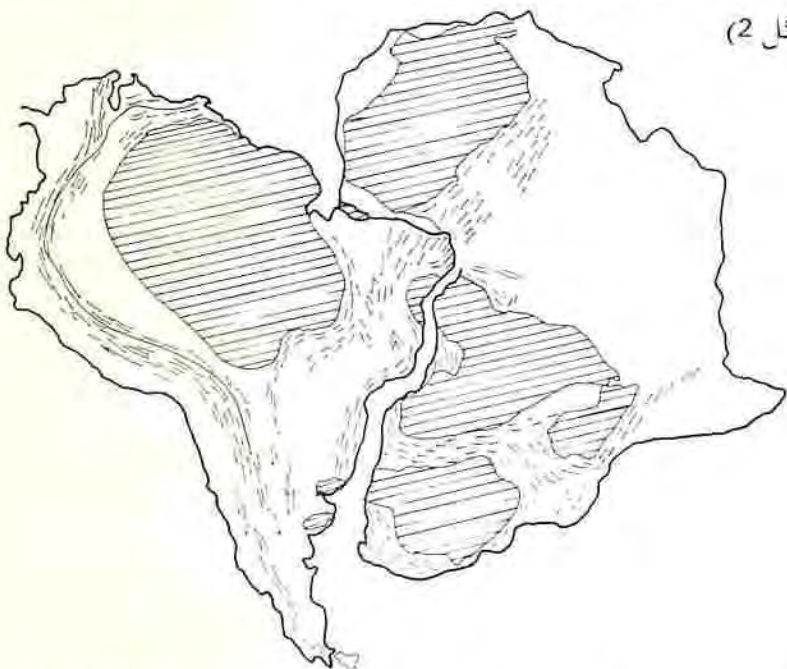
وعلى مستوى أكبر من ذلك بكثير نشأت سلاسل جبلية أخرى منها القوقاز والآلب بسبب اصطدام افريقيا التي تزحف نحو الشمال.

فإذا كانت هذه الكتل اليابسة في الماضي البعيد ملتصقة ثم انفصلت عن بعضها لتحتل المواقع الحالية والتي من خلالها نشأت نظرية طفاوة القارات : فما هي الدلائل التي قامت عليها هذه النظرية ؟.

(1) الدلائل الجيولوجية :

هناك تشابه كبير ما بين السواحل المتواجهة على جانبي المحيط الاطلسي، فهي تبدو وكأنها متداخلة، ويكمل بعضها بعضا، ولقد أثار هذا التشابه اهتمام الجيولوجيين

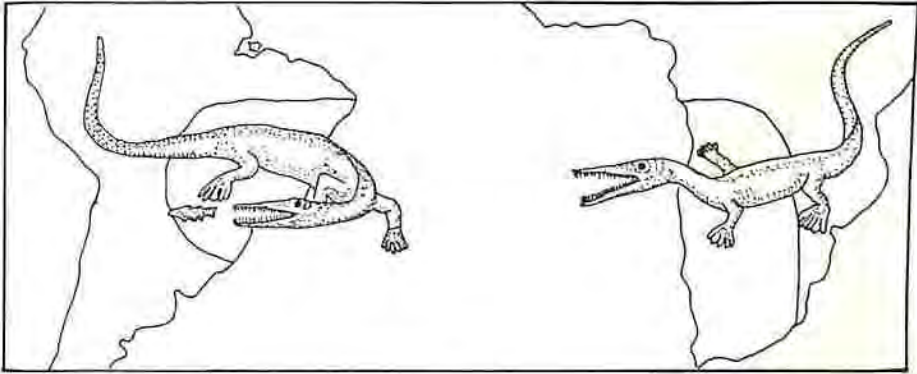
(شكل 2)



هذا الشكل يبين التماثل الكبير بين الشواطئ المتواجهة على جانب المحيط الاطلسي، وتشابهه نوعية التشكيلات الجيولوجية الموجودة من كلتا الجهتين للمحيط الاطلسي مما يدل على أن هذه القارات كانت متحدة في وقت ما.

La Dérive des continents : La Tectonique des plaques.

عن :



(شكل 3)

حفريات الميزوزوريس : هذه الزواحف التي عاشت في الزمن الأول (570 - 230 مليون سنة) لا توجد حاليا إلا في بعض المناطق الواقعة على كلتا الضفتين للمحيط الأطلسي. فإذا كان الميزوزوريس قادرا على أن يسبح هذه المسافة ليصل إلى الضفة المواجهة فلا بد أن يكون موجود أيضا في المناطق الأخرى للأرض، ولكن بما أنه ينعدم فلا بد أن نستخلص بأن هذا الحيوان كان يعيش في منطقة معينة (شكل 2) والتي انفصلت وتجزعت فيما بعد.

La Dérive des continents : La tectonique des plaques.

عن :

لدراسة الاحتمال الواضح بأن هذه الشواطيء قد كانت في وقت ما متصلة مع بعضها. وكانت نتيجة هذه الأبحاث هي أن وضعت نظرية ترحرح القارات على النطاق العالمي هذا من جهة، ومن جهة ثانية، كانت لعدد من الباحثين فكرة مقارنة نوعية الطبقات الجيولوجية وعمرها على كلتا الجهتين للمحيط الأطلسي.

فالناتج كانت جديرة بالملاحظة، إذ لم يكن هناك أي تناقض ما بين عمر ونوعية التشكيلات الجيولوجية الموجودة على كلتا الجهتين للمحيط الأطلسي، مما يدل على أن هذه القارات كانت متحدة في وقت ما. (شكل 2).

2) الدلائل الاحاثية :

لقد عثر في أمريكا الشمالية وأوروبا على حفريات مماثلة ومتشابهة، ونفس الشيء ما بين (أفريقيا وأمريكا الجنوبية).

فكيف يمكن تفسير هذا التشابه بين حفريات وجدت في مناطق تبعد حاليا الواحدة عن الأخرى بالآلاف من الكيلومترات، مع العلم بأن المحيطات والبحار تعتبر بمثابة حواجز تعوق هجرة وانتقال الحيوانات البرية.

فكمثال لهذه الحيوانات (الميزوزوريس³) الذي اتخذ فيغنير كأول دليل ليعزز نظريته، فهذا الحيوان لا يوجد الا على كلتا الضفتين للمحيط الاطلسي (شكل 3) فالجيولوجيون كانوا في القديم يتصورون وجود جسور قارية ضيقة توصل القارتين هي التي مكنت الحيوانات أن تنتقل من قارة الى أخرى، الشيء الذي يعلل وجودها في كلتا القارتين، ولكن الدراسات الجيوفيزيائية الحديثة أوضحت لنا غياب كل الامس لهذه الفرضية.

فلذلك فهو من المنطقي التصور بأن هذه الحيوانات كانت تعيش في أزمنة غابرة فوق قارة كبيرة والتي انشطرت وتباعدت تدريجيا.

3) الدلائل المغناطيسية للعصور الغابرة :

ان الارض تعتبر بمثابة مغناطيس هائل، ومكونة حولها مجالا مغناطيسيا، والدليل القاطع لهذا هو أن كل ابرة ممغنطة (كما هو الشأن في البوصلة) وضعت في أي مكان من الكرة الارضية تتجه نحو اتجاه معين يقترب من الشمال الجغرافي ويسمى بالقطب الشمالي المغناطيسي.

ولكي نتعرف على أصل هذا الحقل المغناطيسي يجب علينا أن نطلع أولا على تركيب أو بنية الارض.

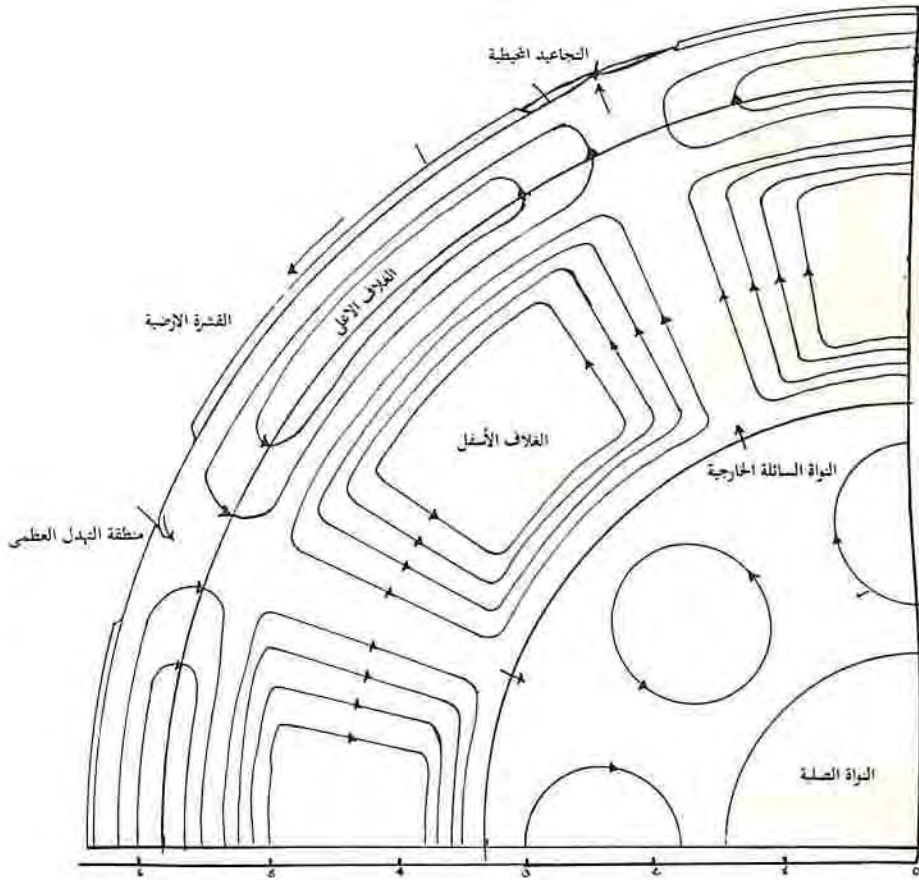
فهذه الارض تتكون، اذا ما ابتدأنا من الوسط بالنواة الصلبة تتلوها النواة السائلة الخارجية، الغلاف والقشرة الارضية (شكل 4)

فأصل هذا المجال المغناطيسي يمكن أن ننسبه الى تلك التيارات التصاعدية التي تحدث في النواة الخارجية السائلة.

فهذا الصدد ان هذه التيارات لسائل موصل داخل النواة السائلة وحول النواة الصلبة، يلعب دورا آليا (Dynamo)، الذي يولد ويحافظ على المجال المغناطيسي، ولتقريب الفكرة الى الذهن، يمكن أن نعتبره كقضيب من حديد محاط بخيط قلزي، وهذا القضيب الحديدي يكون قابل للمغنطة من خلال الحث بعد ما نزود هذا الخيط بتيار كهربائي.

(3) الميزوزوريس نوع من الحيوانات الراحفة عاشت في الزمن الأول.

(شكل 4)



صورة تمثل التيارات التصاعدية المختلفة التي تحدث داخل الأرض.

Pour la Science, numéro spécial : La terre, Novembre 1983.

ع:

فدراسة هذا المجال المغناطيسي أظهرت أن هذا الأخير غيّر مرارا اتجاهه، فهذا التغيير حدث مئات بل آلاف من المرات عبر التاريخ الجيولوجي للأرض.

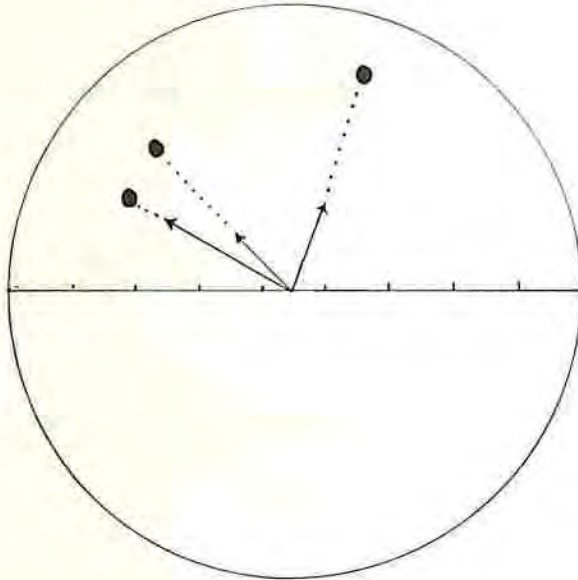
فماذا يقصد بتغيير الاتجاه لهذا الحقل المغناطيسي ؟.

ان المجال المغناطيسي يغير اتجاهه عندما يتحرك القطب المغناطيسي من الشطر الشمالي الى الشطر الجنوبي للكرة الأرضية أو العكس.

ويسمى المجال المغناطيسي بالعادي عندما يكون القطب المغناطيسي والقطب

(شكل 5)

القطب الشمالي الجغرافي

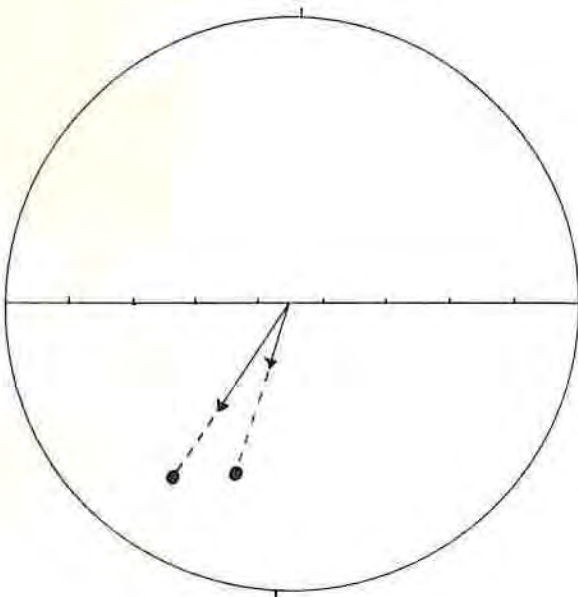


المجال المغناطيسي العادي

• القطب المغناطيسي

القطب الجنوبي الجغرافي

ش.ج



المجال المغناطيسي المعكوس

ج.ج

الشمالي الجغرافي في اتجاه واحد ويسمى بمنعكس عندما يكونان في اتجاه مضاد (شكل 5).

أما عن سبب هذه التغيرات فقد ترجع الى اختلافات في هذه التيارات التصاعدية داخل النواة الخارجية.

فكيف يمكن أن تبين دراسة الحقل المغناطيسي بعض الحقائق لنظرية طفافة القارات.

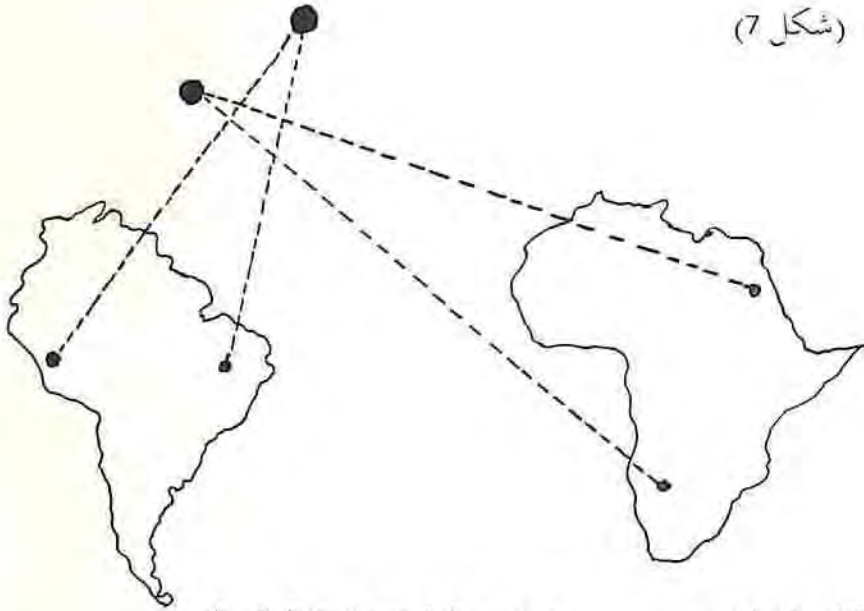
ان المواد المنصهرة من النوع البازالتي التي تقذف بها البراكين تحتوي على حبيبات دقيقة من الحديد، فهذه الحبيبات تمتاز بحرية الحركة، مادامت هذه المواد التي تسيح فيها منصهرة. ولكن عندما تتصلب هذه الأخيرة، فان الحبيبات تتجه تلقائيا نحو اتجاه الاقطاب السائدة في ذلك الوقت، وبعد التصلب فان الحبيبات تبقى دالة في أغلب الأحيان على اتجاه الاقطاب.

(شكل 6)



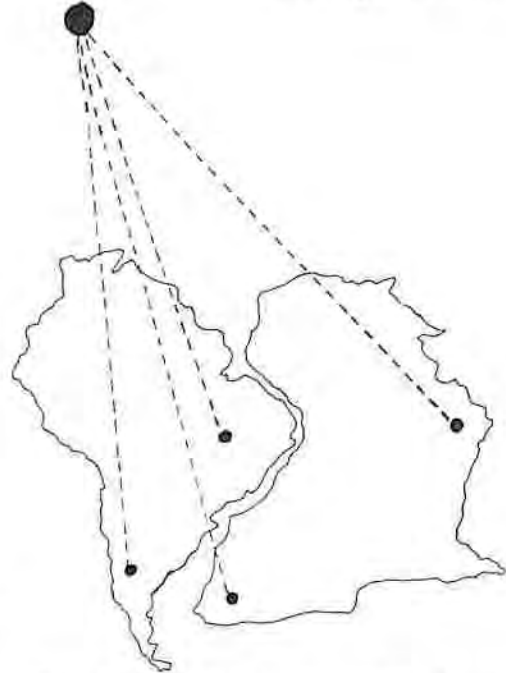
اتجاهات الحقل المغناطيسي من خلال دراسة صخور محددة العمر ومنتمية الى قارة واحدة : الاتجاهات تتطابق جيدا.

(شكل 7)



● القطب المغناطيسي
• صخور بازلتية عمرها 240 مليون سنة.
اتجاهات الحقل المغناطيسي من خلال دراسة صخور محددة العمر ومنتمية الى قارات متفرقة :
الاتجاهات تكون متباينة.

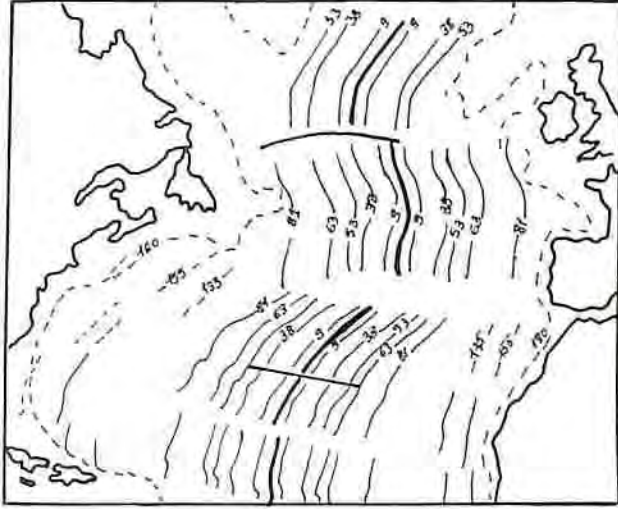
(شكل 8)



● القطب المغناطيسي
• صخور بازلتية عمرها 240 مليون سنة.

صورة تمثل اتجاه المحاور المغناطيسية للصخور المتميزة بنفس العمر.
عندما كانت القارات ملتصقة، فهذه المحاور تتجه نحو نفس القطب.

(شكل 9)

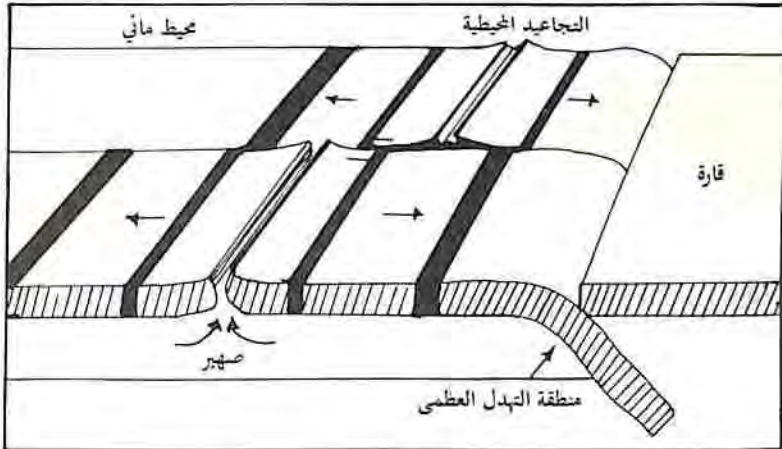


صورة تثل كيف أن قاع اخطط الاطلسي مخطط بعدة أشطرة غير متساوية العرض ومتعادلة بالنسبة الى التجاعيد المحيطية. فتهذه الأشطرة تنصف بقطبيات متعاقبة عادية ومعمكوسة. الأرقام تدل على عمر هذه الأشطرة بملايين السنين.

Le guide de la géologie

عن :

(شكل 10)



المواد المنصهرة تصل الى السطح في أماكن التجاعيد المحيطية والتي من خلالها ينشأ الغلاف اليابس للمحيطات، وهذا الغلاف يغوص ويغطس تحت القارات في أماكن التهدل العظمى.

La Derive des continents : La tectonique des plaque.

عن :

فهذه البقايا من المواد المغناطيسية التي تسمى بالحفريات المغناطيسية لاتدل على الشمال والجنوب المغناطيسي في الوقت الحالي بل تدلنا على الشمال والجنوب المغناطيسي في الوقت الذي تصلب فيه البازالت.

فدراسة هذه المغناطيسية الأرضية في صخور محددة العمر مكن بعض الاختصاصيين في الامر من تشخيص الاقطاب المغناطيسية خلال مختلف الازمنة جيولوجية.

فهؤلاء الاختصاصيون لاحظوا بسرعة أنهم اذا ما رسموا اتجاهات المجال المغناطيسي من خلال دراسة صخور محددة العمر ومنتمية الى قارة واحدة، فان الاتجاهات تتطابق جيدا، (شكل 6) ولكن اذا ماوضعوا تصميميا لهذه الاتجاهات من خلال دراسة صخور محددة العمر ومنتمية الى قارات متفرقة، فان الاتجاهات تكون متباينة. (شكل 7).

فعندما كانت القارات ملتحمة كانت المحاور المغناطيسية للصخور المتميزة بنفس العمر تتجه جميعها نحو نفس القطب. (شكل 8) أما المقاييس للحفريات المغناطيسية حاليا، تظهر لنا بأن المحاور لاتتجه نحو قطب موحد. (شكل 7).

فلذا كان من الصعب شرح هذه النتائج بدون أن نتصور تباعد القارات الواحدة بالنسبة للآخرى.

وبعد ذلك ان بعض العلماء، وبواسطة مغنيطو متر (مقياس المغناطيسية) مبحر فوق سفينة، قطع المحيط الاطلسي من افريقيا الى أمريكا، ولاحظ بأن صخور قاع المحيط مخططة بعدة أشربة غير متساوية العرض، ومتعادلة بالنسبة الى تلك السلسلة من الجبال الموجودة في قاع المحيطات والتي تسمى بالذروة البحرية. هذه الاشربة تتصف بقطبيات متعاقبة عادية ومعكوسة. (شكل 9).

ففي الميدان التطبيقي، ان تسجيل هذه التعاقبات القطبية العادية والمعكوسة في صخور قاع المحيطات هي التي أعطت احدى أهم الدلائل على نظرية طفافة القارات.

فالمواد المنصهرة الصاعدة من باطن الأرض (الغلاف)، تصل الى السطح على مستوى الذروة البحرية فخلال تصلب حبيبات هذه المواد، تسجل اتجاه الاقطاب السائدة في ذلك الوقت. (شكل 10)

وبتتابع مواد أخرى منصهرة تصل الى نفس المستوى، مما سيؤدي الى كسر وابعاد المواد التي تصلبت سابقا من محور الذروة البحرية ومسجلة التغيرات الحادثة في المجال المغناطيسي.

وهكذا يكفي معرفة عمر هذه التغيرات للمجال المغناطيسي، وعرض هذه الخطوط لكي نطلع على سرعة وتوسع المحيطات.

فتاريخ المجال المغناطيسي الارضي هو مسجل في قاع المحيطات ويمكن أن نطلع عليه من محور الذروة البحرية متجهين الى جهة أو أخرى متعامدين مع هذا المحور.

فما هو مفهوم توسع المحيطات ؟

ان الغلاف اليابس هو تلك القشرة الارضية الصلبة التي تكون القارات وقيعان البحار والمحيطات.

فسمك هذا الغلاف اليابس في الصفائح القارية يبلغ أقصاه 100 كلم أو أكثر، أما في قاع المحيطات فلا يتعدى 10 أو 20 كلم مما يجعل المناطق الأولى أكثر صلابة ومقاومة من الصفائح المحيطية، زيادة على أن صخور الصفائح القارية أقل كثافة من صخور الصفائح المحيطية مما يجعلها تطفو وتبقى على السطح.

غير أن هذه الصفائح القارية عندما تخضع الى ضغط كاف لانتحمله الصخور، تشقق وينشأ من خلال هذا بروز هذه الكتل القارية التي تفرقها انكسارات أو فوالق عظيمة. ومن خلال هذه الفوالق تتصاعد الى السطح مواد منصهرة قادمة من جوف الارض.

فصعود هذه المواد المنصهرة عبر الفوالق، وتصلبها على السطح، يبعد ويفرق هذه الكتل من الغلاف اليابس الواحدة عن الأخرى، مما يكون قيعان المحيطات المشكلة من صخور بازلتية.

فهذا الفالق أو ما يمكن تسميته بالاختود العظيم، ماهو الا بداية أو أصل هذه المنطقة الثائرة التي تدعى بالذروة البحرية أو التجاعيد المحيطية.

والسؤال المطروح هو، اذا كانت هذه المواد المنصهرة التي تصل الى السطح باستمرار في أماكن الذروة البحرية، والتي من خلال تصلبها ينشأ الغلاف اليابس للمحيطات، فمع مرور الزمن، كيف ستصبح صخور الغلاف اليابس القديمة التي

تتبعاً شيئاً فشيئاً من محور الذروة البحرية ؟

هل يجب الاعتقاد بأن حجم الأرض يكثر ويزداد على ما هو عليه حالياً ؟
لا بل هذا الغلاف اليابس للمحيطات الذي تكون من خلال تصلب مواد منصهرة،
وصلت الى السطح في مناطق التجاعيد المحيطية، يغوص ويغطس داخل الغلاف أي
يرجع الى الوسط الأم.

وهذه الأماكن التي تختفي فيها صخور الغلاف اليابس للمحيطات هي مانسمها
بمناطق التهدل العظمى. (شكل 10).

فماذا يحصل في هذه الأماكن عندما تقترب صفيحة محيطية من صفيحة قارية،
ان الصفيحة المحيطية هي مكونة أساساً من صخور بازلتية أكثر كثافة من
صخور الغلاف اليابس القاري.

فمن جراء كثافة الصخور البازلتية، ان الصفيحة المحيطية تغوص تحت الغلاف
اليابس القاري مما يحدث التواءات وانكماشات في صخور هذا الأخير، مؤدياً الى
تبعدها ونشوء السلاسل الجبلية الكبرى التي توجد على حافات مناطق التهدل
العظمى كجبال الروكي والأنديز.

ففي هذه المناطق أي مناطق التهدل العظمى، نلاحظ أن قاع المحيط يكون مقعراً
بحريراً عميقاً والذي هو محاط بالبراكين والجزر وبعض الأراضي اليابسة.

وكمثال لهذه المقعرات البحرية هناك مقعر اليابان ومقعر الفلبين ومقعر الماريان
الذي يعد أكبر مقعر بحري في العالم، ويزيد عمقه على 11000 متر.

أما في حالة تقارب الصفيحتين القاريتين فان العملية تؤدي الى نشوء السلاسل
الجبلية الداخلية وكمثال لهذا فان الاصطدام القاري ما بين الهند والقارة الأرواسيوية
كان سبباً لنشوء جبال الهمالايا.

نعلم أن منذ 200 مليون سنة كانت القارتين الكوندوانا والأورواسيوية يفصلهما
محيط مائي كبير يسمى التيتس، ففي هذا الأخير تراكمت مواد صلبة، الصخور
الرسوبية، فالكوندوانا لم تكفي بانشطارها الى عدة كتل : إفريقيا وأمريكا الجنوبية
وأستراليا والهند والقطب الجنوبي، بل ان بعض هذه الكتل ومنها الهند وإفريقيا زحفت
نحو الشمال واصطدمت مع القارة الأرواسيوية وكانت النتيجة هو أن تلك الصخور
الرسوبية التي تكونت في التيتس انكمشت والتوت معطية هذه السلاسل من الجبال

التي تكون خطاً ممتداً من ماليزيا عبر جبال الهيمالايا والقوقاز حتى جبال الالب.
فعدم الاستقرار وزحف القارة الأفريقية نحو الشمال يتواصل حالياً، والدليل على
هذه هو تلك الهزات الأرضية أو الزلازل التي تحدث في حوض البحر الأبيض
المتوسط.

فالمواد المنصهرة تصعد إلى السطح، فما هي آليات صعود هذه المواد وعلاقتها
بتزحزح القارات ؟

إن الدراسات الجيوفيزيائية وبواسطة الموجات الزلزالية بينت بأن الجزء الأكبر من
الغلاف مكون من مواد لزجة، وفي أغلب الأحيان منصهرة، ويعتقد بأن هذه المواد
اللزجة تلعب دور مادة مزلقة تساعد على تزحزح الغلاف اليابس.

فوصول المواد المنصهرة على مستوى الغلاف، إلى سطح الأرض يتم عن وجود
تيارات هائلة لهذه المواد المنصهرة داخل الغلاف.

فهذه التيارات المسببة لتزحزح القارات هي ما نسميها بالتيارات التصاعدية والتي
هي عبارة عن تصاعد مواد حارة وهبوط مواد باردة نسبياً، والكل كما يمكن أن نشاهده
نحدد ما نسميه بغرف التصاعد. (شكل 4)

ففي مناطق التهدل العظمي تغوص الصفائح المحيطية الباردة داخل الغلاف
وتنصهر مكونة هذا الجزء النازل لغرف التصاعد.

وبتوازي هذه المواد ستجري أفقياً داخل الغلاف من مناطق التهدل العظمي إلى
مناطق الذروة البحرية لتصعد وتصل إلى السطح.

أما عن المحرك الرئيسي لهذه التيارات التصاعدية فإن بعض الباحثين يرون بأن
المحرك المسؤول لهذه التيارات يكمن في تسخين المواد السائلة في أعماق الغلاف.
فهذا التسخين يكون مصدره، جزئياً، الطاقة المولدة من جراء تفسخ العناصر
المشعة.

فالمواد المسخنة تتمدد وبذلك تكون أقل كثافة وتصعد، وعندما تصل أو من جراء
اصطدامها مع الغلاف اليابس، تبرد وتكتاثف ثم تنزل.

ويمكن تفسير الوحدات البنيوية الكبرى للأرض داخل هذه النطاق وهو نطاق
بنائية الصفائح. فمن خلال هذه الدراسات استطاع الإنسان اليوم أن يرسم خرائط

تصف الحركات أو التباعدات لجميع القارات في الماضي والحاضر،
وكاستكمال لهذه، استطاع كذلك أن يتوقع تباعد القارات في المستقبل.
فبعض الاختصاصيين في الأمر لم يترددوا في رسم هذه الخطوط الكبرى، أو
بالأحرى وجه الأرض خلال الخمسين مليون سنة القادمة.
وعلى هذا الأساس فإن القارات ستتابع ابتعادها عبر الزمن.
فأفريقيا الشرقية ستباعد عن باقي القارة الأفريقية وسيفرقهما محيط مائي.
أستراليا ستتابع زحفها نحو الشمال وستكون في شمال غرب هذه القارة سلاسل
جبلية من خلال التواء وانكماش صخور هذه المنطقة.
البحر الأبيض المتوسط سيعرف تغيير في الشكل والأهمية.
مصر ستباعد عن صحراء سيناء وسيفرقهما بحر عرضه يزيد عن 500 كلم.
سيختفي مضيق الهورموز والخليج العربي مما سيجعل الجزيرة العربية ملتصقة مع
آسيا وهذا الالتئام سيكون مميزا بسلسلة جبال زاكروس التي سيتعدى علوها 8000
متراً.

المراجع

- 1 — Le Grand livre de la terre
Editions des deux Coqs d'Or. 1981
- 2 — Le Guide de la géologie
M. FRIGO / L. SORBINI
Editions Fernand NATHAN
- 3 — La Derive des Continents
«La Tectonique des plaques
Bibliothèque pour la Science.
Revue :
- 4 — Pour la Science numéro special la «Terre»

Novembre 1983

**تعريف مجمل
بكلية الآداب بتطوان**

بطاقة تعريف بالكلية

تأسست كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان في شهر يوليوز 1982. وهي وإن كانت مؤسسة مستقلة، تسير إداريا وتربويا تسييرا ذاتيا حسب ما ينص عليه القانون المنظم للكلليات فهي تعتبر منذ إحداثها ضمن المؤسسات التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس. وقد استهدف إنشاء هذه الكلية نفس الاهداف المتوخاة من إنشاء الجامعة في أي جهة من جهات المملكة في إطار لامركزية التعليم العالي وتقريب الجامعة من المواطنين. إلا انه يمكن ذكر جملة من الأهداف الأخرى وهي :

- 1 — استثمار الطاقات الانسانية والمميزات والمعطيات الخاصة التي تزخر بها منطقة الشمال الغربي من المملكة، من الحسيمة إلى طنجة، فهذه المنطقة غنية بتاريخها ورجالها ومقدراتها الطبيعية وراثتها الحضاري العريق في تاريخ المغرب. إذ تعتبر تطوان وسبتة من أعرق مراكز الثقافة العربية الاسلامية.
- 2 — خلق مركز إشعاع فكري تستعيد به المنطقة دورها الطبيعي في مجال الحضارة المغربية.
- 3 — جعل هذه المنطقة منطقة متكاملة من حيث المرافق التربوية والاجتماعية والاقتصادية.
- 4 — التفتح على العالم الخارجي واستغلال الماضي المشترك الذي يربطنا بدول البحر الأبيض المتوسط خاصة إسبانيا وفرنسا.

وقد فتحت الكلية أبوابها أول مرة بتاريخ فاتح شتنبر 1982 لاستقبال الطلبة الذين يفدون عليها من الأقاليم الآتية : إقليم تطوان، إقليم طنجة، إقليم العرائش وإقليم شفشاون. وقد استهلّت الدراسة في هذه الكلية في حدود ثلاث شعب وهي :

- شعبة اللغة العربية وآدابها
- شعبة اللغة الفرنسية وآدابها
- شعبة اللغة الاسبانية وآدابها

ثم استكملت الكلية خلال السنوات الثلاث الأولى بقية الشعب التي ينص عليها قانون إحداث الكليات بحيث تتوفر الكلية حاليا على ست شعب هي كما يلي :

الشعب : عدد الطلبة لسنة (1987/86)

1643	1 — شعبة اللغة العربية وآدابها
436	2 — شعبة اللغة الفرنسية وآدابها
261	3 — شعبة اللغة الإسبانية وآدابها
454	4 — شعبة اللغة الانجليزية وآدابها
974	5 — شعبة التاريخ والجغرافية
324	6 — شعبة الدراسات الاسلامية

ويعزى التفاوت بين الشعب حسب الأرقام الواردة أعلاه. إلى اختيارات الطلبة وميولاتهم الأدبية والعلمية. والجدول الاحصائي رقم (1) المرفق بهذا التعريف يوضح بدقة نسبة تطور حجم الطلبة ابتداء من الموسم الجامعي 1983/82. والجدول رقم (2) نسبة انتماء الطلبة للشعب للموسم الجامعي 1987/86.

أما على مستوى التأطير التربوي فقد تناسب تزايد عدد الأساتذة نسبيا مع نمو حجم الطلبة. فقد بلغ عدد الأساتذة المنتسبين إلى الكلية في مختلف الرتب الجامعية (102) أستاذ، معظمهم من المغاربة وبعضهم من الشرق العربي ومن فرنسا وإسبانيا، والجدول البياني رقم (3) يوضح المعطيات الخاصة بالتأطير.

وتجدر الإشارة إلى أن الكلية تقتصر حاليا على إعطاء نوعين من الشهادات وهي :

- 1 — شهادة الدراسات الجامعية.
- 2 — الاجازة في الآداب.

وتتطلع الكلية حاليا إلى استكمال جميع شعب التخصص واستكمال جميع مستويات التعليم العالي بما في ذلك الدراسات العليا، وقد بلغ عدد المسجلين لاعداد دبلوم الدراسات العليا بهذه الكلية تسعة طلاب.

نسبة تطور أعداد الطلبة ابتداء
من الموسم الجامعي 1982 — 83

الموسم الجامعي	أعداد الطلبة	نسبة التزايد
1983 — 1982	801	—
1984 — 1983	1599	99.63 %
1985 — 1984	2415	51.03 %
1986 — 1985	3443	42.57 %
1987 — 1986	4092	32.36 %

نسب انتماء الطلبة للشعب برسم
الموسم الجامعي 86 — 1987

النسبة	عدد الطلبة	الشعب
41 %	1643	الأدب العربي
14 %	436	الأدب الفرنسي
07 %	261	الأدب الاسباني
10 %	454	الأدب الانجليزي
23 %	974	التاريخ والجغرافية
05 %	324	الدراسات الاسلامية
100 %	4092	المجموع

نسبة تطور أعداد الهيئة التدريسية
ابتداء من الموسم الجامعي 1982/1983

أساتذة السلك الثاني + الخدمة المدنية		الأساتذة المساعدون والمساعدون		الأساتذة المحاضرون		أساتذة التعليم العالي		الموسم الجامعي
نسبة التطور	الأعداد	نسبة التطور	الأعداد	نسبة التطور	الأعداد	نسبة التطور	الأعداد	
—	—	—	24	—	3	—	3	1983 — 1982
—	7	4،17 %	25	33،33 %	4	0 %	3	1984 — 1983
0 %	7	108 %	52	25 %	5	33،33 %	4	1985 — 1984
157،14 %	18	3،85 %	54	— 40 %	3	25 %	5	1986 — 1985
16،67 %	21	35،19 %	73	0 %	3	0 %	5	1987 — 1986

النشاط الثقافي بالكلية



النشاط الثقافي خلال الموسم الجامعي 85 — 1986

تميزت السنة الجامعية 85 — 1986 بتنظيم عدة تظاهرات علمية وثقافية تفوق بكثير ما عرفت السنوات الماضية منذ إحداث الكلية.

أولا : المحاضرات

أ — شعبة اللغة العربية وآدابها

في الفصل الثاني من السنة الجامعية نظمت شعبة الأدب العربي أيام علمية تمثلت في إلقاء محاضرات في مناهج النقد والتاريخ الأدبي والبحث وذلك لفائدة طلاب السنة الرابعة. وهي كما يلي :

1 — 19 فبراير 1986

النقد الأدبي في الأندلس : ابن عبد الغفور الكلاعي
للدكتور حسن الوراكلي

2 — 20 فبراير 1986

التلاقي بين التجريتين العمودية والتفعالية وآفاقها في المغرب
للدكتور حسن الطريق

3 — 21 فبراير 1986

الرواية العربية والبنوية التكوينية
للأستاذ حميد الحميداني

4 — 22 فبراير 1986

الشعر المغربي في الستينات
للدكتور محمد السرغيني

5 — 24 فبراير 1986

منهجية البحث في الأدب الحديث
للدكتور محمد الكتاني

6 — 25 فبراير 1986

في التحليل التناظري
للأستاذ أحمد بلشهاب

7 — 26 فبراير 1986

الرواية المغربية ومناهج النقد العربية
للدكتور سعيد علوش

8 — 27 فبراير 1986

مصطلح القصة عند التهامي الوزاني
للأستاذ محمد أنقار

9 — 28 فبراير 1986

مجالات الانشائية
للأستاذ حميد المرابط

10 — كما ألقى الدكتور جرمان عياش، الأستاذ بكلية الآداب بالرباط يوم الثلاثاء 14 يناير 1986 على الساعة 4 مساء محاضرة تحت عنوان : «المغاربة وتاريخهم».

11 — زار الكلية يوم الجمعة 13 — 12 — 85 بدعوة من قسم الجغرافية الأستاذ نجيب مكواري المهندس المعماري بمدينة تطوان الذي ألقى محاضرة حول التوسع العمراني لمدينة تطوان.

وتاريخ 21 — 2 — 1986 ألقى الأستاذ الزائر محمد العربي السلاسي المسؤول عن الأرصاد الجوية بالدار البيضاء محاضرة بعنوان : تأثير المناخ على حياة الإنسان.

ج — شعبة اللغة الانجليزية وآدابها

وتاريخ 17 — 2 — 1986 ألفت الأستاذة الزائرة الطيب كريسلدا محاضرة تحت عنوان : الواقعية الرومانسية في الشعر الانجليزي على طلبة السنة الأولى.

ثانيا : الندوات

أهم حدث فيما يخص النشاط العلمي الذي عرفته الكلية هذه السنة هو تأسيس الكلية «لملتقى الدراسات المغربية الأندلسية» الذي تقرر أن يدور الملتقى الأول منه حول شخصية ابن الخطيب. وبالفعل نظمت ندوة عن ابن الخطيب (الشخصية والعصر) على مستوى رفيع خلال أيام 17 — 18 و 19 أبريل 1986 من طرف شعبة اللغة العربية وآدابها وتنسيق مع شعبة اللغة الأسبانية وآدابها. شارك فيه نحو أربعين (40) أستاذا من بينهم أساتذة من تونس وإسبانيا وفرنسا بالإضافة إلى أساتذة جامعيين مغاربة من كليات : تطوان، فاس والرباط. وأساتذة أعضاء في أكاديمية المملكة المغربية. وذلك بمقر الكلية.

وفيما يلي بتفصيل برنامج الملتقى :

الخميس 7 شعبان — 17 أبريل

صباحا :

9.30 جلسة الافتتاح :

— تلاوة قرآنية

— كلمة السيد عميد الكلية

— كلمة اللجنة التحضيرية

— حفل الاستقبال

— افتتاح معرض (آثار ابن الخطيب ومؤلفات عصره)

الجلسة الأولى : برئاسة الدكتور عبد السلام الهراس

10.00 ذ.محمد المنوني (الخزانة الحسنية — الرباط).

«ابن الخطيب المؤرخ»

11.00 دة.ماريا خيسوس فيغيرا (جامعة الكومبلوتنسي — كلية فقه اللغة — مدريد).

«ابن مرزوق في نظر ابن الخطيب»

11.20 د.امحمد ابن عبود (المعهد الجامعي للبحث العلمي)

«ابن الخطيب مؤرخ الاندلس في عصر الطوائف»

11.40 ذ.عبد العالي الودغيري (كلية الآداب والعلوم الانسانية — جامعة محمد الخامس —

الرباط

«مفردات ابن الخطيب»

12.00 مناقشة

مساء :

الجلسة الثانية : برئاسة الدكتورة ماريا خيسوس فيغيرا

16.00 د.عبد السلام الهراس (كلية الآداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن عبد الله — فاس)

«بين ابن الخطيب وابن الأبار»

16.40 د.جمعة شيخة (كلية الآداب والعلوم الانسانية — الجامعة التونسية — تونس)،
«القيمة الوثائقية في شعر ابن الخطيب»

17.00 د.رونيه بيريز (جمعية السورس — الرباط)

«جوانب من تفكير ابن الخطيب في روضة التعريف»

17.40 استراحة

18.00 د.خوسي ماريا فورنياس (كلية الفلسفة والآداب — جامعة غرناطة — غرناطة)
«ابن الخطيب وبنو عطية بغرناطة»

18.20 د.مصطفى الزباخ (كلية علوم التربية — الرباط).

«بنية الصراع الحضاري الأندلسي من خلال رسائل ابن الخطيب قراءة في المكونات والدلالات»

18.40 ذ.علي لغزوي (كلية الآداب — جامعة سيدي محمد بن عبد الله — فاس)
«جوانب من النقد الأدبي عند لسان الدين ابن الخطيب».

19.00 مناقشة

الجمعة 9 شعبان — 18 أبريل

صباحا :

الجلسة الثالثة : برئاسة الدكتور حسن الوراكلي

9.30 دة.ماريا خيسوس روبييرا (كلية الفلسفة والآداب — جامعة القنت — اسبانيا)
«ابن الخطيب الشاعر»

9.50 د.محمد بنشريف (كلية الآداب — جامعة محمد الخامس — الرباط)
«من الجديد في شعر ابن الخطيب»

10.30 د.محمد الكتاني (كلية الآداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن عبد الله — تطوان).

«ابن الخطيب والمذاهب الفكرية في عصره»

11.10 مناقشة

مساء :

الجلسة الرابعة : برئاسة الدكتور محمد بنشريف

- 16 د.عبد الهادي التازي (المعهد الجامعي للبحث العلمي — الرباط).
«ابن الخطيب سفيرا ولاجئا سياسيا».
- 16.20 دة.فاطمة طحطاح (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة محمد الخامس)
الرباط.
«التجربة الدينية في شعر ابن الخطيب»
- 17.00 أحمد الطرايسي (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة محمد الخامس — الرباط)
«شاعرية ابن الخطيب»
- 17.20 دة.السعدية فاغية (المدرسة العليا للاساتذة — المحمدية)
«ابن الخطيب شخصيته وعصره»
- 17.40 استراحة
- 18.00 د.عبد المالك الشامي (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن
عبد الله — فاس)
«مولديات ابن الخطيب»
- 18.20 د.عبد السلام شقور (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن عبد
الله — تطوان)
«ما لم ينشر من الاحاطة لابن الخطيب»
- 18.40 د.عبد الله المرباط (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن عبد
الله — تطوان).
«ابن الخطيب في كتابه الترجمة»
- 19.00 مناقشة

السبت 9 شعبان — 19 أبريل

صباحا :

الجلسة الخامسة : برئاسة الدكتور عبد الهادي التازي

- 9.50 د.عبد الواحد العمري (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن
عبد الله — تطوان).
«الخطاب العقائدي بين ابن تومرت وابن الخطيب»

10.10 ذ.قاسم الحسيني : (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة محمد الخامس —
الرباط)

«الصورة الشعرية في إبداع ابن الخطيب»

10.50 استراحة

11.10 ذ.سعيد ابن الاحراش (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن عبد
الله — تطوان).

«مفهوم السحر والشعر عند ابن الخطيب وشيخه ابن ليون من خلال كتابيهما :
السحر والشعر» و«لمح السحر من روح الشعر وروح السحر»

11.30 د.محمد مفتاح (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة محمد الخامس — الرباط)
«الصناعة الشعرية لدى لسان الدين ابن الخطيب»

12.10 د.حسن الوراكلي (كلية الاداب والعلوم الانسانية — جامعة سيدي محمد بن عبد
الله — تطوان)

«ابن الخطيب في آثار الدارسين»

12.30 مناقشة

اختتام الملتقى

فهرس عام لبحوث الاجازة

للسنة الجامعية 1986/85

1 - تاريخ الأدب والنقد في العصور القديمة (الجاهلي - الأموي - العباسي)

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الأستاذ المشرف
1	بولحية الزهرة	نفسية الشاعر أبي فراس الحمداني من خلال شعره.	د. محمد الكتاني
2	المحبوب رشيدة	الشكوى في شعر العصر العباسي الأول.	د. عبود عبد الكريم
3	الغريش مريم	اتجاهات شعر الهجاء في العصر العباسي الأول.	د. عبود عبد الكريم
4	ابن زاكور حورية	أدب الاخوانيات في العصر العباسي.	د. عبود عبد الكريم
5	فوطلة جميلة	الحس القومي عند المتنبي.	د. عبود عبد الكريم
6	الطالب بهيجة	المرأة في شعر المتنبي.	د. عبود عبد الكريم
7	عظيمو جهاد	المرأة في شعر بشار بن برد.	د. عبود عبد الكريم
8	بوعراف بشرى	ظاهرة الزهد في شعر أبي العلاء المعري.	د. عبود عبد الكريم
9	بوهلال نجية	شعر الطبيعة في القرن الثالث الهجري.	د. عبود عبد الكريم
10	موساتن عبد الله	الصورة الأدبية في شعر أبي نواس.	د. عبود عبد الكريم
11	الشهبوي مالكة	المرأة في شعر أبي العلاء المعري.	د. عبود عبد الكريم
12	منيع نادية	اتجاهات شعر الغزل في العصر العباسي الأول.	د. عبود عبد الكريم
13	الوهابي بديعة	الأدب والدفاع عن الحكم العباسي حتى نهاية القرن الثالث.	د. عبود عبد الكريم
14	اليونسي ليلي	نزعة السخرية في الأدب العباسي.	د. عبود عبد الكريم
15	نرتو عبد الاله	منهج البحث والتأليف في كتاب الرزاة للامد عبد.	ذ. العلوي أحمد
16	الشداوي سعاد	منهج البحث والتأليف عند قدامة بن جعفر من خلال كتابه «نقد الشعر».	ذ. العلوي أحمد
17	الحنشي أسامة	منهج البحث والتأليف عند قدامة بن جعفر من خلال كتابه «نقد الشعر».	ذ. العلوي أحمد

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الأستاذ المشرف
18	الفتوحى لطيفة	منهج البحث والتأليف لابن طباطبا من خلال كتابه «عيار الشعر».	ذ. العلوي أحمد
19	المطني محمد العربي	منهج البحث والتأليف عند ابن المعتز من خلال كتابه «البدیع».	ذ. العلوي أحمد
20	بنشقرون محمد	منهج البحث والتأليف في كتاب «المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر» لفضياء الدين بن الأثير.	ذ. العلوي أحمد
21	القباج أنس	منهج البحث والتأليف في كتاب «العمدة في محاسن الشعر ونقده» لابن رشيق القيرواني.	ذ. العلوي أحمد
22	بنيس محمد	ظاهرة «الأنا» في شعر المتنبي دراسة بنيوية تحليلية.	ذ. المرابط حميد
23	الحجي أحمد	نحو قانون سيميائي لبنية العوامل. دراسة في معلقة امرئ القيس.	ذ. أحمد بلشهاب

2 — تاريخ الأدب والنقد في المغرب والأندلس

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الاستاذ المشرف
24	الحسيني محمد	شعر الجهاد بالأندلس خلال القرن الثامن الهجري.	د.حسن الوراكلي
25	شهبر عبد العزيز	ملامح عربية في الأدب العبري الأندلسي.	د.حسن الوراكلي
26	الوزاني التهامي حسن	ابن زيدون في آثار الدارسين (دراسة بيلوغرافية وصفية)	د.حسن الوراكلي
27	الشاعر محمد رشيد	الأدب الأندلسي في آثار الدارسين المشاركة دراسة بيلوغرافية.	د.حسن الوراكلي
28	ماداش حسن	ابن حيان القرطبي أدبا وناقدا.	د.حسن الوراكلي
29	بنعمر سليمة	مأساة سقوط الأندلس في الشعر الأندلسي.	د.حسن الوراكلي
30	الحسيني محمد نورالدين	إشكالية الشعر والأخلاق في الأندلس	د.حسن الوراكلي
31	فرشاشي نادية	مشيخة ابن خلدون الأدبية دراسة في منابع الفكر الخلدوني الأدبي.	د.شقور عبد السلام
32	بولعيش هاجر	الحياة الأدبية في فاس في القرن الثامن	د.شقور عبد السلام
33	عروش محمد	دراسة تحليلية لصوص مربية على المستوى الدلالي والبلاغي.	د.شقور عبد السلام
34	أجبار الكرييري محمد	بلاط أبي عنان الشعري، دراسة في الشعر المغربي على عهد ابن عنان.	د.شقور عبد السلام
35	الرومي نبيلة	أبو العباس أحمد الجزنائي حياته وأدبه.	د.شقور عبد السلام
36	حيون لطيفة	رسائل أبي علي اليوسي دراسة موضوعية، أسلوبية.	د.شقور عبد السلام
37	الميموني فاطمة الزهراء	محمد المختار السوسي الأديب.	د.شقور عبد السلام
38	الجباري نجيب	مالك بن المرحل (حياته وشعره)	د.شقور عبد السلام
39	أحيدار بديدة	القصيد المدحية في ديوان الشاعر أبي الربيع سليمان الموحدي.	د.شقور عبد السلام

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الأستاذ المشرف
40	الثلي يوسف	عبد الله كنون شاعرا.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
41	العشيري عبد المومن	أبو الحسن الرعيني حياته وأدبه.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
42	الفرخاني الرايس محمد	أبو البركات بن الحاج البليقي حياته ونشاطه الأدبي.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
43	بنعزيان مصطفى	أبو عبد الله ابن الجنان (محمد بن محمد بن أحمد الانصاري) حياته وأدبه.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
44	الوالي محمد سعيد	دالية أبي الحسن اليوسي في مدح ابن ناصر (دراسة وتحليل).	ذ.عبد الله الترغي المرباط
45	غزولة نزيهة	الحركة الشعرية في تطوان عن مطلع القرن الثاني عشر للهجرة.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
46	شداد الحراق محمد	التجربة الشعرية عند محمد الحراق من خلال ديوانه الصوفي.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
47	الحوات فؤاد	ملاحم من الأدب الصوفي في المغرب على عهد الموحدين ابن المسفر — ابن المقلي — ابن القابلة — العشي المراكشي.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
48	بن عياد فاطمة	رثائية اليوسي للزاوية الدلائية — دراسة وتحليل.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
49	ريان مصطفى	صفوان بن إدريس حياته وآثاره.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
50	شاكر مظالسي رشيدة	المدح والتوسل عند اليوسي.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
51	العشيري نادية	مستويات التشبيه في شعر أبي بكر بن هذيل.	ذ.عبد الله الترغي المرباط
52	البرودي لحسن	فن الهجاء النثري من خلال رسالة ابن زيدون الهزلية.	ذ.الأحرش سعيد
53	موجو عامر عبد اللطيف	المعايير النقدية من خلال كتابه «إحكام صنعة الكلام» للكلاعي (النقد من خلال الذخيرة).	ذ.الأحرش سعيد
54	الزكاف يوسف	أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي البلسمي : حياته وآثاره الأدبية.	ذ.الأحرش سعيد
55	الثالي يوسف	ملاحم من شعر الزهد بإشيلية على عهد الموحدين أبو عمران المازنلي — أبي بكر بن قسوم.	ذ.الأحرش سعيد

3 — الأدب الحديث والمعاصر (الفنون — المناهج والاعلام)

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الأستاذ المشرف
56	المودن مريم	النزعة القومية في أدب المهجر.	د. محمد الكتاني
57	العلمي آمنة	فن المعارضة في الشعر الحديث البارودي نموذجاً.	د. محمد الكتاني
58	محمد الحافظ الرومي	موسيقى الشعر الحر من خلال نماذج مغربية.	د. محمد الكتاني
59	أعزمير إحسان	النزعة القومية في الشعر السوري (الشاعر خليل مردم نموذجاً).	د. محمد الكتاني
60	الصغير عبد الله	أمين الريحاني من خلال رحلته : «المغرب الأقصى».	د. محمد الكتاني
61	العلوي محمد	الخطاب السياسي في شعر معروف الرصافي.	د. محمد الكتاني
62	الحاج اطراري جميلة	بين الحقيقة والخيال في شعر علي محمود طه المهندس.	د. محمد الكتاني
63	المتني نزيهة	حركات التحرر والثورة في الأدب القصصي لنجيب الكيلاني.	د. حسن الوركاني
64	بنقدور يوسف	هاجس الحداثة في الشعر المغربي المعاصر.	ذ. الطريق حسن
65	حرير لطيفة	أبعاد إنسانية في الرواية المغربية (وأخرجها من الجنة) لعبد الكريم غلاب نموذجاً.	ذ. الطريق حسن
66	يشو عبد المالك	التوجهات الابدولوجية في الشعر المغربي المعاصر.	ذ. الطريق حسن
67	الدغاي عبد الله	المسرح الشعري المغربي.	ذ. الطريق حسن
68	الغليزوري أنيسة	فن المقالة عند أحمد مدينة.	ذ. أنقار محمد
69	العافل الفقيه عائشة	محمد داود وتراثه الأدبي.	ذ. أنقار محمد
70	دراز فاطمة	الأدب في مجلة «الأنوار» (دراسة وبيبلوغرافية).	ذ. أنقار محمد
71	بهيمو الرجاني سعيدة	الحكاية العجبية في المغرب (دراسة تطبيقية).	ذ. أنقار محمد
72	الادريسي محمد	الحركة الأدبية في طنجة (1956 — 1985).	ذ. أنقار محمد
73	زريق محمد	مفهوم الثقافة عند «جمعية الطالب المغربية» (1932 — 1948).	ذ. أنقار محمد
74	أعراب أحمد	«الرحلة المراكشية» لمحمد بن عبد الله الموقت.	ذ. أنقار محمد

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الأستاذ المشرف
75	أوطاح جميلة	السيرة الذاتية من خلال «الرواية» للنهامي الوزاني.	ذ. أنقار محمد
76	الهراس رجاء	التجربة الشعرية عند محمد أبو عسل.	ذ. أنقار محمد
77	الرغويي الصادق	تركيب الوظائف في رواية محدث في مصر الآن ليوسف التعيد.	ذ. أحمد بلشهاب
78	احشينة عبد الواحد	رؤية العالم في شعر عمران ابن حطان.	ذ. أحمد بلشهاب
79	أنات إسماعيل	تحليل منطقي سيميائي لرواية المستنقع لحنا مينه.	ذ. أحمد بلشهاب
80	النادي مصطفى	الأنماط والرؤية من خلال رواية الطيبون لمبارك ربيع.	ذ. أحمد بلشهاب
81	أبو القاسم السعيد	رؤية للعالم في رواية «نجمة أغسطس» لصنع الله إبراهيم مقارنة بنبوية تكوينية.	ذ. أحمد بلشهاب
82	الفهري محمد	مقارنة بنبوية لتقنيات السرد في «رحيل البحر».	ذ. أحمد بلشهاب
83	أيتوتهن صلاح الدين	شعرية الزمن في رواية «بدر زمانه» لربيع مبارك.	ذ. أحمد بلشهاب
84	بجيت عبد الواحد	النقد الجديد وواسين ترجمة وتقديم.	ذ. أحمد بلشهاب
85	الغري نجاة	النقد الجديد في المغرب من خلال محمد براءة وإدريس الناقوري.	ذ. المرابط حميد
86	بلحاج محمد	البعد النفسي للشخص مقارنة بنبوية في تحليل رواية «الغربة».	ذ. المرابط حميد
87	البقالي عبد السلام	مفهوم النقد عند شكري فيصل.	ذ. المرابط حميد
88	بوغاية لقمان	التجربة القصصية عند إدريس الخوري.	ذ. المرابط حميد
89	الحراق أمينة	التجربة القصصية عند خناتة بنونة من خلال «النار والاختيار».	ذ. المرابط حميد
90	بنفارس عبد الخالق	الخطاب الاطوبوغرافي في «الذاكرة الموشومة».	ذ. المرابط حميد
91	التجالي عثمان	مدخل إلى التحليل النبوي للحكايات لرولان بارت ترجمة وعرض وتعليق.	ذ. المرابط حميد
92	اليونسي خديجة	توفيق الحوار في رواية ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ.	ذ. المرابط حميد
93	الويباغلي العبدلوي مصطفى	البنية السردية عند نجيب محفوظ في «ثلاثيته» ويوكيوميشيما. في رباعيته «بحر الخصوبة».	ذ. المرابط حميد
94	الغالي عبارة	ذلالة الانسان والاشياء في شعر عبد الكريم الطيبال.	ذ. المرابط حميد
95	البنان رشيد	توظيف الاسطورة في الشعر المغربي الحديث من خلال (عبد الكريم الطيبال، عبد الله راجع، أحمد الجوماري).	ذ. المرابط حميد

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الامتاذ المشرف
96	البقالي أسماء	ثنائية المرأة/الأرض في الشعر الفلسطيني عند محمود درويش وتوفيق زياد.	ذ.المرباط حميد
97	خرخور لطيفة	البناء الروائي عند نجيب محفوظ في (بداية ونهاية).	ذ.المرباط حميد
98	البقالي يوسف	شخصية اليهودي في أعمال غسان كنفاني.	ذ.المرباط حميد
99	الصغير حياة	دور «الرابطه القلمية» في تجربة الشعر العربي لميخائيل، إليا أبو ماضي — جيران كنداخ.	ذ.المرباط حميد

4 - موضوعات عامة في الفكر والترجمة واللغويات

ر.ت	إسم الطالب	عنوان البحث	الأستاذ المشرف
100	إغونان إبراهيم	الدفاع عن اللغة العربية لدى الشعراء الأحيائيين	د. محمد الكتاني
101	الروادني سعاد	الترجمة والتعليق على فصول من كتاب «Poesia Narrativa y Epica Hispanica» صاحب الكتاب Francisco Marcos Marin	د. حسن الوراكلي
102	السناك جميلة	شخصية البطل بين المقامة وقصة الصعلكة الأسبانية Lazarillo de Tormes.	د. حسن الوراكلي

DEPARTEMENT : LANGUE ET LITTERATURE FRANCAISE

N° d'ordre	Nom et Prénom de l'Etudiant	Thème du Mémoire	Professeurs
1	El Ouahabi Mohamed	Le thème de la passion dans «Andromaque»	Mr.Aranjo Daniel
2	Ikanoune Fatima	L'influence de Platon et de Pétrarque dans la poésie de Ronsard	Mr. Aranjo Daniel
3	Lamarti Hagouz Samira	Le Thème du Spleen chez Baudelaire et les poètes français et allemand du XIX ^e siècle.	Mr. Aranjo Daniel
4	Bouassab Ouafae	Perception et spiritualisation du temps chez Baudelaire.	Mr. Aranjo Daniel
5	Souleimane Chami	Le Thème de l'errance dans les «Poésies» de Rimbaud.	Mr. Aranjo Daniel
6	Fahsi Soâd	La caricature au Maroc	Mr.El Kouche Boubkeur
7	Merroun Mohamed	Presse et culture marocaine	Mr.El kouche Boubkeur
8	Ouazzani Touhami Khalid	Analyse du film marocain	Mr.El kouche Bubkeur
9	Bahid Mohamed Said	Sui «un roi sans divertissement» Analyse d'ordre psychanalytique.	Mr. Hartmann
10	El Wafi Nadia	Lecture psychanalytique du personnage d'Adolphe à travers «Adolph» «Cécile» et «le cahier rouge» de Benjamin Constant.	Mr. Hartmann
11	Tamaditi Rabia	Analyse psychologique des personnages principaux des trois romans de Mauriac : Thérèse Desqueyrons, le Baiser au Lèpreux et Génétrix	Mr. Hartmann
12	E khalifi Adel-Ilah	La femme chez Eluard	Mr.Aranjo Daniel
13	Es-Satte M'Hamed	L'appart de l'Ecole des Beaux Arts de Tétouan dans le développement de la peinture au Maroc.	Mr.El Kouche
14	El Ftouhi Said	La Figure de l'homosexuel chez Balzac (Cycle Vautimn)	Mr. Hartmann
15	Elaasri Laiachi	De sypispe à Oedipe (Le cycle de l'Absurde)	Mr. Hartmann

DEPARTEMENT : LANGUE ET LITTERATURE ESPAGNOLE

N° d'ordre	Nom et Prénom de l'Etudiant	Thème du Mémoire	Professeurs
16	Amrani Nouzha	«El mundo juvenil de V.Llosa» en los Cachorros.	Dr. Bouissef
17	Atar Boulaich Driss	Traducción de seis cuentos sacados del libro Antología de Relatos Marroquies en lengua española.	Dr. Djbilou
18	El Bakhti Marrakchi Youssef	«El tema del Amor» en Pepita Jimenez de Juan Valera.	Dr. Djbilou
19	Ben El Mubarca Yemlak	«Imam» Cronica denunciadora de la guerra de Marruecos de Ramon J. Sender.	Dr. Djbilou
20	Bouadi Ihsan	«La vuelta de Martin Fierro» José Hernandez.	Dr. Bouissef
21	Darrak Fatima	Vision de Barea sobre el norte de Marruecos en La Forja de una rebelde II tomo / la ruta, Arturo Barea.	Dr. Djbilou
22	Echaaïri Abdelaziz	Traducción : Origenes del Orientalismo literario del escritor Luis Seco de Lucena	Dr. Djbilou
23	El Yassini Rachida	Vision rural a través de Los santos inocentes de Miguel Delibes.	Dr. Djbilou
24	Chailan Jamila	Tanger en la vision de Pio Baroja, Rubén Darío y Vicente Vera.	Dr. Djbilou
25	Kadiri Mounia	Traducción del 1 ^{er} y 4 ^{ta} capitulo de Cronica sarraeinas de Juan Goytisolo.	Dr. Djbilou
26	Khamal Fatima	Traducción de algunos relatos de El Aleph de J.L. Borges.	Dr. Djbilou
27	Mahdi Anissa	El mundo infantil en Al pie de la ciudad de M. Mejia Vallejo.	Dr. Bouissef
28	Mesri Omar	El doctor como personaje enigmático en La Hojarasca de Gabriel Marquez.	Dr. Bouissef
29	Moutik Touriya	Analisis del personaje Pascual en La familia de Pascual Duarte de Camilo José Cela.	Dr. Djbilou
30	Sahli Abdelouaheb	La sociedad mexicana vista por Juan Rulfo en El llano en llamas.	Dr. Bouissef
31	Sarraj Abdelhamid	El elemento árabe en Reivindicacion del conde don Julian de Juan Goytisolo.	Dr. Djbilou
32	Sarraj Mohsine	Geo. Maker Thompson Personaje principal en El Papa Verde de Miguel Angel Asturias.	Dr. Bouissef
33	Abarchan Mohamed	El conflicto racial en José M. Arguedas a través de su obra Todas las sangres.	Dr. Bouissef

Université Sidi Mohamed Ben Abdellah



Revue
**DE LA FACULTE
DES LETTRES**
TETOUAN

Novembre 1986

1^{ere} Année
Numéro 1

Revue
**DE LA FACULTE
DES LETTRES**
TETOUAN

Université Sidi Mohamed Ben Abdellah

Revue
DE LA FACULTE
DES LETTRES
TETOUAN

1^{re} Année
Numéro 1

Novembre 1986

SOMMAIRE

Fez en la vision de Enrique Gomez Carrillo <i>DJBILOU Abdellah</i>	7
Los estudios sobre los arabismos del espanol <i>AMRANI Mohammed</i>	15
Influencia de vicente Huidobro en Espana <i>BOUISSEF-REKAB Mohamed</i>	23
Verosimilitud y ambigüedad en los cuentos de forma autobiografica de Jorge Luis Borges <i>Teresa de SANTOS</i>	37

ETUDES GEOGRAPHIQUES

Propriété foncière citadine dans le Fahs de Tanger (Répartition et mode de faire-valoir) <i>BOULIFA Abdelaziz</i>	59
Quelques réflexions à propos de la répartition spatio-temporelle des précipitations dans le B.V de l'Inaouene (Région de Taza) <i>AFKIR Elhoussaine</i>	77
Quelques réflexions sur l'évolution morphologique du haut atlas de rich (Haut Atlas Oriental) <i>LAAOUANE Mohamed</i>	97
Essai de Toponymie <i>BABIL Lahcen</i>	113



FEZ EN LA VISION DE ENRIQUE GOMEZ CARRILLO

DJBILOU Abdellah

Introducción

El tema árabe no es un fenómeno nuevo en la literatura española. Desde la invasión musulmana a España, los contactos entre las dos culturas y las dos civilizaciones no se han interrumpido nunca. El Romance fronterizo incorporó el tema árabe a la poesía castellana, y el tema morisco, fuertemente matizado de exotismo, siguió despertando interés y entusiasmo entre escritores no sólo españoles, sino también europeos. Juan Goytisolo escribe: "El puesto central que ocupa el Islam en la escenografía mental hispana no puede escapar a la atención de ningún observador, incluso superficial de nuestra literatura. Temido, envidiado, combatido, denostado, el musulmán - sarracino, morisco, turco, o marroquí - alimenta desde hace diez siglos leyendas y fantasías, motiva cantares y poemas, protagoniza dramas y novelas, estimula poderosamente los mecanismos de nuestra imaginación." (1)

Ello es que el Islam supuso para Occidente una continua amenaza, un trauma duradero que se hizo más evidente con la dominación y la presencia de los árabes en España. Y, casi se puede afirmar sin mucho riesgo de equivocación, que ningún escritor o pensador ha podido evitar esa "llamada" de Oriente, esa "invitación" misteriosa a evocar y escribir sobre sus gentes.

Permitásenos en esta breve exposición señalar, aunque someramente, los grandes momentos de este tema clave de la literatura europea que es el orientalismo literario.

En Europa, y concretamente en Francia, la literatura francesa tomó contacto con el tema morisco a través de las dos famosas obras: "**Guerras civiles de Granada**" de Ginés Pérez de Hita, y "**el Abencerraje y la hermosa Jarifa**" de autor anónimo. Pero, paradójicamente, estos temas van a ser recreados en España como temas de lejanía después de ser retocados por la pluma genial de Victor Hugo y Chateaubriand.

La traducción de **las Mil y una noches** por Galland a finales del siglo XVII, la expedición de Napoleon Bonaparte a Egipto, el afán del Romanticismo

1) Crónicas sarracinas, Barcelona, Ruedo Ibérico, 1982, p.7.

por la lejanía y el exotismo son factores decisivos que significaron una inundación de las librerías en libros de tema oriental.

En cuanto a la literatura española, como queda dicho, el tema árabe es en ella un tema constante. Pero los grandes momentos del tema marroquí en las letras españolas coinciden con la guerra de África y la ocupación por parte de España del Norte de Marruecos. Actualmente, el mundo árabe sigue despertando gran interés y está siendo evocado por escritores, quizás con menos prejuicios e ideas preconcebidas a los cuales nos tenían acostumbrados los escritores de los siglos pasados.

Pero si los móviles del Orientalismo literario han sido, a veces, sospechosos, y si la imagen que nos ofrecía del mundo árabe es una imagen distorsionada y deformada, el Modernismo, -y Gómez Carrillo es una de sus figuras más relevantes- lo ha evocado como generador de belleza por ser un mundo "misterioso" y "raro".

EL MODERNISMO

El Modernismo es uno de los fenómenos literarios más complejos y corresponde a una época sumamente conflictiva como es la de finales del siglo pasado y principios de éste. Sus características fundamentales son el individualismo, el pesimismo y su marcado deseo de evasión, sobre todo, en sus primeros momentos. El Modernismo hispanoamericano es también, en su esencia, de origen francés. Todos los poetas modernistas hispanoamericanos bebieron en las fuentes francesas. (Rubén Darío, Leopoldo Lugones, Amado Nervo, E. Gómez Carrillo,...) Como la literatura francesa tenía una tendencia exotista, descubrió para el modernismo hispanoamericano el exotismo oriental.

Ciertamente, la influencia francesa en el modernismo hispanoamericano ha sido honda y decisiva. Mientras que el tema árabe en la literatura española es algo que el poeta considera como suyo, (el profesor Pedro Martínez Montáñez señala al respecto que "si cualquier otra literatura occidental hubiese querido poetizar sobre lo árabe, habría tenido que salir fuera de sus fronteras, habría tenido que buscarlo. A la literatura española no le hace falta, porque lo árabe lo tenemos ahí mismo, dentro de nuestra casa, entre nosotros") (2), para los demás es algo que aprenden en los libros.

Si los modernistas heredaron una visión oriental de los románticos franceses, éstos no tenían un contacto directo con el mundo islámico y se limitaban, según escribe P. Jourda, a repetir lo ya escrito: "On se contente en 1830 de parler de l'Orient sans l'avoir vu, en s'inspirant de Chateaubriand, de Byron, de Nodier". (3) En España, afirma Adolfo Rivadenyra: "somos tan pocos los que salimos de Europa, que cuanto sabemos de lejanas tierras, tenemos que leerlo en libros escritos por extranjeros, y casi siempre por franceses, cuyas obras por cierto no brillan por exactas y retratan demasiado el carácter impresionable de sus autores". (4)

2) Ensayos marginales de arabismo ; Madrid, Unvi. Autònoma, 1977, p.73

3) P. Jourda : l'Exotisme dans la littérature française depuis Chateaubriand ; Paris, 1938, p.173.

4) Viaje de Ceylán a Damasco ; Madrid, 1871.

Un libro que también contribuyó a la creación de una imagen del mundo árabe es el de las Mil y una noches, considerado por Michell Gall como "una vulgarización magistral de todas las ideas y de todos los "archivos" del Oriente Medio y Extremo Oriente" (5). Gómez Carrillo escribe en el prólogo a la versión española de las Mil y una noches hecha por V. Blasco Ibañez que "las noches de Mardrus son todo un mundo, son todo el Oriente con sus fantasías exuberantes, con sus locuras luminosas, con sus orgías sanguinarias, con sus pompas inverosímiles".

De ahí que, el evocar al mundo árabe, supone conocer ya un sinnúmero de imágenes librescas, deformadas y miliunanochescas.

Sin embargo, los modernistas que tuvieron vocación de exiliados, y por supuesto de grandes viajeros, consiguieron hacer de su sueño realidad -no todos- y visitaron algunas ciudades del mundo árabe. Rubén Darío visitó Tanger en 1904 dejándonos sus valiosas impresiones en su libro **"Tierras solares"**; Francisco Villaespesa estuvo en Argelia, y Enrique Gómez Carrillo fue quien más viajó por países del mundo árabe y nos dejó testimonio del mismo en sendas obras. Así escribió sobre su visita a Egipto "la sonrisa de la eslinga" (Madrid, Renacimiento, 1913), mientras **"Ciudades de ensueño"** (Madrid, Universal, 1920) trata de su visita a Damasco y constantinopla; y por último sus impresiones de Marruecos las escribió en el libro que nos ocupa: **Fez, la andaluza**. (*)

Gómez Carrillo: "príncipe de los cronistas".

Enrique Gómez Carrillo (Guatemala, 1873 - París, 1927) es ahora un nombre poco conocido, a pesar de haber gozado en vida de mucha popularidad e importancia. Además de innumerables crónicas periodísticas, publicó numerosos libros, algunos de los cuales le valieron el dictado del "Pierre Loti español". Pero lo que nos interesa dentro de la variada producción literaria Gómez-Carrillista, son las novelas de viaje y concretamente al mundo árabe.

Lo que busca Gómez Carrillo en el viaje, e incluso en los libros de viaje, es la "sensación". Escribe: "Todo viajero artista, en efecto, podría titular su libro: sensaciones, porque así como la novela, según Zola, no es más que la vida vista a través de un temperamento, así el paisaje lejano es una imagen interpretada por un visionario"(6)

Materlinek elogió precisamente al peregrino perfecto que es Gómez Carrillo, el cual, dice: "sabe escoger en todos los aspectos, en todos los escenarios, en todos los medios, en todos los pensamientos, en todos los sentimien-

5) **El Secreto de las Mil y una noches**; Barcelona: Plaza & Janés, 1975, 2ª ed. p.17

6) **Primer libro de las crónicas** (psicología del viaje); Obras Completas, Vol. VI, Madrid, Mundo Latino, p.10.

(*) véase nuestro «Diwan modernista» de próxima aparición en la editorial Tauvus, Col. «Temas de España».

tos aquellos que pensamos habríamos del peregrino perfecto, del peregrino que uno querría ser. Y ya vaya a Egipto ó a Palestina, a la Champaña ó a Flandes. él es siempre el mismo hombre, el mismo testigo que sabe verlo todo, oírlo todo, comprenderlo todo y amarlo todo" (8).

De Esta maestría hace gala Gómez Carrillo también en el libro que nos ocupa en su nostalgia andaluza, en Fez.

Fez, la andaluza

Esta importante novela fue publicada por la editorial madrileña Renacimiento en 1926. Consta de 237 páginas que forman los ocho capítulos de la obra : (I-El encanto de Fez, II-En el reino de las mujeres, III-La escuelita de mi barrio, IV-En el antro del brujo, V-los juglares de Bou Djelu, VI-Mi hermoso palacio, VII-Los estudiantes y la bohemia, VIII- Las bailadoras andaluzas.)

Como se advierte en el título de los diferentes capítulos, cada uno de ellos trata un tema distinto ; como es el tema de la mujer, la vida religiosa, la enseñanza...

La novela fue traducida al francés por Ch. Barthez bajo-el título significativo de "*Fés ou les nostalgies andalouses*".

Quizás sea este libro el más amplio y más significativo en cuanto a la visión modernista de Marruecos se refiere.

Desde las primeras líneas, el autor nos ofrece los móviles del viaje. Su intención consiste, en "pasearme...en soñar...en preguntarme si es real lo que veo o si soy el juguete de una alucinación... en respirar los aromas extraños del Islam...en embrigarme con el ritmo perpetuo del Maghreb". (PP. 7-8)

Gómez Carrillo se niega desde el primer momento a ser como aquellos turistas que siguen a un guía para escuchar su mediocre explicación y aconseja, como buen viajero y cronista, que para visitar al mundo árabe, "hay que renunciar a prejuicios nacionales. Hay, sobre todo, que hacer un esfuerzo de concentración y de adaptación". (PP. 28-29)

El autor es, pues, consciente de este peligro que conlleva el tener prejuicios nacionales por cuanto deforma la visión y la realidad del mundo visitado, porque no hará más que juzgar lo que tiene delante comparándolo a lo que ha dejado en su país de procedencia. En una palabra, Gómez Carrillo critica el egocentrismo europeo, poco amigo de una visión objetiva.

Si tuviéramos que resumir en una palabra la visión Gómez-Carrillista de Fez, ésta sería la "inmutabilidad". Influido por sus lecturas de Loti y de "*Rud*

7) E. Gómez Carrillo : *Ciudades de ensueño* ;Madrid, ed. Universal, 1920, p.6.

8) Revista Cosmopolis, 1919, Vol. I, p. 159.

al *Quartas*" de Abī Zarc Al-Fasi que cita muy a menudo, resulta comprensible este parón del tiempo. Para el autor, *Fez es una ciudad que se resiste al cambio*, una ciudad estática, enemiga de toda evolución y que por algún encantamiento miliunanochesco, el autor cree estar en cualquier ciudad andaluza del tiempo del califato. Todo lo recuerda Andalucía : el cante, el ritmo, la vida callejera y, sobre todo, - z como no ? - el barrio Al-Andalus. La "inmovilidad" de la vida de Fez ya fue evocada por Loti, por *Leon el Africano* y por Isaac Muñoz, quien en "*La Agonía del Magreb*", entre otras cosas escribe : "El corazón de Fez es aquel corazón que latió en el tiempo de oro de los califas".

Sin embargo, los habitantes de Fez son objeto de un continuo elogio a lo largo de la novela. Teniendo en cuenta que el autor había estado antes en otros países árabes, inevitablemente compara la ciudad marroquí con Damasco o con El Cairo. Así escribe en la página 79 : "En el Cairo hay más alegría, más gentileza exterior, más lujo, más color, más ruido, más reflejos voluptuosos, más aromas halagadores, más promesas de ventura inmediata. En Fez hay más dignidad, más elegancia espiritual, más armonía en el ritmo, más carácter en los dealles, más misterio en el conjunto."

Y añade : "Los moros, siempre dignos, siempre discretos, forman dentro del Islam una aristocracia. Y si algún defecto hubiera que echarles en cara, sería más bien el de la altanería." (p. 62)

La vida religiosa y espiritual es también evocada continuamente en la novela porque al deambular por las callejuelas de Fez, surge necesariamente el tema y la referencia a las mezquitas y santuarios que abundan en ellas. Pero el autor lleva una gran desilusión al no poder visitarlas por dentro "Pero nosotros, viles rumies, no tenemos derecho a ver sino la parte exterior del edificio (se refiere a la Cairaina) que no ofrece ningún interés artístico." (p. 83)

En cuanto al Korán, Gómez Carrillo lo define como una enciclopedia. Dice : "El Korán no es sólo una biblia, sino también una enciclopedia. La legislación, la moral, la higiene, las relaciones sociales, el régimen del hogar, las ciencias ocultas, la poesía mística, lo que interesa o apasiona a los fieles, en suma, en el Korán se encuentra". (p.133)

En definitiva, la vida religiosa y amorosa de los fasies está descrita con gran maestría por el escritor guatemalteco quien no cesa de elogiar esta ciudad que le recuerda a Andalucía : "En Fez, en efecto, todo respira el amor del arte, de la poesía, del estudio, de la cortesía, de la elegancia, del lujo, del deleite. Hay en el aire un encanto espiritual que flota, que da a la existencia de la gran metrópoli magrebina un sabor docto y galante que no se encuentra en ninguna otra ciudad africana." (p.9)

Gómez Carrillo describe y comenta todo cuanto sus ojos contemplan y admiran. Ve una boda, o visita la medersa, o escucha a los juglares en Bou Djelu y hace de todo ello motivo de comentarios y observaciones. Pero en todas estas páginas, la nostalgia andaluza hace su presencia a cada momento. Incluso en

los cuentos de los juglares : "hay fiereza, hay orgullo, hay arrongancia en el ritmo seco y metálico de ese relato caballeresco. Y para mí hay, además, algo muy especial : un eco Nostálgico de los fastos antiguos de Andalucía, una constante evocación de las luchas en las cuales, unos en nombre de Mahoma y otros en nombre de Santiago, los cristianos y los musulmanes se disputaban las tierras de España;

! Oh ! Valencia, ! Oh ! Valencia.

! Oh ! Valencia valenciana.

Un tiempo fuiste de moros,

y ahora eres cristiana

No pasará mucho tiempo

de moros serás tornada. (p.162)

Respecto a la mujer marroquí que la visión europea ha deformado viendo en ella una esclava, cuando no un objeto, Gomez Carrillo escribe : "Todos los que estudian la familia en Marruecos están de acuerdo para reconocer que, esclava en apariencia, en realidad, la mujer es allí la verdadera tirana del hogar. Los moros mismos lo saben. Pero en su orgullo de señores absolutos, no lo confiesan casi nunca. Y cuando lo confiesan, es en verso...(p.108). Los niños, también son en Marruecos bien tratados. "Hay que confesar-afirma el autor - que en Marruecos, los niños, en general, lejos de ser maltratados, parecen muy mimados."(p.127)

CONCLUSION

No quisiéramos terminar esta breve exposición sin señalar dos cosas fundamentales : la primera es que el autor no hace mención alguna de la situación política que vive el país. Máxime si tenemos en cuenta que Marruecos vivía entonces bajo el colonialismo hispano-francés, por lo que tenemos una visión atemporalizada. Esta actitud no es de extrañar en un escritor modernista. Este, necesita estar continuamente respaldado por experiencias ajenas y por conocimientos aprendidos en libros que trataron el mismo tema. Rubén Darío, visitando la Alhambra, dijo que no podía evitar el "hacer un poquito el Chateaubriand." Por ello, también, Gómez Carrillo cita continuamente a historiadores y viajeros que han descrito la capital espiritual de Marruecos.

En segundo lugar, Gómez Carrillo, tan aparentemente lejano de Fez, se siente en ella como en su propia tierra : "En el secreto de mi alma ni siquiera me figuro ser extranjero". Además, el escritor guatemalteco reconoce su propia identidad en Fez : "Tal vez hay, realmente, en mí, un real atavismo moro, una huella misteriosa de vida anterior en ciudades como ésta, entre gente como ésta. Porque a decir verdad, no sólo las cosas, sino también los seres los que me son fraterales "(p.96) Y es que, confirma una voz interior que le recuerda al escritor :

"No en vano, tus abuelos se llamaron los señores de Albornoz".

Por ello, al dejar la ciudad, experimenta "una honda, una inexplicable

impresión de criatura condenada al destierro que, por última vez, contempla, lleno de zozobra y de angustia, la imagen viva de su pueblo." (p.98)

Fez, la andaluza es un libro escrito en un estilo claro y exquisito, ejemplo del mismo tiene el lector en estos dos textos que hemos seleccionando.

1

«! Oh !, inmovilidad de la existencia islámica, cuánto más poética, cuánto más filosófica me pareces cuando te contemplo en ciudades como Fez, o como Damasco, que la agitación del progreso americano ! Hasta lo que en Nueva York se llama «confort», se me antoja, visto desde aquí, uno de los más graves errores del Occidente. Qué es, en efecto, lo que se ha inventado allá en los países ultramodernos, para hacer más grata la existencia ! Cosas para ir más de prisa, para subir más alto, para aumentar, en suma, los tormentos del mundo. En el Fez viejo, no hay ni teléfonos, ni ascensores, ni tranvías eléctricos, ni automóviles...

— Para qué sirve todo eso ? — murmuran los cuerdos achs, que han ido hasta la Meca a caballo, y que se sienten felices en sus patios soleados. Si algún día podéis enseñarnos a sondear el secreto del más allá, o a quitarle a las rosas del amor sus espinas, o a curar la lepra, o a devolver la vista a los ciegos o conservar la juventud eternamente, o a gozar un nuevo deleite, entonces, si entonces os escucharemos con interés. nosotros no somos enemigos de lo nuevo si lo nuevo es útil. Recordad nuestra historia. Cuando un hombre nos trae una nueva esperanza como Mahoma, o una nueva belleza, como Antár, no sólo aceptamos sus dones, sino que se los pagamos santiñcándolo. Pero lo que vosotros nos ofrecéis no nos parece, al menos por ahora, superior a lo que tenemos...

Y aunque mis amigos los modernistas y los futuristas se indignen contra mí, debo declarar, en mi alma y conciencia, que estos filósofos tienen razón. No lo digo en son de paradoja. Es un convencimiento íntimo que comenzó a germinar en mi alma cuando vi por primera vez, hace ya muchos años, a los árabes de Adén reírse de los ingleses y que se ha ido arraigando hasta hacerme envidiar la paz voluptuosa de estos fasis, que me ven pasar con algo de desprecio con mucho de lástima.

Y es que si los placeres verdaderos, los que dan precio a la vida, los que merecen que el hombre se sacrifique por conquistarlos, son los de orden espiritual y cerebral no hay duda de que cualquier tendero culto de Marruecos, de los que esperan a sus parroquianos leyendo las "Mil y una noches", o componiendo madrigales, es más feliz que el «businessman» yanqui, que, entre aparatos eléctricos, no sabe sino el valor de las cifras. La mejor prueba de que no me equivoco, la encuentro en el estudio, en que miss Morton Fullerton confiesa que en los Estados Unidos la sonrisa no existe desde hace muchos años. Un pueblo que no sonríe, en efecto, es un pueblo desventurado. En tanto que

un pueblo que sonríe, que sonríe siempre, que sonríe de todo corazón, es un pueblo envidiable.

Y Fez no sólo sonríe, sino que, además, canta...»(PP.21-22)

II

«Yo, por mi parte, más que las bellas historias persas, árabes o egipcias que relatan los contadores, admiro los romances caballerescos y devotos del juglar de los ojos de fuego y de la barba negra, que todas las tardes me atrae con sus gestos magníficos, sus actitudes hieráticas y sus ritmos sonoros. Ante éste, en efecto, no nos hallamos en el vago Islam indefinido en el que los visires se encaminan hacia la China en cabellos con alas y las sultanas entienden el lenguaje de las aves, sino en el viejo Almaghreb, que comienza en Tremecén y va hasta Granada, hasta Sevilla, hasta Córdoba, y en el que los héroes y las heroínas conservan siempre una apostura de seres orgullosos de su estirpe y de su raza, enamorados de sus leyendas fanáticos de sus glorias y pletóricos de realidad. El viajero romántico que, en Castilla, sentíase lleno de melancolía al ver la gran indiferencia con que los españoles, en general, pronunciaban el nombre del Cid, aquí se sentiría satisfecho notando el respeto, el fervor mejor dicho, con que los que escuchan recitar romances históricos, saludan a los Muley Idris, a los Almanzor, a los Muley Ismail, cuando los ven pasar por las estrofas de la gesta marroquí. Al Cid mismo, al Cid, que a cada momento aparece en estas imágenes, los moros lo reverencian con gentileza. Varias veces mi mentor me lo ha hecho advertir. Y yo, sin entender la letra, he creído que escuchaba el diálogo famoso que reza :

Dábale voces el Cid,
De esta manera decía :
— Espérame, moro Abdala,
No muestres tu cobardía
A las voces que el Cid daba,
El moro le respondía :
— Muchos tiempos ha, el Cid,
Que esperaba yo este día.»

(pp.193-4)

LOS ESTUDIOS SOBRE LOS ARABISMOS DEL ESPAÑOL

AMRANI Mohammed

El fácil hundimiento del Imperio Visigodo ante la presencia musulmana en tierras hispanas significó la división de la Península Ibérica en dos : la del Norte donde la cristiandad seguía viva (1), y la del Mediodía transformada hondamente por la civilización musulmana (2).

Como consecuencia de la superioridad de los árabes sobre los romanogodos, el árabe era general en las regiones sujetas al dominio musulmán. Como testimonio podemos citar el de Alvaro de Córdoba que, hacia 854, lamenta la gran desnacionalización que cundía entre los mozárabes. Enamorados de la erudición musulmana, estos últimos sólo se deleitaban en los versos árabes olvidando su propio idioma :

" No vemos que jóvenes cristianos, llenos de vida, de hermosura y de elocuencia versados ya en la erudición gentilica y muy peritos en la lengua árabe, corren desatinados en pos de los libros caldeos, los buscan, revuelven y estudian ansiosos, deléitanse con sólo ellos, de sólo ellos hablan ; y ¡ oh dolor !, cristianos, desconocen su ley, y latinos, olvidan su propio idioma ? De tal suerte que apenas entre todos los cristianos se hallará uno entre mil, que pueda razonablemente escribir una carta a su hermano saludándole, hallaréis gran muchedumbre sin número que eruditamente declare la pompa de los vocablos caldeos. Hacen también versos arábigos mucho más pulidos que los de nuestros opresores, y adornando con más hermosura que ellos las cláusulas postreras, ligadas todas a idéntica consonante" (3).

A este testimonio, hartó conocido, añadimos otro de Juan de Valdés, uno de los hombres de gran talento del S. XVI, autor de *Diálogo de la lengua* :

- 1) Simonet, F. J. : *Glosario de voces Ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes*. Amsterdam, Oriental Press, 1967, pp. (VII-CCXIV).
El término *mozárabe* procede de *mustá rab* (esta forma aparece en P. Alcalá 104-22). Se documenta por primera vez este arabismo en 1115.
- 2) Steiger, A. : *Contribución a la fonética del hispano-árabe y de los arabismos en el ibero-románico y siciliano*. RFE, Anejo XVII, Madrid, 1932. P.3.
- 3) Simonet, op. cit. p. XXI

“Abasta que la lengua latina, como he dicho, desterró de España a la griega. La qual, assí mezclada y algo corrompida, se platicó en España hasta la venida de los godos, los quales, aunque no desterraron la lengua latina, todavía la corrompieron con la suya, de manera que ya la lengua latina, tenía en España dos mezclas, una de la griega, según mi opinion, y otra de los godos. El uso desta lengua assí corrompida duró por toda España, según yo pienso, hasta que el rey don Rodrigo desastradamente la perdió quando la conquistaron ciertos reyes moros que passaron de Africa, con la venida de los quales se comenzó a hablar en España la lengua aráviga, ecepto en Asturias, en Vizcaya, y Lepuzcoa y en algunos lugares fuertes de Aragón y Cataluña” (4).

Ya en el siglo XVIII, el gran arabista, el Conde de Campomanes opinaba: “es indudable pues, que cristianos y moros cultivaron constantemente en España la lengua árabe, y que fue común su uso por algunos siglos en la mayor parte de la Península después de la irrupción de los Califas en ella reinando D. Rodrigo, último rey de los godos a principios del siglo octavo : esto es en el año de 711” (5).

Los mozárabes, más versados en la literatura árabe que en la latina, que emigraban al norte de la Península Ibérica desde los primeros siglos de la dominación musulmana, se trasladaron en masa durante las invasiones de almorávides y almohades del siglo XII. Además de ellos, que constituyeron una clase social introductora de la cultura árabe entre los cristianos, hubo otra clase social, la de los mudéjares (6). Tanto éstos como los tagarinons (7) vivirán como vasallos de los reyes cristianos, influidos por la tolerancia del Islam. Hubo además los tráfugas de una a otra religión : los muladíes (8). Una quinta clase social la constituyeron los enaciados (9) que, por su bilingüismo, servían de espías. Vivían en lugares fronterizos.

Como reflejo de esta convivencia, no siempre en paz, entre el andalusi (el español musulmán) y el leonés, el castellano o el aragonés (o sea el español cristiano), que no eran tan extraños el uno al otro, es el bilingüismo.

4) Valdés, J. de : *Diálogo de la Lengua* (1535), Madrid Clásicos Castellanos, Espasa-Calpe, 1964, pp. 27 y ss.

5) “Discurso preliminar al Diccionario de Francisco Cañes”, *Diccionario aspanol-Latino-Arábigo*, 3 vols., Madrid, 1787.

6) *Mudéjar* procede del árabe *mudāggan* ‘aquel a quien se ha permitido quedarse’. Se documenta este arabismo por primera vez en castellano en 1571. Este término se aplica sólo a los moriscos de Granada y Andalucía.

7) Se aplica este arabismo a los moriscos de la Corona de Aragón. Procede del árabe *tagrī* **propio del tagr al-á lá** (nombre con que conocían los musulmanes las tierras catalanas.) Este arabismo se documenta por primera vez en castellano en 1605.

8) *Muladí* ‘Cristiano español que renegó y se hizo musulmán, procede del árabe *muwalladín*.

9) *Enaciado* es un arabismo antiguo ‘tráfuga, el cristiano que se pasaba a los musulmanes o el musulmán que pasaba a los cristianos’, procede de una confusión de dos participios activos árabes *nāzi* ‘tráfuga’ y *nāẓih* ‘alejado’, o de los dos verbos *nāza* y *nāzah*. Se documenta por primera vez en castellano a finales del siglo XIII. Todavía subsiste en Extremadura un pueblo llamado : Puebla de Naciados.

Y como expresión de los modos de esta convivencia íntima son los arabismos. Más de cuatro mil palabras españolas son de origen árabe. El vocabulario árabe es el más importante del español después del latino. Los cristianos adoptaron los arabismos porque convivían con los árabes, y no "por la presión de ningún dominador" como observó justamente el maestro Américo Castro (10). Esta adopción fue motivada o bien por la necesidad de llenar deficiencias o bien por preferencia. Ya lo observó Juan de Valdés en el siglo XVI:

"Y avéis de saber que, aunque para muchas cosas de las que nombramos con vocablos arávigos tenemos vocablos latinos, el uso nos ha hecho tener por mejores los arávigos que los latinos, y de aquí es que dezimos antes alhombra (11) que tapete, y tenemos por mejor vocablo alcrevite (12) que piedra sofre, y azeite (13) que olio, y si mal no m'engaño, hallaréis que para solas aquellas cosas, que avemos tomado de los moros, no tenemos otros vocablos con que nombrarlos sino los arávigos que ellos mismos con las mesmas cosas nos introduxeron". (14)

Los arabismos léxicos se refieren a varias zonas de la vida: la agricultura, la construcción de edificios, los oficios, las artes, el comercio, la administración, las ciencias y la guerra.

Al referirnos a los arabismos, tenemos que mencionar los topónimos (15) los cruces semánticos, los calcos semánticos y los aspectos morfológicos y sintácticos (16).

El primer intento del estudio del arabismo léxico del español lo constituye el **Compendio de algunos vocablos arávigos introducidos en la lengua castellana en alguna manera corruptos, de que comunmente usamos**, puesto por orden alfabético por Francisco Lopez Tamarid, Intérprete en el Santo oficio, publicado en Granada en 1585. Lo puso al final del **Vocabulario Romance** de Nebrija para "hazerle mas universal y provechoso" (17).

Aunque no son todos arabismos los vocablos que cita, tiene el mérito de

10) Castro, A.: *La realidad histórica de España*, México, Porrúa, 1975, p. 213.

11) **alhombra**, esta forma aparece en castellano a mediados del siglo XV, y la forma moderna **alfombra** a finales del siglo XVI. Procede del árabe **ál-húmra** que significa lo mismo.

12) **Alcrevite** o **alcrebite** "azufre", procede del árabe **ál-kibrit**, id.

13) **Azeite**, forma moderna **aceite**, procede del ár. **'az-zāit** id. Se documenta por primera vez en castellano a mediados del siglo XIII. Su sinónimo de origen latino **olio**, se ha conservado en todos los romances de Occidente excepto en castellano.

14) Op. cit., nota 4.

15) Vid., el estudio de Asín Palacios, M.: **contribución a la toponimia árabe de España**, Madrid, Granada. Escuela de Estudios Árabes, 1940.

16) La estructura gramatical del español no fue, en lo esencial, afectada por el árabe. El profesor Alvaro Galmes de Fuentes estudia, en su obra **Influencias sintácticas y estilísticas del árabe en la prosa medieval castellana**, Madrid, 1956, especialmente las versiones de **Calila e Dimna**. Según él, el arabismo sintáctico refleja "una intencionalidad, más o menos expresa, de dejarse influir", intencionalidad motivada por el prestigio de una cultura superior" (op. cit., p. 219).

17) Granada, Casa de Antonio de Nebrisa, Año MDL XXXV.

haber sido el primero en escribir un vocabulario de los arabismos del español

En 1601, el médico cordobés Francisco del Rosal termina su diccionario: **Origen y Etymologia de todos los vocablos originales de la lengua Castellana**(18).

Aunque las etimologías árabes que da no son todas correctas, su manuscrito es de sumo interés, sobre todo para el estudio del hispano-árabe.

En 1606 Bernardo Aldrete formó un catálogo diminuto de las palabras que a su juicio no deben estimarse arabismos, como de las que él cree que lo son. (19)

Sus conocimientos del árabe eran muy escasos como para poder tratar sólida y profundamente de las etimologías de los arabismos del español.

En cuanto al **Tesoro de la lengua Castellana** (20), dice su autor Sebastián de Covarrubias: "en la lengua árabe casi todos somos iguales, fuera de algunos pocos que la saben" (21). Padece del común defecto de su época de derivar la mayoría de los arabismos del hebreo.

En el siglo XVIII se consideraban los arabismos como elemento enriquecedor de la lengua española (22).

En este mismo siglo, con Carlos III, surge en España un arabismo de erudición y de interés por Oriente.

A estas mismas condiciones responde el **diccionario Árabe-Latino-Español** de Francisco Cañes. Este último reviste su diccionario de un carácter etimológico, aunque, en muchos casos, las etimologías árabes que da no dejan de ser puras traducciones al árabe. El autor, "arrastrado por su visión culta del árabe histórico, no ve o, por lo menos, no alude a la mecánica de la pronunciación

18) El manuscrito de la Biblioteca Nacional es una copia del original, hecha por el P. Fr. Miguel Zorita de Jesús María. El manuscrito lleva la signatura : ms. 6929.

19) Aldrete, B. : **Del origen y principio de la lengua castellana o romance que se usa en España**, 1ª ed., Roma, 1606 ; 2ª ed., Madrid, 1674.

20) Covarrubias Horozco, S. de : **Tesoro de la lengua castellana o española**, Madrid, 1611.

21) Manuela Manzanares de Cirre reza curiosamente en su obra **Arabistas españoles del S. XIX** (Madrid, Institut Hispano-Arabe de Cultura, 1972, p.36) : "Cultivaron el árabe en este siglo [XVII] el padre Tomás de León de la compañía de Jesús, y el célebre Sebastián de Covarrubias, autor del voluminoso **Diccionario árabe-español** que posee la Biblioteca del Escorial".

Según hemos podido saber, consultando la misma Biblioteca del Escorial, no hay indicio alguno de que haya existido tal diccionario ; además parece contradictorio ya que el mismo Covarrubias confiesa su escaso conocimiento del árabe.

Vid. para esta obra de Manzanares de Cirre, Pedro Martínez Montávez : "sobre el aún 'desconocido arabismo español del S. XIX'", en **Ensayos Marginales de Arabismo**, Madrid, Instituto de Estudios Orientales y Africanos, 1977, pp. 4-5.

22) Vid. **Arte del romance castellano**, dispuesto según sus principios generales i el uso de los mejores autores, del P. Benito de San Pedro, Valencia, 1769, p. 80.

También : **Fundamentos del Vigor y Elegancia de la lengua castellana**, de Gregorio Garcés, Madrid, MDCC, p. VI.

popular o dialectal, concretamente de la dialectal hispano-árabe, de donde arrancan directamente los arabismos del castellano" (23). Se le escapan muchos arabismos ; otras veces ignora su origen árabe. En este aspecto el P. Cañes yerra.

Con esta obra se cierra, en el siglo XVIII, el ciclo de producción de diccionarios motivados por el estudio del árabe que recibió especial impulso en el mismo (24).

En los albores del siglo XIX (1805) aparece un catálogo de algunas voces castellanas puramente arábicas, o derivadas de la lengua griega, y de los orientales, pero introducidas en España por los Arabes, escrito por Francisco Martínez Marina (25).

Aunque este último puso mucho empeño en su estudio, citando muy a menudo a Casiri, sus fallos son mucho más numerosos que sus aciertos, si bien no se le puede negar su aportación erudita que permite tanto aumentar el caudal de arabismos españoles como descifrar algunas etimologías oscuras.

En 1886 Leopoldo de Eguilaz y Yanguas publica una obra bastante ambiciosa bajo el título : **Glosario etimológico de las palabras españolas** (castellanas, catalanas, gallegas, mallorquinas, portuguesas, valencianas y bascongadas) (26).

Ante este trabajo cuyo autor tiene el mérito de haber utilizado ampliamente el **Vocabulista** de P. Alcalá (27), y el de haber incorporado a su obra buen número de voces pertenecientes a los dialectos hispano-portugueses tanto antiguos como modernos, hay que mostrar una prudente suspicacia frente a las aseveraciones de propio cuño formuladas por él.

Muncho más interesante es el compendio de Engelmann, **Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe**, ampliado considerablemente por R. Dozy (28), que reúne diligentemente los trabajos de lexicografía árabe. Constituye, hasta ahora, un guía insustituible y seguro para el especialista en tales temas.

23) Terés Sádaba, E. : "El diccionario español - latino - arábigo del P. Cañes", **Al-Andalus** XXI, 1956, Fascículo 2, P. 265.

24) El siglo XVIII es considerado como decisivo en la formación del arabismo autóctono español. Podemos considerar este arabismo como de erudición y de orientalismo. Pues, el estudio del árabe era imprescindible para :

1) entender con perfección los propios escritos como para traducir e interpretar los árabes, en fin, para comprender una gran parte de la historia española.
2) responder al interés que se despertó por lo oriental.

25) **Memorias de la Real Academia de la Historia**, IV, 1805.

26) Granada, Imprenta de la Lealtad, 1886. Reimpresión en ediciones Atlas Madrid, 1974.

27) Alcalá, P. de : **Petri Hispani de Lingua arabica, Libri duo**, Pauli de Lagarde, studio et sumptibus repetiti, Cöttingae, 1883.

28) Seconde édition revue et très considérablement augmentée, Amsterdam, Oriental Press. MLM XV.

En **Historia de la lengua española** (29) de Rafael Lapesa encontramos una excelente exposición, con una bibliografía fundamental tanto sobre los arabismos como el hispanoárabe.

De especial interés es el estudio que dedica Francisco Marcos Marín a este tema de los arabismos en su **Curso de Gramática Española** (30). Ahí se da una visión clara y objetiva, exenta de todo prejuicio que suele minimizar las influencias árabes en la lengua española, y se exponen las vías de investigación más válidas en el campo de las relaciones entre el árabe y el español, además de una bibliografía básica (31).

Inestimable y valioso es el **Diccionario Crítico Etimológico de la Lengua Castellana** (32), con su nueva edición bajo el título de **Diccionario Crítico etimológico castellano e hispánico**, del maestro de la filología hispánica, Joan Corominas (33).

Es digna de tener en cuenta también la obra de Eero K. Neuvonen (34), aunque su estudio se limita a los arabismos introducidos en el castellano en el S. XIII.

En cuanto al aspecto fonético de los arabismos del español, podemos citar la obra de Steiger **Contribución a la fonética del hispanoárabe y de los arabismos en el Ibero-románico y siciliano** (35), y sobre todo la valiosa contribución de Federico Corriente con su **A Grammatical Sketch of the Spanish Arabic Dialect Bundle** (36).

De los estudios sobre los arabismos del español, realizados por estudiosos árabes, no hay, que yo sepa, más que tres :

Mufradât isbanîya "arabîyat ál — ásl de Hikmat Ausî (37), **Léxico de las palabras españolas de origen árabe de 'Ahmed Maknaší** (38), y **Kalimât arabîya fî 'al-lûga 'al-'isbanîya de 'Adlî Tâhîr Nûr** (39).

No he podido tener en la mano más que los dos últimos ; El autor del primero de ellos confeccionó su léxico basándose en el **diccionario de la lengua española de la Real Academia Española**, y el autor del segundo, sobre todo,

29) Madrid, Gredos, 8ª edición, 1980, pp. 131-158.

30) Madrid, Cincel 1980, pp. 82-87.

31) Vid. también Samsó, J. : "Los estudios sobre el dialecto andalusí, la onomástica hispanoárabe y los arabismos en las lenguas peninsulares desde 1950", **Índice Histórico Español**, XVI, Barcelona, 1970, pp. XI—XLVII, en separata 1977.

32) 4 tomos, Madrid, Gredos, 1955-57 ; 3ª reimprisión 1976.

33) Varios tomos, Madrid, Gredos, 1980.

34) **Los arabismos del español en el siglo XIII**, Helsinki, 1941.

35) Op. cit. nota 2

36) Madrid, Instituto Hispano-Árabe de Cultura, 1977.

37) Bagdad, 1962.

38) Tetuán, Editorial Gremades, 1963.

39) Editorial de las Universidades egipcias, 1971.

en el *Glossaire* de Dozy. De un modo general, carecen de explicaciones semánticas como fonéticas. Además, no pocas de las etimologías que dan como seguras se prestan a discusión.

Otros investigadores se han ocupado tan sólo accidentalmente de este tema. Sus publicaciones han aparecido en revistas, fundamentalmente en *Al-Andalus* (Madrid, 1933 ss.), *Revista de Filología española* (Madrid, 1914 ss.), *Boletín de la Real Academia Española* (Madrid, 1914 ss.), *Revista de filología hispánica* (B.A., 1939, ss.), *Nueva Revista de filología hispánica* (México, 1947 ss.) *Al-qântara* (Madrid, 1980 ss.), entre otras.

El interés por el estudio del elemento árabe castellanizado se inició en España, y en ningún momento dejó de mantenerse. Es cierto que no siempre benefició del apoyo oficial ; pero eso no hizo que se olvidara en España (40).

Los estudios de que disponemos nos ponen en condiciones para acercarnos con mayor seguridad y comprensión a este tema. Pero, dada la importancia que reviste, y la complejidad con que empezó a manifestarse en la vida hispano-romana y sigue manifestándose, en mayor o menor grado, en la hispánica es necesario, para una comprensión total de su alcance, su estudio, no sólo en la lengua literaria, sino en sus múltiples manifestaciones.

40) En nuestra tesis doctoral : estudio crítico sobre los arabismos del español en dos manuscritos inéditos : el P. Guadix (S. XVI) y M. Casiri (S. XVIII), hemos podido comprobarlo : estos dos manuscritos no se publicaron aunque tienen carácter de ciencia desinteresada al no responder a ninguna necesidad práctica o docente y están escritos en español, a diferencia del *vocabulario romance-latino* de Nebrija, que no era más que un instrumento para la traducción inversa y la composición latina de que quería dotar a los estudiantes.

INFLUENCIA DE VICENTE HUIDOBRO EN ESPAÑA

Los cuatro libros que editó Huidobro en Madrid revolucionaron completa y totalmente el ambiente poético madrileño, encerrado hasta entonces en las formas decadentes del más pobre modernismo y ajeno por completo a la verdadera revolución que se realizaba en Europa. (1)

Con el apoyo de sus teorías y sus obras poéticas, Vicente Huidobro llegó al meollo de los comensales que venían diariamente a su casa. Todo lo que toca se deshumaniza, lo que sirvió de trampolín para que varios años más tarde José Ortega y Gasset escribiera *La deshumanización del arte* (2). En esta obra el filósofo español dice :

“Si el arte nuevo no es inteligible para todo el mundo, quiere decirse que sus resortes no son genéricamente humanos. No es un arte para los hombres en general, sino para una clase muy particular de hombres que podrán no valer más que los otros, pero, evidentemente, son distintos (...).
...a la gente le gusta un drama cuando ha conseguido interesarse en los destinos humanos que le son propuestos. Los amores, odios, penas, alegrías de los personajes conmueven su corazón (...). En la lírica buscará amores y dolores del hombre que palpita bajo el poeta. En pintura sólo le atraerán los cuadros donde encuentre figuras de varones y hembras (...) Tan pronto como estos elementos puramente estéticos dominan y no pueda agarrar bien la historia de Juan y María, el público queda despistado y no sabe qué hacer delante del escenario, del libro o del cuadro”, (3).

Pero lo más importante en esta época es la edición de su folleto *El espejo de agua*, que fue editado por primera vez en 1916, y que en aquel momento volvió a salir en una segunda edición ; las ideas expuestas en él muestran la teoría huidobriana.

Todo lo que el ojo vaya a ver, será una creación del espíritu del hombre, nada será imposible, ya que la fuerza de la razón es tal que todo se hace accesible y manejable para el hombre.

1) René de Costa, *Vicente, Huidobro y el creacionismo*, Madrid, Taurus, 1975, P.4

2) José Ortega y Gasset, *La deshumanización del arte* 11ª edición, San Sebastián, El Arquero, 1976

3) José Ortega y Gasset, *La Deshumanización...*, op. cit., 18

La pequeña "plaquette" de Buenos Aires contiene nueve poemas :

"Arte poética", "El espejo de agua", "El hombre triste", "El hombre alegre", "Nocturno", "Otoño", "Nocturno 2", "Año nuevo" y "Alguien iba a nacer".

Transcribimos uno de los más importantes de estos poemas : "Arte poética", que dice :

ARTE POETICA

Que el verso sea como una llave
Que abra mil puertas.
Una hoja cae; algo pasa volando
Cuanto miren los ojos creado sea,
Y el alma del oyente quede temblando.

Inventa mundos nuevos y cuida tu palabra ;
El adjetivo, cuando no da vida, mata.

Estamos en el cielo de los nervios.
El músculo cuelga,
Como recuerdo, en los museos ;
Mas no por eso tenemos menos fuerza ;
El vigor verdadero
Reside en la cabeza.

POr qué cantáis la rosa, ¡ oh poetas !
Hacedla florecer en el poema ;
Sólo para nosotros
Viven todas las cosas bajo el Sol.

El poeta es un pequeño Dios. (4)

Es de señalar que en el ensayo **Teoría del creacionismo**, de Antonio de Undurraga no figura el verso número 4, no comprendemos la omisión de este verso dada la importancia que reviste para el buen conocimiento de la teoría creacionista. Además en la Antología de Federico de Onís, aparece el verso número 8 rezando así

Estamos en el cielo de los versos
mientras que el verso 16, en Onís dice así :
sólo para vosotros
en lugar de "Sólo para nosotros".

4) Vicente Huidobro, **Obras Completas**, 1ª edición, t.1, Santiago, Editorial Andrés Bello, 1976.
p 219

Son unas erratas, evidentemente, pero dada la importancia que tiene este poema, debería rezar en un margen el error, para evitar toda dificultad de comprensión.

Urge presentar igualmente el poema que dio nombre a este "cuadernillo" y que se considera como el nivel supremo del poeta chileno en aquel momento :

EL ESPEJO DE AGUA

Mi espejo, corriente por las noches,
Se hace arroyo y se aleja de mi cuarto.

Mi espejo, más profundo que el orbe
Donde todos los cisnes se ahogaron.

Es un estanque verde en la muralla
Y en medio duerme tu desnudez anclada.

Sobre sus olas, bajo cielos sanámbulos,
Mis ensueños se alejan como barcos.

De pie en la popa siempre me veréis cantando.
Una rosa secreta se hincha en mi pecho
Y un ruiseñor ebrio aletea en mi dedo.(5)

Se ve ya trazada la línea que se fija Huidobro y que será respetada durante su vida literaria.

El creacionismo de Huidobro va a calar hondo en la literatura española ; gracias a los libros que introduce en España y a la diseminación de sus teorías por Rafael Cansinos-Asséns, el ultraísmo español va a deberle no poco; es más, en muchos aspectos, dependerá de él y de su nueva forma de expresión.

Suponiendo que con la partida de España del poeta chileno no hubiera habido alguien que propagara sus teorías, seguramente habrían caído en el vacío ; como Gerardo Diego que copió sus poemas inéditos en revistas y periódicos. Vicente Huidobro había conseguido asimismo penetrar en el corazón de Rafael Cansinos-Asséns ; el "maestro indiscutible de los jóvenes que junto a él se reunían en el café El Colonial".

Esto ha originado que la teoría creacionista del chileno se extienda entre los noveles escritores españoles con afanes de novedad.

Cansinos-Asséns dice que :

"Huidobro nos traía primicias completamente nuevas, nombres nuevos, obras nuevas ; un ultra-novecentismo. Desdenando a los doctores del templo, el autor de *Horizon carré* se limitó a difundir la buena nueva entre los pocos y los más jóvenes, en paseos y reuniones sedentes, de un encanto platónico, en que la novísima tendencia lograba la fijación de sus matices (...) ; y un día quizá no

5) Vicente Huidobro, *Obras...*, op. cit, pp. 219.220, t.1

lejano muchos matices nuevos de libros futuros habrán de referirse a las exhortaciones apostólicas de Huidobro, que trajo el verbo nuevo".(6)

Los que escuchaban al poeta "de los mil años" acataban sus palabras : los jóvenes veían en Cansinos - Asséns al apóstol que les traía el fuego ardiente de lo nuevo.

Adriano del Valle dice del autor de **El movimiento**

V.P. :

"Estas palabras que mi fraternal corifeísmo literario hacia Cansinos-Asséns me dicta están justificadas por la pródiga y valiosa labor de hermenéutica realizada por el joven maestro al darnos a conocer el fruto de sus exploraciones por las selvas fabulosas de los herméticos países del Arte nuevo". (Grecia, N° 12, 1 de abril 1919, p. 12)

El eco de la teoría creacionista se propaga gracias al fuego prendido por el autor de manifiestos y proclamas que dieron empuje al nuevo arte ; ya que pocas"... en nuestra prensa señalaron la estancia del original cantor, que, retraído y desdénoso, sólo se comunicó con unos pocos para anunciarles sus primicias nuevas". (7)

Xavier Bóveda, periodista y poeta, escribía en **El Parlamento** una larga entrevista a Cansinos-Asséns; en ella están insertas las fórmulas del nuevo arte: del ultraísmo.

El mismo Cansinos-Asséns recuerda que este movimiento :

"... en el que la voluntad tiene acaso la parte máxima, surgió a consecuencia de un hecho ; una interview conmigo celebrada en diciembre de 1918, por el poeta Xavier Bóveda. En esa interview, palabras de exhortación hacia adelante salieron de mis labios, y, entre ellas esa predestinada palabra Ultra". (8)

Gloria Videla recoge esta entrevista, y nosotros vamos a transcribirla para que sirva de base al nacimiento del nuevo arte en España.

Naturalmente vamos a tomar de aquella entrevista nada más que lo que nos interesa para ayudar a entender la importancia que tiene Cansinos-Asséns en el ámbito literario de su tiempo.

"Nos citamos en El Colonial y en la noche de nuestro sábado, Cansinos, como siempre, fue puntual a la cita. Con él hablamos de diversas cosas, y, sobre todo, de literatura. Como nuestros lectores saben, Rafael Cansinos-Asséns es hoy el más ameno y admirable de los críticos literarios.(...)

6) Rafael Cansinos-Asséns, **Un gran poeta chileno : Vicente Huidobro** y el creacionismo, Cosmópolis, enero, 1919, p. 69

7) Gloria Videla, **El Ultraísmo**, 2ª edición, Madrid, Gredos, 1971, p.30

8) Rafael Cansinos-Asséns, **Los poetas del ultra**, Cervantes, junio 1919, pp.84.85

Lo viejo es su obsesión, su pesadilla, su tormento.(...)

La conversación de Rafael es siempre cariñosa y comprensiva.(...)

— Creo que el porvenir intelectual reside únicamente en la poesía ultrarromántica. Todo lo demás es viejo, viejo, viejo. Tiene ya las barbas blancas y le llegan hasta los pies. La poesía debe desprenderse en absoluto de la retórica, y la oratoria sobre todo.(...)

La salvación reside en aceptarlo todo : todo lo que venga, lo que sea nuevo.(...)

La República más avanzada conserva siempre el prejuicio, y éste - desde el punto de vista artístico - es el ripio, el latiguillo, la academia...

Así pues, adelante siempre en arte y en política, aunque vayamos al abismo".(9)

Poco después de la publicación de esta entrevista se publica el primer manifiesto ultraísta que dice :

"Respetando las grandes obras realizadas por las grandes figuras de este movimiento, se sienten con anhelos de rebasar la meta alcanzada por estos primogénitos, y proclaman la necesidad de un ultraísmo, para el que invocan la colaboración de toda la juventud literaria española".(10)

Cansinos-Assens da una versión personal de los acontecimientos que tuvieron lugar para hacer posible el surgir del nuevo movimiento entre los jóvenes poetas según los principios establecidos por Huidobro. Explica las novedades artísticas que vienen a quebrantar los últimos tabúes aun existentes. Las conversaciones nacen estrepitosamente de la nueva poesía.

En una "Efigie liminar" a dos poemas de P. Reverdy, Guillermo de Torre dirá de Huidobro que es uno de los más representativos del nuevo arte : "...nuestro inolvidable camarada el poeta chileno Vicente Huidobro ha obtenido las más sugerentes transmutaciones electrolíticas y las más frangentes armonías siderales". (11).

Estas palabras se fundamentan en las creaciones de Huidobro. Tomemos un poema de 1919 :

AEROPLANO

Una cruz

se ha abatido por tierra

Un grito perfora las ventanas

Y se inclina

Sobre el último aeroplano

El viento

que había limpiado la atmósfera

9) Gloria Videla, *El Ultraísmo*, op. cit, pp. 31 y sigs.

10) Editorial de la revista *Grecia* n° 11, año II, Sevilla, (15-3-1919), P.2

11) Guillermo de Torre, *Efigie liminar*, *Grecia* n° 1919, p.8

Ha naufragado en las primeras brumas
La erupción

aún perdura
en las nubes

Y el tambor

llama a alguien

Que nadie conoce

Palabras

tras los árboles

La linterna que agitaba era una bandera

Ilumina tanto como el sol

Mas los gritos que hunden los tejados no son rebeldes

Empero los muros que sepultan

LOS MUROS DEL SUR

Es el único avión que subsiste (12)

En otra ocasión, Cansinos-Asséns dijo del ultraísmo :

“Las tendencias superatrices (...) han producido el ultra que es algo que está más allá del novocentismo(...) Busca sus motivos en la vida intensa y el arte abstracto; utiliza el verso libre ; admite todas las posibilidades. Extrae elementos del futurismo, del dinamismo, del creacionismo que trajo Vicente Huidobro a Madrid en su valija diplomática de novedades líricas el año 1918”. (13)

La importancia de Cansinos-Asséns entre sus compañeros es cada vez mayor, Isaac del Vando-Villar dice en un artículo :

“Nosotros los ultraístas, con nuestro amado Cansinos, como los granaderos italianos que siguen a D’Annunzio, seguimos gloriosamente en la vanguardia ultraica”.(14)

Indiscutible se hace la importancia de Cansinos-Asséns en la propagación del nuevo arte. No olvidemos por otra parte que él mismo dijo : “... el paso de Huidobro por entre nuestros jóvenes poetas ha sido una lección de modernidad y un acicate para trasponer las puertas que nunca deben cerrarse, Porque si Rubén vino a acabar con el Romanticismo, Huidobro ha venido a descubrir la senectud del ciclo novecentista”. Y más adelante dice el gran crítico español :

“Los jóvenes que rodearon a Huidobro durante su estancia aquí, supieron discernir la novedad alboreada de sus poemas. Leyéndole, volvían a sentir otra vez la inquietud de los novicios y poco a poco ensayaban el tránsito de sus jóvenes estrofas, ya viejas, a las novísimas cristalizaciones. Esto se ha

12) Vicente Huidobro, “Aeroplano”, *Grecia*, n° 20, año II, 1919, P.14

13) A. de Segoira, “Haciéndonos justicia”, *grecia*, n° 33, 1919, p.4

14) Isaac del Vando-Villar, “El triunfo del ultraísmo,” *grecia*, n° 29, 1919, p.2

de notar en libros futuros. Huidobro les perturbó a más de uno la conciencia literaria”.

Y finaliza su estudio así: “El tránsito del autor de **Horizon carré** renueva la cronología literaria y senala pues, el único acontecimiento de mil novecientos diez y ocho, en los monótonos anales de nuestras letras, sobre todo de nuestra poesía, narcotizada de misoncismo...”. (15)

Después de oír a Huidobro Cansinos-Asséns comenzó a predicar la nueva literatura basándose en teorías de Huidobro.

Por su parte Guillermo de Torre, también considera al poeta chileno de gran importancia precursora.

“Con algunos años menos que los contendientes nombrados (se refiere a Reverdy y a Huidobro), muchacho aun, deslumbrado como solo puede estarlo un adolescente ante el fenómeno literario en sus proyecciones más modernas, amigo personal de Huidobro y epistolar de Reverdy, hube de participar muy directamente...”.(16)

El influjo de Huidobro con su creacionismo ha sido un hecho evidente. El ultraísmo no hubiera podido ser posible sin la estancia del poeta chileno en Madrid y de la publicación de sus libros. El ultraísmo hubiera sido otra cosa diferente.

Más arriba hemos visto que en España ya existían indicios vanguardistas, pero que acababan de aflorar. Pudo ser posible su resplandor con la aparición de **Ecuatorial** y **Poemas árticos**.

A partir de este momento, el nuevo movimiento español hace que el lenguaje pierda sus convenciones fijada por la academia. El lenguaje ultraísta se convierte en una voz móvil y de gran frescura; se aspira a escribir una literatura universal.

El creacionismo que trae consigo Vicente Huidobro y el ultraísmo español, son parte integrante de la vanguardia literaria que se predicaba con apasionada euforia en toda Europa.

“La nueva lírica que ya florecía en Francia en vísperas de la guerra, se incorpora a nuestra poesía, en su modo más avanzado - el creacionismo - pasando bajo los arcos que le abren los cinco libros de Huidobro: **Horizon carré**, publicado en París en 1917, y **Ecuatorial**, **Poemas árticos**, **Tour Eiffel**, **Hallali**, publicados en Madrid en el estío de 1918”.(17)

15) R. Cansinos-Asséns, *Un gran poeta...*, op. cit., pp.71—73

16) René de Costa, *Vicente Huidobro y...*, op. cit., p.153

17) R. Cansinos - Asséns, “La nueva lírica”, *Cosmopolis*, mayo 1919, p.72

En España se consiguen poemas cuyos rasgos más característicos son la rotura de la ordenación discursiva o de la lógica del poema, mediante la unión de imágenes dispersas. Se pierde el lirismo tonal, las frecuencias poéticas del léxico también van a conocer innovaciones.

En su intento de ir más allá del lenguaje formal, lo llevan a un extremo de dispersión que no produce ningún resultado positivo, en el momento de su aparición, pero que poco a poco han ido literalizando y poetizando sus creaciones para ir incorporándose paulatinamente a la tradición lírica española.

Esto queda bien patente en las revistas de aquel momento. Eran poemas que mostraban una gran fuerza; una energía de profundas raíces en las que se podía reconocer una comunicación poética del alma profunda y oscura del sentir de los hombres en la época de entreguerras. En estos poemas se buscaba en realidad una identidad que diera al ser un escape ante la angustia social el movimiento vanguardista español, el ultraísmo, es pues un fermento y un catalizador de inquietudes.

Los jóvenes seguían las teorías huidobrianas y comenzaron el culto al YO : Pedro Ralda dice :

Atí, por tí, para tí
Yo he afrontado tu rostro
de proyectores en llamas
y he dormido,
he dormido
santificado
en las brasas
de una combustión de guerra (18)

En efecto, la guerra ha sido un revulsivo que ha ayudado en gran medida a los poetas vanguardistas en España (y en el resto de Europa).

Los neologismos abundan en las creaciones poemáticas de los jóvenes que siguen la aventura ultráica :

Bajo el seudónimo de Juan Las, Cansinos-Asséns dice :

PLENILUNIO ULTRAISTA

El motor del plenilunio
atruena la ciudad.
Ronronca sobre todas las casas.
Algún ventríloco
arrojó al aire su sombrero de paja
todo lleno de gritos (19)

18) Pedro Ralda, "Atí, por tí, para tí", *Grecia*, XXVI, (20-8-19), p.13

19) Juan Las, "Plenilunio ultraista", *Grecia* XXVI, p.12

Están, imitando la poesía creacionista de Vicente Huidobro, que en **Grecia** escribió también el poema siguiente :

TEMPESTAD

Noche de tempestad
La oscuridad trepana mi cráneo
Los diablos
 guías del trueno

están en vacaciones

.....
Oculto un recuerdo
Más es inútil expiar mis ojos
En torno a la casa

ronda el viento

Acaso allá abajo llora

mi madre (20)

La imitación que se hizo de Huidobro es limitada, ya que el poeta chileno traía consigo el creacionismo, mientras que los ultraístas españoles, por mediación de R. Gómez de la Serna, Guillermo de Torre y Cansinos-Asséns, ya tenían noticias de las vanguardias europeas ; sólo que no se atrevían a tomar partida como propia y empezar a escribir en los modos vanguardistas.

Algunos críticos literarios ven en Huidobro a un poeta que ha tenido influencia incluso en algunos líricos de la generación del 27. Antonio de Undurraga en su obra antológica sobre Vicente Huidobro opina que hay indicios creacionistas en García Lorca, Rafael Alberti, Jorge Guillén y otros.

Luis Cernuda en **Estudios sobre poesía española contemporánea** opina igualmente que estos poetas tienen atisbos creacionistas adquiridos de la lectura de las traducciones de varios poemas de Juan Larrea - amigo cercano a Huidobro en París-, publicados en la revista **Carmen** (1927-1928).

Vamos a intentar tomar algunos de estos ejemplos de parentesco para tener terreno por delante y poder dar una opinión al respecto.

Federico García Lorca escribe en **Canciones**, obra escrita entre 1921 y 1924 y publicada en 1927 :

El tiovivo gira
colgado de una estrella

Estos versos tienen parentesco con lo que Huidobro dice en **Poemas árticos**
La noche cuelga de una arboleda

20) Vicente Huidobro, "Tempestad", **Grecia** XIX, (20-6-19), p.15

En otra parte García Lorca dice :
Un brazo de la noche
entra por mi ventana
Y Huidobro a su vez había escrito :

La noche baja sus escaleras

En ambos escritores las imágenes presentadas son parecidas : la idea de colgar es la misma sólo cambia la estructura, uno utiliza elementos visuales pero de imposible acción conjunta hasta poder ver un tiovivo colgado de una estrella, mientras que en Huidobro tenemos una imagen mucho más profunda: utiliza un elemento no-visual : la noche, y quiere hacerla ver colgada de una arboleda. En el ejemplo segundo, los dos le dan a la noche la propiedad personificadora de tener miembros humanos. **Además, los dos le dan a la noche la propiedad personificadora de tener miembro humanos.** Además, los dos le dan a la idea temporal el mismo carácter de fluidez :

Los instantes heridos
por el reloj...pasaban (21)

Y a su vez Huidobro escribió :

Tengo la especialidad de encontrar las horas
Que han perdido su reloj (22)

Y en **Hallali** escribió así mismo :

Au gîbet de l'aurore toutes les villes sont pendues
Les villes qui fument comme des pipes (23)

En el **Romancero gitano** García Lorca emplea imágenes nuevas :

En el aire conmovido
Mueve la luna sus brazos

Y Huidobro daba una imagen parecida en **Ecuatorial** :

La luna nueva
con las jarcias rotas
Ancló en Marsella esta mañana(24)

Y García Lorca profundiza más aun su imagen cuando dice :

La luna vino a la fragua
Con su polisón de nardos (25)

21) Antonio de Undurraga, Vicente Huidobro : *Besía y prosa*, 2ª edición, Madrid, Aguilar, 1967, p. 96

22) Vicente Huidobro, *Obras...*, op. cit., 359, t.1.

23) Vicente Huidobro, *Obras...*, op. cit., p.272, t.1

24) Vicente Huidobro, *Obras...*, op. cit., p.287, t.1

25) Antonio de Undurraga, *V. Huidobro...*, op. cit., p.97

Estos versos del **Romancero gitano** nos recuerdan los que el poeta dijo en "Sombra" de **Poemas árticos** :

La misma luna herida
No tiene sino un ala (26)

Más tarde en el **Diván del Tamarí** (1931-35), hay también indicios creacionistas :

Quiero que la noche se quede sin ojos

Y en otro poema del mismo libro dice :

**Y duele en el tronco fresco
la noche recién cortada (27)**

Estas imágenes aparecen en **Ecuatorial**, cuando Huidobro dice :

Yo te recorro lentamente
Siglo cortado en dos

Y en Poemas árticos dice :

El paquebot errante que cortó en dos el horizonte (28)

En **Poeta en Nueva York**, Lorca dice :

El mar recordó ide pronto !
Los nombres de todos sus ahogados

Mientras que en "El día de la victoria" Huidobro dice :

de qué camposanto de héroes
han levantado el vuelo esas cruces
Para cantar la gloria de sus muertos(29)

Hay, efectivamente en García Lorca influencias creacionistas. Los ejemplos que acabamos de presentar así lo demuestran.

Terminamos con unos versos del poeta granadino :

Por el agua de Granada
Solo reman los suspiros
.....
Los olivos están cargados de gritos
.....
Se rompen las copas
de la madrugada

26) Vicente Huidobro, **Obras...**, op. cit., p. 314, t.1

27) A. de Undurraga, **Vic. Huidobro...**, op. cit., p.98

28) Vic. Huidobro, **Obras...**, op. cit., p.308, t.1

29) Vicente Huidobro, "El día de la victoria" **Cervantes**, enero 1919, p.63

30) A. de Undurraga, **V. Huidobro...**, op. cit., p.99

Y se asemejan a los otros de Huidobro en "L'homme triste" :

Derrière la fenêtre où le jardin se meurt les feuilles pleurent (31)
Rafael Alberti, poeta de gran relieve, deja patente en sus obras algunos atis-
bos creacionistas :

La luna borda un mantel
cantando, en mi galería.(32)

Y en **Ecuatorial** Huidobro dice :
Bajo las aguas gaseosas
Un serafín naufrago
Teje coronas de algas (33)

En **El alba del alhelí** Alberti dice :
Veremos... la luna
exprimir una aceituna
para encender su candil (34)

Y Huidobro dijo anteriormente :
Et je m'endors au bruit du piano lunaire
Quand on tord les nuages et la pluie tombe (35)

Gerardo Diego es el más claro creacionista español, junto a Juan Larrea; fue
amigo personal de Huidobro y es el mejor representante de la técnica del poeta
chileno. Hasta ahora sigue siendo un gran defensor de Huidobro. El santan-
derino dice en **Manual de espumas** :

Nace del tiempo tanto humo
Que ha oxidado mis ojos (36)

Y en otra parte : "A un capitán de navío"

Buen marinero, hijo de los llantos del norte limón del mediodía, bandera de
la corte espumosa del agua, cazador de sirenas :
todos los litorales amarrados del mundo pedimos que nos lleves en el surco
profundo de tu nave, a la mar, rotas nuestras cademas. (37).

Huidobro en cuanto a él escribe en "Hiver" de Horizon carré :
Et toi
qui n'a jamais parlé
toi

31) Vic,

Huidobro,

obras...,

op.cit

32) A. de Undurraga, **Vic-Huidobro...**, op. cit., p.102

33) Vic. Huidobro, **Obras...**, op. cit, p. 285, t.1

34) A. de Undurraga, **V. Huidobro...**,op. cit, p.102

35) V. Huidobro, **Obras...**, op. cit. p.320, t.1

36) Vicente Gaos, **Antología del grupo poético de 1927**, Madrid, Cátedra, 1975, p.98

37) Gerardo Diego, **Poesía aspañola contemporánea**, 8º edición, Madrid, Taurus, 1979, p. 426

qui n'a pas de voix
et qui es debout
sur les quatre points cardinaux (38)

En Ecuatorial Huidobro dice :

El capitán Cook
Caza auroras boreales
En el Polo sur (39)

En otro poema dedicado a Huidobro, Diego dice :

Desde que tú viniste
reina en el cielo una tierra de bonanza
y entre estrellas y grillos
el eterno retorno (40)

En cuanto a Vicente Aleixandre, Premio Nobel de literatura de 1977, aunque más bien surrealista, deja vislumbrar algunas imágenes creacionistas :

pelada roca donde se refleja mi frente
cruzada por unos pájaros cuyo sentido ignoro (41)

Y en otro poema dice el genial escritor español :

Se ha de ver en tus manos el viento,
anclado en tus manos,
alzarse y prenderte. (42)

Este breve rastreo a través de las obras de los poetas españoles ha permitido hallar huellas creacionistas en muchas obras de ellos ; por lo que la magia de la realidad, que caracterizó el primer tercio de siglo en España, y que no ha sido estudiado a fondo, es el origen principal de una cadena de relaciones causa-efecto que ha terminado por desembocar en la débil situación historiográfica española actual.

Sabemos que Vicente Huidobro es ignorado en una de las obras antológicas de más importancia de aquellas fechas : **Poesía española contemporánea**, de Gerardo Diego, (43). Creemos que para una mejor comprensión de esta época creadora de la literatura española, es menester fijarse en la obra que ha aportado Huidobro.

Podemos decir, pues, resumiendo, que la figura presentada por Huidobro en **Poemas árticos**, la autorreferencia en su obra maestra **Altazor o el viaje**

38) Vicente Huidobro, **Obras...**, op. cit., p. 256, t.1

39) Vic Huidobro, **Obras...**, Op. cit., p.285, t.1

40) A. de Undurraga, **V. Huidobro...**, op. cit., p.15

41) Vicente gaos, **Antología...**, op. cit., p.190

42) Angel gonzález, **El grupo poético de 1927**, Madrid, Taurus, 1976, p.74

43) gerardo Diego, **Poesía española contemporánea**, 8ª edición, Madrid, Taurus, 1977

en paracaídas, o la autodefinición que trata en **El ciudadano del olvido**, son rasgos de gran contacto importancia y que se manifestaron en las obras de los líricos españoles que tuvieron contacto con él.

BOUISSEF — REKAB Mohamed, Vicente
Huidobro, y su relación con la vanguardia
poética española (1918-1925).

Tesis doctoral

VEROSIMILITUD Y AMBIGÜEDAD EN LOS CUENTOS DE FORMA AUTOBIOGRAFICA DE JORGE LUIS BORGES⁽¹⁾

*"La gloria es una incompreensión, y quizá la
peor"*

BORGES : Pierre Menard

Tere sa de SANTOS

I — INTRODUCCIÓN

IA : LA CRITICA Y BORGES

Borges es un clásico ; y lo es, para bien o para mal, en el sentido que él mismo confiere a la palabra: "Clásico es aquel libro que una nación o un grupo de naciones o el largo tiempo han decidido leer como si en sus páginas todo fuera deliberado, fatal, profundo como el cosmos, capaz de interpretaciones sin término" (O.I., p. 260). Por eso, como dice Alicia Jurado (2), con más frecuencia de la estrictamente necesaria o esperable, es harto más fácil leer a Borges que a sus críticos, enredados que andan ellos en la tarea tan peregrina como inútil de descubrir los entresijos y secretos del credo filosófico particular de un hombre que el azar llamó Jorge Luis Borges.

Por supuesto que "cabe reconocer que Borges pone de manifiesto en toda su producción una incesante búsqueda filosófica" (3). Sin embargo, no creo que esto sea de crucial importancia para el ejercicio de la literatura, y el Bor-

(1) Este trabajo no es más que el extracto resumido de otro, de mayor extensión y también más ambicioso, que, por razones de espacio, no puede publicarse aquí. Ahora, al corregir las pruebas de imprenta, sorprende al mundo la noticia de la muerte de Borges. Sirvan estas líneas de humilde homenaje a su memoria

(2) Genio y figura de J.L.B., ed. Universitaria, Buenos Aires, 1976, p.67.

(3) REST, Jaime ; El Laberinto del Universo (Borges y el pensamiento nominalista), Buenos Aires, 1976, p.50.

ges que a la crítica le debe interesar es, antes que ningún otro, el escritor (4).

Por el contrario, se ha descuidado culpablemente el estudio formal de sus cuentos, o, en el mejor de los casos, se ha tomado la forma, a posteriori (es decir, una vez preconcebida o intuita la idea que por medio de ella o a pesar suyo supuestamente Borges quiere expresar), como metáfora de sus creencias filosóficas o teológicas. Y sin embargo, a este propósito se están ignorando las declaraciones diáfanos y contundentes del propio Borges: "Sólo quiero aclarar que no soy ni he sido jamás lo que antes se llamaba un fabulista o un predicador de parábolas y ahora un escritor comprometido. No aspiro a ser Esopo. Mis cuentos, como los de *Las mil y una noches* quieren distraer o commover y no persuadir" (5). Por eso "cada uno de sus cuentos, de sus poemas, de sus ensayos, es desde el planteo un capital problema de construcción, como la composición de sus fuguras para un pintor" (6).

Así pues, la autobiografía sólo importa aquí como técnica, como recurso

(4) A ECHEVARRIA (*Lengua y literatura de Borges*, Ariel, Barcelona, 1983, p.16) afirma : "Borges no es un teólogo ni, ciertamente, un metafísico, ni es su interés hacer metafísica en el sentido estricto de la palabra ; es ante todo un literato y busca explorar la naturaleza y confines de la literatura. Este, consideramos, es el punto de referencia primordial". Sin embargo, Echevarría después, en el curso de su obra, no se atiene a estas sabias premisas.

(5) - "Prólogo" al *Informe de Brodie*, Alianza, Madrid, 1974, p. 10; O Bien : "Creo que las convicciones de un escritor, aun las convicciones estéticas, no son muy importantes. Lo importante es lo que hace" (CHARBONNIER y BORGES, *El escritor y su obra* (Entretiens avec J.L.B.), Méjico, 1967, p.23)

No acaban de admitir esto sus críticos, quienes, antes que analizar, prefieren perpetrar lecturas fantásticas (v. gr. PEREZ, A.C., *Realidad y suprarrealidad en los cuentos fantásticos de J.L.B.*, Miami, Florida, 1971 ; o, jugando al psicoanálisis, FERRER, M., *Borges y la nada*, Tamesis books, Londres, 1971 ; cito sólo los casos más palmarios). Afortunadamente, no creo de veracidad indiscutible el aserto de Borges según el cual "una literatura difiere de otra, ulterior o anterior, menos por el texto que por la manera de ser leída : si me fuera otorgado leer cualquier página actual - ésta, por ejemplo - como la leerán en el año dos mil, yo sabría cómo será la literatura el año dos mil" (O.I., p.217). Afortunadamente, la literatura de este siglo supera con creces las lecturas que de ella se hacen ; afortunadamente, Borges es bastante más de lo que se desprende de sus críticos más aduladores ; afortunadamente, en el siglo XXI no se nos va a juzgar por nuestras lecturas de Borges, sino por haber producido escritores como él.

El problema, a mi ver, radica en el concepto que sustenta la práctica y el ejercicio de la crítica literaria de cualquier obra. Todavía abundan quienes piensan que la labor del crítico ha de ser de mediación ; que el crítico, como "lector excepcional" que es, debe comunicar a los lectores, menos dotados que él, lo que el escritor ha dicho de un modo harto complejo y enrevesado. La práctica de este tipo de crítica descubre, además, no poca desconfianza acerca de la efectividad e incluso de las posibilidades de la comunicación entre el escritor y el lector a través de la obra. Creo, en fin, que a la crítica literaria le cabe otra tarea más interesante, más duradera y menos humillante para el lector : la de aclarar en lo posible qué es la comunicación literaria, qué es y cómo se organiza una obra literaria ; en nuestro caso, los cuentos de Borges.

(6) Son palabras de Amado ALONSO que aparecieron en el n°94 (1942) de la revista *Sur* (p.16), titulado *Desagravio a Borges*.

literario, y como tal será estudiada en un determinado grupo de sus numerosos cuentos: precisamente en los autobiográficos (es decir: los de forma autobiográfica).

IB: CLASIFICACION DE LOS CUENTOS DE BORGES

Corázar (*Rayuela*, cap. 95) habla de la "manía genética y clasificatoria del mono occidental". Pues bien, dado que resulta tan difícil sustraerse al imperio de la especie, intentaré aquí, muy provisionalmente, delinear una clasificación de la obra narrativa borgiana, como paso previo al estudio de un número determinado de sus ficciones.

De entre las que conozco (7), la clasificación de los cuentos de Borges que propone (pero, curiosamente, no se propone) J. Rest es la más próxima a la que aquí esbozo; no obstante, como se verá, difiere en algunos puntos. Conforme a un criterio clasificatorio claro (la forma exterior en que la narración se presenta), ha dividido Rest la obra narrativa de Borges en tres grupos: los "semiensayos", en los que "la narración está concebida como si fuera el comentario o la reseña de libros presuntamente existentes"; los relatos en primera persona, y los otros relatos, más tradicionales e incluso -aunque escasamente- cercanos al costumbrismo (8).

Desde mi punto de vista, la existencia de estos tres grupos es indiscutible. De las narraciones en forma autobiográfica me ocuparé en las páginas que siguen; sólo quiero precisar ahora más los otros dos grupos. Dentro de los "semiensayos" hay dos formas básicas: el catálogo póstumo de la obra de un escritor (*Pierre Menard, Herbert Quain y Tres versiones de Judas*) o el resumen de una obra (*Acercamiento a Almotásim*). El tercer grupo es el de las narraciones en tercera persona; pocas son, en realidad aquellas en las que nunca irrumpe la primera (*El fin, Los dos reyes, El Duelo, El otro duelo, El Evangelio según san Marcos, La rosa de Paracelso y El espejo y la máscara*). Borges rehúye la omnisciencia implicada en la narración en tercera persona y, así, lo

(7) Dos conozco que se hayan hecho con cierto afán de exhaustividad: las de Pérez (op. cit., *passim*) y Alazraki (*La prosa narrativa de J.L.B.*, Gredos, Madrid, 1974, *passim*); ni una ni otra me parecen rigurosas desde el punto de vista literario. Alazraki, por ejemplo, propone siete grupos diferentes, cuyos epígrafes delatan la ausencia de un criterio estrictamente literario: "Caos y orden", "El universo como sueño o libro de Dios", "Panteísmo", etc.

Cinéndose a las narraciones de la colección *El jardín de senderos que se bifurcan*, Bioy Casares establece tres grupos: fantásticas, policiales y "notas críticas a libros y autores imaginarios" (BIOY, "El jardín de los senderos que se bifurcan", en ALAZRAKI ed., *J.L.B.: El escritor y la crítica*, Taurus, Madrid, 1976, p. 59). El problema radica en diferenciar formalmente las ficciones fantásticas de las policiales, puesto que, tanto en unas como en otras, la narración está planteada como la exposición progresiva de la materia hasta converger en la(s) solución(es) del misterio que engendró la trama; no se las puede diferenciar sino por el carácter de ese misterio, y aun así muchas veces se mezclan en el lo policial y lo fantástico.

(8) REST, op. cit., pp. 155-6.

común es que, tarde o temprano y de modo más o menos súbito, aparezca un "yo" que relativiza lo narrado. Si incluyo aquí estos cuentos entre las narraciones en tercera persona es porque en ellos hay un patente elemento narrativo en el que el yo no interviene; la narración en sentido estricto se hace en tercera persona; la primera no interviene apenas sino para apuntar las vicisitudes que han llevado al narrador al conocimiento de lo narrado. El "yo" se usa, pues, como un recurso más de indefinición, perspectivismo y ambigüedad, porque la veracidad queda amortiguada con la reclusión de la acción al ámbito de conocimiento de una primera persona, y más aún cuando ésta es o se declara la de un literato, un fabulador, para cuyo decoro emplea Borges circunstancias conocidas de su propia biografía. Así ocurre en los cuentos **Tema del traidor y del héroe, La busca de Averroes, El muerto, Historia del guerrero y la cautiva, Los teólogos, Biografía de Tadeo Isidoro Cruz, La muerte y la brújula, El milagro secreto, Emma Zunz, Abenjacán, La senora mayor, La intrusa, El soborno y Avelino Arredondo**; en ellas, la primera persona no es más que otro recurso (como la alusión a la literatura o al sueño) destinado tanto a multiplicar las perspectivas como a relativizar el relato. (9).

II — FICCIONES EN FORMA AUTOBIOGRAFICA

Distingo dos grupos: las utopías y las ficciones propiamente narrativas que presentan esta forma (confesiones e investigaciones).

IIA. UTOPIAS

La utopía, en su formulación clásica, no es un género narrativo, como se sabe, sino que es un género didáctico y expositivo; por ello exige mayor insistencia en el plano doctrinal, en el plano -si se me permite- del contenido. En el caso de Borges, estos contenidos suelen ser filosóficos o teológicos; pero

(9) Un problema anterior al de clasificación es, por supuesto, el del establecimiento del corpus, la delimitación del campo de trabajo (lo cual supone, ni más ni menos, una delimitación y definición de lo narrativo). He procurado conjurar la arbitrariedad: manejo los cuentos de Borges que componen las colecciones de **Ficciones, El Aleph, El informe de Brodie, El libro de arena y Veinticinco de Agosto de 1983** y otros cuentos, además de la narración **Hombre de la esquina rosada**, incluido en el volumen **Historia universal de la infamia**; se notará que no incluyo las otras narraciones de este último volumen (que tendrían exactamente el mismo derecho a ser incluidas, según manifiesta R. Lida en su artículo "Notas a Borges", en **Letras Hispánicas**, F.C.E., Méjico, 1958, pp. 280-283) ni las prosas de **El Hacedor**. Las razones que excluyen a unas y a otras son - he de admitir- meramente pragmáticas; de todas formas, estas páginas nunca tuvieron afán de exhaustividad.

Cito las obras de Borges por las siguientes ediciones: **Historia de la eternidad (H.E.)**, Emecé, Buenos Aires, 1969; **Historia Universal de la infamia (H.U.)**, Emecé, Buenos Aires, 1969; **Ficciones (F)**, Emecé, Buenos Aires, 1969; **El Aleph (A)**, Emecé, Buenos Aires, 1969; **El informe de Brodie, (I.B.)** Alianza, Madrid, 1983; **El libro de arena (L.A.)**, Madrid, 1983; **Veinticinco de Agosto de 1983 y otros cuentos, (25 A)** Siruela, Madrid, 1983; **Otras inquisiciones (O.I.)**, Buenos Aires, 1969.

la mayor y la mejor innovación de Borges en este género radica en haber sabido aprovechar narrativamente las convenciones de un género no narrativo.

Una (y acaso la más importante) de las convenciones formales de este antiquísimo género obliga al uso de la forma autobiográfica como revestimiento exterior de la ficción; obliga a la aparición de un "yo" que, normalmente gracias a un viaje, ve y retrata una sociedad fantástica en la que, al reflejarse, quedan criticados distintos aspectos de la realidad cotidiana. Este "yo" didáctico y expositivo presupone (con frecuencia, incluso explícitamente, y entonces aparece la forma dialogada, que no es sino una variedad de la autobiográfica o, acaso más exactamente, a la inversa), presupone un "tu" o un "vosotros"; es decir, se trata de un diálogo del que sólo escuchamos a un dialogante. La forma clásica de la utopía tampoco puede prescindir del elemento fantástico, lo cual la obliga a servirse de unos recursos muy concretos de decoro y verosimilitud: en la forma clásica, el viaje del yo narrativo al mundo fantástico se hacía verosímil con frecuencia por medio del motivo argumental del sueño; otras veces, gracias a algún elemento o personaje sobrenatural, y, cuando se dejaba abiertamente como fantasía de la imaginación, se atribuía ésta a la inspiración divina. Otro elemento crucial en la forma de la utopía es la función de "máscara"; la máscara es el personaje (distinto del narrador) sobre el que recae el contenido doctrinal, el encargado de formularlo; es el que alecciona al narrador durante su visita, el que, al retratar la ciudad o el país fantástico que habita y conoce, critica y declara la verdad encubierta de la sociedad humana que desconoce.

Sobre las convenciones formales de la utopía construye Borges los siguientes relatos: *La biblioteca de Babel*, *La secta de los treinta*, *Tlön*, *La lotería en Babilonia*, *Funes el memorioso*, *La secta del Fénix*, *Undr*, *El informe de Brodie* y *la Utopía del hombre que está cansado*. Todas ellas manifiestan, a mi entender, profundas innovaciones en la organización de las convenciones clásicas de la utopía. Dos se presentan como informes de primera mano, como informes de los propios habitantes de esas sociedades fantásticas; es decir, son informes emitidos por la propia máscara. Con ello, se suprime la convención del viaje fantástico, y el yo narrativo no es ya el primer aleccionado, sino el aleccionador. Son *La lotería...* y *La biblioteca...*

El narrador de la primera de estas ficciones está muy circunstancializado, por lo que la misma narración lo resulta también: se sugiere incluso una circunstancia oral (10). Esto es, por un lado, un recurso de verosimilitud; pero, por otro, podría desautorizar al narrador, si no fuera porque, como queda dicho, él se presenta directamente como máscara, o sea, como el único pte-

(10) "Miren: a mi mano derecha le falta el índice. Miren: por este desgarrón de la capa se ve en mi estómago un tatuaje bermejo". O bien: "El procedimiento era elemental, como ven ustedes". Y, finalmente: "Poco tiempo me queda; nos avisan que la nave está por zarpar; pero trataré de explicarlo" (F., pp. 67, 68 y 72)

neciente a la sociedad fantástica que constituye la materia de la ficción de entre los inmersos en esa circunstancia oral. Su narración (que no lo es en el sentido propio del término en literatura) no es más que una trasposición de la sociedad nuestra (o de nuestro mundo, o de nuestra civilización) que, en este caso, no por irónica deja de ser menos alegórica, como piden las convenciones del género elegido.

En **La biblioteca**, la narración está más cercana a la que podría esperarse en un informe ortodoxo (11). Ni el narrador ni, por lo tanto, la narración están circunstancializados en absoluto. El "Tú" preceptivo implicado en toda forma utópica en **La lotería** se dejaba suponer en esa circunstancia oral; en **La biblioteca** este segundo término del diálogo aparece abiertamente declarado y se le supone no ya oyente sino lector: "[En la biblioteca se encuentra todo lo que es dable expresar:] el evangelio gnóstico de Basilides, el comentario de ese evangelio, la relación verídica de tu muerte, la versión..." o, más adelante, entre paréntesis: "Un número *n* de lenguajes posibles usa el mismo vocabulario;... tú, que me lees, estás seguro de entender mi lenguaje?" (F., p. 90 y 94).

Como informes se presentan también los otros relatos. Tres de ellos son el resultado de una experiencia o de una investigación del narrador: **Tlön, Funes y La secta del Fénix**. En ellos, el narrador no pertenece ya al mundo o la sociedad fantástica, no es la máscara; es un simple ciudadano más de este mundo que busca y toma nota de lo que encuentra y lo que ve. **La secta de los treinta**, **Undr** y **El informe de Brodie** se presentan como informes, pero meditados y manipulados por un editor. Y, finalmente, más clásica, la **Utopía** se reboza en un sueño y permite la inclusión ortodoxa de la máscara. Todos éstos no son sino recursos de decoro de la forma autobiográfica.

Funes y la secta del Fénix son informaciones directas: se trata de las experiencias reales (dadas, en virtud de la verosimilitud literaria, como reales en la narración) del narrador; experiencias de una realidad fantástica ajena a él en principio. En **Funes** se da el caso de una circunstancialización tanto del narrador como de la narración misma; hay un motivo que explica y justifica el hecho mismo de narrar (12), y la circunstancia que, al individualizar al narra-

(11) No entiendo ni una sola palabra de las afirmaciones de ALAZRAKI (*Versiones, inversiones, reversiones*, Madrid, Gredos, 1977, p.112) respecto a este sencillísimo (formalmente y todo lo sencillo que se puede pedir en buena literatura) relato: "está, así, estructurado como una versión y una inversión, pero esta inversión es una reversión, es decir, un retorno a la tesis primera (...) en este repliegue que forma el texto entre versión y reversión ocurre el relato. Ocurre porque, para significar esta inversión/ reversión, Borges escoge un significante que invierte la tesis primera al nivel de la denotación, pero que la revierte en el plano de la connotación. La denotación (las leyes del azar) es lo ilusorio; la connotación (la imposibilidad de las leyes del azar) es lo inevitablemente real".

(12) — "Me parece muy feliz el proyecto de que todos aquellos que lo trataron escriban sobre él" (F., p.117)

dor, envuelve toda la narración tiene mucho de irónica: el narrador resulta tener tan buena memoria casi como el propio Funes, teniendo en cuenta que lo vio por última vez, según declara, casi sesenta años antes de escribir sus notas (13). En el caso de **Tlön**, el narrador ha obtenido su información de fuentes libreas y el relato se ha construido como la crónica sucesiva de esos descubrimientos, sin que ello impida la insistencia y el detenimiento al describir la organización de la sociedad dada como fantástica. Se trata, sin embargo, de una sociedad evidentemente humana; para desesperación de utopistas clásicos, **Tlön** es una utopía negativa; aquí, las innovaciones de Borges afectan a las connotaciones filosóficas del género: "La imposibilidad de penetrar el orden divino del universo plantea la posibilidad de un universo imaginario y fantástico, construido según un orden humano. Este universo es **Tlön**, ordenado según los sistemas metafísicos y las teologías de todos los tiempos" (14).

En esta utopía, en **Tlön**, el elemento narrativo es mayor, quizás porque, como quiere Echevarría, tiene una estructura circular "al modo de las muncas rusas o las 'cajas chinas'. Un mundo fantástico contiene a su vez un segundo mundo fantástico que, a su vez, contiene un tercero. En los cuentos de Borges este recurso aparece con bastante frecuencia" (15); por esto la presentación ha de ser progresiva, "narrativa".

La convención de la visita al país fantástico se presenta en **Tlön** como una simple lectura, y el visitante, el narrador, como un erudito o un crítico. Ello no es más que un recurso de verosimilitud, de decoro de la fantasía, como hubiera podido serlo el sueño en una utopía clásica.

Es cierto que en **Funes** no hay trasposición social; Borges no ha cifrado el mundo real (ni siquiera un aspecto) en el fantástico para alejarlo y poderlo así criticar. Ha intentado -y conseguido- lo contrario; ésta es, así, otra innovación borgiana, porque no se trata ya de presentar una determinada visión cri-

(13) — Las primeras líneas del cuento, el primer párrafo repite hasta la saciedad la forma verbal "recuerdo", y, efectivamente, recordada con sospechosa precisión. Un día de hace más de sesenta años, el día en que conocí a Funes, está asombrosamente vivo en su memoria: "Volvíamos cantando, a caballo, y esa no era la única circunstancia de mi felicidad. Después de un día bochornoso, una enorme tormenta color pizarra había escondido el cielo. La aletaba el viento del sur, ya se entloquecían los árboles; yo tenía el temor (la esperanza) de que nos sorprendiera el agua elemental". Después: "el catorce de febrero me telegrafiaron de Buenos Aires que volviera inmediatamente, porque mi padre no estaba nada bien". Algo más tarde se acuerda de lo que le respondió la madre de Ireneo al ir a visitarle; describe le casa, recuerda que el patio era de baldosa. Para abreviar, acabaré esta nota citando unas frases llenas de ironías: "Estaba en el catre, fumando. Me parece que no le vi la cara hasta el alba; creo recordar el ascua momentánea del cigarrillo" (F., pp. 118, 120 y 122). En algún lugar ha dicho Borges que la memoria es tan creativa como la imaginación, ¿será, acaso, la de este narrador? Acaso pretende - y ciertamente lo consigue - hacernos dudar.

(14) — ALAZRAKI, *La prosa narrativa...*, cit., p. 58.

(15) — ECHEVARRÍA, *Op. cit.*, p. 163.

tica de lo real, sino de criticar una mera posibilidad fantástica (16). *Funes* es, como *Tlön*, una utopía negativa, pero presenta un motivo singular: el narrador visita y se adentra en el mundo fantástico de un hombre.

En *La secta de los treinta*, *Undr* y *El informe de Brodie* aparece una pluralidad de yoes, porque se ha insistido en un artificio de verosimilitud ya insinuado en la *Biblioteca*: la edición de un texto (17); aquí se insinúa mediante la supuesta "nota del editor"; en otras, se advierte al inicio del relato. También la intuición del sueño actúa en la *Utopía* (aunque, como se verá, con poca ambivalencia) como recurso de verosimilitud; en *Funes* el decoro está en el accidente, que es el que explica que el mundo fantástico se haya comprimido en la cabeza del personaje.

Otro novedoso recurso de verosimilitud suele emplear Borges en estas ficciones: mientras que el yo narrador de utopías, en la ortodoxia del género, se presenta a sí mismo como ser privilegiado por un conocimiento o una experiencia negada a los demás hombres, los narradores de estos cuentos de Borges suelen dar estos hechos como de dominio público. Borges, con ello, invierte los términos de las convenciones de la utopía: en la utopía clásica, al ser su afán estrictamente didáctico, se pretende que el lector asuma cuanto se le dice, y lo asuma sin discusión; para ello hay que elevar y autorizar al narrador, de manera que su circunstancia sea inaccesible para el común de los mortales; para esto servía la fantasía. Paradójicamente, la verosimilitud y el decoro exigían estos alardes. Borges, sin embargo, quiere que esta supuesta realidad fantástica se comparta para hacerla verosímil; esto, en principio, no significa que la narración quede a la intemperie: al darse por compartida, la realidad fantástica queda admitida con naturalidad en el seno del relato; si el lector no tiene noticias de ella, se deberá sólo a su ignorancia o a su despreocupación.

El uso tan borgiano de las convenciones críticas implica, de algún modo, dar por compartido el conocimiento de la realidad utópica que constituye la materia del relato. Así, el motivo de la edición de un texto antiguo: se supone que existe un auditorio, un público mínimamente iniciado. En *Tlön* esto es claro y contundente: a partir de la página 29 se citan y se discuten testimonios y opiniones de otros críticos, alguno de ellos homónimo de otros críticos "reales" (E. Martínez Estrada, por ejemplo), y ello a pesar del hecho de que la fantasía ya había sido presentada como verosímil desde el momento en que

(16) No ha faltado quien haya visto en el personaje Funes y en su mundo algo de divino. Me parece, sin embargo, que el carácter negativo de la utopía es, además de patente, explícito: "Sospecho, sin embargo, que no era muy capaz de pensar. Pensar es olvidar diferencias, generalizar, abstraer. En el abarrotado mundo de Funes no había sino detalles, casi inmediatos" (F., p. 126).

(17) — "El manuscrito original no contiene guarismos o mayúsculas. La puntuación ha sido limitada a la coma y al punto. Estos dos signos, el espacio y las veintidós letras del alfabeto son los veinticinco símbolos suficientes que enumera el desconocido. (Nota del editor)" F., p. 87.

se afirma que Tlön no es más que un tomo de una enciclopedia, es decir: literatura. Poco a poco, sin embargo, este motivo va perdiendo su función de decorar y hacer literariamente verosímil la fantasía, sin que la propia verosimilitud quede danada, puesto que finalmente el narrador presenta ese planeta ficticio como experimentado o susceptible de serlo por todos. Al final del relato, se nos dice que la publicidad ha llegado a tanto que se ha imprimido la obra que en un principio se nos había presentado como misteriosa y difícilmente accesible incluso para el propio narrador; y de manera que "el contacto y el hábito de Tlön han desintegrado el mundo" (F., p.31), punto en el que Borges vuelve a encontrarse con las leyes ortodoxas de este género didáctico: él, el narrador, es el único que sabe valorar el hallazgo en su justa medida; la gente, inmersa en él, "olvida y torna a olvidar que es un rigor de ajedrecistas, no de ángeles"; él, en cambio, "no hace caso".

Cierto desalino intencional en la forma (v. gr. una posdata) quiere presentar el relato como un trabajo meramente expositivo, sin intención literaria ni de ficción alguna: en **Tlön** el narrador llega a calificar de "artículo" su propia narración (F., p.29), cosa que también se hace en **Funes** y en **El informe de Brodie**, aunque indirectamente: en este último relato, se implica en la supuesta finalidad del informe, porque no se le puede pedir al "Gobierno de Su Majestad" que actúe sobre algo ficticio; y, en **Funes**, cuando dice el narrador: "me parece muy feliz el proyecto de que todos aquellos que lo trataron escriban sobre él; mi testimonio será el más breve, y sin duda el más pobre, pero no el menos imparcial del volumen que editarán ustedes" (F., p.117).

En **La lotería** también se recurre al motivo innovador examinado arriba de dar por conocida la sociedad fantástica que se está presentando: "Nadie ignora que el pueblo de Babilonia..." (F., p.69). En la **Biblioteca** al final y en nota el "editor" cita una opinión ajena a él mismo y al narrador: su mención confirma que el texto que constituye la esencia del relato está, de algún modo, divulgado. También en **La secta de los treinta**: "Los hechos registrados por mi pluma son del conocimiento de todos; mi propósito actual es dejar escrito lo que me ha sido dado descubrir sobre su doctrina y sus hábitos" (L.A., p. 47). Y también, dada la respectiva motivación interna de los escritos, en **Funes** y **el Informe**, como se acaba de ver. Por su parte, en **La secta del Fénix** este mismo motivo queda implicado en el comienzo: "Quienes escriben que la secta del Fénix tuvo su origen en Heliópolis... alegan... pero ignoran, o quieren ignorar..." (F., p. 181).

Las convenciones críticas, en fin, que sirven para decorar, para hacer más verosímil la fantasía, aparecen en estos relatos bajo diversas formas: citas, notas, testimonios, ediciones, traducciones...

Las referencias del narrador (y su decoro a base de ellas) a circunstancias conocidas del yo extraliterario de Borges también sirven a este mismo fin y se usan con profusión en estos relatos; son explícitas en **Tlön**, **Undr** y **la Utopía**. Borges, en ellos, bien alude directamente a sí mismo, a su biografía, a sus

amistades, a sus lecturas..., o bien lo hace limitándose a mencionar en el curso del relato personajes reales (o presentados, en virtud del decoro y escudándose en lo conocido de su vasta erudición, como tales).

Por otro lado, también las imprecaciones al "tú" implícito en toda estructura utópica refuerzan la verosimilitud y el decoro. Son directas en *La Lote-ría*, *La biblioteca* y *El informe*.

Como afirma Bioy, en los cuentos de Borges se llega a una "increíble verosimilitud, que trabaja con materiales fantásticos y que se afirma contra lo que sabe el lector" (18); y si se llega, es gracias al sabio manejo de todos estos recursos.

Alguno de ellos deviene, en las ágiles manos de Borges, arma de doble filo, y como tal es utilizado. Así, el motivo del sueño en la *Utopía*; en este relato, el motivo argumental del sueño se deja sólo intuir, no se declara abiertamente. Sospechamos los lectores que se trata de un sueño gracias a frases sibilinas como ésta: "a más tardar estarás mañana en tu casa", le dice la máscara al narrador; sin embargo, éste, al final, asegura: "En mi escritorio de la calle México guardo la tela que alguien pintará, dentro de miles de años, con materiales hoy dispersos en el planeta (L.A., pp. 70 y 75). Los escritores de utopías ortodoxas se cuidaban muy mucho de dejar en sus relatos abiertas las puertas a la ambigüedad; jamás incurrían en contradicciones deliberadas como ésta. Ciertamente es que muchas veces abusaban del motivo del sueño para decorar el viaje fantástico y la fantástica sociedad necesarios a toda utopía; pero entonces, en los preliminares, divagaban acerca de las virtudes adivinatorias o premonitorias de los sueños, o aseguraban que les habían sido inspirados por Dios. Nunca en el cuerpo de la ficción se volvía a hacer referencia a este motivo, cuya función había sido meramente la de facilitar y decorar el comienzo. Además y para que nadie pudiese discutir (desde dentro de la obra, se entiende) la veracidad del contenido doctrinal, la máscara solía ser una autoridad intelectual antigua o un dios pagano, etc. Borges, sin embargo, para este oficio coloca a un hombre común, poco letrado y que, para colmo, acaba suicidándose.

Esta ambigüedad fundamental de las utopías de Borges es lo que las convierte en ficciones narrativas (aun a pesar de la poca -o nula- incidencia de este elemento) y lo que las separa de los géneros didácticos, grupo al que las utopías clásicas pertenecen.

El narrador de las utopías borgianas consciente y repetidamente se desautoriza a lo largo del relato, cosa absolutamente prohibida en una utopía convencional.

(18) BIOY CASARES, art. cit, p. 57

Al principio, todos ellos aparecen autorizados: la erudición y el inicial conocimiento privativo autorizan al de **Tlön**; a los de **La Lotería** y **La biblioteca** les autoriza su condición de ciudadanos de sus respectivas sociedades; y, a los demás, el conocimiento directo de las realidades fantásticas, conocimiento que refuerzan con una insistencia a veces sospechosamente subrayada (19) o con testimonios de otras supuestas autoridades en la materia. Pero este último motivo, al implicar testimonios en sentido opuesto y por suponer que el objeto de discusión es ya suficientemente conocido, aproxima al narrador a la condición humana, lo coloca a un nivel accesible para el lector; lo hace, por lo tanto, susceptible de falibilidad.

Del mismo modo, al presentar la utopía en el cuerpo del relato como traducción o edición, se está declarando su carácter textual, ficticio. Otro recurso de ambigüedad consiste, pues, en hacer intuir al lector que se halla en el mundo de la ficción; pero esto, en el ámbito narrativo de la primera persona y sobre todo cuando se ha declarado abiertamente que la narración es un informe, recae la ambigüedad: ¿quién habla y a qué se refiere cuando se dice en **Funes** "arriba, ahora, al más difícil punto de mi relato" (F., p. 122)? A este propósito opina John Updike (pero hablando de **La Biblioteca**): "Aunque el mensaje oculto de Borges parezca irónico o blasfemo, la textura y el método de su creación a pesar de ser estrictamente inimitables, satisfacen una profunda necesidad del arte literario contemporáneo: la necesidad de confesar la irrealdad del artificio" (20).

Además, el fingir los relatos traducciones o ediciones permite sospechar cierta manipulación en el texto, posibilidad de la que frecuentemente nos avisa el propio editor o traductor, o el mismo narrador; dice el de **La secta del Fénix**: "Si no me engano..." (F., p. 101). Advertencias semejantes aparecen en casi todas las otras ficciones de este grupo; pero mucho más abiertamente que en ninguna, en **La lotería**, y el caso es significativo: recordemos que el narrador, es en ésta ni más ni menos que la propia máscara, cuando, en las utopías clásicas, el personaje que ejerce esta función es, por naturaleza y definición, infalible (dentro de los límites de la ficción, por supuesto); en **La lotería**, sin embargo, afirma: "Bajo el influjo bienhechor de la Compañía nuestras costumbres están saturadas de azar (...) el escribano que redacta un contrato no deja casi nunca de introducir un dato erróneo; yo mismo, en esta apresurada declaración, he falseado algún esplendor, alguna atrocidad. "(F., p. 74.) Nuevamente, aquí el doble filo: el narrador, como ciudadano de Babilonia que es (y esto le hace precioso y fiable), tiene que estar también sometido al azar y al imperio de la misteriosa Compañía (y esto es lo que le hace ambiguo). Pensando en esto - pero desde el punto de vista argumental - Alazraki ha dicho que "el texto mismo deviene argumento... para probar

(19) — Como en **La secta del Fénix**: "He computado los informes de los viajeros, he conversado con patriarcas y teólogos; puedo dar fe..." (F., p. 103).

(20) — J. UPDIKE, "El autor bibliotecario", en ALAZRAKI ed., J.L.B.: el escritor y la crítica, cit., p. 57.

que el texto que se propone explicar el azar está contaminado de azar" (21).

Del mismo modo, el hecho de mencionar en el seno mismo del relato otros testimonios y opiniones críticas aparte de las del propio narrador, deja abierta la puerta, desde dentro mismo de la fábula, a la ambigüedad; así en *La biblioteca* lo hace el editor en nota a pie de página a la última palabra del cuerpo del relato: "Letizia Alvarez de Toledo ha observado que la vasta bibliotecas es inútil; en rigor, bastaría un solo volumen" (F., p.95).

Otro recurso utilizado inicialmente en aras de la verosimilitud deviene finalmente ambiguo: "La realidad del autor mismo entra en las múltiples experiencias de la ficción, presta el sostén de su existencia y a su vez se deja penetrar del misterio, o se siente amenazado por haberlo descubierto o traspasado por el milagro de la revelación; en última instancia siempre absorbido y desintegrado por lo fantástico. Por su parte, los seres ficticios que viven y se codean con el autor y sus amigos, están amenazándolos con su condición de simulacros, prontos a devolverlos a su nada" (22).

Esta predilección por la ambigüedad se ajusta a los postulados metaliterarios de Tlön, donde "un libro que no encierra su contralibro es considerado incompleto" (F., p.27). Pero tampoco ha de echarse en saco roto la observación de A.M. Berrenechea: "No podemos descartar en Borges el placer del juego en sí, un goce algo infantil en burlarse del lector y aun del lector erudito, con la invención de autores y de citas apócrifas" (23).

Sea lo que sea, la insistencia en los recursos de ambigüedad y, sobre todo, la metamorfosis de la verosimilitud en ambigüedad, hace al relato susceptible de variadísimas interpretaciones, cuya pluralidad ni siquiera se desdena en el seno mismo del relato; quizá sea por eso por lo que "Borges desarma al crítico, se le adelanta, lo invalida por anticipado" (24).

(21) — Lo mismo ha asegurado de *La Biblioteca*; en este caso ocurre que "el texto deviene argumento" para "demostrar que la Biblioteca es total y que hasta el relato que la describe está incluido en ella. Borges obliga a sus textos a entrar en el juego de los significados". Para Alazraki, éste es el tercer y último estadio del proceso borgiano que tiende a confundir realidad y ficción; en este último estadio "Borges convierte al relato en una pieza más de la maquinaria del relato: la única realidad de la ficción - su condición de significante, de instrumento verbal - entra en el juego de los significados como un espejo que absorbe a través de las imágenes reflejadas los mismos objetos que refleja" (Alazraki, como el mismo Borges, reconoce que "el procedimiento no es nuevo", refiriéndose a Cervantes). El primer estadio de este proceso sería "ficcionalizar libros, autores, países que tienen realidad histórica y convertirse él mismo en un personaje ficticio" y el segundo "dotar de un halo de realidad a autores imaginarios y libros apócrifos" (ALAZRAKI, *Versiones...*, cit. pp. 113 y 114).

(22) — A.M. BARRENECHEA, *La expresión de la irrealidad en la obra de J.L.B.*, México, 1957, p.127.

(23) — *Ibid*, id.

(24) — R. LIDA, art. cit., p.280.

Según Barrenechea, "lo peculiar de Borges es que puedan convivir en la ficción la explicación de la realidad y la alusión al ejercicio literario sin molestar" (25), y ello por la sabia alquimia de versimilitud y ambigüedad. Borges, con envidiada maestría, sabe aprovechar una cualidad inherente a todos los recursos literarios de versimilitud: en palabras de Rest, "el efecto de realidad", en literatura, es una **deformación** que tiene por objeto parecer verdadera, es un empleo de formas arquetípicas que en la experiencia concreta jamás podrán hallarse incontaminadas en tal medida" (26); así pues, haciendo el retrato más verista, lo hace también más ambiguo, y, cuando la materia elegida así lo permite, fantástico.

IIB - NARRACIONES EN FORMA AUTOBIOGRAFICA

IIBi-Confesiones

Un primer grupo dentro de las "confesiones" lo constituyen las ficciones **Hombre de la esquina rosada**, **La forma de la espada**, **El indigno**, **La noche de los dones**, **Rosendo Juárez** y **Juan Murana**. En ellas encontramos de nuevo que, para darles verosimilitud, Borges ha aprovechado abundantemente rasgos conocidos de su biografía particular. En los dos primeros utiliza su nombre; su nombre y su obra en **Rosendo** y en **Juan Murana**, y su personalidad literaria queda también sugerida en el supuesto transcriptor de **El indigno** y de **La noche**.

Todos estos relatos presentan en común el recurso de decoro de una supuesta transcripción de una confesión oral. En **Hombre**, por ejemplo, hasta el estilo se ajusta a esta convención (27), aunque sin llegar ni al verismo ni al costumbrismo; también en **El Indigno** el transcriptor se ha mantenido estilísticamente fiel a esa circunstancia oral (28).

Sin embargo, como se acaba de ver en el apartado dedicado a las utopías, tanto la transcripción como la edición o traducción, pueden ser aprovechadas para dotar de ambigüedad al relato. En un relato supuestamente transcrito, el yo de la primera persona que habla queda un tanto indefinido (o puede quedarlo, al menos); pero si además de ello el transcriptor, como tal, toma la palabra, el yo narrativo queda también multiplicado: la primera persona del nar-

(25) — BARRENECHEA, op. cit., p.67.

(26) — REST, op. cit., p.151.

(27) — "El problema poético planteado aquí y bien resuelto es... el de dar la sensación de lenguaje oral a la vez que se procede con la mayor dignidad literaria" A. ALONSO "Borges, narrador", en **Materia y forma en poesía**, Madrid, 1965, p.375. A este crítico no le satisface el último párrafo del relato: "el narrador renuncia al recato, la cuidadosa actitud de toda la narración, y esto sin motivo ni compensación, a mi parecer, pues no hay, por ejemplo, una revelación abierta que pudiera valer como un engallamiento o como una confidencia alivia-dora o como una confesión, sino que se sugiere de nuevo en forma de artificio fácil" (ibid. p. 378).

(28) — Por ejemplo: " Ustedes nunca estuvieron en Lobos ? Lo mismo da. "LA52.

rador central queda recubierta por la del supuesto transcriptor, oyente de la confesión.

También en estos relatos el transcriptor previene contra sus propias falacias; en *El Indigno*, por ejemplo, se lee: "Cambiaré, como es de prever, algún pormenor" (I.B., p.18). Y nótese que dice "como es de prever"; efectivamente, es algo implícito en toda transcripción, incluso en las de la vida real. En *Juan Murana* no se advierte explícitamente de este peligro, pero, a cambio, los círculos alrededor de la materia narrativa se multiplican: no es, a diferencia de lo que ocurre en otros relatos, el protagonista del episodio narrativo quien, en la ficción, se lo comunica al transcriptor; no es Juan Murana, sino un sobrino suyo quien le revela al Borges ficticio un episodio de la vida de aquél, episodio en el que interviene más la mujer que el propio Murana, difunto ya en aquel entonces.

En los relatos utópicos con frecuencia se quería hacer intuir al lector (tanto para servir de decoro a la fantasía como para dejar la puerta abierta a la discusión de la autoridad del narrador) que se hallaba en los dominios de lo ficticio. En este grupo de relatos también aparece este recurso: Rosendo Juárez-narrador hace lo mismo que hacía el de *Funes* cuando habla de "la noche de *mi* cuento, la noche del final de *mi* cuento" (I.B., p.46), y si algo hace Borges con sumo cuidado es escoger las palabras (29). El librero judío del *Indigno* le dice al supuesto Borges: "Voy a revelarle una cosa que no he contado a nadie. Ana, mi mujer, no lo sabe, ni siquiera mis amigos más íntimos. Hace ya tantos años que ahora la siento como ajena. A lo mejor le sirve para un cuento, que usted sin duda surtirá de punales" (I.B., p.28). Del mismo modo, la persona que le cuenta al supuesto Borges la historia del punal de su tío Juan Murana, le dice: "la historia puede interesarte"; evidentemente y dado el tema de la conversación que precede a estas palabras, el interés no puede ser sino literario, y a ello hay que sumar el hecho de que la palabra "historia" resulta en este contexto especialmente ambigua, sobre todo si se acepta la observación siguiente del transcriptor: "algunos énfasis de tipo retórico y algunas frases largas me hicieron sospechar que no era la primera vez que la refería" (I.B., p.64).

En ocasiones, no es el mero transcriptor sino el propio narrador quien se complace en sembrar la duda sobre su misma veracidad. El del *Indigno* decía respecto de su historia que la sentía como ajena. Claro que los círculos son tantos que nunca sabemos si estos avisos provienen realmente del narrador o si acaso son un juego del transcriptor. El narrador de *La noche de los dones*, por su parte, al final de su relato, afirma: "Los años pasan y son tantas las veces que he contado la historia que ya no sé si la recuerdo de veras o si sólo

(29) — A la literatura, aunque de modo muy velado, se vuelve a aludir cuando el transcriptor confiesa que, al ver en el café a Rosendo, sintió de un modo inexplicable que hacía mucho tiempo que no se había movido de ahí. El lector atento de Borges percibe el guino que el autor le tiende acerca de su obra: *El hombre de la esquina rosada*

recuerdo las palabras con que la cuento... Ahora lo mismo da que fuera yo o que fuera otro el que vio matar a Moreira" (L.A., p.56). Esta confesión final tiene mucha incidencia en el plano del contenido: el narrador (el interno) había planteado su cuento a manera de "ejemplo" para discutir la idea platónica de que conocer no es sino recordar (el narrador sostiene que sí existen "primeras veces"), pero, ¿qué ocurre cuando alguien tiene un recuerdo falso?

En las otras confesiones (*El jardín de senderos que se bifurcan*, *El Inmortal*, *Deutsches Requiem*, *La casa de Asterión*, *La escritura del Dios*, *Guayaquil*, *El Otro*, *Ulrika*, *El Congreso*, *There are more things*, *El Disco*, *El Libro de Arena*, *Veinticinco de Agosto de 1983*, *El Zahir*, *El Aleph*) la narración no anda tan abiertamente arropada o confundida con la multiplicación de las primeras personas, pero, finalmente, no son por ello menos ambiguas.

Comencemos por la verosimilitud. Borges utiliza también en ellas su yo extraliterario (que lo es incluso el de escritor) más patentemente que en otros: esto se ve en cuentos como *El Zahir*, *El Aleph* y *El Congreso*. Con este fin usa también aquí las convenciones críticas: *El Zahir* contiene citas y notas a pie de página, además de referencias a otros libros; en *El jardín*, se finge editor del manuscrito que constituye el cuerpo del relato (30), un editor probó que, al dejar constancia en notas a pie de página de sus desavenencias con el narrador, aleja la posibilidad de sospechar de él la más leve manipulación del texto que edita. En ocasiones, la narración se presenta como documento, como informe, y se encarece la verosimilitud, como en *El Aleph*, advirtiendo de la imposibilidad de ofrecer un relato fielmente verídico ("Lo que vieron mis ojos fue simultáneo, lo que transcribiré, sucesivo, porque el lenguaje lo es" A., p. 164). La confesión de la propia ignorancia por parte del narrador sirve también como refuerzo de la verosimilitud; así se hace en narraciones cuya materia argumental culmina en una experiencia mística: *El Aleph*, *La escritura del Dios* y *El Congreso* ("la tarea que me he propuesto no es fácil. No he aconseguido nunca, ni siquiera en su especie epistolar, el género narrativo y, lo que sin duda es harto más grave, la historia que registraré es increíble" L.A., p.22).

Otro recurso de verosimilitud consiste en admitir explícitamente la posibilidad de que ese hecho "real" de su experiencia pueda ser leído como ficción fantástica. Es lo que ocurre en *El Otro*, *El libro de arena* ("Afirmar que es verídico es ahora una convención de todo relato fantástico; el mío, sin embargo, es verídico" L.A., p.95) y *Veinticinco de Agosto* ("cuando lo escribas, crearás urdir un cuento fantástico" 25 A., p.18).

(30) — Comienza: "La siguiente declaración, dictada, releída, y firmada por el doctor Yu Tsun, antiguo catedrático de inglés en la Hochschule de Tsingtao, arroja una insospechada luz sobre el caso. Faltan las dos páginas iniciales". A propósito, J. HIMELBLAU ("El arte de J.L.B. en su Jardín...", *Revista Hispánica Moderna*, XXXII, 1966, p.37) piensa que este "asunto" es el tema del cuento; no lo creo así: me parece meramente la disculpa argumental. Tampoco estoy de acuerdo con la estructura que propone para él. Remito al lector a una lectura atenta del cuento.

Un último recurso de versimilitud, también ambivalente, es la desrealización; aparece en *El Zahir* y *El Aleph*. El humor que empapa las circunstancias que rodean la experiencia místico-fantástica acerca esa fantasía a la realidad; la hace, así, más verosímil. Pero también tanto humor infunde dudas acerca de la veracidad de dicha experiencia.

El Inmortal se presenta como una edición y traducción de un texto supuestamente hallado en un ejemplar de la *Iliada* de Pope; el traductor advierte: "El original está redactado en inglés y abunda en latinismos. La versión que ofrecemos es literal". Este relato contiene, a partir de 1950, una posdata (31) destinada a pasar revista a los supuestos "comentarios que ha despertado la publicación anterior" (A., pp. 7 y 25) y cita a Ernesto Sábato entre esos comentaristas. Finalmente, el editor discute la interpretación del "documento" como apócrifo, aunque la que en su lugar propone no es en absoluto unívoca. Pero lo que nos interesa es que el relato se hace más verosímil suponiéndolo del dominio público o, al menos, de un grupo de iniciados.

Este último recurso nos lleva al estudio de los recursos de ambigüedad: hay muchas interpretaciones posibles del *Inmortal* y todas, gracias a la posdata, quedan incorporadas en el relato. Por otro lado, la pluralidad de autores, en *El inmortal*, no se debe sólo a la interrelación editor/texto, sino que está en el mismo seno argumental del texto que se edita: la primera persona en que está escrito puede serlo todo menos unívoca, porque "nadie es alguien, un solo hombre inmortal es todos los hombres" (A., p.21). Y, para mayor confusión, el proteico narrador previene contra sí: casi al comienzo dice "ignoro si todos los ejemplos que he enumerado son literales; sé que durante muchos años infestaron mis pesadillas; no puedo ya saber si tal o cual rasgo es una transcripción de la realidad o de las formas que desatinaron mis noches" y, más adelante: "Nada más puedo recordar. Ese olvido, ahora insuperable, fue quizá voluntario; quizá las circunstancias de mi evasión fueron tan ingratas que, en algún día no menos olvidado también, he jurado olvidarlas" (A., pp. 15-16). Pero es al final cuando descubre la razón de su falacia (razón que no por serlo la impugna): "He revisado, al cabo de un ato, estas páginas. Me consta que se ajustan a la verdad, pero en los primeros capítulos y aun en ciertos párrafos de los otros, creo percibir algo falso" (A., p.23), y es que "la historia que he narrado parece irreal porque en ella se mezclan los sucesos de dos hombres distintos" (A., p. 24). Actúa aquí, de nuevo, el decoro narrativo: le parece falsa porque ahora es de nuevo un mortal; porque, con la muerte, ha recordado la individualidad.

Avisos de este tipo aparecen en todos estos relatos: el narrador de *Guayaquil* dice sibilinaamente al comienzo: "confesar un hecho es dejar de ser el actor para ser un testigo, para ser alguien que lo mira y lo narra y que ya no lo eje-

(31)— He aquí, en la posdata, de nuevo el aparente descuido formal, que también aparece en *El Zahir* y en *El Aleph*.

cutó" (I.B., p.108). En *Ulrika* (quizá, desde mi punto de vista, su mejor cuento, aunque sea también el menos suyo con arreglo al tópico) dice: "Mi relato será fiel a la realidad o, en todo caso, a mi recuerdo personal de la realidad, lo cual es lo mismo. Los hechos ocurrieron hace muy poco, pero sé que el hábito literario es asimismo el de intercalar rasgos circunstanciales y de acentuar los énfasis" (L.A., p.15). También aparecen estos avisos en *El Congreso* ("no sé si había un estrado o si mi memoria lo agrega" L.A., p.24) y en *El Aleph*, donde el narrador finaliza de este modo: "Por increíble que parezca, yo creo que hay (o que hubo) otro Aleph, y creo que el Aleph de la calle Garay era un falso Aleph" (A., p.168), y anade: "Existe ese Aleph en lo íntimo de una piedra? Lo he visto cuando vi todas las cosas y lo he olvidado? Nuestra mente es porosa para el olvido; yo mismo estoy falseando y perdiendo, bajo la trágica erosión de los años, los rasgos de Beatriz" (A., p.169).

Otro factor de ambigüedad en estos cuentos (sin ser privativo ni definitivo de ellos) consiste en provocar deliberadamente en el lector la sospecha de que se halla en un mundo de ficción, literario. En *El Inmortal* lo narrado mismo pertenece a este campo: Homero, Pope... En otros casos, como acabo de ejemplificar líneas arriba, el narrador alude directamente al ejercicio literario al que está sometiendo su recuerdo y a los riesgos que esta tarea encierra.

Del uso de las convenciones críticas también, como vengo diciendo, se desprende cierta ambigüedad, cuando con este objeto han sido utilizadas. El caso más plamario es el de *Deutsches Requiem*, donde la probidad del editor delata la improbidad del narrador, de modo que, de la conjunción de ambos factores, resulta un nuevo e insospechado sentido del texto (sentido nuevo que no niega los otros posibles), según el cual el narrador aparece delatado como cobarde (32). De este modo, el aparato crítico se integra en la narración indisolublemente, porque el cobarde no puede admitir, siendo nazi, que lo es. Este cuento, a mi ver, es un modelo de decoro narrativo; en él, el aparato crítico no es una frivolidad.

(32) — Es cobarde porque, uniendo los datos, menciona a toda la rama militar de su familia, pero por el editor sabemos que ha omitido al más próximo a su espíritu: un filósofo y teólogo. También el editor nos deja saber que "David Jerusalem" es tal vez el símbolo de varios individuos. Nos dicen que murió el primero de Marzo de 1943; el primero de marzo de 1939, el narrador fue herido en Tilsit, una herida cuyas consecuencias "fueron muy graves", según el editor. El narrador, por su parte, dice que cuando los suyos — los nazis — entraban en Bohemia "estaba en el sedentario hospital, tratando de perderme y de olvidarme en los libros de Schopenhauer" que enseñan curiosamente que todo lo que ocurre se debe a la propia voluntad, que todo lo que le ocurre a uno, uno lo quiere. El editor interpreta este hecho como un "consuelo" y la ambigüedad — o contradicción — se hace más patente cuando el propio narrador se pregunta: "¿Qué ignorado propósito (cavilé) me hizo buscar ese atardecer, esas balas y esa mutilación? No el temor de la guerra; algo más profundo. Al fin creí entender. Morir por una religión es más simple que vivirla con plenitud". No hay que olvidar que antes había asegurado: "a pesar de no carecer de valor, me falta toda vocación de violencia" (A., pp. 83 y 84). Por último, el carácter de las torturas — sicología — implica cierta cobardía: a David Jerusalem no lo mata, lo empuja al suicidio.

El sueño es otro motivo que aparece explícitamente en dos relatos argumentalmente relacionados: **El Otro y Veinticinco de Agosto**. Pero la ambigüedad que proporciona se pretende mitigar alegando el narrador (en aquel cuento) o el personaje sonado (en éste) que el hecho es real, independientemente de que se lea o se escriba como simple ficción. También se utiliza el sueño, aunque de modo menos patente, en **Ulrika** y, como vaga posibilidad, se menciona en **El Congreso** ("siempre tuvo para mí algo de sueño" L.A., p.24).

En el caso de **La escritura del Dios**, la ambigüedad-no sé si buscada o sólo, en mi caso, conseguida-reside en la falta de decoro de la narración; es decir, por qué el mago relata su experiencia, si ya ni se acuerda de sí, si ni siquiera se concede las palabras que le podrían dar la libertad.

IIBii. — Investigaciones narrativas

Este grupo de narraciones autobiográficas está planteado como la narración del progresivo descubrimiento de un misterio por parte del narrador. En este aspecto, aunque no son utopías, pueden relacionarse con **Tlön**. Me refiero a **Tigres azules**, **La otra muerte**, **Hombre en el umbral** y **El encuentro**. Los recursos utilizados en estos cuentos no les son distintivos: son, esencialmente, los mismos que hasta aquí se han venido viendo.

Borges se sirve de sí mismo para hacer más versosímiles a los narradores de **Tigres**, **La otra muerte** y **El Encuentro**. **Hombre en el Umbral** se presenta como una transcripción y Borges aprovecha para el transcriptor circunstancias de su yo extraliterario también; en este caso, sus amistades.

Tanto en **La otra muerte** como en **Tigres** se descubre cierto aparente abandono formal, que concuerda con el confesado carácter de crónica de la narración. Así, en el primero de estos cuentos, el narrador dice: "Algunos hechos más debo registrar..." y, al finalizar: "hacia 1951 creeré haber fabricado un cuento fantástico y habré historiado un hecho real" (A., p. 46 y 51). El narrador de **Hombre en el umbral** cambia los nombres de los personajes con la intención de que se admita su historicidad. También el del **Encuentro** asegura: "No sé si los demás advirtieron que yo había dado mi palabra; no sé si guardaron la suya. Sea lo que fuere, aquí va la historia" (I.B., p. 51).

En cuanto a la ambigüedad, en todas estas ficciones se advierte explícitamente de la falibilidad del narrador o, en el caso del **Hombre**, del transcriptor. En **la otra muerte** el narrador, además de confesar que su investigación de los "hechos" tenía por objeto la composición de un cuento fantástico, dice al final: "He adivinado y registrado un proceso no accesible a los hombres, una suerte de escándalo de la razón; pero algunas circunstancias mitigan ese privilegio temible. Por lo pronto, no estoy seguro de haber escrito siempre la verdad. Sospecho que en mi relato hay falsos recuerdos. Sospecho que Pedro Damián (si existió) no se llamó Pedro Damián, y que lo recuerdo bajo ese nombre para creer algún día que su historia me fue sugerida por los argumentos de Pier

Damiani" (A., p.79). Estas últimas afirmaciones relacionan el recurso de la declaración de la propia falibilidad con el de crear una atmósfera ambigua por medio de la insinuación del carácter literario (derivado de una ficción previa y ajena) de lo narrado.

Por su parte, el transcriptor advierte abiertamente al inicio de **Hombre en el umbral** : "De todas las historias que esa noche conté me atrevo a reconstruir la que sigue : libreme Alá de la tentación de añadir rasgos circunstanciales o de agravar, con interpolaciones de Kipling, el cariz exótico del relato. Este, por lo demás, tiene un antiguo sabor que sería una lástima perder, acaso el de **Las mil y una noches**". De nuevo, pues, en los dominios de la literatura.

También en el **Encuentro** los dos motivos aparecen mezclados : "Sea lo que fuere, aquí va la historia, con las inevitables variaciones que traen el tiempo y la buena o la mala literatura" (I.B., p.52) ; y, algo después : "no sé si había en el piso dos o tres botellas tiradas o si el abuso del cinematógrafo me sugiere esa falsa memoria" (p.54).

También en **Tigres azules** el narrador precave contra sí ; dice, por ejemplo : "Quizá he tratado de olvidar el resto de aquel día, que fue el primero de una serie desventurada que no ha cesado aún. Lo cierto es que no lo recuerdo".

En **La otra muerte** otro factor de ambigüedad consiste en la inclusión, a través de las convenciones críticas, de varias explicaciones posibles del misterio que constituye la materia del relato.

Y, por último, en **Tigres Azules**, aparece el sueño. Mejor : de nuevo, se deja intuir. El autor deja conscientemente abierta la posibilidad de interpretar todo el relato como sueño del narrador. Al final, cuando éste, desesperado, se dirige a la mezquita "era la hora en que la luz no ha revelado aún sus colores". Su memoria tiene, además, lagunas, según arriba queda dicho. En la mezquita reza y le pide ayuda a Dios : "No oí los pasos, pero una voz cercana me dijo : - He venido" ; se trata de un mendigo a quien da después las piedras y en cuya mano caen "como en el fondo del mar, sin el rumor más leve". Es este mismo personaje quien le dice : "Te quedas con los días y las noches, con la cordura, con los hábitos, con el mundo". Y el narrador finaliza con estas sugerentes palabras : "No oí los pasos del mendigo ciego ni lo vi perderse en el alba".

Teresa de Santos

Salford, mayo 1983
Martil, enero 1986.



Etudes géographiques

PROPRIETE FONCIERE CITADINE DANS LE FAHS DE TANGER (Réparatition et mode de faire-valoir)

BOULIFA Abdelaziz(*)

INTRODUCTION

Très polarisé par Tanger, le Fahs a des particularités remarquables. Elles se résument dans sa position géographique stratégique, son passé historique très riche, ses liens étroits avec la cité du Détroit et ses fonctions comme espace péri-urbain. Sa métropole Tanger, ville portuaire, est l'un des deux pôles urbains les plus importants de la péninsule tingitane. Sa population est passée de 187.894 habitants en 1971 à plus de 266.346 en 1982, soit une augmentation de 3,1% par an (1).

Géographiquement, dans la zone de Tanger, le mot Fahs a une double signification : c'est en même temps une tribu constituée par des groupements d'origines diverses et un territoire de la région de Tanger (2). Ce territoire couvre une superficie d'environ 330 km² et compte une population dépassant les 60.200 habitants (1982). Il constitue la zone péri-urbaine de Tanger dans laquelle celle-ci exerce une influence dominante. Son relief est constitué des unités morphopédologiques diversifiées.

La diversité de ces unités se traduit dans le paysage, essentiellement par des bassins marneux où prédominent les collines, par des formations du quaternaire et par un cadre montagneux gréseux (Fig : 1).

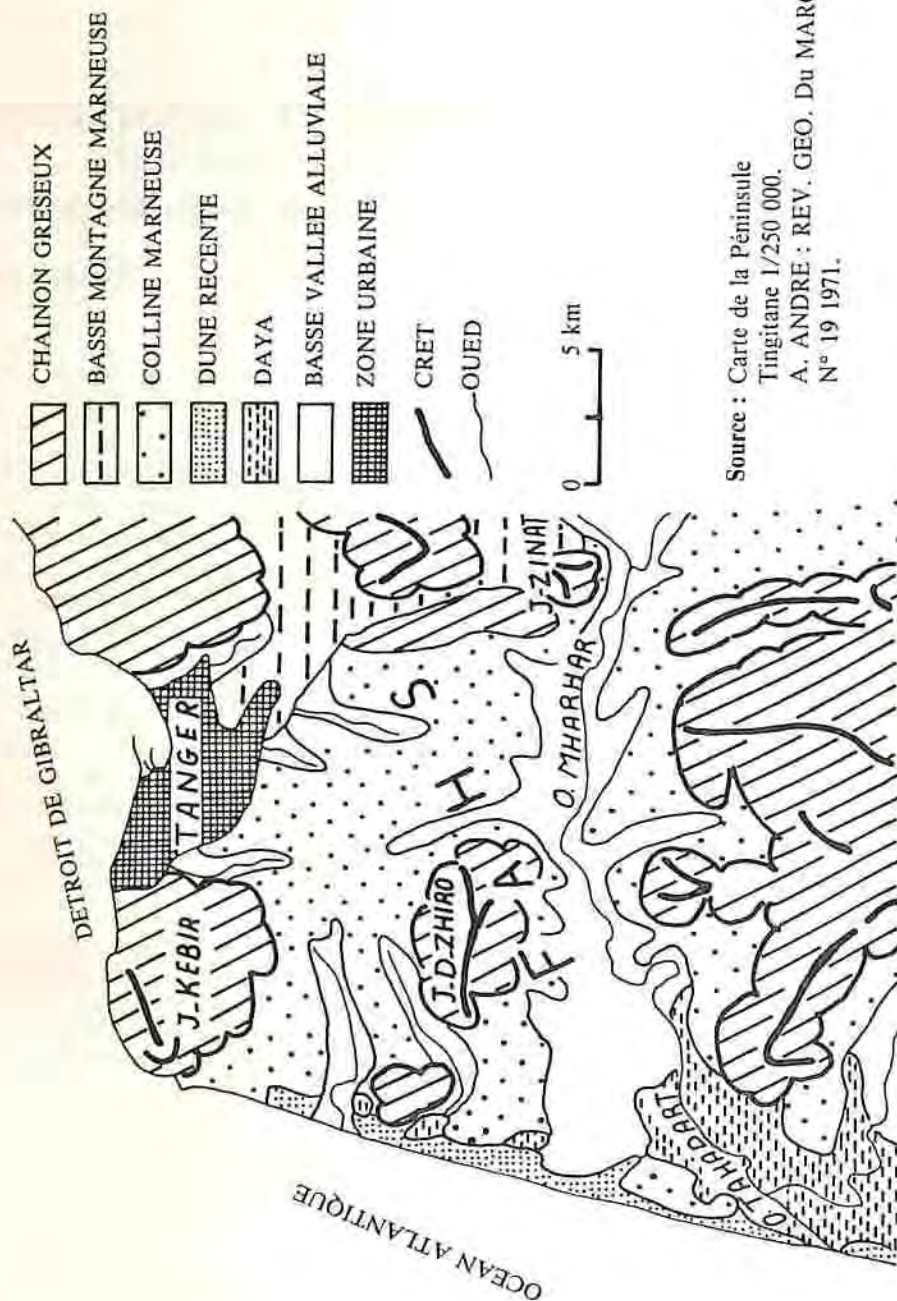
Administrativement, ce Fahs comprend les trois communes rurales limi-

* Département d'Histoire et de Géographie (Tétouan).

(1) Population du périmètre urbain uniquement, à cela s'ajoute la population des quartiers périphériques, comme celui de Ben Dibane, (plus de 27.100 habitants en 1982).

(2) Le Fahs est synonyme de Haouz (arrondissement). Il signifie la zone plus au moins étendue de jardins et de vergers qui entouraient jadis les villes et dont une partie appartenant aux citadins (Iazarev. G. 1975).

Fig N° 1 : RELIEF DU FAHS



Source : Carte de la Péninsule
Tingitane 1/250 000.

A. ANDRE : REV. GEO. DU MAROC
N° 19 1971.

trophes de la cité : Gzanaia, Bahraoyne Tanja et Bahriyne Aouama, il a comme bordures les tribus d'Anjra à l'Est, d'Ouedras au Sud - Est, de Beni Mssaouar, Amer El Fahs et Gharbia au Sud (Fig : 2). Ces tribus étaient sous la domination espagnole, tandis que le Fahs correspond à l'ex-zone de Tanger qui avait un statut spécial (international), entre 1912 et 1956.

La situation stratégique du Fahs était durant l'histoire un facteur éminent de développement des relations extérieures et une source d'instabilité humaine. Isolé au N.W. du Maroc, le Fahs tournant le dos au reste du pays, a subi durant toute son histoire deux influences opposées : celle de l'extérieur venant de l'Europe dans le but de s'emparer de la ville et de sa zone, et celle de l'intérieur venant du reste du Maroc.

Au cours du XVI^e et XVII^e siècles, l'histoire du Fahs a connu un tournant décisif dans le cadre des mouvements précités : Les Portugais et les Espagnols ont transporté la guerre de la péninsule ibérique vers les côtes marocaines. Après la prise de Sebra, Ksar-séghir et Assilah, Tanger fut occupée à son tour en 1471 par les Portugais. Cela entraîna une rupture totale entre la ville et sa compagne. Les Moujahidines, venus de tout le Maroc assiégèrent la ville durant deux siècles dans le but de chasser d'abord les Portugais (1471-1662) et par la suite les Anglais (1662-1684). Toutes les relations entre la ville et sa région furent ainsi paralysées.

Avec la reprise de Tanger en 1684, son Fahs fut concédé par le souverain Moulay Ismaïl (1672-1727) aux combattants rifains qui s'organisèrent en Guich, gouverné par le Pacha rifain Abdessadek ben Ali et ses successeurs (3). L'installation du Guich rifain et le retour d'un calme relatif a permis à la fois la mise en valeur du Fahs et le développement de ses relations avec Tanger.

1. Méthodologie d'approche.

La consultation des dossiers de la Conservation Foncière de Tanger s'est révélée peu intéressante pour étudier le rayonnement foncier de la ville, car le cadastre ne touche pas tout le Fahs et par conséquent, il reste inachevé. En plus, il faut un énorme travail de combinaison entre les divers dossiers pour réunir les terrains appartenant à un même propriétaire.

Les Carnets de l'Impôt Rural de l'Inspection de Tétouan, qui contiennent des données importantes sur la propriété foncière dans le Fahs, mis à jour en principe tous les cinq ans, ne sont pas tellement utiles pour la connaissance de la propriété citadine. Ainsi les informations retenues sur les feuilles de chaque déclarant, ne font figure que du nom du propriétaire, sans faire mention

(3) Guich : altération du mot Djaich (soldats), tribus soumises à la conscription régulière, terre occupée par ces tribus. Le Guich rifain de la région du Fahs a connu une désagrégation complète au début de ce siècle (Boulifa. A : 1983).

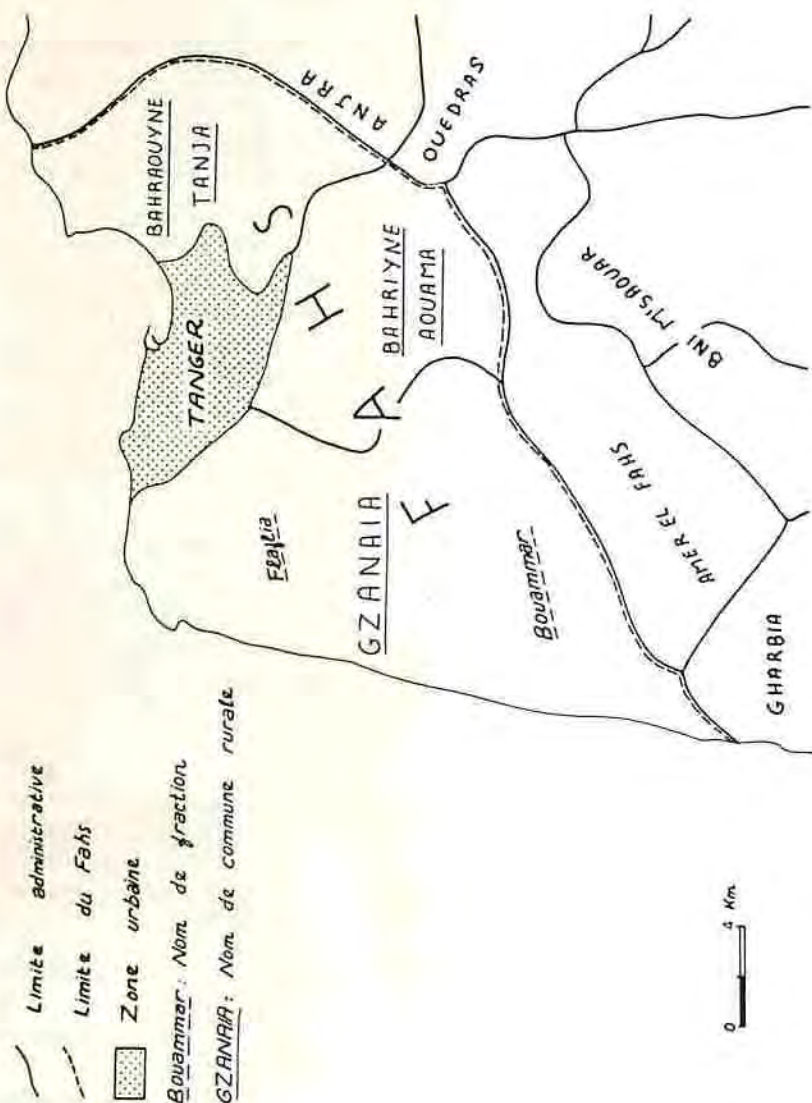


Fig N° 2 : LIMITE DU FAÏSS DE TANGER

de son adresse, le nom du douar où se trouvent les terrains est signalé sur la couverture des carnets.

On s'est interrogé sur la principale source ayant permis l'établissement de ces carnets. Elle ne peut-être que les indications des Chioukhs et Moqadems de chaque fraction. Alors pourquoi ne pas s'adresser directement à eux pour obtenir d'une manière plus précise les renseignements susceptibles de nous donner une idée sur la propriété citadine ? (4).

Aussi, avons-nous été obligé de parcourir le terrain afin d'enquêter, avec une grande prudence sur ce type de propriété tangérois (5).

Cette enquête exhaustive a été intéressante dans la mesure où elle a permis d'obtenir des éléments nouveaux sur lesquels les dossiers de la Conservation Foncière et les carnets de l'Impôt Rural restent muets.

2. Evolution de comportement de Tanger, d'une ville "insulaire" à une ville s'intéressant à sa campagne.

Avant 1684, Tanger n'avait pas, de domination foncière sur son arrière-pays. L'histoire de la région révèle qu'avant cette date les citadins tangérois n'accordaient pas d'importance au monde rural voisin, en raison, de l'instabilité politique et de l'hostilité entre les dirigeants de la campagne-Moujahidines- et ceux de la ville-étrangers-, (Veronne (de la) CH, 1972).

Avec la dégénérescence du statut Guich et le retour relatif du calme politique, la population citadine (de Tanger et de Tétouan notamment et plus tard les minorités étrangères), commencent à manifester un intérêt pour la propriété rural dans le Fahs (6). Cet intérêt devient important avec l'établissement du régime colonial : l'assise de la propriété foncière citadine s'est retrouvée bien renforcée grâce aux nombreuses possessions étrangères et marocaines. Vers 1956, le vide laissé par le départ des colons n'a pas simplement permis à l'Etat de renforcer son potentiel en terres au détriment des "jmaas" (7), mais il a aussi favorisé la catégorie des propriétaires citadine qui a pu ainsi consolider sa position dans le Fahs.

A la veille de la fin de l'ère colonial, les rumeurs de l'indépendance politique ont poussé ces étrangers et les marocains à vendre leur parcelles. Les ache-

(4) Les données demandées au niveau du douar sont parfaitement connues et recensables grâce à ces personnes, hormis, de rares oublis et des imprécisions.

(5) Nous avons mené cette enquête en 1981 dans le cadre d'une recherche pour le Doctorat de 3^e cycle.

(6) Au début de ce siècle, il y avait une propriété citadine marocaine non négligeable, mais nos renseignements sont très dérisoires sur cette propriété antérieure à la colonisation.

(7) «Jmaa» institution représentant le douar. Les «Jmaas» au niveau de la fraction ou de la tribu n'existent plus au Fahs.

teurs étaient partiellement des citoyens. L'opération de vente s'est accélérée après 1959 malgré les obstacles imposés par l'Etat afin de contrecarrer les opérations immobilières dans ce type de propriété.

Cette situation faisait qu'au lendemain de l'indépendance et avant la récupération des terres de la colonisation, la propriété citadine était assez bien représentée partout dans le Fâhs. Les deux exemples suivant l'illustrent bien :

- D'après les études réalisées dans la vallée de Mharhar (douar Gouaretz), vers 1965, sur une superficie de 370,3 ha, on a recensé 231 ha appartenant à des propriétaires résidents en ville, soit 62% de la surface (cité in El Gharbaoui. A. 1981).

- Lorsque on a décidé en 1972 l'extension de l'aéroport de Tanger-Boukhalf, sur 234 ha nécessaire à cette opération, 162,3 se sont révélés propriétés de citoyens (sociétés et individus tangérois (Fig : 3). Ces propriétés étaient réparties en 26 parcelles dont les dimensions étaient les suivantes (tableau : 1).

Tableau : 1 Dimensions de la propriété citadine à l'aéroport de Boukhalf (1972)

dimensions en ha	0,1 à 1	1,1 à 5	5,1 à 10	10 à 18	+ 18	Total
Nombre de parcelles	5	13	2	1	5	26
%	19,2	50	7,6	4	19,2	100
Nombre d'ha par classe	1,87	29,67	13,70	15,90	101,16	162,3
%	1,2	18,3	8,4	9,8	62,3	100

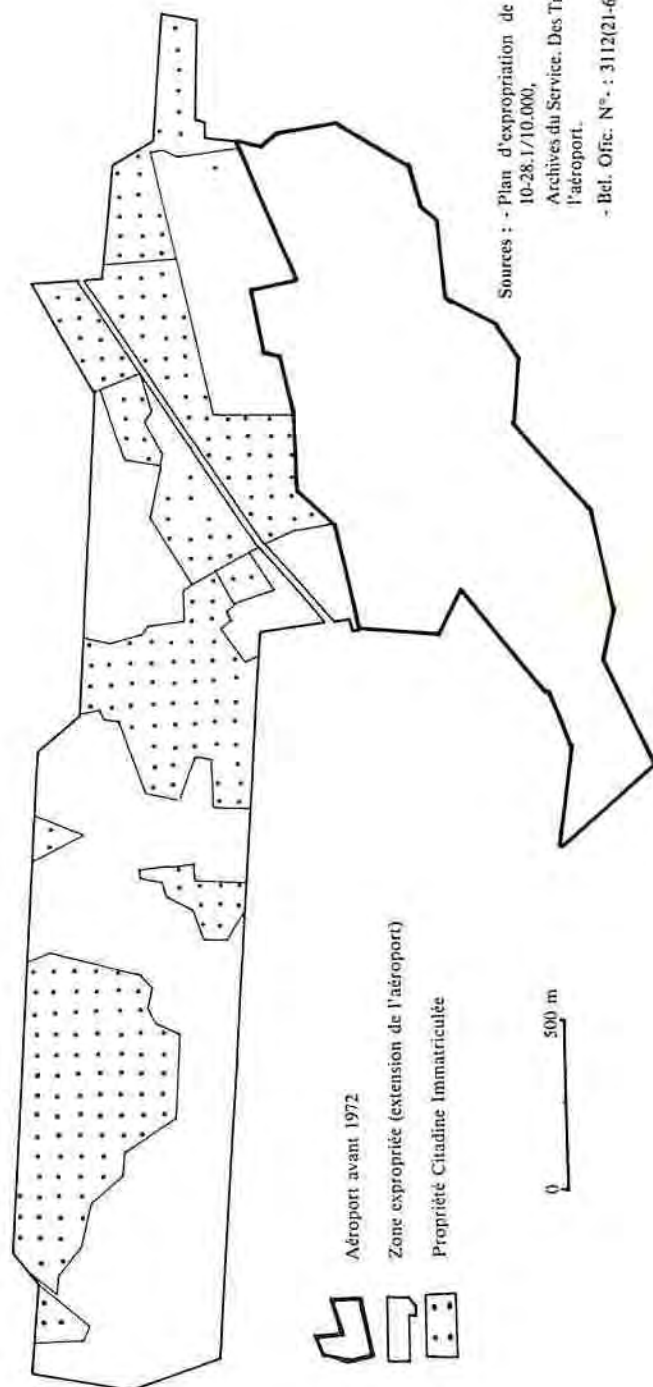
Sources : - Archives du Service des Travaux de l'aéroport
- Bulletin Officiel : N° 3112 (21/6/1972).

3. Aspect de la mainmise foncière citadine sur le Fâhs.

D'après l'enquête exhaustive que nous avons menée en 1981 il y avait environ 1475,5 ha appropriés par des citoyens soit 10% de la propriété totale déclarée à l'impôt rural en 1981 (8). Sa répartition montre une concentration variable

(8) Les propriétaires citoyens possédant moins d'un demi-hectare ne sont pas pris en compte. Il en est de même pour les propriétaires d'origine citadine mais résident constamment dans le douar. Ces 1475,5 ha détenus par les citoyens constituent localement une assise foncière importante à cause de l'exiguïté de l'espace agricole dû au manque des terres arables et au relief tourmenté. Citons à titre de comparaison qu'à Hayâna (Prérif), la propriété citadine occupe 6,5%

Fig N°3 : PROPRIETE CITADINE A BOUKHALF — AEROPORT : 1972



très accentuée dans la partie occidentale (Fig : 4 et tableau : 2). C'est dans la Fraction de Bouammar et la commune de Bahriyne Tanja qu'on avait trouvé une assise foncière urbaine importante.

Tableau : 2 Propriété foncière citadine dans le Fahs.

Commune/fraction	Nombre de propriétaires	%	Superficie en ha	%	Superfi. moyenne / propriétaire
Flaflia	30	13,2	28	1,9	0,9
Bouammar	63	27,6	519	35,2	8,2
Bahraouyne Tanja	35	15,3	109,5	7,42	3,1
Bahriyne Aouama	100	43,9	819	55,5	8,1
Total	228	100	1475,5	100	6,4

La relative faiblesse des interventions citadines dans les autres fractions s'explique par le relief accidenté, la pauvreté des sols et l'importance des terrains collectifs.

Il faut signaler cependant que malgré sa proximité de Tanger et sa situation dans une zone favorable à l'agriculture, la fraction de Flaflia ne connaît pas de "domination" citadine dans ce domaine. La proximité de la ville a poussé les propriétaires à s'installer dans leur fermes, même s'ils exercent une activité à Tanger.

3.1 : Un rayonnement foncier réservé à Tanger

Pour le Fahs, trois pôles urbains sont susceptibles de lui fournir des propriétaires citadins s'intéressant à la rente foncière rurale : Assilah et Tétouan qui occupent une position un peu marginale et Tanger qui polarise bien toute la région étudiée (Fig : 5).

En effet, 84,2% des propriétaires résident à Tanger, 10,6% à Tétouan tandis que les 5,2% des propriétaires qui restent, sont disséminés dans les autres villes marocaines (tableau : 3).

de la propriété totale (Lazarev. G. 1966). Au S.W de Rabat, ce type de propriété occupe 11 % du patrimoine foncier (Belfquih. M. 1978).

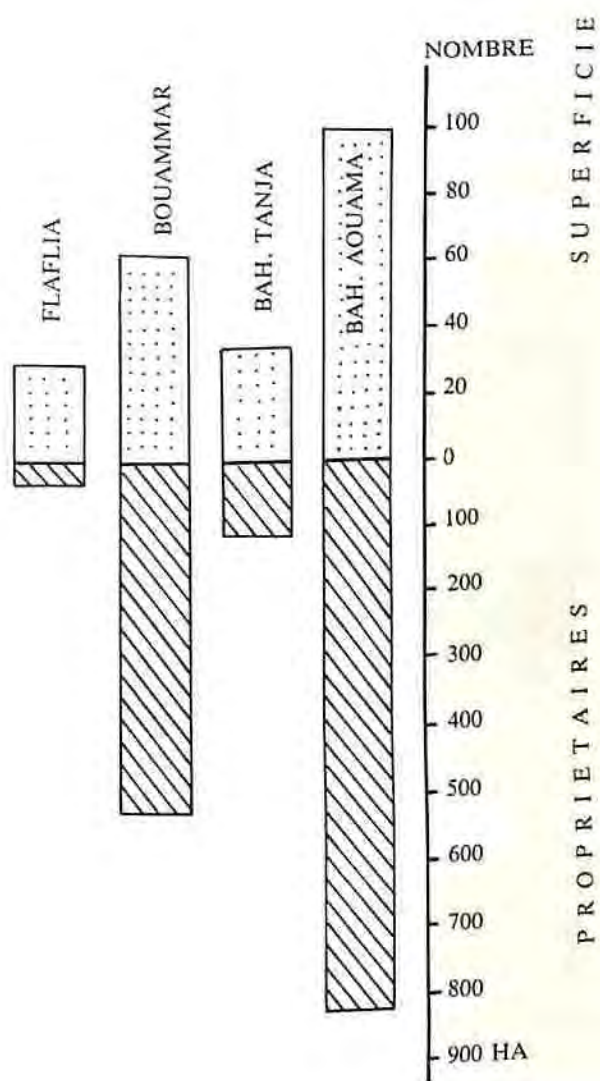


Fig N° 4 : PROPRIETE FONCIERE CITADINE DANS LE FAHS DE TANGER

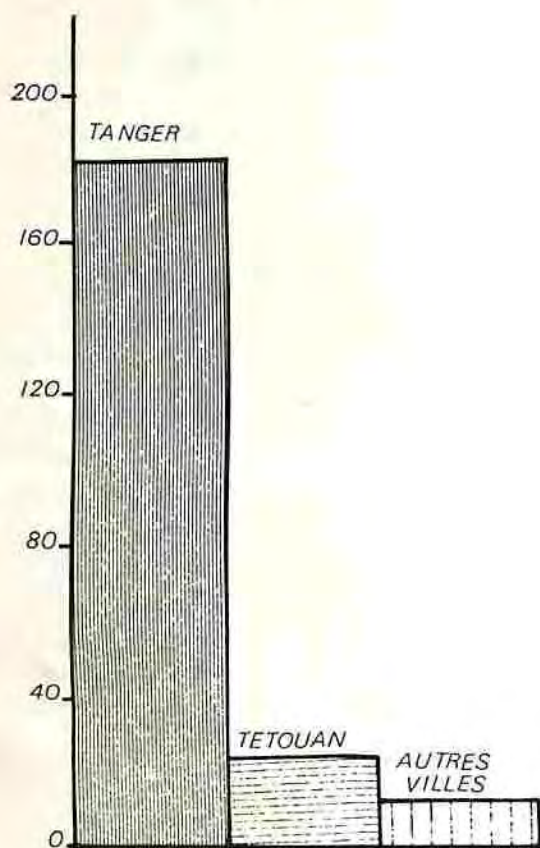


Fig N° 5 : LIEU DE RESIDENCE DES PROPRIETAIRES CITADINS

Tableau 3 : Lieu de résidence des propriétaires citadins.

Commune \ Ville	Tanger	Tétouan	Autres Villes	Total
Gzanaia	82	11	—	93
Bahriyne Aouama	83	12	5	100
Bahraouyene Tanja	27	1	7	35
Total	192	24	12	228
%	84,2	10,6	5,2	100

Les Tétouanais ont des propriétés sous forme "d'azib" (9) surtout dans la région de Gouaretz, ces propriétés appartiennent en particulier aux Chorfas d'Ouazzane résidant actuellement à Tétouan.

3.2. Structure déséquilibrée de la propriété citadine

La propriété citadine se différencie de la propriété rurale des "autochtones" par une concentration relative. Quant à sa structure interne, cette propriété accuse une répartition inégale (tableau : 4)

Tableau : 4 Dimensions de la propriété citadine en ha

Commune ou fraction	5	5,1-10	10,1-15	15	Total
Flaflia	29	—	1	—	30
Bouammar	37	9	8	9	63
Bahriyne Aouama	52	28	10	10	100
Bahraouyne Tanja	28	7	—	—	35
Total	146	44	19	19	288
%	64	19,3	8,3	8,3	100

(9) «Azib» Sorte de fief. Les concessions d'«azib» se sont développées notamment depuis la fin

En fait, ce qui frappe, c'est la petite propriété, (entre 0,3 et 5 ha). Elle est présente partout dans le Fahs, notamment dans ses parties accidentées. A l'origine de cette petite propriété, figure essentiellement l'éclatement de la grande propriété citadine traditionnelle par l'héritage, ainsi que la propriété des émigrés fraîchement établis dans la ville.

Le 1/5 environ des propriétaires ont une propriété dont la superficie varie entre 5 et 10 ha. Cette classe de propriété est concentrée en particulier dans la commune rurale de Bahraouyne Tanja.

La concentration de la propriété de plus de 10 ha est remarquable, surtout dans les parties occidentales les plus aptes à l'agriculture. Elle englobe environ 12% des propriétaires citadins. C'est dans cette catégorie de propriété qu'on trouve les "azibs" qui sont encore conservés, notamment dans le Sud de la commune rurale de Bahriyene Aouama.

3.3 Statut social des propriétaires citadins :

Durant nos enquêtes, nous avons attaché un grand intérêt à ce point. Mais il était parfois, difficile de classer quelques propriétaires absentéistes à cause de leur activité multifonctionnelle et des statuts socioprofessionnels très complexe. L'histoire de la région, sa situation et l'importance de l'agglomération, sont des facteurs qui expliquent en partie cette complexité : fonctionnaires, émigrés, professions libérales, retraités...

Schématiquement nous pouvons distinguer plusieurs types de propriétaires au Fahs. L'apparition d'une bourgeoisie traditionnelle (citadins de vieille souche) remonte aux deux derniers siècles seulement. Elle est représentée en particulier par quelques familles qui avaient jadis une influence politique, religieuse ou commerciale. Parmi ces familles, on cite la célèbre famille du Pacha rifain Abdessadek, qui possède encore de vastes propriétés dans les douars d'Aouama, Beni saïd et Boukhalf. Il y a aussi les Chorfas d'Ouazzane et la famille de Raïssouni (10).

La catégorie des citadins d'origine rurale qui gardent encore leur patrimoine, englobe plusieurs couches sociales. La masse est constituée de ruraux qui ont émigré à cause de l'insuffisance des moyens d'existence sur place. Leurs conditions de vie défavorables les ont poussés à la recherche d'un travail en ville tout en conservant leur micropropriété au bled ; car ils savent qu'en ville, gagner sa vie n'est pas toujours facile, et qu'un retour au bled est possible. La propriété en étant confiée à un de leurs proches qui l'exploite en association ; ou en location fournit des ressources complémentaires.

du XIX^e Siècle. Peu à Peu ces concessions foncières se sont transformées en propriétés privées. Actuellement l'"azib" est une grande propriété appartenant parfois à des citadins, le mot "azib" signifie parfois "bergerie", il peut aussi indiquer la maison de campagne des citadins.

(10) Raïssouni : bandit d'honneur (Ayache.G. 1981), et grand caïd du Nord au début de ce siècle.

D'autres propriétaires citadins (anciens ruraux), ont été attirés par la "facilité" de la vie en ville en continuant à bénéficier de leur rente foncière de leurs terrains. Quand aux émigrés d'origine rurale qui rentrent définitivement ou temporairement de l'étranger, ils s'installent généralement en ville ; Ceux-ci maintiennent leur propriété héritée qu'ils agrandissent souvent en achetant d'autres terrains. Une troisième catégorie de propriétaires a fait son apparition, surtout après 1960. En effet, depuis cette date quelques propriétaires qui n'avaient pas de relations avec le monde rural commencent à s'intéresser à l'agriculture, ce sont des cadres (fonctionnaires, militaires retraités) des détenteurs de capitaux (commerçants, industriels, émigrés en Europe...). Ils avaient acheté et achètent toujours des terres vendues par les colons et les fellahs qui quittent la campagne pour la ville.

Lorsque la propriété le permet (en plus de leur habitat rural secondaire), les citadins s'intéressent à des activités agricoles parfois spéculatives, tels que l'élevage avicole ou laitier et l'élevage d'engraissement. La prospérité des opérations spéculatives, fait que quelques membres de cette classe sont devenus des fellahs citadins. Ils considèrent la terre comme un bon placement de capitaux à intérêts certains. Ces capitaux sont ainsi réinvestis dans d'autres opérations agricoles en dehors de la propriété proprement dite : Location d'autres terrains agricoles, association avec d'autres fellahs.. (11).

Le tableau 5, qui schématise l'origine de la propriété foncière citadine montre que les propriétaires citadins qui ont acheté la terre l'emportent sur ceux qui l'ont hérité. Dans la rubrique "divers" ont été groupés, en général, les citadins héritiers et acheteurs.

Tableau 5 : Propriétaires citadins selon l'origine de la propriété

Unités Statistiques	Origine de la propriété			Total
	Héritage	Achat	Divers	
Flaflia	17	12	1	30
Bouammar	21	32	12	63
Bahriyne Aouma	10	76	14	100
Bahraouyne Tanja	15	13	7	35
Total	63	133	32	228
%	27,6	58,4	14	100

(11) Souvent ces citadins interviennent comme exploitants cherchant à faire fructifier leurs capi-

Pour Bahriyne Aouma et la fraction de Bouammar la prédominance de l'achat s'explique en partie par les transactions immobilières qui ont eu lieu entre les néo-colons citadins d'un côté et les étrangers ou les juifs marocains de l'autre côté.

4. Mode de faire-valoir des exploitations citadines :

Dans l'étude des modes de faire-valoir des terres, nous n'avons pas l'intention d'examiner chaque cas, mais tout simplement de formuler quelques remarques sur les rapports socio-économiques liant les propriétaires citadins à ceux qui dépendent d'eux. Ces modes diffèrent selon la classe sociale des propriétaires, la taille de la propriété et, parfois, selon la conjoncture économique et sociale :

Dans les zones d'accès faciles, les citadins veillent souvent personnellement sur l'exploitation de leur terres en engageant des ouvriers agricoles (permanents ou saisonniers) qu'ils supervisent directement. Généralement ce sont eux-même qui gèrent le financement de toutes les opérations agricoles et qui écoulent à la fin de la récolte, les produits de l'exploitation (tableau 6).

Tableau 6 : Modes d'exploitation des propriétés citadines.

* **	Exploitation directe ou l'aide d'un gérant	exploitation indirecte		Divers	Total
		Location	Association		
Flafila	7	8	14	1	30
Bouammar	27	20	10	6	63
Bahraouyne Tanja	17	49	27	7	100
Bahriyne Aouama	7	18	9	1	35
Total	58	95	60	15	288
%	25,4	41,7	26,3	6,6	100

* Mode d'exploitation

** Unités statistiques

Les ouvriers agricoles sont appelés par deformation "azzabas" ; pourtant les relations qui les lient aux propriétaires diffèrent totalement du système des "azzabas" traditionnels (12).

taux dans la mise en valeur des terrains, domaniaux habous ou melks. Il faut ajouter, en outre leur implantation comme locataires des machines agricoles.

(12) «Azzabas» sing. «Azzab» : tenancier, fermier, habitant «d'azib». Jadis «l'azzab» était lié au

Ils sont souvent rémunérés en espèces (salaires journaliers ou mensuels), rarement en nature. Ceux qui sont permanents habitent en principe l'exploitation. Dans la plupart des cas, ils ne sont pas originaires de la région et sont venus soit du Rif, soit du Habt (13).

Dans les grandes exploitations de la bourgeoisie "traditionnelle", le recours à l'exploitation par l'intermédiaire des "azzabas" est la règle générale. Ceux-là sont rémunérés en nature. Pour ce faire, un contrat verbal est passé entre le propriétaire ou son gérant et "l'azzab". Parfois ce sont les ancêtres de ce dernier qui ont fixé les grands traits de ce contrat.

Le mode de faire-valoir indirect est très généralisé aussi parmi les propriétaires originaires du bled qui viennent de s'installer en ville. Ils confient leur terres à un membre de leur famille ou à un voisin, pour l'exploiter en association.

Néanmoins, et dans tous les cas, la tendance générale actuelle qui l'emporte sur toutes ces formes d'exploitation est le "Gza" (Location). En raison des problèmes du métayage ou de la gestion directe par le propriétaire, de la cherté des moyens de production, des anomalies climatiques et de la demande accrue sur les terres à louer. Nombreux sont les citadins qui préfèrent louer leur terrains plutôt que d'affronter ces problèmes.

Généralement, la location de la terre se fait par lots : le propriétaire divise sa propriété en plusieurs lots (dans le cas où elle ne contient pas plusieurs parcelles). En effet, la location des petits lots est plus rentable que la location de la propriété en bloc : le prix de cette location est à la portée de la majorité des fellahs, ainsi le loyer augmente relativement à cause de la concurrence entre les fellahs. Le contrat dans la majorité des cas est verbal. Il n'est enregistré dans le *caïdat* que dans le cas où sa durée dépasse deux ans.

Une dernière catégorie de citadins (environ 13 %) exploitent leur terrains en recourant à d'autres modes de faire-valoir : quelques parcelles de la propriété sont données en jouissance temporaire à un membre de la famille en échange de quelques services (14) ; d'autres sont louées ou exploitées en association.

Par ailleurs, aux alentours de Tanger, dans un rayon de 9 à 11 km, plusieurs propriétés citadines ne font l'objet d'aucune exploitation rationnelle. Leur

propriétaire de l'"azib" par un contrat familial, c'est à dire que les fils devaient être de futur tenanciers à l'"azib" et dépendre du propriétaire de la ferme où ils avaient vécu. La rémunération de l'"azzab" se faisait en parts de récolte selon des contrats complexes. Cependant depuis le début de ce siècle et pour diverses raisons les liens de dépendance attachent les "azzabas" à leurs maîtres ont commencé à s'estomper et le contrat familial a été remplacé peu à peu par un contrat individuel. Actuellement et dans plusieurs cas ce métayer n'est plus qu'un simple journalier qui continue de porter le nom d'"azzab".

(13) Habt : arrière-pays d'Assilah, de Larache, et de Ksar-Kébîr.

(14) Par exemple : surveillance de la résidence à la campagne du propriétaire citadin par ce membre de la famille.

exploitation peut être qualifiée "d'agriculture d'attente". Elles sont même laissées en friches (friches sociales). Ces types de propriétés sont des propriétés de placement dont l'objectif principal est la spéculation foncière. En effet, l'extension de la ville, les rumeurs ou les avant-projets d'aménagement, la liberté de l'économie du marché de la terre, favorisent cette situation.

CONCLUSION :

La situation d'étrangers aux douars des propriétaires citadins fait perdre aux collectivités locales leur cohésion, tandis que leur activités agricoles dans la campagne distendent les liens qui unissaient la population et la terre.

Ainsi, ces citadins sont responsables en grande partie d'un bouleversement profond de l'ordre agraire et du développement de rapports sociaux nouveaux : le "Gza" et l'embauche des ouvriers l'emportent largement sur les formes de faire-valoir traditionnelles. Ceci accentué le déracinement des campagnards et l'effritement de la "Jmaa". Il résulte aussi de la concurrence entre les citadins et les ruraux pour l'exploitation de la terre, une réduction des possibilités d'emploi local et un renforcement du pouvoir des citadins sur la campagne.

Cette mainmise agraire citadine sur le Fahs établit entre la ville et sa campagne des relations complexes en ce qui concerne la structure de la société. Une des conséquences de cette situation et d'ordre politique : beaucoup de propriétaires citadins réussissent à se faire élire lors des élections rurales et à obtenir des postes de représentants ou de gérant des affaires des ruraux. Cette emprise électorale ou représentative traduit sans doute la domination d'intérêts tout différents de ceux de la population local.

Du point de vue social, le comportement des exploitants citadins avec les paysans "autochtones" ne diffère guère de celui des colons. A la moindre opposition, on fait appel aux Forces de l'Ordre, ce qui dramatise les relations et amplifie les conséquences. Enfin cette propriété citadine se traduit par le transfert des richesses de la campagne vers la ville.

Bibliographie :

- Ayache (G) : 1981, les origines de la guerre du Rif : pub, de la sorbonne et de la S.M.E.R, Rabat. 374 p.
- Belfquih (M) : 1978, l'espace péri-urbain d'une capitale : la région du Sud-Ouest de Rabat. Pub. E.R.A (Equipe de Recherche associée-C.N.R.S) 706.Fax : 2, Tours 226p.
- Benhalima (H) : 1978, Sefrou, ville «prédatrice» ou animatrice de sa région, Pub de L.E.R.A. 760.Fax : 3, Tours PP. 99-120.
- Bonjon (J) : 1967, Tanger. Fond. Nat. des SC. Politiques. Etudes maghébines, N°8. Paris. 109p.
- Boulifa (A) : 1983, Evolution et organisation d'un espace rural : le Tangérois, étude géographique, thèse 3° cycle, Institut, de Géographie, Poitiers 2 vol. 440p. Inédit.
- Caille (J) : 1967, le consulat de Tanger des origines à 1830, Paris 128 p.
- El Gharbaoui (A) : 1981, la terre et l'homme dans la péninsule tingitane. Travaux de l'Institut Scientifique, Rabat 440 p. Cartes h.T.
- Lazarev (G) : 1965, Répartition de la propriété et organisation villageoise dans le Prérif : l'exemple des Hayaina. Rev. Géogr. Maroc. n° 8. 61-74.

- Lazarev (G) : 1966, structures agraires et grandes propriétés en pays Hayaina, Rev. Géogr. Maroc N° 9, PP. 23-58.
- Lazarev (G) 1971, Concessions foncières au Maroc, Bell. Eco et Soc. du Maroc, serie "Sociologie" pp. 43-79.
- Lazarev (G) 1975, Aspects du capitalisme agraire au Maroc avant le protectorat Annales de l'Afrique du Nord, Paris, pp 57-90.
- Paxon (P) : 1977, le Haouz de Marrakech. Pub. C.N.R.S/C.U.R.S/I.A.V. Rabat 2 T, 693p.
- Salmon (G) : 1904, une tribu marocaine, les Fahcia, Arch. Maroc, Paris, T : 1 pp. 149-261.
- Troin (J.F) : 1968, Structures et rayonnements commerciaux des petites villes marocaines, l'exemple : d'Asilah, de Larache et de Ksar-Kebir, Rev. Tun de SC. Soc n° 15. pp 243-262.
- Verdugo (CL) : 1958, Tanger, enquête urbaine. Bell. Eco. et Soc. du Maroc n° : 78, pp 182-207.
- Verronne (de la)-(CH) : 1972, Tanger sous l'occupation anglaise (d'après une description anonyme de 1974), 181 p.
- Villes et Tribus du Maroc, Zone de Tanger, 1921 Mission Scientifique Française au Maroc. Pub. de la Résidence générale, Paris, Vol VII, 320 p.

QUELQUES REFLEXIONS A PROPOS DE LA REPARTITION SPATIO-TEMPORELLE DES PRECIPITATIONS DANS LE B.V DE L'INAOUENE (Région de Taza)

AFKIR EL HOUSSAINE

Etant en position de couloir, entre les derniers contreforts moyen-atlasique et le secteur prérifain, sur la marge orientale du B.V de Sebou (Doc. n° 1), le B.V de l'Inaouène présente des caractéristiques climatiques assez particulières. Et, malgré les caractères fondamentaux de couloir et de marge, ce B.V fait incontestablement partie des régions méditerranéennes à influences océaniques.

Ces caractères, outre les autres facteurs géographiques (situation, exposition, organisation orographique...), lui valent d'être marqué, à notre échelle d'étude, par une structure climatique contrastée, complexe et variée dans l'espace et dans le temps. Certes, les informations recueillies au niveau des stations de mesures et les quelques documents cartographiques ont permis une certaine compréhension de l'originalité climatique de ce B.V, à savoir le temps météorologiques dans ses discontinuités temporo-spatiales.

I — REPARTITION SPATIALE DES PRECIPITATIONS : ESSAI D'UNE ANALYSE SECTORIELLE.

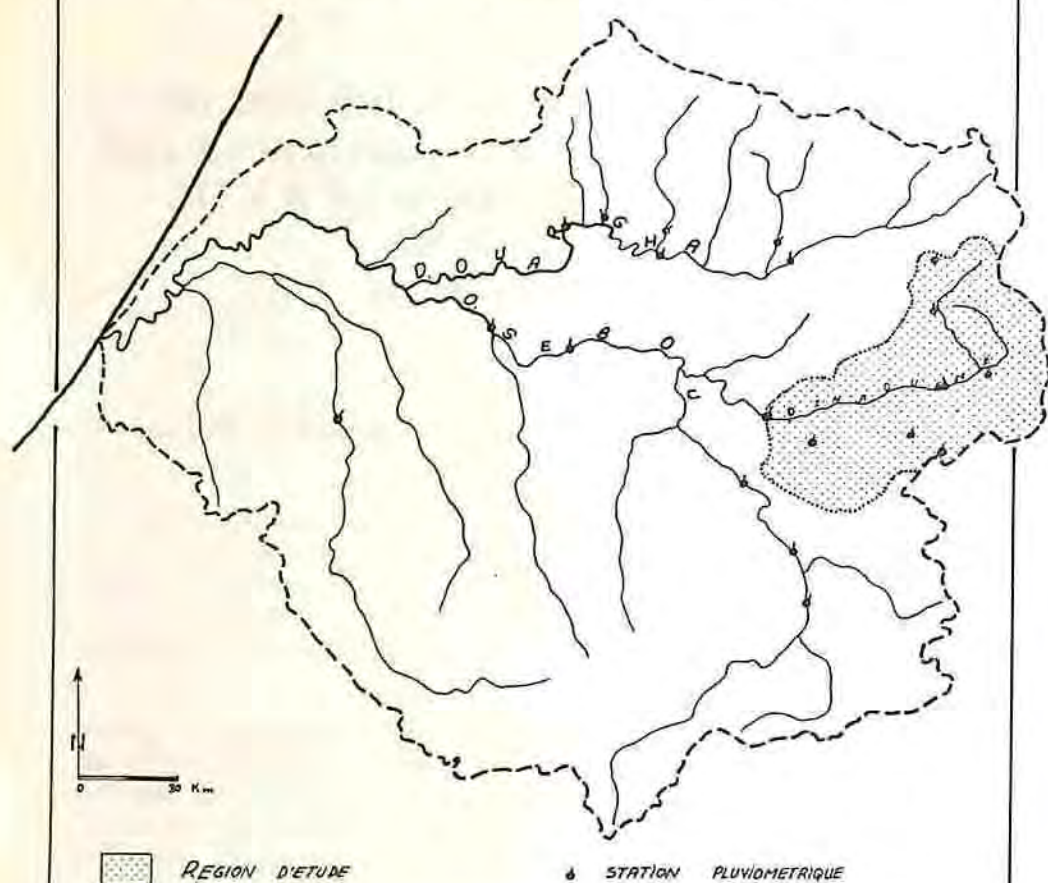
1. La carte des précipitations moyennes annuelles et ses enseignements.

La nécessité de la connaissance de la répartition spatiale des pluies nous a obligé à reprendre la carte des précipitations moyennes annuelles au 1/500.000*

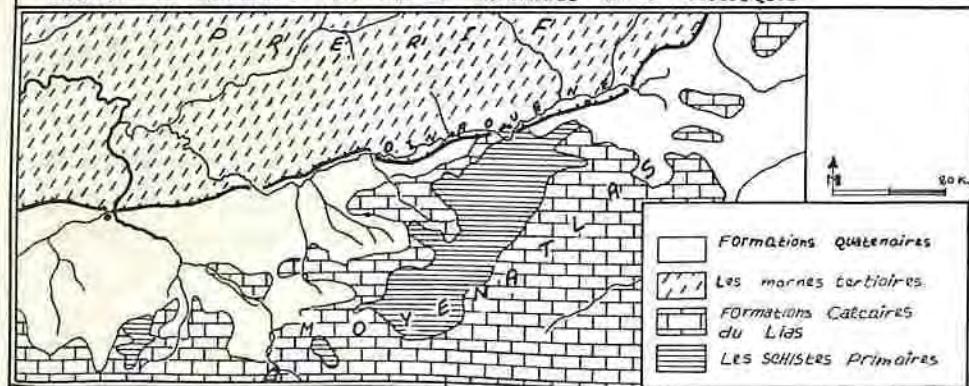
B.V = Bassin Versant

* Cet article est l'extrait d'une thèse préparée et soutenue à l'Institut de géographie Daniel Faucher. Toulouse 1985.

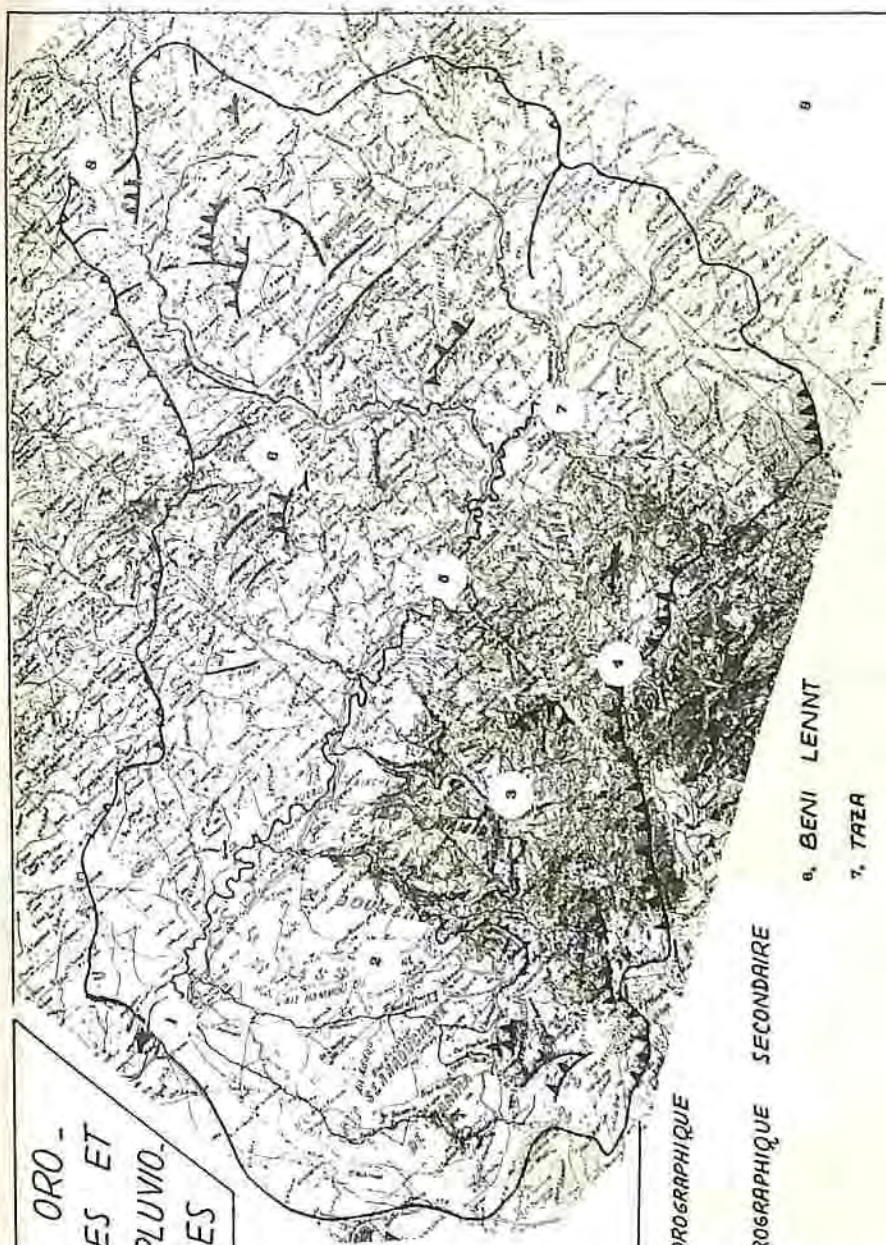
LE B.V. D'INAOUENE SITUATION PAR RAPPORT AU GRAND
B.V. DE SEBOU ET EQUIPEMENT PLUVIOMETRIQUE



SITUATION DE L'INAOUENE PAR RAPPORT AUX GRANDES UNITES GEOLOGIQUES



FRONTS ORO-
GRAPHIQUES ET
POSTES PLUVIO-
METRIQUES



FRONT OROGRAPHIQUE
PRINCIPAL

FRONT OROGRAPHIQUE
SECONDAIRE

1. TOUABA

2. TAHALA

3. BAB AZHAR

4. BAB BOU IDIR

5. COL DE TOUAHAR

6. BENI LENNT

7. TAZA

8. TAINESTE

9. GUERCIF

de H. GAUSSEN et G. ROUX (1957) pour se faire une idée sur cette répartition. Ce document précieux, mettant en évidence les contrastes spatiaux du B.V, reste parmi les moyens remarquables pour cerner la diversité climatique interne de ce bassin (Doc n° 2).

Bien que les détails de la carte soient trop fins pour être planimétrés, on a pu retenir, en généralisant, quatre tranches pluviométriques opposant quatre secteurs différents :

— Les secteurs recevant moins de 800 mm de pluies correspondent à la tranche hypsométrique qui se place au dessous de 500 m. Ces secteurs englobent, en partie, le plateau calcaire de Tahala, les basses collines marneuses du Prérif, les glacis d'amont et d'aval bassin et enfin le système de terrasses alluviales jalonnant la vallée principal et vallées secondaires. Ces secteurs occupent une superficie de 2030 Km², soit 61% de toute l'étendue du B.V.

— Les secteurs de moyennes et hautes collines prérimaires, le reste du plateau calcaire et quelques hautes vallées intra-montagnardes du flanc moyen-atlasique (500-1000 m) reçoivent annuellement de 800 à 1000 mm. Cette tranche altitudinale occupe une aire de 927 Km² (28%).

— Les secteurs de hautes collines (les sommets), le massif de Tazakka, la ligne de partage des eaux (sur 35 Km de distance) et enfin les derniers escarpements de Ras El Ma constituant la retournée nord orientale du Moyen-Atlas. La moyenne annuelle y varie entre 1000 et 1500 mm et n'intéresse que 343 Km², soit 10% de l'étendu totale.

— Enfin, les hauts sommets de Tazakka, Jbel Bou Mass'oud et J. Bechar, recevant plus de 1500 mm, ne représentent qu'à peine 1% de toute l'étendue du B.V (soit 20 Km² seulement).

Retenons, tout simplement, que les totaux pluviométriques annuels les plus importants ne correspondent pas à l'extrême amont B.V abrité des vents d'w. humides mais à l'amont altitudinal, à l'intérieur du B.V (voir doc. n° 3).

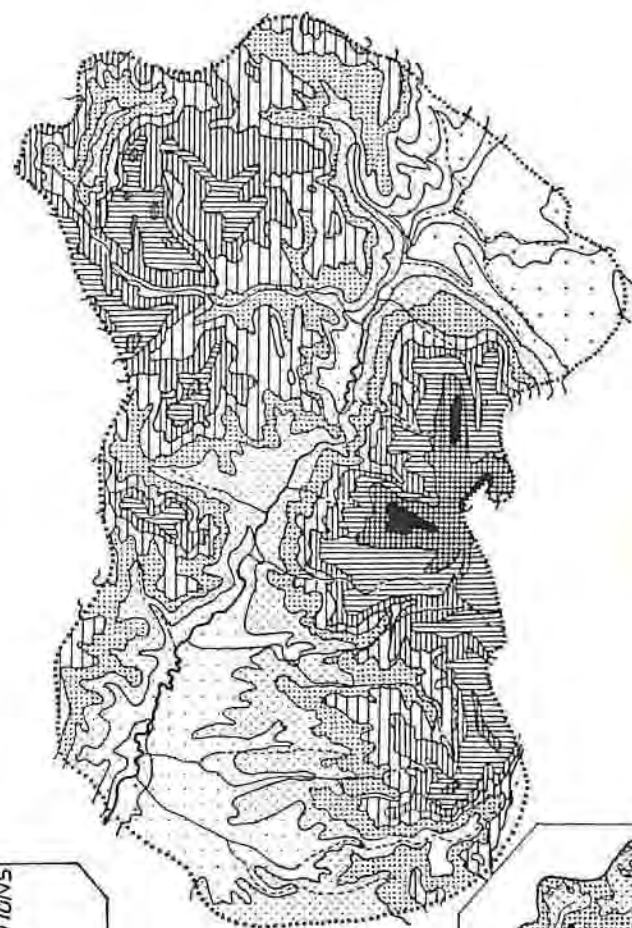
Ceci sera, donc, susceptible d'être vérifié en comparant ces pluies au niveau des différentes stations appartenant à des ensembles climatiques différents.

2. Comparaison au niveau des stations

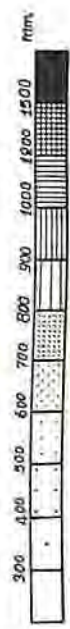
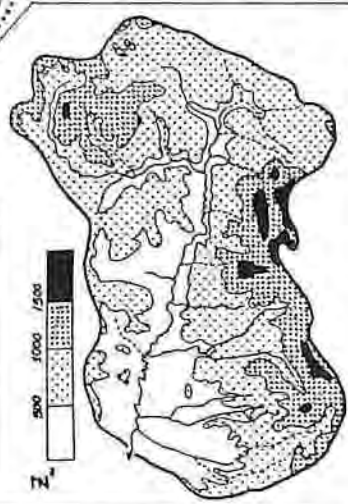
Dérrière ces contrastes pluviométriques révélés par la carte des précipitations (doc. n° 3), les données réelles représentées par le document n° 4 soulignent une certaine différence pluviométrique entre les stations.

Dans le premier graphique on compare les pluies mensuelles de Tahala (Z = 550 m) station de plateau moins exposée et celle de Bab Azhar (760 m), station de moyenne montagne bien exposée aux vents d'w et de N.W humides, pour la période (1965-1975). La différence s'avère remarquable. Les 132 points, tels qu'ils sont distribués de part et d'autre de la droite de régression, révèlent la différence pluviométrique entre ces deux stations. La station de B. Azhar,

LE B.V. DE L'INAOUENE :
CARTE DES PRECIPITATIONS
MOYENNES ANNUELLES
(1925 - 1950)



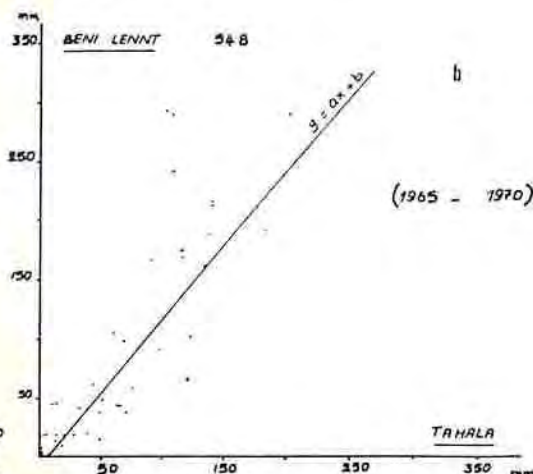
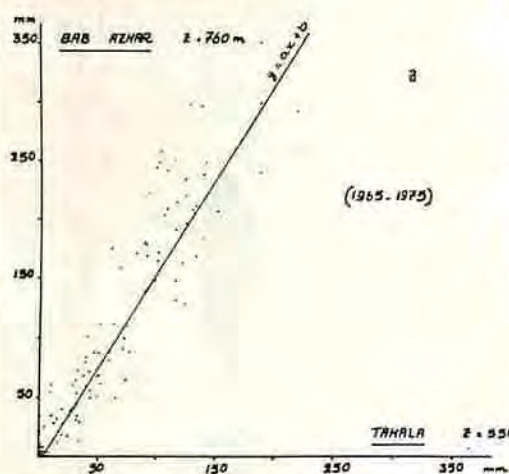
CROQUIS HYPSOMETRIQUE



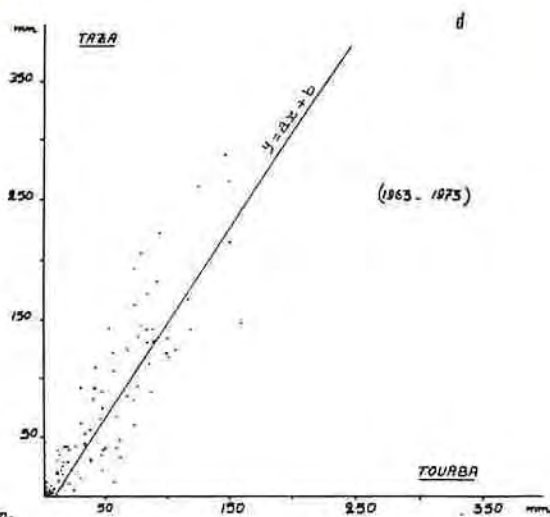
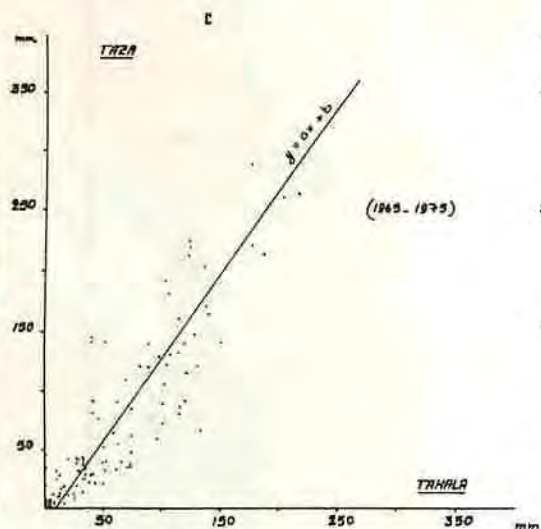
ECH: 0 15 Km

D'APRES LA CARTE DES PRECIPITATIONS DU
MAROC AU 1:500.000 - 1957. H. GAUSSEN ET AL.

PRECIPITATIONS MENSUELLES CORRELATION ENTRE TAHALA - BENI LENNT
ET TAHALA BAB - AZHAR



PRECIPITATIONS MENSUELLES CORRELATION TAZA - TAHALA ET
TAZA - TOURBA



à 15 Km à l'Est de Tahala, mais au pied du front orographique de Tazakka (doc), illustre l'ampleur de l'ascendance orographique qui détermine le plus grand apport pluviométrique des vents humides.

Si l'on compare maintenant les pluies mensuelles de Tahala et celles de Beni Lennt ($Z = 548$ m), station de collines bien exposée aux vents humides, pour la période 1985-1970, on remarque que le graphique fait figure d'une franche différence entre ces deux stations. Certes, les 72 points obtenus pour cette période prouvent que Beni Lennt est plus arrosé que Tahala, pourtant à la même altitude et dans le rapport de 1,8 à 1.

Comparons les pluies mensuelles de Tahala et celles de Taza (graphique 3) pour la période 1965-1970 on s'aperçoit que les 132 points retenus s'organisent symétriquement de part et d'autre de la droite de régression. Cette organisation fait ressortir la même origine pluviométrique pour les deux stations. Et, Taza est un peu plus arrosée que Tahala. Ceci est, peut être, lié au fait que cette dernière est moins proche d'un front orographique.

De même la confrontation des pluies mensuelles de Taza et celles de Touabâ ($Z = 190$ m), deux stations de vallée distantes de 65 Km l'une de l'autre et à des altitudes différentes, pour une période de 11 ans (1963-1973) montre que les 132 points retenus présentent une certaine homogénéité pour les faibles et moyennes quantités pluviométriques, mais pour les quantités les plus élevées, Taza prend le pas sur la station de Touabâ. Ici aussi, la proximité du front orographique peut l'expliquer.

De tout ceci on peut retenir :

- Que les contrastes pluviométriques entre le versant septentrional et le versant méridional du B.V., entre l'amont bassin et l'aval bassin, sont très prononcés.

- Que de tels contrastes, de telles discontinuités spatiales dépendent, en quelque sorte, de l'organisation orographique par rapport aux flux humides.

Par conséquent, dès que le B.V de l'Inaouène est soumis à des régimes météorologiques variés, ces discontinuités spatiales entraînent des discontinuités temporelles propres à ces régimes météorologiques et à leur rythme. Ce sont ces contrastes temporels des faits qui seront étudiés dans les paragraphes suivants.

II — LES CONTRASTES TEMPORELS

1. A L'échelle de l'année

Si l'on examine la série des totaux pluviométriques annuels relevés dans les différentes stations du B.V., on constate que ces contrastes pluviométriques sont très nets d'une année à l'autre. Les deux maximums observés, aux cours de la période retenue, se placent en 1963 et en 1969. Certes, le total pluviomé-

trique de l'année 1963 dépasse 1600 mm à B. Azhar (pendant 11 mois sauf octobre) alors qu'à Taza et à Tahala il est de 1450 et 1403 mm. Le deuxième total pluviométrique de 1969 était de 1622 mm à B. Azhar et 939 mm à Tahala. A Taza et Beni Lent, celui-ci n'a pas dépassé 1130 et 1350 mm.

A ces deux maximums pluviométriques s'opposent deux minimums qui se placent à deux années successives, 1966 et 1967 (doc. n° 5). Le premier a totalisé 406 mm à Taza. Dans les autres stations de fond de vallée et sur le plateau la quantité pluviométrique annuelle enregistrée est inférieure à 400 mm. De même, dans le secteur de B. Azhar et Bab Lamrouj le total est à peine de l'ordre de 550 mm.

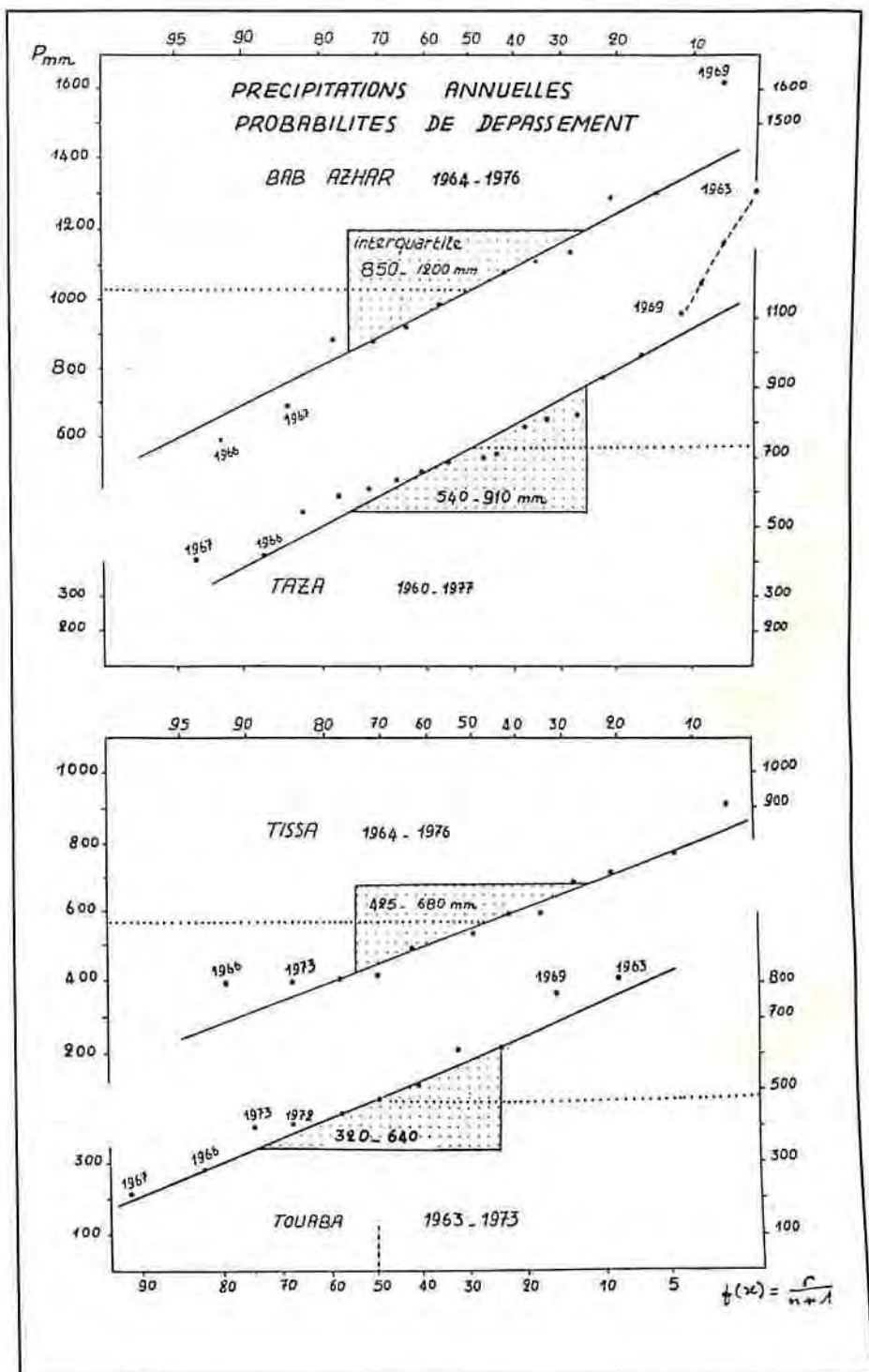
Le deuxième minimum pluviométrique se place l'année suivante 1967, avec à peine 400 mm à Taza et moins de 400 mm dans le Prérif et les autres stations de fond de vallée. Sur le secteur moyen-atlasique, à B. Azhar et à Tahala, le total pluviométrique observé se tient au dessous de 700 mm.

En effet, compte tenu des positions géographiques de l'ensemble des unités du B.V, on peut noter que ces totaux pluviométriques annuels, soit dans le Prérif, soit sur le plateau ou ailleurs, sont très irréguliers. Puisque si les totaux pluviométriques à B. Azhar se maintiennent autour de 1000 mm, en année moyenne, en année humide ils peuvent atteindre et dépasser 1500 mm. Rappelons qu'en 1969, cette station a enregistré 1600 mm en 11 mois. A Taza ceux-ci peuvent être de 700 mm en année moyenne, comme ils peuvent atteindre 1400 mm en année arrosée.

Cependant, le caractère varié, irrégulier des précipitations annuelles se trouve appuyé par le doc. n° 5. Celui-ci représente quatre graphiques figurant une corrélation, sur papier Gauss, des hauteurs pluviométriques annuelles et leurs fréquences pour quatre stations : Touabâ, Taza, Tissa (à 8 km à l'w du B.V) et enfin B. Azhar.

Ainsi, l'examen de ces graphiques nous amène à constater que les points de ces quatre séries sont organisés de la même façon suivant les axes (sauf pour les extrêmes), ce qui implique une même répartition temporelle, donc un même climat régional. Puisque si on superpose les axes sur lesquels s'alignent les points représentatifs des séries, on s'aperçoit que ceux de Taza et B. Azhar sont parallèles, alors que ceux de Touabâ et Tissa, parallèles entre eux, sont plus inclinés que les précédentes. Ce qui montre que ces derniers ont une pluviométrie toujours systématiquement inférieure à celle de Taza et B. Azhar.

Toutes ces considérations font ressortir que les totaux pluviométriques annuels ne sont que des données très générales, grossières et d'une moindre importance. Par conséquent ni ceux-ci, ni la moyenne annuelle ne permettent une bonne détermination de la réalité pluviométrique de ce B.V. Il s'avère nécessaire de se placer à l'échelle des saisons et des mois, à l'intérieur de chaque unité climatique, et d'essayer de découvrir ces variabilités réelles.



2. Variabilités inter-annuelles des pluies.

Les trois documents 6, 7 et 8 représentent des valeurs réelles des pluies mensuelles et leur fréquence à Taza (1961-1977), Bab Azhar (1964-1976) et Tissa (1965-1981) et illustrent bien cette variabilité. Leur examen appelle quatre remarques essentielles à souligner :

- Les minimums pluviométriques de Juin, Juillet, Août et Septembre s'opposent aux

- deux maximums pluviométriques, un en Novembre-Décembre et l'autre en Février-Mars séparés par

- le minimum secondaire de Janvier ou Décembre et parfois Février (doc 6, 7 et 8).

- Mai et Octobre apparaissent les mois les plus variables par rapport aux autres mois pluvieux.

- Ainsi, en Septembre, une année sur deux, ces totaux n'ont jamais franchi le seuil de 10 mm à Taza ou ailleurs. Mais le décide supérieur montre que ces totaux pluviométriques peuvent dépasser 50 mm à Bab Azhar et Tissa (doc n° 8). Par contre, à Taza, les totaux de Septembre sont toujours au-dessous de 50 mm, et six années sur dix, les pluies de ce mois sont nulles ou inférieures à 5 mm.

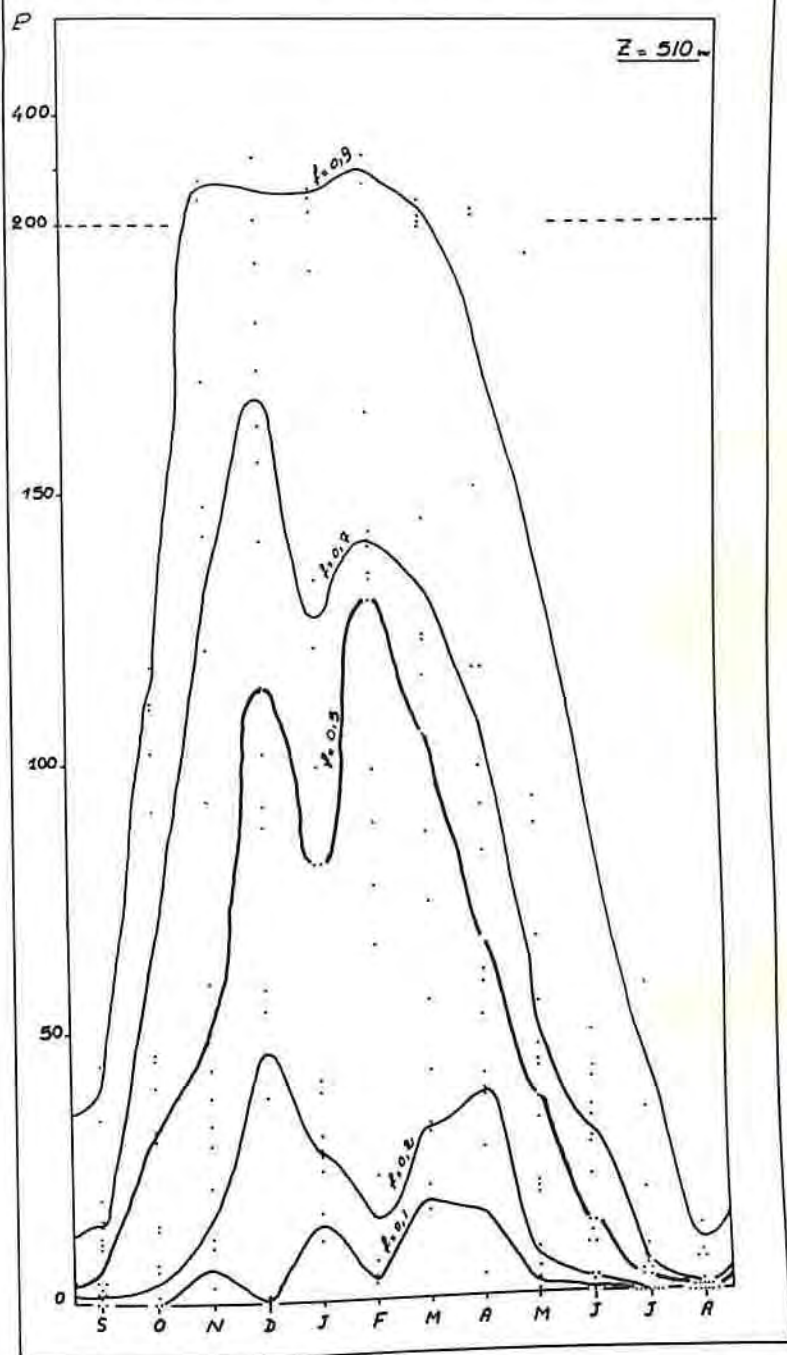
- Le mois d'octobre apparaît comme le plus arrosé que Septembre. En année médiane, les totaux pluviométriques, à Taza ou ailleurs, sont inférieures à 50 mm, 35 mm à Taza, 20 à Bab Azhar et 40 mm à Tissa. En année humide les pluies de ce mois peuvent atteindre 100 mm à Taza et même à Tissa.

- A ce mois d'Octobre succède le premier maximum pluviométrique schématisé par les mois de Novembre et Décembre. Les totaux pluviométriques se trouvent portés à des quantités plus élevées, à Taza et à B. Azhar. Les records enregistrés y dépassent 200 mm. Ceux-ci, à Tissa par contre, se tiennent au dessous de 200 mm. Mais alors, si on a recours aux courbes de fréquences on s'aperçoit que la courbe $f = 0,1$ fait apparaître que Décembre peut être sans pluies. Une année sur dix, à Taza et à Bab Azhar, le mois de Novembre est loin de l'être. Or, si on examine la même courbe de fréquence pour la station de Tissa, on remarque que ces deux mois peuvent être sans pluies (doc 8).

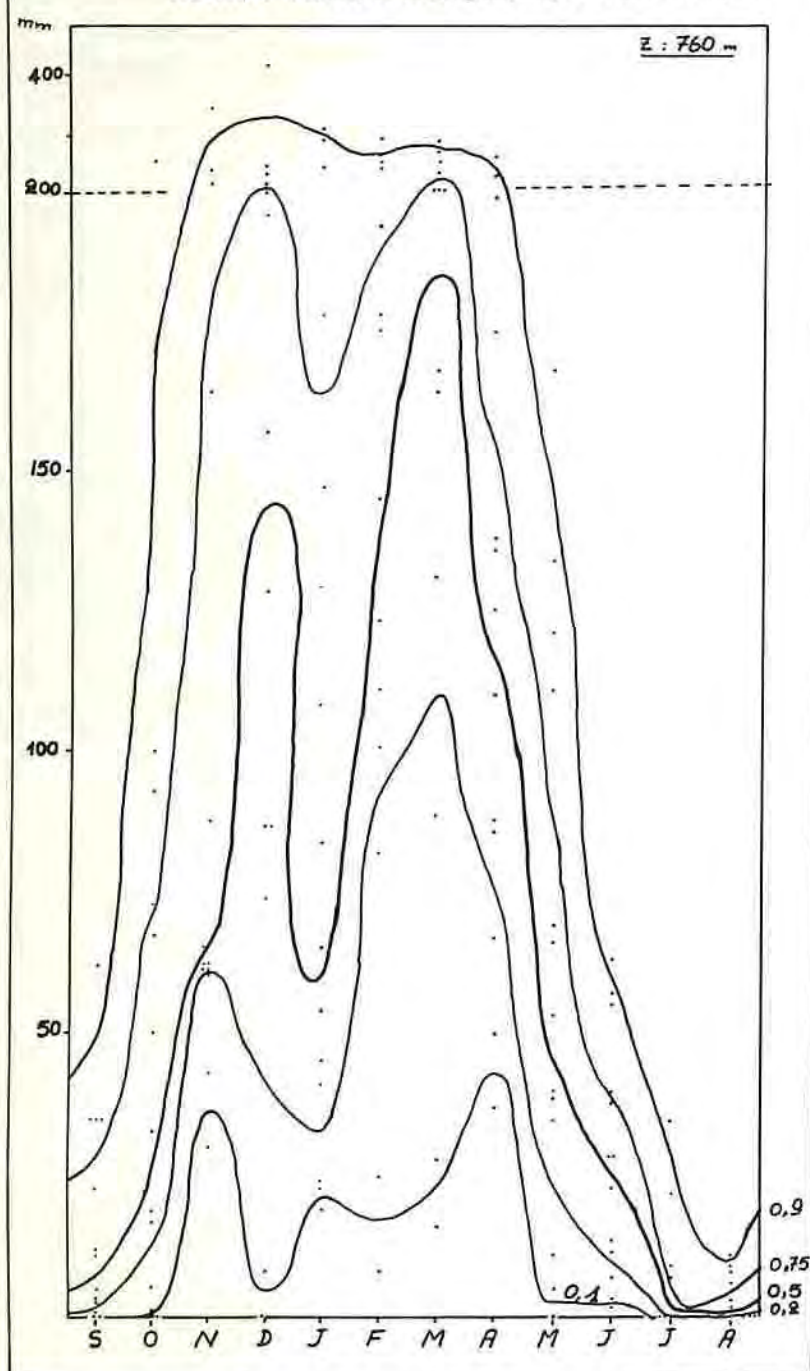
Une année sur deux, à la même station, les quantités pluviométriques de ces deux mois ne sont que de 35 à 70 mm à peine, alors qu'à Taza et à B. Azhar elles ne sont que de 40 et 115 mm et, 65 et 145 mm.

En tout cas, les risques des mois les plus arrosés peuvent avoir lieu en Novembre et en Décembre, à Taza et à B. Azhar. Car une année sur dix, Décembre peut totaliser plus de 400 mm et à peine 300 mm à B. Azhar et à Taza. En l'occurrence, pour la même courbe de fréquence les risques de pluies intenses, à Tissa, peuvent se placer aux mêmes mois que ceux de Taza et B. Azhar.

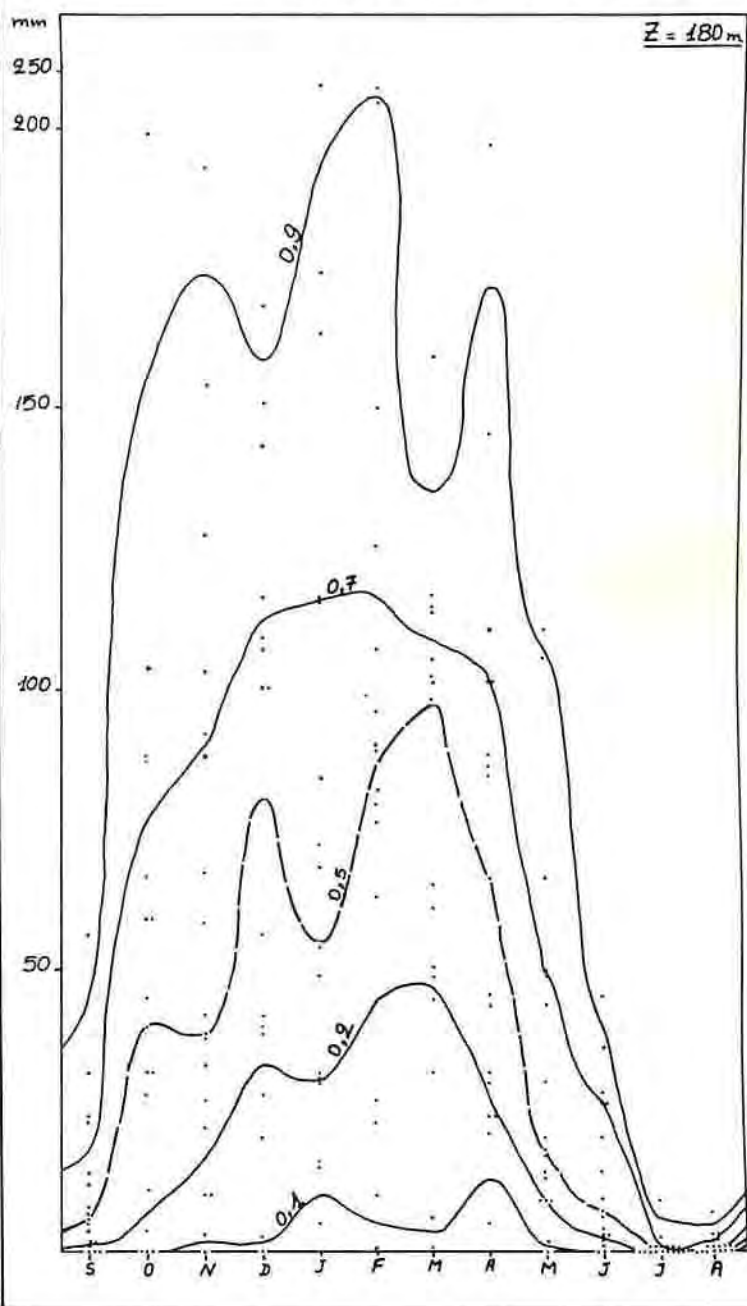
PRECIPITATIONS MENSUELLES A TAZA
FREQUENCE PROBABLE (SEPT. 1962 - AOÛT 1977)



PRECIPITATIONS MENSUELLES A BAB
AZHAR (1963-64 à 1975-76) - FREQUENCE PROBABLE



TISSA PRECIPITATIONS MENSUELLES
 (1965 - 1981)
 FREQUENCE PROBABLE



- le minimum pluviométrique secondaire de Janvier (parfois Décembre et/ou Février) s'avère très net sur les trois graphiques. Ceux-ci font apparaître qu'en année médiane, à Taza, Janvier n'atteint qu'à peine 85 mm, lorsqu'il ne dépasse que de peu 50 mm à B. Azhar et Tissa. Mais la fréquence 0,7 précise que ces lames d'eau mensuelles dépassent 120 mm et 150 mm à Taza, Tissa et à B. Azhar. Or, une année sur dix, ces stations peuvent enregistrer les maximums supérieurs à 200 mm. Et, le minimum observé oscille entre 5 et 15 mm.

- Le maximum pluviométrique menseul de Février, Mars, Avril est nettement illustré par la médiane. Celle-ci fait apparaître quelques différences entre les trois stations (Cf. doc 6, 7 et 8).

— Le maximum pluviométrique, à Taza, correspond fréquemment à Février avec presque 135 mm.

— A Bab Azhar et Tissa, ce mois ne constitue qu'un deuxième maximum pluviométrique. En effet, ce maximum se place au mois de Mars avec plus de 180 mm et 96 mm à B. Azhar et Tissa. Ce mois de Mars, à Taza, ne totalise que 105 mm. En fait, les risques des mois intensément pluvieux se placent en Février-Mars pour les trois stations. Ces deux mois peuvent apparaître, une année sur dix, moins arrosés dans les trois stations. Mais alors, neuf années sur dix, les totaux pluviométriques de ces deux mois dépassent les 200 mm.

Maintenant, l'examen des trois graphiques montre que le décile inférieur (0,1) et le décile supérieur (0,9) dégage toutes les variations pluviométriques d'un mois à l'autre. Ce qui montre que celles-ci, à Bab Azhar, peuvent aller du simple au quadruple. Certes le rapport $P_{0,9}/P_{0,1}$ à B. Azhar pour le mois de Février est de 30 alors qu'il est de 60 à 40, à Taza et Tissa.

- Le mois de Mai en année médiocre a tendance à être du même ordre de grandeur que le mois d'Octobre au niveau des totaux pluviométriques à Taza. Par contre, à Tissa et à B. Azhar, le mois de Mai apparaît moins arrosé, dans la première, que le mois d'octobre, alors qu'à B. Azhar c'est octobre qui est le moins arrosé que Mai. En l'occurrence, si le mois de Mai présente une certaine similitude pluviométrique avec octobre, en année médiane, il faut voir que dans dix pour cent des cas Mai peut être sec dans les trois stations. Octobre s'affiche, comme Septembre, sec au moins dans deux cas sur dix. En année plus arrosée, les totaux pluviométriques de Mai peuvent dépasser 150 mm à B. Azhar, comme ils peuvent être inférieurs à 100 mm dans les deux stations.

- Juin, Juillet et Août paraissent pluviométriquement déficitaires. La courbe de fréquence 0,9 dans les trois stations, confirme que les totaux pluviométriques de ces mois tiennent entre 65 mm et 10 mm à B. Azhar, 55 et 10 mm à Taza et entre 45 et 8 mm à Tissa. Certes, sur les 13 années et 17 années de mesures à B. Azhar et Taza-Tissa, on remarque que c'est Juin qui enregistre plus de 50 mm en année arrosée. Quant à juillet, le total pluviométrique maximum peut être de 40 mm à B. Azhar et plus de 60 à Taza, mais moins de 10 mm à Tissa. Par ailleurs, les quantités du mois d'Août se trouvent pla-

cées un peu au dessus de 10 mm dans les deux stations. Au contraire, à Tissa, ces totaux maximums sont toujours au dessous de 10 mm.

Remarquons que, à tout moment, Tissa est très différentes, très inférieure pluviométriquement par rapport aux deux autres stations. Une année sur dix, Juillet et Août à Tissa sont déficitaires. A Taza et à Bab Azhar, c'est Août qui apparaît vraiment déficitaire, alors que Juillet ne l'est que deux années sur cinq. De même Juin peut être sec à Tissa et à Taza, au moins une année sur dix.

Connaissant le rythme mensuel, irrégulier, des pluies, le caractère relativement excédentaire ou déficitaires des mois de l'année, il est temps de se placer à l'échelle de la saison en passant sur les enseignements contenus dans les diagrammes ombrothermiques pour se faire une idée sur les régimes pluviométriques et thermiques du B.V.

3. Variabilités mensuelles des pluies : les diagrammes ombrothermiques et leur enseignement

Cette expression graphique (doc 9), obtenue à partir d'une confrontation des précipitations mensuelles et des températures moyennes correspondantes, dans le rapport $P = 4t^\circ$, nous fournies une image synchronique des régimes pluviométriques et thermiques du B.V. Toutefois, d'une année à l'autre, le rythme varié des saisons et des mois illustre les caractéristiques principales d'un climat méditerranéen.

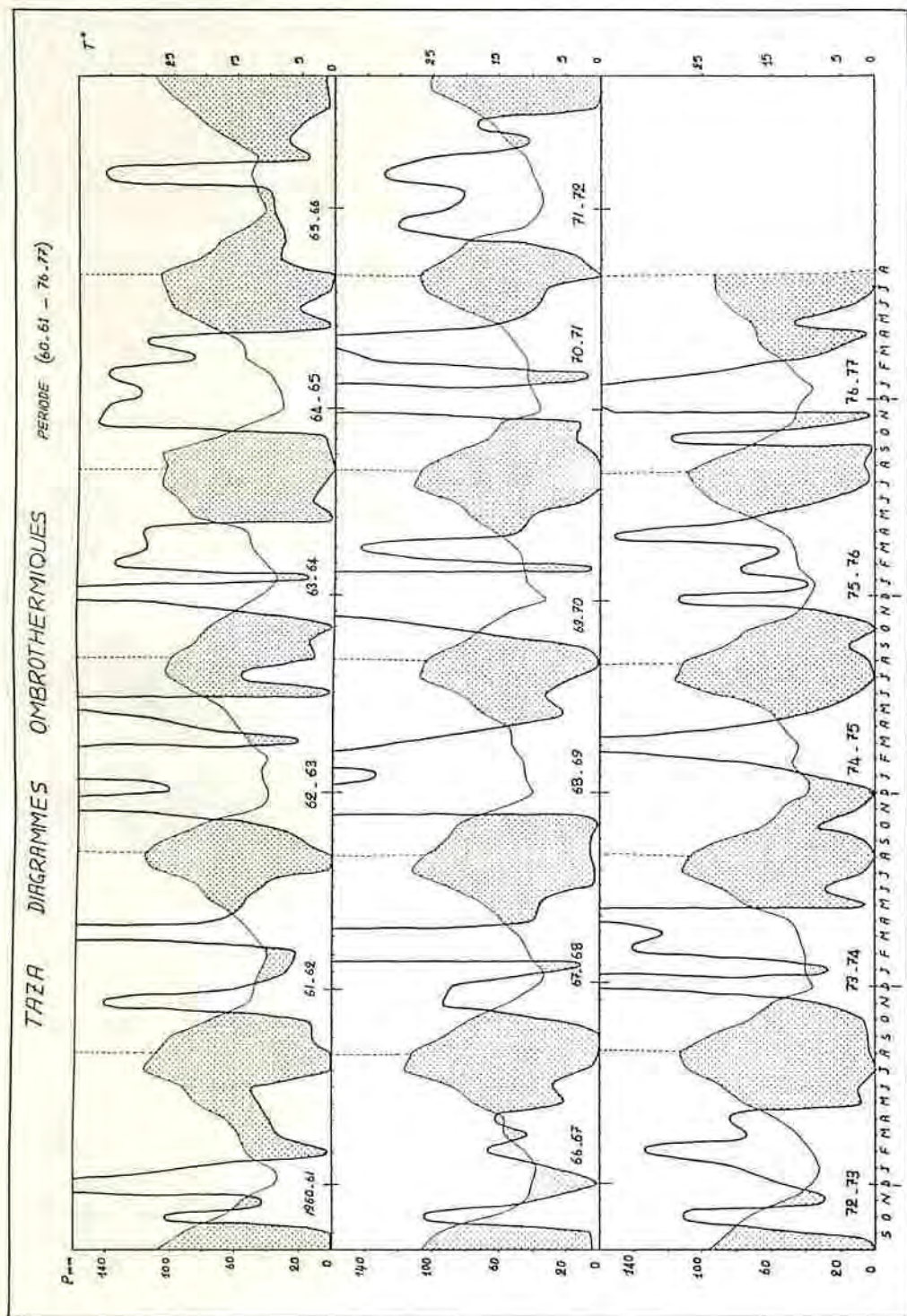
Et, à travers cette succession de saison on a classé les années en fonction non seulement des totaux pluviométriques mais aussi du rythme des saisons. Dès le premier abord on a recensé :

— les années avec certains hivers considérablement arrosés, ayant totalisé plus de 100 mm pendant deux mois au moins, et un minimum pluviométrique d'hiver moins prononcé telles les années 1963 - 1964 - 1969 - 1970 - 1971 - 1972.

les débuts de saisons froides avec de courtes épisodes pluvieux et un mois seulement, supérieur à 100 mm, s'individualisent dans les années : 1961 - 1962 - 1967 - 1973 - 1974 - 1975 - 1976 et 1977. Les quelques hivers et printemps moins arrosés sont représentés par les années 1966 et 1967.

Les longues épisodes pluvieux de fin de saisons pluvieuses sont caractéristiques des années 1963, 1964, 1965, 1968, 1969, 1970, 1971, 1972, 1974 et 1977. Certes, les records pluviométriques appartiennent fréquemment aux mois de Novembre-Décembre et Février-Mars. Par contre, Janvier représente, le plus souvent, le minimum pluviométrique secondaire d'hiver, affectant toutes les années de mesures.

En ce qui concerne la secheresse estivale ($P = 4t^\circ$), le fait le plus frappant est qu'aucune année ne l'ignore et aucune année n'a connu une saison sèche inférieure à 4 mois. Les saisons sèches les plus accusées (à 7 mois) caractéri-



sent les années 1961, 1965, 1966, 1967, 1968, 1970, 1973, 1974, 1975 et 1977 (cf. doc 9) soit dix années sur dix sept, à Taza.

N'importe comment, une telle fréquence de la Secheresse estivale est donc une originalité climatique caractérisant le B.V de l'Inaouène en particulier et tous les B.V de la région du centre nord, en général.

Mais, il ne faut pas oublier que si la saison et le mois ont permis une certaine compréhension de la variation inter et intra-annuelle des pluies, il faut savoir que le mois, à l'intérieur de la saison, est une unité comptable, trop longue et hétérogène dans son contenu pour élucider la réalité pluviométrique de ce B.V. Donc, il faut se placer à l'échelle de l'épisode et du jour, unités météorologiques variables dans le temps mais commodes pour cerner les phénomènes météorologiques réels.

4. Précipitations quotidiennes et épisodes pluvieux

Pour cette étude des pluies quotidiennes et épisodes pluvieux on ne dispose que de deux stations ayant en commun une période de 14 ans de mesures (Septembre 1962 - Août 1976) : Taza et Bab Azhar.

a) Les pluies quotidiennes

Si on compare les pluies quotidiennes dans les deux stations on s'aperçoit que sur les 1264 jours de pluies à Taza et 1009 jours à Bab Azhar on relève respectivement 630 jours et 233 jours pour les seuils inférieurs ou égaux à 4 mm. Ces chiffres ne représentent que le 1/4 des jours pluvieux à Bab Azhar alors qu'ils représentent la moitié de ces jours de pluies à Taza.

Au contraire, pour les jours de pluies supérieurs à 10 mm, le traitement statistiques des données pluviométriques fournit la répartition suivante.

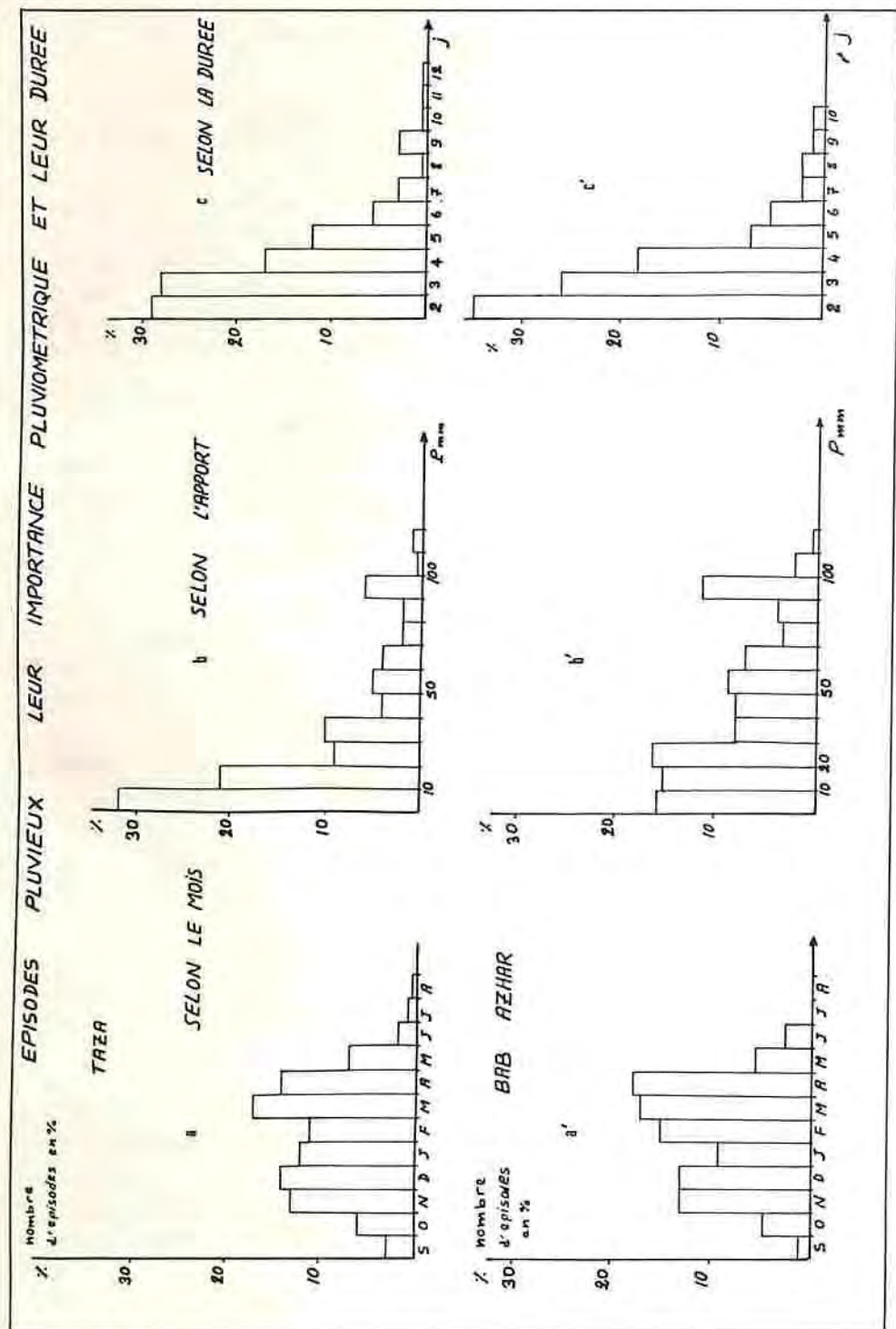
A Bab Azhar et à Taza

≥ 10 mm	243 jours	134 jours
≥ 20 mm	121 jours	76 jours
≥ 30 mm	87 jours	36 jours
≥ 40 mm	63 jours	37 jours

Faisant appel aux hyétogrammes de quelques stations, pour les années 1968, 1969 et 1970, les enseignements qui en sont recueillies font ressortir six points essentiels à souligner.

- D'abord, la répartition irrégulière des pluies quotidiennes, à l'intérieur de l'année et des mois, fait apparaître le caractère irrégulier des types de temps qui se manifestent dans le B.V.

- Les lames d'eau quotidiennes survenant dans le B.V se voient concentrées sous formes d'averses hivernales et printanières, représentant 75 % des totaux pluviométriques annuels.



- La fréquence de faibles pluies survenant pendant le mois d'Octobre, Avril et Mai.

- La rareté des pluies orageuses de septembre sur le secteur pré-rifain et leur absence sur le côté moyen atlasique.

- La localisation privilégiée de fortes pluies quotidiennes tant à had M'sila et Beni Lennt qu'à Bab Lamrouj dans le Prérif.

- Du côté moyen-atlasique ces pluies sont plus importantes à Bab Azhar et à Bab Bou Idir (1458m) que sur le plateau et la vallée principale. Pour cette dernière, les pluies les plus intéressantes sont collectées par la station de Taza.

En fait, au delà du mois (unité chromologique longue) et du jour (unité chronologique courte), c'est l'organisation de ces pluies en épisodes pluvieux qui peut permettre une certaine compréhension de la structure interne des pluies, à l'intérieur du mois.

b) Les épisodes pluvieux

Signalons que par épisode pluvieux on entend une période de deux jours de pluies au moins ayant totalisé une lame d'eau précipitée de 10 mm au minimum.

Les histogrammes du document 10 représentent l'importance des épisodes pluvieux à Taza (1961-1976) et à Bab Azhar (1962-1976). Les 211 et 148 épisodes recensés, exprimés en pourcentage, sont étudiés ici à l'échelle du mois, selon la lame d'eau précipitée au cours de ces épisodes et enfin selon leur durée exprimée en jour.

Ainsi l'histogramme n° 10a permet de constater que les épisodes pluvieux sont fréquents au cours de l'hiver et du printemps. Les 3 %, 2,1 et 0,5 % correspondent, sur l'histogramme, aux faibles nombres d'épisodes enregistrées au cours de Juin, Juillet et Août.

A Bab Azhar, l'histogramme (selon le mois) précise que le minimum d'épisodes pluvieux enregistrés peut survenir en septembre et Juin (avec deux épisodes chacun). Au contraire, le nombre le plus important se place au mois de Février, Mars et Avril. Mais, à Taza, le nombre le plus élevé d'épisodes pluvieux est observé au mois de Mars.

Les deux mois d'Octobre et Mai, au niveau des deux stations, ne connaissent que des pourcentages assez faible par rapport aux autres mois du Printemps et d'Hiver. Le minimum pluviométrique secondaire de Janvier et/ou Février à Taza et Février à B. Azhar se trouve bien dessiné entre les deux saisons arrosées. Les mois se présentent donc, avec 24 et 23 épisodes pluvieux à Taza et 18 seulement pour Janvier, à Bab Azhar.

Si on examine, maintenant, les deux histogrammes selon l'apport (doc 10b), on peut remarquer que les records pluviométriques enregistrés dans le B.V.

intéressent, surtout, le flanc moyen atlasique. Les 6 % des épisodes pluvieux qui ont reçu plus de 100 mm sont enregistrés à B. Azhar. Cette dernière station avait connu, en Décembre 1963, deux épisodes pluvieux de 8 jours chacun totalisant 114 et 308 mm.

Bien plus sur les 184 épisodes pluvieux on retient quatre épisodes pluvieux qui ont totalisé plus de 150 mm chacun, 21 ont reçu entre 100 et 150 mm, 57 entre 50 et 100 mm, 102 épisodes ont enregistré entre 10 et 50 mm.

Si on fait appel au troisième graphique (10c) on s'aperçoit que le nombre d'épisodes, exprimé en pourcentage, est corrélié, cette fois-ci, avec la durée de ces épisodes en jours. Schématiquement, ces deux histogrammes incitent à constater une analogie certaine, au niveau de la durée de ces épisodes pluvieux dans les deux stations.

Bien sûr, la fréquence des épisodes pluvieux très courts (de 2 et 3 jours) s'oppose à la rareté des épisodes de longue durée. En effet, ce sont ces derniers qui risquent d'engendrer les fortes montées de crues dans l'Inaouène, au cours de l'Hiver et du Printemps. Bien au contraire, les épisodes à courte durée et moins pluvieux caractérisent les mois d'Octobre, Janvier, Février, Mai et Juin.

Il est vrai que ces contrastes régionaux du climat, ces irrégularités pluviométriques d'ensemble, alliés à l'hétérogénéité géographiques du B.V, sont à l'origine de toute tendance de saisir en quoi la répartition temporo-spatiale des aléas météorologiques est inégale de part et d'autre de la vallée de l'Inaouène d'une part et de l'aval vers l'amont d'autre part, donc de comprendre l'histoire météorologique régissant la structure climatique de cette région.

Références bibliographiques

- DELANNOY. H et LECOMPTE. M (1975) : Utilisation de l'analyse factorielle des correspondances pour l'étude des précipitations quotidiennes : Un exemple au Maroc. Méditerranée n° 4
- LECOMPTE. M (1984) : Relation-Climat-Végétation dans le Moyen-Atlas Marocain (essai le bioclimatologie) Thèse d'état-Montpellier. 167 pages.
- VIERS. G (1968) : Eléments de climatologie. Ed. F. Nathan - 224 pages.

QUELQUES REFLEXIONS SUR L'EVOLUTION MORPHOLOGIQUE DU HAUT ATLAS DE RICH (Haut Atlas Oriental)

LAAOUANE Mohamed

INTRODUCTION :

Le Haut Atlas de Rich constitue la partie Sud-Est de la zone axiale du Haut Atlas oriental (fig.1). IL s'agit d'une zone de transition entre les diverses unités structurales qui constituent le Haut Atlas oriental ; le Nord où dominent les grands massifs (Ayachi - Maoutfoud) et où le relief est plus vigoureux avec des altitudes dépassant plus de 3000 m, l'Ouest où le relief est massif, l'Est plus aéré avec de larges dépressions et des altitudes très modérées, enfin le Sud, la zone subtabulaire avec laquelle le contact est brutal.

Au niveau structural, le Haut Atlas oriental n'offre pas une grande diversité. Il s'agit d'une alternance d'anticlinaux et de synclinaux avec quelques anomalies qui ne remettent pas en cause cette organisation. Le relief n'est pas très massif et les altitudes varient entre 1200 - 1500 m au fond des dépressions et 1900 - 2600 m sur les crêtes. Le style structural de ce secteur est jurassien.

La morphostructure de la région est liée essentiellement au type de matériel rocheux et au genre de mouvements tectoniques qui l'ont affecté. Aussi les rides ou les plis sont construits dans des roches résistantes, des dolomies noires ou des calcaires massifs constituent leur cœur. Elles dominent des dépressions aisément façonnées dans les marnes et les marno-calcaires (fig.2). L'érosion différentielle a joué un rôle très important dans la sculpture de ses dépressions, offrant un relief en monts dérivés.

Ce dispositif structural a connu une évolution morphologique qui s'est déroulée en deux grandes périodes : la première antéquatérnaire et la seconde quaternaire.

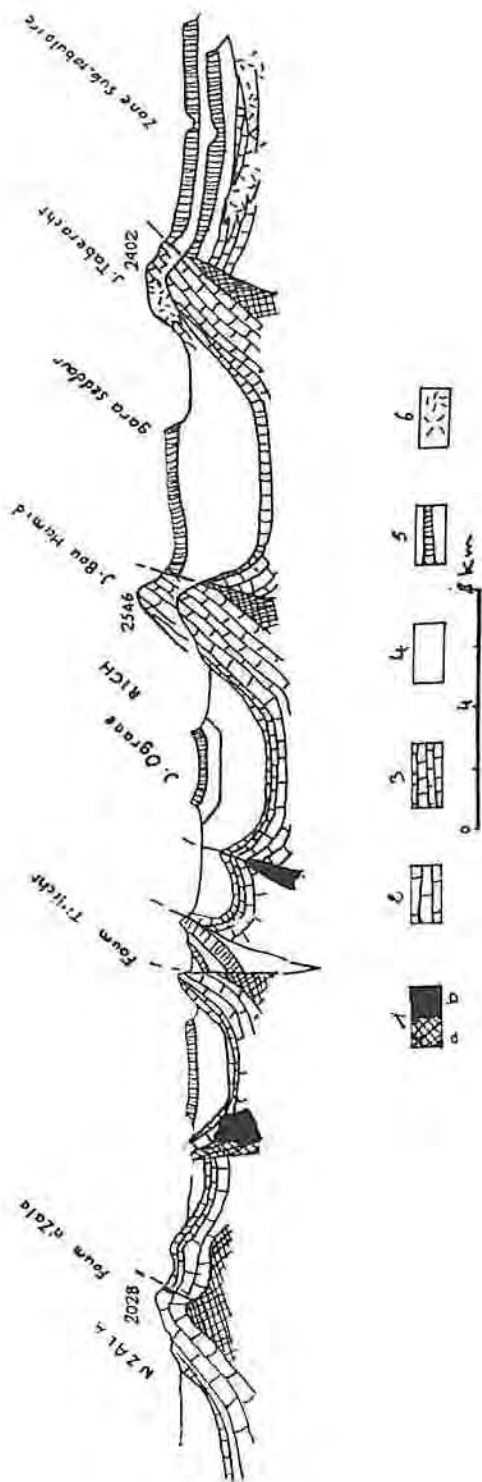


Fig n° 2 : Coupe N.S du Haut Atlas oriental
 1a/ Trias primaire, 1b/ roches eruptives intrusives 2/ Lias inferieur, 3/ Lias moyen, 4/ marne Lias
 moyen Dogger 5/ corniche calcaire du Dogger 6/ Lias recfal.

I — LA PERIODE ANTEQUATERNAIRE :

L'édification du Haut Atlas de Rich et le creusement des dépressions.

1. la mise en place des volumes montagneux.

Le Haut Atlas de Rich est une subdivision du Haut Atlas oriental. Par conséquent, son évolution est parallèle à l'évolution morphologique de l'ensemble du Haut Atlas oriental.

Ce dernier correspond à ce qui a été qualifié de fosse atlasique (Dubar 1943). Cette fosse avait fonctionné depuis le Sinémurien jusqu'au Bathonien supérieur. Tout au long de cette phase, les mouvements orogéniques qui ont donné naissance aux premières ébauches atlasiques se sont déroulés en deux temps :

— La période, entre le Lias et le Dogger est marquée par des mouvements synsédimentaires, qui ont mobilisé le fond de la fosse et ont engendré quelques plissements vrais, probablement à l'Aalénien (Dubar 1938). Ils portèrent les Hauts fonds assez près de la surface de la mer. Dans certains cas, les hauts fonds émergèrent et furent soumis à l'érosion (1).

— La deuxième période se situe au Jurassique supérieur. Elle est marquée par une transgression généralisée qui a envahi même les rides précédemment émergées. Mais de nouveaux mouvements ne tardèrent pas à ce produire, pour aboutir à l'émersion complète de l'Atlas oriental à la fin du Bathonien.

En fait, c'est tout au long du Tertiaire que la morphologie structurale actuelle de notre domaine s'est élaborée, suite à une série de mouvements orogéniques, dont l'intensité et l'ampleur ont conduit au soulèvement général, survenu à la fin de l'Eocène (phase pyrénéo-provençale - A. Michard 1976) aux dépens de la fosse atlasique.

Durant tout le Miocène, le Haut Atlas oriental a été l'objet d'une tectonique cassante (phase alpine. Choubert 1935) illustrée par un grand nombre de pli-faillés et de plis chevauchants. Cette période a connu aussi le creusement des premières vallées antécédentes (F. Joly 1962).

Du Miocène jusqu'à la fin du Pliocène voire jusqu'au Villafranchien l'action érosive suivie d'un remblaiement localisé l'emporte sur les rejeux tectoniques, dont l'action s'est soldée par quelques déformations anticlinales.

Donc le début du creusement des dépressions a accompagné le creusement des vallées antécédentes vers la fin de l'Oligocène et le début du Miocène. Mais l'étape la plus intéressante, pour l'édification des dépressions actuelles du Haut

1) Quelques rides, hors de notre secteur, portent des traces de cette érosion, qui se manifestent par des lacunes stratigraphiques.

Atlas de Rich, remonte à la période qui s'échelonne depuis la fin du Miocène jusqu'au Plio-Villafranchien, période pour laquelle l'érosion est plus active et où les mouvements tectoniques sont relativement modérés.

2. Le remodelage de la fin du Tertiaire.

Les dépressions du Haut Atlas de Rich, comme d'ailleurs toutes les dépressions environnantes, sont taillées dans les sédiments jurassiques (marnes et marno-calcaires) qui colmataient les synclinaux édifiés pendant les premières mouvements orogéniques après la transgression survenue au jurassique supérieur. Cette érosion différentielle, facilitée par la nature peu résistante du matériel rocheux, a abouti à une inversion de relief dont attestent un certain nombre de synclinaux perchés (Gara Seddou Tazigzaout, Assameur n'Aït Fergane).

Ces formes de relief qui dominent actuellement le fond des dépressions à des attitudes de même ordre (1500-1600m) peuvent représenter les témoins d'une surface d'érosion intermédiaire entre la surface des anticlinaux et celle des dépressions (M. LAAOUANE 1984). Si la période exacte de son élaboration ne peut être précisée, une chose est certaine ; elle est postbathonienne, puisque la dernière formation sédimentaire qui subsiste en lambeau sur Tazagzaout est d'âge bathonien.

Entre cette surface est le fond des dépressions couvert par les formations quaternaires, une période d'érosion active s'est déroulée sans laisser malheureusement aucun dépôt ou remblaiement qui puisse nous indiquer les conditions et les processus morphologiques du creusement des dépressions (1).

II — L'EVOLUTION QUATERNAIRE : **SIX Principales Phases**

1. La phase de remblaiement par les nappes culminantes.

Après l'achèvement du creusement des dépressions, une phase de remblaiement de grande envergure s'est développée. Elle a conduit à un premier colmatage des dépressions dont il ne subsiste actuellement que des résidus d'une ancienne terrasse : Koudiat Serdrar.

Altimétriquement, ces résidus occupent une place intermédiaire entre la surface d'érosion des synclinaux perchés (1500-1600m) et le fond des dépressions (1250 à 1300m). La rareté et l'état de délabrement de ces remblaiements pose le problème de leur reconstitution paléomorphologique, voire paléoclimatique.

Cependant quelques indices nous poussent à croire que les Koudiats Serdar ont été édifiées dans une période à climat relativement humide avec des

1) Tout le matériel enlevé de cette région se trouve actuellement fort loin de son origine, au Sud de l'accident Sud-Atlasique.

précipitations suffisantes pour engendrer les crues puissantes à fortes compétence de transport ; ce qui explique sans doute l'importance de l'épaisseur de la nappe alluviale (plus de 15m). L'indice d'émoussé des galets de Koudiat Serdrar est élevé-mais assez hétérogène pour un même lot (1) - par rapport à celui des galets de toutes les formations postérieures, même lorsque celles-ci sont situées beaucoup plus loin à l'aval. Cet indice d'émoussé implique donc un transport énergétique. L'allure hyperbolique des courbes cumulatives des sables qui illustre un modeste triage du dépôt traduit un régime d'écoulement à tendance irrégulière qui pourrait être de type fluvio-nival, comme l'ont par ailleurs suggéré R. Raynal (1961). F. Joly (1962) et G. Gouverneur.

Si les conditions de la mise en place des Koudiat Serdrar peuvent être partiellement explicitées, l'âge de la formation en revanche, reste un point obscur du fait de l'inexistence de dépôts corrélatifs similaires dans notre région, ainsi que l'absence de dépôts correspondant à la phase morphologique antérieure, qui interdit tout "Calage" chronologique. Les données sédimentologiques ont montré que le cortège des minéraux argileux accompagnant la formation est identique à celui de toutes les formations du Haut Atlas de Rich (M. LAAOUANE 1984), voire même dans d'autres régions avoisinantes notamment la dépression de Gourrama (A. Aït Hassaïne 1983).

La datation de nos niveau n'a pu s'effectuer que d'une manière très relative, par analogie avec les résultats des études menées par d'autres chercheurs à travers les régions avoisinantes, notamment F. Joly (1962) G. Gouverneur (1975) A. Aït Hassaïne (1983).

Ils ont signalé l'existence de formations présentant des points communs avec notre formation, notamment leur éloignement des drains principaux, la grande puissance de leur nappe alluviale. Le matériel grossier est caractérisé, la plupart du temps, par un calibre important avec un façonnement accusé.

Les formations ont été attribuées au Villafranchien récent qui correspond au "premier pluvial" quaternaire, notre formation des Koudiat Serdrar peut être attribuée, par analogie au même niveau stratigraphique connu dans la nomenclature du quaternaire continental marocain comme le "Mouloyen".

2. Les niveaux saletiens = phase de remblaiement par les plus Hauts épandages.

A l'édification des Koudiat Serdrar succède une période de déblaiement important puisque, comme on l'a signalé antérieurement, les seuls témoins de la phase précédente sont précisément les Koudiat Serdrar.

Dans notre secteur, nous attribuons à cette deuxième phase du quaternaire des restes d'anciens glaciaires, concentrés ; essentiellement dans le synclinal de Bled Seddour le glaciaire de Bou Hamid à l'Est de Tizi l'Jir, le glaciaire en lanières du

1) voir tableau situé à la fin du texte.

front Est de la Gara Seddour et enfin le grand glacis démantelé de Bled Seddour (fig 3); sans oublier les restes d'anciens éboulis consolidés perchés à la base de la paroi rocheuse du versant sud de Bou Hamid.

Toutes ces formes ont été soumises à une érosion agressive qui les a réduites à des lanières à des buttes - témoins sur les versants, à l'exception du grand glacis démantelé de Bled Seddour au centre de la dépression partiellement conservée grâce à sa position d'abri.

Cette génération domine les niveaux plus récents par des talus d'étagement de 5 à 15 m de commandement. Ces formations renferment un matériel caractérisé essentiellement par :

- un matériel grossier hétérométrique (5 à 35 cm) avec quelques gros blocs énormes (2m³) localisés surtout à l'amont.
- une structure du dépôt essentiellement anarchique.
- une consolidation généralisée du dépôt avec un encroûtement sommital d'autant plus marqué que la pente est faible et pouvant, par endroits, envahir toute la formation.

Ces traits permettent une première interprétation des conditions paléoclimatiques qui ont présidé à l'élaboration de ces formations.

Le calibre accusé du matériel grossier (5 à 45cm) dans toutes ses formations implique qu'une destruction efficace des roches s'est révélée capable à un moment donné, de préparer une masse importante de débris volumineux; elle est donc le témoin d'une agressivité marquée de l'érosion entraînant pour les reliefs une perte considérable de substance. De tels résultats nécessitent semble-t-il, des processus mécaniques liés à de sévères contrastes d'humidité et de température, probablement exaspérés par le froid. Ce système d'attaque du matériel rocheux s'est trouvé complété par un mode de transport puissant et compétent susceptible de mouvoir une charge importante et de l'étaler sur de longues distances comme pour le glacis de Bled Seddour. Ce type de transport apparaît d'ailleurs nettement dans la courbe cumulative des sables. L'existence de résidus d'anciens éboulis perchés à une altitude supérieure à 1600 m, qui sont contemporains de nos glacis, d'une part, l'aspect très anguleux de la majorité du matériel grossier d'autre part suggèrent en outre des conditions climatiques caractérisées par des températures très rigoureuses. L'absence de terrasse dans cette génération de dépôts ne permet pas de se faire une idée du type d'écoulement sur les grands artères et handicape sérieusement notre analyse. Cependant F. Joly (1962) dans son étude sur le relief du Sud-Est marocain, avance l'hypothèse d'un transport par des cours d'eau à régime pluvio-nival lié à une pulsation climatique humide tempérée, avec un froid accusé en montagne, n'impliquant cependant pas de phénomènes glaciaires.

Cette pulsation climatique humide tempérée peut dans le quaternaire du Sud-Est marocain en général, être désignée sous le nom de deuxième pluvial qui correspond dans la nomenclature du quaternaire continental marocain au "Salétien".

3. Les vestiges amiriens ou la phase de remblaiement par les hauts épandages.

Sur certains versants, notamment le versant Est de la Gara Seddour un niveau intermédiaire s'intercale entre le Saliétien et le niveau des formations moyennes. Topographiquement ces témoins sont discontinus et se présentent en lanières et en résidus. Ces témoins se localisent un peu partout au pied des versants parfois au centre des dépressions : cône ancien d'Assameur n'Oudadène, cône de Tizi n'Firest. Ces résidus de cônes se situent à peu près à la même altitude entre 1350 et 1550 et dominent les niveaux plus récents par des talus de 3 à 6 m. Aux cônes s'ajoutent d'autres types de formes héritées de cette phase à savoir les restes d'anciens glacis d'Assameur n'Oudadène de Bou Hamid, de Tizi n'Firest, du front Est de la Gara Seddour et enfin à l'extrémité Est d'Isk n'Arbia. A cela s'ajoute la haute terrasse d'Assif Anou-Bou-ourguert.

Ces glacis se tiennent entre 1300 et 1600 m, ils se confondent souvent avec les formations du Saliétien ou celles du quaternaire moyen, à cause de la modestie des dénivellations entre les niveaux d'une part, et la similitude apparente du matériel qui constitue la couverture de ces niveaux d'autre part. La couverture alluviale est généralement faible, de 1 à 5 m au maximum. Elle est formée d'un matériel grossier anguleux à grand calibre, mais inférieur à celui des glacis salétiens. La rubéfaction du matériel est irrégulière, elle est légèrement accusée lorsque ces témoins s'inscrivent entre les formations plus anciennes comme c'est le cas sur le front Est de la Gara Seddour. Toutes les couvertures alluviales sont consolidées et parfois encroûtées.

Ce niveau témoigne, comme le précédent, d'une reprise d'érosion suivie d'un remblaiement de faible envergure par rapport à celui qui s'est produit au Saliétien. Les caractéristiques de la couverture alluviale et la faible inscription dans les niveaux antérieures témoignent d'une prédominance de l'action latérale de l'érosion sur le creusement vertical et suggèrent le démantèlement et le remaniement des formations salétiennes.

Cette reprise de l'érosion a dû correspondre à une pulsation climatique; car on ne possède pas de preuve d'une reprise de soulèvement tectonique puisque les derniers mouvements datent du Villafranchien ancien. Cette pulsation climatique représente l'Amirien dans cette région.

4. Le Tensiftien = La phase des grands épandages moyens.

La phase principale de la morphologie quaternaire du Haut Atlas de Rich est celle des épandages moyens. En effet, c'est elle qui donne à la topographie ses caractéristiques essentielles. Les anciens épandages ne subsistent, au-dessus des niveaux moyens, qu'à l'état de témoins isolés et les dépôts plus récents ne prennent qu'une place de seconde ordre dans la morphologie de notre secteur.

Un caractère rapproche ce niveau moyen des niveaux plus anciens : les formations sont taillées dans la roche en place et les dépôts reposent directement sur elle (Fig 3). Par contre, il se distingue des générations plus anciennes par ses formes bien diversifiées et bien conservées.



Fig n° 3 : L'étagement des glacis sur le front est de la Gara Seddour

1/ Corniche en calcaires récifaux du Jurassique, 2/ Haut glacis ancien, 3/ glacis ancien, 4/ dépôt de pente moyen, 5/ glacis moyen, 6/ terrasse limoneuse, 7/ substratum marneux à niveaux calcaires.

— La morphologie la plus répandue de cette phase est une morphologie d'érosion latérale (glacis). Ces formes sont développées à la base de tous les versants quelle que soit leur ampleur : glacis moyens de l'Assament n'Oudaden, de part et d'autre de Bou-Hamid, de J. Idirht-Amalon Tasselaht du J. Tizi n'Firest-Izougouarh, d'Assameur n'aït Fergane, de Bou Kenndil etc...

Les glacis dont l'altitude est inférieure à 1600 m, offrent des plans continus avec des pentes modérées. Ils sont généralement peu ravinés et se raccordent directement aux versants.

— Quoique moins étendus, les cônes occupent de vastes superficies. Il s'agit en général de cônes de versants développés à l'aval des principaux ravins dont l'impluvium n'excède pas la crête du versant. Leur couverture est généralement faible, elle dépasse rarement 4 m.

— S'ajoutent à ces deux types de formes, les terrasses moyennes de l'oued Tillicht, de l'Oued Ziz, la terrasse moyenne de l'Oued Seddour, et enfin les formations de pente dont les plus caractéristiques sont les tablies d'éboulis qui s'étalent à la base des corniches rocheuses de la Gara-Seddour, du versant Sud de Bou Hamid, du J. Assament n'aït Fergane, Tazagzaout et enfin du J. Bou Kenndil.

Pour la quatrième fois, dans la séquence de remblaiement quaternaire de la région, ce niveau témoigne d'une reprise d'érosion suivie de remblaiement. Le creusement a partout atteint la roche en place à un niveau altimétrique inférieur à celui de l'Amirien. Le remblaiement est grossier, conglomératique terminé par un encroûtement à peu près généralisé.

L'origine de cet épisode ne peut être attribuée à une déformation tectonique, puisque les seules manifestations de ce genre sont localisées sur l'accident Sud-Atlasique (J. Margat 1953). On est donc amené à rattacher cette phase à une nouvelle pulsation climatique humide que l'on peut désigner par le "quatrième pluvial".

On constate en effet une reprise de l'attaque physico-chimique des versants. Sous l'action du gel et du dégel, une charge importante de calibre grossier, enrobée dans du matériel fin a été offerte au ruissellement. Ce matériel apparaît sous forme de séquences souvent bien développées dans les couvertures alluviales. Cette charge importante a sans doute, contribué à la détermination du type découlement, qui ne peut être qu'un écoulement plus ou moins diffus qui a privilégié l'érosion latérale au détriment du creusement vertical, d'où l'élaboration du modèle généralisé en glacis.

De l'étude effectuée sur les différentes formations moyennes (M. LAAOUANE 1984), il est possible de donner quelques indications paléoclimatiques, qui tiennent essentiellement à une forte intensité de la pluviométrie accompagnée de basses températures. Selon F. Joly (1962) ces derniers ont joué un rôle de premier plan dans le quatrième pluvial de Sud-Est Marocain. La

combinaison de fortes précipitations et du froid a permis la formation de glaciers dans les grands massifs montagneux comme l'Ayachi - Maoutfoud, à quelques dizaines de Km de notre secteur. Elle a abaissé la limite des phénomènes périglaciaires jusqu'aux environs de 1250 — 1300 m côtes altimétriques qui correspondent aux fonds de nos dépressions.

Ces conditions climatiques sont reflétées par les éboulis en tabliers ou en filets évoqués antérieurement et l'aspect anguleux du matériel grossier (qu'il soit de surface ou de fond) de toutes les formations latérales. Ces conditions ont probablement influencé le régime des principales artères hydrographiques. La fonte des neiges et des glaciers localisés à l'amont entretenait dans les oueds un débit puissant d'une grande compétence qui permettait le transport d'une charge grossière. Cette charge, on la retrouve sous forme de terrasses conglomératiques à galets bien façonnés pour les grandes artères (Ziz, Tillicht) ou en forme de cônes aplatis et de glacis couverts pour les artères et ravins secondaires. Autre conséquence de ces conditions, un remaniement important des nappes alluviales antérieures, dont une partie du matériel peut être identifié dans les nappes moyennes.

L'encroûtement presque généralisé et la consolidation avancée de ce niveau, suggèrent une recrudescence de l'aridité vers la fin de ce pluvial, cette tendance à l'aridité a affaibli la charge des cours d'eau en fonction d'un ralentissement de la désagrégation physico-chimiques des affleurements d'une part, en raison de l'immobilisation des éléments ou un ravinement dans les chenaux de drainage et à remanier localement les conglomerats jusqu'à atteindre le plancher jurassique comme c'est le cas sur l'Oued Tillicht et sur l'Oued Ziz à l'amont de Koudiat Serdrar.

Ce niveau quaternaire correspond au quatrième pluvial que l'on peut rapporter au Tensiftien.

5. La phase de remblaiement par les épandages mineurs = Soltanien.

Contrairement à la phase précédente, riche de formes, qui a marqué le paysage morphologique du haut Atlas de Rich, la phase d'épandage mineurs n'a apporté que de larges retouches.

En effet, les témoins de cet épisode quaternaire sont localisés et se réduisent à des résidus de terrasses inférieures, riches en matériel fin, de l'Oued Tillicht de l'Oued Ziz. Toutes les deux localisées dans la plaine de Rich, quelques dépôts de pente, des éboulements localisés sur le versant sud du J. Idirht à l'ouest du Fout Tillicht, sur le Jbel Tizi n'Frist à l'entrée amont du Fout Zabel, et enfin à l'extrémité Ouest du Jbel Bou Kenndil. Tous ces dépôts transgressent sur le niveau moyen (Tensiftien).

Bien que l'héritage de cette phase post-Tensiftien soit assez pauvre quelques enseignements paléomorphologique sont cependant à noter :

— Une reprise de l'érosion s'est manifestée vers la fin du Tensiftien et a

continué ensuite tout au long de cet épisode ; mais sans toutefois atteindre l'ampleur de l'érosion développée pendant le quaternaire moyen l'action de cette érosion porte essentiellement sur l'incision des formations tensiftiennes sans toutefois atteindre la roche en place, sauf à l'amont des cônes et sur quelques glacis où les entailles peuvent dépasser 10 m de profondeur.

Cette reprise de l'érosion est manifestement liée à une pulsation climatique dont les caractéristiques sont nettement différentes de ceux des pulsations antérieures. En effet, les dépôts rattachés à ce niveau, sont des dépôts fins. Cela implique une faible compétence des Oueds principaux et un régime, d'écoulement moins torrentiel que celui du Tensiftien. A cela s'ajoute l'intervention marquée du froid, qui a facilité la fragmentation sur les parois rocheuses, une forte dynamique éolienne. Cette dernière apparaît nettement sur les courbes cumulatives des sables (M. LAAOUANE 1984).

6. La phase des épandages limoneux terminaux.

Cette dernière phase morphologique se présente sous deux formes distinctes :

— La première correspond aux terrasses inférieures limoneuses des principales artères hydrographiques, notamment l'Oued Ziz et l'Oued Tillichit. Ces terrasses rassemblent les seules terres mises en culture dans notre région.

— La seconde, correspond aux épandages limoneux qui fossilisent par endroits les glacis moyens, comme par exemple la plaine de Tamiloust et la plaine de Karrando.

Cet épisode subactuel est caractérisé par deux phénomènes apparemment contradictoires : une reprise d'érosion dans l'axe des talwegs et une atténuation, sinon même, une disparition de la fragmentation sur les affleurements de l'agressivité de certains phénomènes érosifs qu'on peut rattacher à une évolution du climat vers l'aride tempéré ; disparition des formes périglaciaires et leurs contournement sur les hautes montagnes, avec le renforcement des actions éoliennes. Ces phénomènes expliquent clairement la nature morphométrique du dépôt de ce niveau, constitué essentiellement d'un matériel fin, d'allure fluvio-éolienne ; l'absence d'encoûtement et de consolidation du dépôt, l'abondance de matériel fin impliquent des conditions paléoclimatiques différentes de celles des épisodes précédents difficiles à cerner mais probablement plus sèches (malgré l'occurrence possible de stade humides). Cet épisode constitue une transition entre le dernier pluvial soltanien et la période actuelle.

CONCLUSION :

La morphologie actuelle du Haut Atlas de Rich a été édifiée en deux grandes étapes :

— La première antéquaternaire, durant laquelle ont été dessinés les grands traits du paysage morphologique à partir de l'architecture structurale, avec l'installation du réseau hydrographique et le creusement des dépressions.

— La seconde étape, qui s'étale au long du quaternaire et qui se poursuit actuellement a eu pour conséquences un réaménagement relativement limité, toutes proportions gardées, de la morphologie fini-tertiaire. Ce réaménagement a eu pour principal effet le modelage des dépressions en un vaste ensemble de formations où dominent les cônes, les glacis et les terrasses inégalement conservés, d'âge et de nature variés, la mise en place et les caractères de ces formations (voir tableau.) traduisent l'alternance, au cours du quaternaire de pulsations climatiques humides (pluviaux) et sèches (interpluviaux) auxquelles sont classiquement rapportées les phases de remblaiement des nappes antérieures d'autre part.

BIBLIOGRAPHIE

— Aït Hssaine A. (1983) : La dépression de Gourrama et ses bordures. Thèse Doct. 3ème Cycle - université de Toulouse le Mirail. 269 p. (Photocopie).

— Couvreur G. (1975) : le quaternaire ancien post-villafranchien dans le Haut Atlas central (Maroc) (Mélanges offerts à George Viers) université Toulouse Le Mirail. pp 171-181.

— Dubar G. (1938) : sur la formation de rides à l'Aalénien et au Bajosien dans le Haut Atlas de Midelt. C.R. Acad. Sci T.206 pp. 525-527.

— Dubar G. (1943) Notice explicative de la carte géologique provisoire du Haut Atlas de Midelt, échelle 1/200.000 notes et Mem. Serv. Geol. Maroc N° 53 bis 58 p.

— Joly F. (1962) Etude sur le relief du Sud-Est Marocain. Thèse doct. Etat. Trav. Inst. Sci. chérifien. Série Géol et géo. phys N° 10 Rabat 578 p.

— LAAOUANE M. (1984). Le Haut Atlas de Rich (Haut Atlas oriental) Maroc. étude géomorphologique. Thèse Doct. 3ème Cycle. Université de Toulouse Le Mirail 273 p. (Photocopie).

— Margat J. (1953) : l'évolution morphologique récente des plaines du bassin quaternaire du Tafilalet et l'âge des limons des palmeraies. Notes et Mem. Serv. Géol. Maroc T.VII N° 117, pp 123-133.

— Michard A. (1976). Eléments de géologie marocaine Notes et Mem. Serv. Géol. Maroc. N° 252, 408 p.

— Raynal R. (1961) Plaines et piémonts du bassin de la Moulouya (Maroc oriental) Etude géomorphologique Thèse. Doct. Etat. Inframar Rabat. 617 p.

Formes	Haut. m Ancien Aval	Ep. du dépôt en m	Structure du Dépôt	MORPHOMETRIE	MATRIÈRE
Koudat Séguier	151	20	Conglomératique et faciès (indice d'émoussé entre 100 et 600)	Matériau calcaire biotritonétique (2-20 cm)	Limono-sableux
C. ancien demeuré de l'île Sédour	1750 - 1250	2 - 6	Calloso-sableux avec organisation variable : anarchique à l'amont et stratifiée à l'aval	Matériau calcaire biotritonétique (3 à 35 cm) avec des gros blocs à l'amont. Faciès faible en général avec accentuation à l'aval.	Limono-sableux ou l'ensemble du faciès
C. ancien au S. de Bou Hamid	1500 - 1425	3 - 4	Calloso-sableux avec des ensembles limono-sableux	Matériau calcaire biotritonétique (3 - 45) avec gros blocs, non facies	Limono-sableux
C. et G. ancien en lanières	1425 - 1375	2 - 3,5	Calloso-sableux sans stratification apparente	Matériau calcaire biotritonétique (2 - 1,5 cm) peu facies	Sableux
T. d'Aval Bou Ounquert	1450 - 1375	2 - 3	Calloso-sableux avec des lits de graviers bien stratifiés	Matériau calcaire biotritonétique anguleux (4 à 20 cm)	Sableux
C. d'Aval au N. Tahat	1500 - 1445	2 - 3	Calloso-sableux avec séquences desordonnées stratification apparente	Fragments en majorité calcaires biotritonétiques (4 à 60 cm) non usés	
C. moyen de Tidjout	1510 - 1425 ~	3 - 5	Calloso-sableux avec lamelles de graviers, peu ordonnées	Matériau calcaire biotritonétique (4 - 20 cm)	Sableux à limonneux à la base
C. Moyen	1600 - 1325	1 - 4	Calloso-sableux avec parfois des lits de limons et sables. Dépôt plus ou moins ordonné	Matériau calcaire biotritonétique anguleux Décrassement du calcaire de l'amont vers l'aval	Variable, plus sableux à l'amont et 1. à l'aval
T. moyennes	1350 - 1250	3 - 7	Conglomératique avec passerelles graduelles stratification modeste	Gales biotritonétiques (3 - 35 cm) hétérogènes plus ou moins facies, matériau de surface glisse	En général sableux
B. Terrasses	1360	3	Limono-sableux		Limono-sableux
T. inférieures et plaines d'épandage	1350 - 1250	4 - 3	Limono-sableux sur les grandes allées limono- calloso-sableux avec stratification sur les grands affluents	Matériau grossier local anguleux de petit calibre (3 - 10 cm)	Limono-sableux

Degré d'altération	Consolidation par CO ₃ Ca	Énerçûtement	ATTRIBUTION STRATIGRAPHIQUE
++	Faible	Absent	MOULOUYEN
+	Forte à l'amont	Sommital et localement généralisé	SALETIEN
+++	Forte	Absent	
++	Forte	Sommital peut envahir tout le dépôt	AMIRIEN
+	Fort dans l'ensemble	Fort et sommital	
0	Forte	Sommital	TENSIFTIEN
0	Forte	Sommital	
0	Généralement Forte	Sommital	
0	Généralisé	Sommital	
0 - +	Faible	Absent	SOLTANIEN
0	Faible	Absent	GHARBIEN

Tableau 23 : Inventaire chrono-stratigraphique des formations quaternaires du HAUT ATLAS de RICH.



ESSAI DE TOPONYMIE⁽¹⁾

NABIL Lahcen

L'intérêt d'une telle publication consiste en l'aide que ce travail peut apporter à ceux qui utilisent, pour une raison ou une autre, la carte topographique ou qui s'intéressent à la campagne marocaine en général ; et en particulier ce travail s'adresse aux étudiants de la géographie dont la toponymie forme une facette importante de l'analyse de la carte non seulement au niveau de la topographie mais aussi et surtout au niveau géomorphologique et biogéographique.

On pourrait penser que ce genre de lexique ne peut être que régionale (2) si non local mais il en est autrement puisque les divergences locales ne portent, pour l'essentiel, que sur la prononciation (Sif = Asif = Souf). Autrement dit quelqu'un qui connaît par exemple la "Rifia" ne trouvera pas grandes difficultés en ce qui concerne la toponymie des autres régions berbères du Maroc (L'exception ne pourra faire la règle).

D'autres études complémentaires dans ce domaine seront mariées dans des documents synthétiques et serviront de bases pour de futures recherches. On fera ainsi le départ de notre propre culture.

Les raisons immédiates qui nous ont conduit à élaborer cette toponymie sont de plusieurs ordres :

- En premier lieu, cette région souffre d'une carence en documents à tel point qu'elle ne dispose même pas de la couverture topographique (cartes à l'échelle 1/50 000°).
- En second lieu, les cartes disponibles, comme celle du 1/100 000°, sont très grossières et souffrent d'une imprécision toponymique flagrante. Carence qui est essentiellement due à l'ignorance quasi-totale, sinon totale, de la

(1) Extrait de "Le Haut Sif ou Lout (Moyen Atlas oriental, Maroc) approche géosystémique d'une montagne méditerranéenne en crise".
Thèse 3e cycle soutenue à Toulouse le Mirail en Juin 1985 (extrait).

(2) Nous admettons tout de même se terme tant que l'occasion ne nous a pas permis d'étendre ce glossaire à l'arabe dialectal, ce qu'on souhaite faire prochainement.

langue berbère. Cela ne doit pas étonner sachant que ces cartes ont été réalisées par l'I.G.N. (France).

En troisième lieu, l'échelle requise par ce travail impose de dépasser ce niveau habituel de généralité d'une part et d'autre part d'éviter par le travail de terrain ce genre d'abération.

Cette attentive réflexion, banale d'apparence, a été suivie d'une application à la cartographie : une carte toponymique (au 1/20 000^e) a été dressée pour illustrer et compléter la carte géosystémique.

- En dernier lieu, notre but essentiel n'est ni seulement une représentation cartographique, ni simplement une correction des cartes topographiques, mais plutôt et essentiellement de dégager de cette toponymie, que tout le monde est obligé d'utiliser bon gré mal gré, tout ce qui pourra contribuer à la compréhension de ces milieux en l'occurrence en ce qui concerne la morphologie, l'hydrologie, la climatologie, la biogéographie... A toutes les occasions nous n'avons pas manqué de souligner l'intérêt d'un tel travail.

Nous nous sommes affrontés aux problèmes épineux des transcriptions et "translittérations" (1) de cette toponymie dans l'écriture française. Et comme le berbère diffère de l'arabe les transcriptions adoptées par l'encyclopédie de l'islam ne peuvent répondre à notre besoin. Sur le peu de texte berbères que nous avons pu voir on n'a aucune référence aux sources des transcriptions. Il est vrai aussi que le problème ne nous a préoccupé sérieusement que dernièrement car nous avons toujours considéré cela à tort comme un problème technique et secondaire.

Le problème est d'autant plus épineux qu'on se trouve en face d'une langue où il n'est pas facile, vue ces conditions, de savoir distinguer les préfixes des suffixes, des racines du mot... Cela est primordial pour réussir les transcriptions...

Nous avons essayé de mêler les transcriptions aux translittérations comme un palliatif provisoire (2). Cette transcription n'a pas cessé d'évoluer ce qui nous a demandé des rectifications répétées du texte en entier. Mais cela est moins facile pour des documents ayant pris leur forme finale (les cartes...)

Pour l'essentiel notre essai suffit comme solution pour atteindre notre but. On a évité de se perdre dans les détails peu utiles ou qui nous amèneront très loin de notre travail tout en cherchant à rester précis et minutieux pour tout ce qui semble mériter attention et éclairer les péripéties d'une telle recherche.

(1) Nous ne passons pas d'une écriture à une autre, mais d'une langue parlée à une langue écrite.

(2) Il semble que même la translittération par les symboles de la phonétique internationale ne sont pas complets pour certaines lettres berbères.

Quelques repères linguistiques :

Voici quelques indications qui pourront faciliter la lecture et la compréhension de ce lexique berbère :

- Le diminutif est toujours au féminin et la plupart du temps le féminin est un diminutif, par exemple : Aghzer = ravin, Taghzerte = roubine.
- Le féminin et le diminutif se font généralement par l'addition de la lettre (T) comme préfixe et comme suffixe : (admame - Tadmante - Irghisse - Tirghiste...).
- Dans la majorité des mots commençant par (A), cette lettre se transforme en (I) au pluriel et se terminent par (en) : (Akammoum - Ikammoumen).
- La plupart des diminutifs et féminins font leur pluriel par l'addition d'un (t) comme préfixe et d'(ine) comme suffixe.
- Les principales transcriptions que nous avons adoptées sont les suivantes :

kh = (g) espagnol ou (خ) arabe.

gh = (ع) arabe, proche du (r) non roulé en français.

R = Toujours roulé en berbère comme en espagnol et en arabe. Il se prononce d'une manière raide s'il précède une consonne ou voyelle raide : (Taghrote).

â = (آ) arabe : (a) prononcé par la gorge. Avec voyellation (Fetha = a) : (Aârâr'.

' = (ع) arabe situé au sein du mot, avec voyelle (Sekoun).

' = apostrophe : suppression d'une lettre pour lourdeur ou sa prononciation partielle par exemple : Tlatte ou 'Ziza à la place de Tlatte n-Aziza. W ou (n^w) = c'est la contraction de l'article de = (n-) dans le mot commençant par la voyelle (a) exemples

Aghzer

W-Ammas, Ich W-Adda, (La 2ème transcription a été adoptée au début et figure encore sur les cartes.

Y-ou (n^y) = contraction de l'article (n) avec un y qu'exige la présence d'une voyelle comme (I). La seconde transcription a été remplacée par la première mais figure encore sur les cartes.

h̄ = ح : arabe, elle n'est jamais aspirée comme en français.

h = ه : arabe.

l̄ = ط : arabe.

z̄ = ز

se prononcent d'un accent grave, non aigü.

d̄ = د : arabe.

ss̄ = arabe س̄ Pour des lettres déjà doublées ainsi on ne peut les doubler

ch̄ = arabe ش̄ une 2ème fois pour souligner l'accent mis sur leur prononciation

ȳ = arabe ي̄ exemples : Achawen (au lieu d'achchawen) ; W-Adda au lieu de (W W -

Adda), etc... Les autres se dédoublent(1).

Avec cet essai nous espérons ouvrir les débats avec tous ceux que ce genre de recherches intéressent.

(1) N'ayant pas pensé aux possibilités des machines à écrire, certains des signes adoptés n'ont pas été reproduit dans le texte.

- AARAR** : n.m.s. ; dim. f. : Taârârte ; pl. lârâren
biogéo. : genévrier (cf. glossaire botanique : Juniperus...).
- ABARCHANE** : n.m.s. ; f. : Tabarchante ; m.p.l. : Ibarchanne ;
f.p.l. Tibarchanine : de couleur noire, ex. : Taghrote. Tabarchante.
- ABRID** : n.m.s. ; dim. f. : Tabritte ; m.p.l. : Ibardane ; f.pl. :
Tibridine. géo. hum. sentier, chemin, peut aussi s'étendre à la route au sens général.
- ACHARBICH** ou **AKARBICH** : n.m.s. ; dim. f. : Tacharbichte ;
m.pl. : Icharbichen ; f.pl. : Ticharbichine/morpho : falaise, corniche, d'un crêt, d'une cuesta, d'un coteau, d'un gorge ou d'un escarpement.
géo. lith. affleurement d'une couche géologique d'un faciès à roche dure ; (v. Azrou Tajouste et Ajdir).
- ACHATE** ou **AITE** : n.m. Toujours pluriel, f. : Sechte.
géo. hum. : ceux de ; les fils de ; ex. le douar Tassechte est aussi appelé "Achte W-Adda" : c'est-à-dire ceux d'en bas. C'est l'équivalent de "Beni" et "Oulad" en arabe. Ainsi on dit Aït Bou-Iloul, Achte Bou-Iloul ou Beni Bou-Iloul...
- ADDA** : adv. : en bas ex. Ich'W - Adda. // Sw-Adda : sous (con. : Sw-Afalla).
- ADMAME** : n.m.s. ; dim. f. : Tadmamte ; m.pl. : Idoumame ; dim. f.pl. :
Tidmamine. Biogéo. : nom vernaculaire de *Crataegus laciniata* (Aubépine) ; lieu ou domine cette espèce.
- ADRAR** : n.m.s. ; pl. : Idourar ;
morpho. : haute croupe d'une montagne, sens très général, par rapport à la plaine.
géo. agr. : la haute montagne, les alpages de haute montagne.
- AFALLA** : adv. : // en haut ex. Ich'W-Afalla. // Sw-Afalla : sur.
- AFRANE** : n.m.s. ; dim. f. : Tafrante ; pl. : Ifranne.
biogéo. : indique des parcelles agricoles obtenues en défrichant la forêt. Cela évoque l'historique de ces parcelles, l'évolution des "paysages" et la dégradation de la forêt. Il peut être qualifié du nom de l'espèce en cause ex. : Afrane'Y—Idil, d'un adv. de localisation : Afrane 'W-Adda...
Ifrane : action de sarcler, d'enlever les déchets...
- AFROUR** : n.m.s. ; pl. : Ifrourane ;
morpho. : coulée bazaltique d'un volcan.
géo. hum. : en poterie : se dit de l'argile récupéré sur l'ancienne poterie cuite ayant la forme et la couleur des coulées bazaltiques.
géo. lith. : roches et cendres bazaltiques.
- AFTISSE** : n.m.s. ; dim. f. : Taftiste ; pl. : Ifatsane ; dim. pl. :
Tiftissine, morpho : lambeau de terrasse quaternaire des bas-fonds à dépôts récents : cône-terrasse.
géo. agr. : ces cônes-terrasses mis en culture et irrigués.
- AGDAL** ou **AYDAL** : n.m.s.
géo. agr. : pâturages collectifs réglementés mis en défens pendant une saison de l'année ou pendant plusieurs années pour intensifier ces pâturages. Ils se localisent sur les llmaten. Cette forme de pacage sur les terres collectives réglementée par la ou les tribus ne se pratique plus de nos jours dans cette région.

- AGHARM** ou **IGHARM** : n.m.s. ; dim.f. : Taghramte ; pl. : Igharmane ;
dim. pl. : Tigharmine ou Tigharmatine.
géo. hum. : c'est un groupement d'habitats ruraux appelé en Arabe "Douar"
ou Kasr : ainsi Agharm Amakrane = 'L-Kasr el-Kabir (arabisé).
- AGHRASSE** : n.m.s. ; dim.f. : Taghraste. pl. : Aghrassen ; dim.f. :
Taghrassine ; géo. agr. : Tronc d'arbre évidé en tubes servant de
rûches. Il évoque la présence de l'apiculture, ex. : Aghzer
W - Aghrassen.
- AGHAZDISSE** : n.m.s. ; dim.f. : Taghazdiste ; pl. : Ighazdissen ; dim.pl. :
Tighazdissine ; côte ; morpho. : unité ayant la même forme et les
mêmes caractéristiques : affleurement plus ou moins bombé de cou-
ches litées. géo. lith. : Interférence de minces couches dures et
tendres.
- AGHDIR** : n.m.s. ; dim.f. : Taghdirte ; pl. : Ighadrane, dim.pl. : Tighadrine.
Hydro. : dans les cours d'eau spasmodiques certaines cavités, col-
matées par les argiles en décantation après le passage des crues et
donc imperméabilisées, retiennent de l'eau après l'assèchement du
cours d'eau. Ce mot évoque des régions arides ou semi-arides. géo.
hum. : dans ces régions les paysans en transhumance exploitent ces
eaux dormantes dans ces cavités qu'ils creusent parfois eux-mêmes.
- AGHIL** : n.m.s. ; pl. : Ighallen.
morpho. : unité de paysage s'étendant sur quelques km, unité de
longueur... allusion faite à l'unité de mesure de ce nom.
géo. hum. : Unité de mesure paysanne d'environ 50 cm ; en fait,
elle est variable puisque c'est la longueur séparant le coude de l'ex-
trémité du doigt majeur d'une personne.
- AGHZER** : n.m.s. ; dim.f. : Taghzerte ; pl. : Ighazrane ; dim. pl. : Tighazrine.
morpho. : a le sens de ravin, vallon, cours d'eau encaissé de forme
relativement stable d'ordre II, Taghzerte sera d'ordre I (roubine).
Hydro. : à cette unité correspond un écoulement saisonnier ou spas-
modique (v. Tlatte et Sif.).
- AHARCHAW** : adj. (v. Taharchawte).
- AHARROK** : n.m.s. ; dim.f. : Taharrokte ; pl. : Iharroken ; dim. pl. :
Tiharrokine.
biogéo. : Il évoque que la parcelle est récupérée par défrichement.
géo. agr. : ce mot s'applique à toutes les parcelles cultivées en bour
(ayant à l'origine ce défrichement).
- AHFOUR** : n.m.s. ; dim. f. : Tahfourte ; pl. : Ihafrance ; dim. pl. : Tihafrine ;
morpho. : dépression ; forme plus ou moins en cavité sur versant
ou fond de vallée, d'origine érosive naturelle ou anthropique, avec
la notion du creusement. Il diffère ainsi d'Akhjoun qui lui porte la
notion de profondeur (adj. Ikhjane).
- AIT** : (v. Achte).
- AJDIR** : n.m.s. ; dim. f. : Tajdirte ; pl. : Ijadrane ; dim. pl. : Tijadrine.

- morpho. : talus d'une terrasse généralement quaternaire (v. Azrou).
- AKACHBOUR** : n.m.s. ; dim. f. : Takachbourte ; pl. : Ikachbar ; dim. pl. : Tikachbar ; biogéo. : les bûches et morceaux de troncs d'arbres... Leur abondance évoque une certaine dégradation de la formation végétale.
- AKAMMOUM** : n.m.s. ; dim. f. : Takammoumte ; pl. : Ikammoumane ; dim. pl. : Tikammame ; Lèvres.
- morpho. : c'est la partie festonnée d'une corniche ex. : Akammoum n-Salem ; un nom peut le qualifier ex. : Takammoumte n-Tghidatte ; du chevreau.
- AKHJOUN** : n.m.s. : (V. Añfour).
- AKITATE** : adj. m.s. ; dim. f. : Takitatte ; pl. : Ikaten ; court ; morpho. : se dit d'une unité courte : une croupe.... ex. : Foud Akitatte.
- ALLAGH** : adv.
- Le bas d'une chose ; morpho. : le piémont d'un mont (v. Ikh)
- ALMA** ou **ALMOU** : n.m.s. ; pl. Ilmaten ;
- morpho. : Lieux dépressionnaires ; atterrissements, relativement stabilisés par une pelouse rase à dominante herbacée qui favorise un sol humifère.
- Hydro. : milieu à bilan hydrique positif profitant des résurgences d'une nappe hypodermique ou des suintements de congères voisines.
- géo. rur. : c'est cette pelouse, qui est à l'origine du vocable, forme les meilleurs alpages estivaux de la haute montagne.
- AMAKSOU** : n.m.s.
- biogéo. : nom vernaculaire de *Cotoneaster nummularia* (cf. glossaire botanique) ex. Aghzer ou Maksou.
- AMALOU** ou **MALOU** : n.m.s. ; dim. f. : Tmalouté ; pl. : Imoula ; dim. pl. : Timoula ; morpho. : versant d'ombrée : Malou-Ikhouane/biogéo. : versant relativement moins sec.
- Senso - stricto : l'ombre (v. Assammer ou Sammer).
- AMAYSSA** : n.m.s. ; pl. : Imaysawen.
- géo. agr. : berger, indice de l'activité pastorale.
- AMHARRAR** : n.m.s. ; dim. f. : Tamharrarte ; pl. : Imharraren ; biogéo. se dit d'un arbre respecté par les paysans auxquels il sert d'abri contre le soleil ou les orages... son respect est souvent lié à une légende plus ou moins mythologique ; indice d'une exploitation forestière assez forte. ex. : Akhañhab Ambarrar : "chêne respecté".
- myth. : des phénomènes d'érosion préférentielle arrivent à sculpter des formes dans des blocs que les paysans ont souvent lié à des légendes mythologiques... ex. : Imharraren.
- AMIRAWÉ** : adj. : (v. Miriw).
- AMZAZ** : n.m.s. et adj. ; dim. f. : Tamzazte ; pl. Imouzaz ; dim. pl. : Timouzaz/morpho. : versant marno - schisteux à substrat dégagé par l'érosion se recouvrant généralement de gravillons d'altération sans matrice. Un champ d'Imouzaz forme des bad - lands.

géo. lith. : affleurement de couches marneuses-schisteuses ou flyshs imperméables.

Hydro. : l'imperméabilité favorise l'écoulement concentré, le ruissellement, l'écoulement est saisonnier sinon spasmodique en l'absence de nappe phréatique.

biogéo. : un lieu peu favorable à la sylviculture... Seul le pin s'y adapte.

géo. agr. : lieux sans cultures et à pâturages très pauvres ou même nuls.

ANASSISSE : n.m.s. ; pl. : Ināssissen.

Hydro. : cours d'eau pérenne ou pas et de débit très faible alimenté par des suintements, des sourcins ou des résurgences d'inferoflux.
ex. Anāssisse n-Tanaffife.

ANGHAR : n.m.s. ; dim. f. : Tangharte ; pl. Inaghrawn ou Inaghren

géo. agr. : dans les azibs : le lieu ou en enferme les chevreaux et les agneaux pour les séparer de leurs mères. Ce toponyme est un indice de l'activité pastorale, ex. : Tlatte y-Inaghren.

ANRAR : n.m.s. ; dim. f. : Tanrarte ; pl. Inourar ;

morpho. : affleurement de roches dures avec un sens de plateforme: Islī.

géo. agr. : aire d'abattage, quand elle est faite de pierres juxtaposées on l'appelle : Anrar y-Islī.

ASAMMER : (v. Sammer).

ASANNANE : n.m.s. ; dim. f. : Tassannante ; pl. Isannane :

biogéo. : nom vernaculaire d'*Astragalus armatus* ou *A. Ibrahimianus* (ici il n'a ni pluriel, ni diminutif), //d'*Eryngium bourgati* dominant certains milieux hydromorphes (Ilmaten) : Tassannante n-La'ri.
géo. agr. : Assannane : (*Astragalus* -) sert de foin au bétail pendant l'hiver. Sens général : Isannane : toute plante épineuse, avec d'autres qualificatifs d'autres plantes précisément.

ASANSOU : n.m.s. ; dim. f. : Tassansoute ; pl. : Isansa...

géo. agr. : lieu protégé par une clôture, etc. où le troupeau passe la nuit. Indice du pastoralisme.

AYACHOUL : n.m.s. ; dim. f. : Tayachoulte ; pl. : Iyachal.

géo. agr. : baratte, indice du pastoralisme.

AYSSAR : n.m.s. (v. Sawane).

AZDAD : adj. m. ; pl. : Iزدادن ; subst. : Tizaddī.

morpho. : qualifie certaines unités minces; ex. Foud Azdad (v. Miriw).

AZIB : n.m.s. ; pl. : Azaïb.

géo. agr. : c'est le lieu où campent les bergers seuls avec les troupeaux pendant une période de l'année. S'ils sont accompagnés de tentes... on parle de 'Rhile. Sens différent de celui qu'on lui donne au Gharb.

AZIR : n.m.s.; pl. : Iziren.

biogéo. : nom vernaculaire de *Rosmarinus officinalis* (cf. glossaire botanique).

géo. éco. : Plante d'où on extrait par distillation des huiles industrielles très chères utilisées en industrie pharmaceutique.

AZIRAR : adj. ; f. : Tazirarte ; pl. : Iziraren.

Long. ex. : Alma-Azîrar (v. Akitate).

AZIZA : adj. et n.m.; dim.f. : Tazizawte ; pl. : Izazawen ; dim. pl. : Tizizawine.

morpho. : une unité sculptée sur les marnes bleues, ex. : Tazizawte et Aziza.

géo. lith. : Permet de cerner l'affleurement de la roche marno-schisteuse.

biogéo. : signifie aussi verdure ; Pour une plante par ex. : on dit qu'elle est : Tizizawte : c'est-à-dire elle n'est pas sèche.

Au sens large : ce qui n'est pas mûr ou ce qui n'est pas dur...

AZAKKAGH : adj. m.s. ; f. : Tazakkaghte ; pl. : Izakkaghen ; f. p. : Tizakkaghine : de couleur rouge.

BOU - 'MKHALLED : n.m.s.

Lieu du jeune bœuf ; évoque l'activité pastorale. (Amkhalled : jeune bœuf).

BOU - TAHNIYINE : n.f.pl. ; s. : Bou - Tahnichte (Tihniyine). Lieu des mûriers.

géo. éco. : il évoque l'exploitation du bois d'œuvre du cèdre.

BOU - TILFINE : n.f.pl. ; m.s. : Ilf, f.s. : Tilfatte ; m.pl. : Ilflane ; f.pl. : Tiffatine ou Tiffine.

géo. éco. : Lieu du sanglier

CHFAK : n.m.s.; dim. f. : Tachafkiche.

morpho. : la partie la plus haute d'une montagne d'un Jbel servant d'horizon (v. La'ri);

CHEGG : n.m.s. (arabe).

morpho. : faille : ex. : Chegge el-Ard : "la fissure, la cassure de la terre", indique le passage d'une faille majeure à grand escarpement permettant le passage d'un oued de ce nom.

DHARTE ou THARTE : n.f.

Le dos ; morpho. : désigne un revers structural ou sub-structural de forme plus ou moins arrondie.

DJIR ou EJIR : n.m.s.

géo. lith. : calcaire sous forme tendre on l'appelle "Terriste" ou "Essansal".

géo. éco. : Il indique aussi la chaux ; Terriste est utilisée comme poudre pour le nettoyage de l'argenterie et Essansal pour blanchir les "ardoises" : "Louhate" dans les écoles coraniques.

ESSALLOUM : n.m.s.

géo. rur. : échelle.

Morpho : talus à forte pente sous forme de marches géo. lith. : correspond à des couches litées ; généralement marno-calcaires.

- ESSIHEL** : n.m.s. ; pl. Essouahel.
 clim. : influences chaudes, moins neigeuses l'hiver. morpho. : désigne des plaines et bas bassins où dominent ces influences, par opposition à Adrar. géo. rur. : Lieu de refuge des troupeaux pendant l'hiver.
- FOUD** : n.m.s. ; dim. f. : Tfoutte ; pl. ifaddane ; dim. pl. : Tifadddine ; Genou. ; morpho. : partie d'un versant individualisée en interfluve ; croupe séparant deux ravins assez profonds ayant une certaine continuité, une longueur de l'amont ver l'aval.
- GHARF** ou **AGHARF** : n.m.s. ; pl. : Igharfiwen.
 morpho. : milieu à forme arrondie généralement sculpté sur roche dure (semblable à une meule de moulin).
- IARAREN** : (v. Aârâr).
- IAZZABEN** : (v. Azib).
- IBARCHANNE** : (v. Abarchane).
- IBARDANE** : (v. Abrid).
- ICH** : n.m.s. ; dim. f. : Tichāwte ; pl. : Achāwen ; f. pl. : Tichāwe.
 morpho. : un mont, un jbel; Tichāwte = une colline (v. Tawrirt). "Senso-stricto" : les cornes d'un animal.
- ICHARBICHEN** : (v. Acharbiche).
- IDOURAR** : (v. Adrar).
- IFALWANE** : n.m. pl. ; m.s. : Aflaw ; dim. f. : Taflawtes ; f. pl. : Tifalwine.
 morpho. : se dit d'un revers, d'une surface lisse évoquant la forme d'une planche. Formes rabotées dans le périglaciaire par une érosion laminaire qui peuvent correspondre à des revers structuraux, ciselés par des failles. Hydro. : ces formes correspondant à un écoulement hypodermique — sheet flood. Sens strict : des planches.
- IFATSANE** : (v. Aftisse).
- IFRANNE** : (v. Afrane).
- IFRI** : n.m.s. ; dim. f. : Tifrite ; pl. Ifrane.
 morpho. : une caverne, une grotte, une baume profonde...
 Indique la présence du Karst. (La dimension n'est pas importante).
 Sens général : un trou.
- IJER** : n.m.s. ; dim. f. : Tijrate ; pl. Ijrane.
 géo. agr. : un champs. Ijer-khy-Ijer : champs après champs se pratique dans le système d'irrigation.
- IGHADRANE** : (v. Aghdir).
- IGHALLEN** : (v. Aghil).
- IGHARFIWEN** : (v. Gharf).
- IGHARMANE** : (v. Agharm).
- IGHAYDEN** : (v. Ighid).
- IGHAZDISSEN** : (v. Aghazdisse).
- IGHID** : n.m.s. ; f. Tighidate ; pl. : Ighayden ou Ighiden ; f. pl. : Tighidade.

- géo. rur. : chevreau (indice de l'élevage).
 art. : trait décoratif continu.
- IGHAZRANE : (v. Aghzer).
- IHAFRANE : (v. Aḥfour).
- IHARROKEN : (v. Aḥarroḳ).
- IJADRANE : (v. Ajdir).
- IKACHBAR : (v. Akachbour).
- IKAMMOUMEN : (v. Aḳammoum).
- IKITATEN : (v. Aḳitate).
- IKH ou IKHF : n.m.s. ; pl. : Ikhfawen.
 morpho. : le bout d'un versant, d'une colline.... l'extrémité amont (v. Allagh). Sens général : se dit de l'extrémité de chaque chose (sans distinction amont aval).
 géo. rur. : se dit d'un individu : Ikh-nach : la personne ; d'une tête de bétail..
- IKHARTEN : n.m.p. :
 morpho. : lieu égratigné - érodé en bad - lands.
- ILMATEN : (v. Alma).
- IMASDEN : n.m.pl. ; m.s. Amsed :
 morpho. : milieu à blocs gréseux... : Tafza...
 géo. lith. milieux proches des zones à faciès néritique ; blocs : Tafza.
 géo. rur. : roche utilisée pour aiguiser les couteaux, les haches...
- IMATLANE : n.m.pl. : f. : Tamtalt.
 La cimetière
- IMIRIWEN : (v. Amiraw).
- IMOULA : (v. Amalou).
- IMHARRAREN : (v. Amḥarrar).
- INIMAREN ou INAJMAREN : n.m.pl. ; m.s. : Anajmar.
 géo. rur. : Les chasseurs, indice de la présence de ' chasse
- INASSISSEN : (v. Anaṣṣisse).
- INAGHREN : (v. Anghar).
- INOURAR : (v. Anrar).
- IRAWEN : (v. Iri).
- IRGHISSE : n.m.s. ; f. : Tirghiste ; pl. : Irghissen
 biogéo. : nom vernaculaire de Berberis hispanica.
 géo. éco. : son écorce s'utilise pour la teinture (localement).
- IRI : n.m.s. ; pl. : Irawen.
 morpho. : encllement d'une unité en relief : Chfak̄.....
 ou étranglement d'une unité dépressionnaire : vallée...
 sous forme de goulot. Sens général : le cou.
- ISAFFEN : (v. siḥ).
- ISLI : n.m.s. ;
 morpho. : affleurement de la roche dure et compacte, représente le substrat. On l'utilise comme adj. pour qualifier tout ce qui est dur (v. Anrār).
 géo. lith. : substrat de roches dures...
- ISSANSA : (v. Assansou).

- ISSOUMMAR : (v. Sammer).
- IYACHOULEN : (v. Ayachoul).
- IYER : (v. Ijer - Aharroḳ-).
- IYSSANE : n.m.pl. f. Tajmarte ; s : yisse.
géo. rur. : cheval.
- IZADYANE : n.m.pl. ; dim f.s. : Tazdachte - m.s. : Azḍay.
morpho. : formes ressemblant à la quenouille.
géo. agr. : Quenouille.
- IZARZER : n.m.s. et ad. ; pl. : Izarzne ; f.s. : Tizarzne :
morpho. : une surface d'érosion ou les couches affleurent en traits de différentes couleurs.
géo. agr. : se dit d'une chèvre ayant des traits parallèles qui longent sa face.
- IZDADEN : (v. Azdad).
- IZIRAREN : (v. Azirar).
- IZIREN : (v. Azir).
- IZIZAWEN : (v. Aziza).
- IZAKKAGHEN : (v. Azakkagh).
- JMAA : (arabe) Djma'te : n.m.s. ; pl. Jmou'.
géo. hum. : Institution tribale qui gérât autrefois toutes les activités économiques sociales et juridiques. Elle se constituait de tous les hommes majeurs de la tribu qui décident de leur affaires en séances plénières avec vote majoritaire...
géo. agr. : terres Jmaâ ; terres collectives de la tribu ; terres Jmou' ; celles appartenant à plusieurs tribus ou fractions.
- LA'RI : n.m.s ; pl. : La' rawate.
morpho. : c'est la charnière anticlinal, ou la croupe sommitale d'un Jbel... accent mis sur la continuité (v. Chfak).
biogéo. : ce toponyme porte une notion de dénudation d'asylvatisme qui caractérise les sommets de hautes montagnes.
- LAMROUJ : n.f. pl. ; s. : Lmarja.
morpho. : milieu hydromorphe, marécage.
- LAKNOUTAR : n.m. pl. : s. : Lkantar.
morpho. relief sculpté sur les couches marno-schisteuses de forme allongée et ressemblant à un outil portant ce nom ; deux croupes parallèles liant deux ensembles...
géo. lith. : intercalation de fines couches calcaires dans des couches marneuses plus épaisses.
géo. agr. nom d'un outil fait en tresses d'Alfa ou de cuir recousues les unes sur les autres et présenté en deux segments parallèles portant un anneau dans chaque bout.
Il sert à attacher les deux parties d'une charge portée sur le dos d'un mulet...
Sens large : ponts.

- LAHRAIK : n.m.pl. ;
 biogéo. : milieux ayant été incendiés (v. Aħarroķ).
- L - MAGSEM : n.m.s.
 Hydro. : ligne de partage des eaux.
- LOUTA : n.m.s.
 morpho. : une plate - forme ; plateau ou plaine ; Ant. Madel : versant (Sawen et Aysser : portent les notions de montée et descente...)
 Par ext. : ce qui est facile.
- LOUT : n.m.s.
 La boue. Sif ou - Lout.
- MAJER : n.m.s. ; pl. : Imoujer.
 morpho. : une crête courbée en forme de faucille "Amjer". géo. lith. : couches litées à pendage sub-vertical.
- MALOU : (v. Amalou).
- MAZOZ : adj. m.s. ; pl. Imożaż.
 géo. agr. : cultures printanières ; cultures tardives. Sens large : tout ce qui est tardif. Ant. Amanzou.
- MIRIW : adj. m.s. ; f. Tmiriwe.
 Qualité de ce qui est large. Ant. Azdad.
- SAMMER ou ASSAMMER : n.m.pl. ; Issoummar ;
 morpho. : versant de soulane.
 biogéo. : milieu plus sec par l'ensoleillement, plus intense et sa position sous le vent surtout lorsqu'on est en vrai soulane (exposition S.)
 Hydro. : versant à bilan hydrique plus déficitaire qu'en ombree : "Amalou".
- SAWEN : n.m.s. ; dim. f. : Tsawente ; pl. : Issawane ; f.pl. : Tissawane.
 morpho. : versant escarpement ; il porte une notion de montée. Ant. Aysser. Les versants gardent généralement ce sens de montée puisqu'elle est plus difficile que la descente.
 Par ext. : tout ce qui est difficile (v. Louta et Madel).
- SIF ou SOUF : n.m.s. ; pl. : Isaffane.
 hydro. : cours d'eau à écoulement pérenne et à débit assez important - fleuve ; IV^e ordre après Taghzerte, Aghzer et Tlatte (v. Anaššisse).
 Il est plus précis que le mot fleuve, qui lui, ne porte pas la notion de pérennité d'écoulement. Aussi il n'est pas nécessaire pour un sif de se jeter dans la mer.
- TAARARTE : (v. Aārār).
- TABARCHANTE : (v. Abarchane).
- TABRITTE : (v. Abrid).
- TADMAMTE : (v. Admame).
- TAFLAWTE : (v. Ifalwane).
- TAFRANTE : (v. Afrane).
- TAFRAWTE : n.f. ; m.s. : Afraw ; pl. Ifarwane ; f. pl. : Tifarwine.
 morpho. : un revers en creux allongé permettant de la drainer, sculpté sur une carapace dure généralement peu incliné (pendage faible).

hydro. : forme permettant de drainer l'eau ruisselante sans grande infiltration.

cette unité correspond à un écoulement concentré et ruisselant.

géo. agr. : un tronc d'arbre, ou une perche évidée en canal cylindrique ou demi cylindrique (peut être en ciment ou métaux...) servant à canaliser l'eau d'une "séguia" (canal d'irrigation) à travers un creux : lit d'oued, etc...

TAFTISTE : (v. Aftisse).

TAGHROTE : n.f.s. ; pl. : Tighardine.

morpho. : c'est la partie d'un versant individualisée par son homogénéité par rapport au reste de ce versant. biogéo. : à cette unité morphologique correspond généralement un type de végétation qui la caractérise, ex. Taghrote n-Lbaḵs : à buis.

Sens strict : omoplate.

TAHARCHAWTE : n.f.s. ; m.s. : Aḥarchaw ; m.pl. : Iḥarchawen ; f.pl. : Ti-harchawine.

morpho. : forme rugueuse (non lisse), sculptée sur des roches dures, elle laisse des surfaces à cailloux et blocs anguleux...

géo. agr. : milieux non favorable à l'agriculture. Sensu lato : tout ce qui n'est pas lisse.

TAHFOURTE : (v. Aḥfour).

TAGHWINE : (v. Taḵka).

TAIDA : (cf. glossaire botanique : Pinus...).

TAJOSTE : n.f.s. ; pl. : Tijasse.

morpho. : affleurement de roches dures en corniche ; corniche d'un coteau ou d'une cuesta (v. Acharbich). géo. lith. : affleurement de roches dures sur roches tendres.

TAKAMMOUMTE : (v. Aḵammoum).

TAKKA : n.f.s. ; pl. : Taghwine.

biogéo. : genévrier oxycèdre ou commun (cf. glossaire botanique : Juniperus...).

TAKITATE : (v. Aḵitite).

TAL'INTE : dim. f. ; pl. : L'youn ; m.s. L'ine ; dim. f. pl. : Til'inine.

hydro. : source, sourcin.

TAMRITTE : n.f.s. ; m.s. : Amri ; f.pl. : Timra.

géo. lith. une roche ; une pierre, un galet...

Sensu lato. : adj. qualité de ce qui est dur.

TAMZAZTE : (v. Amzaz).

TARETTE : n.f.s. ; pl. : Taratine.

morpho. : désigne l'emplacement d'une congère très importante surtout en niches de nivation à neige permanente. clim. : congère.

TARJA ou TARYA : n.f.s. ; pl. : Tiraggaine.

géo. agr. : canal d'irrigation.

TASSECHTE : n.f.s.

morpho. : surface horizontale ou sub-horizontale sculptée en petit plateau sur les dépôts quaternaires. Anciennes terrasses qui dominent la vallée actuelle de plus de (100 m de haut). En surface un sol plus ou moins rubéfié couvre des concrétionnements sinon des encroûtements calcaires.

géo. agr. : terres de culture pour généralement melkisées. Un douar de la tribu de Beni Bou-Iloul est appelé de ce nom pour son emplacement sur cette unité.

TAWRIRTE : n.f.s. ; pl. : Tiwrrine.

morpho. : Colline marneuse au sommet très arrondi. Tichawte est aussi une colline mais moins arrondie et pouvant avoir un léger contraste de couches (litage).

TAZDATE : (v. Azdade).

TAZIZAWTE : (v. Aziza).

TAZAKKAGHTE : (v. Azakkagh).

TAZROUTE : (v. Azrou).

TAJDIRTE : (v. Ajdir).

TICHAWTE : (v. Ich).

TIGHADWINE : (v. Taghda).

TIGHAZDISSINE : (v. Aghazdisse).

TIGHIDATE : (v. Ighid).

TIJANE : (v. Tijnette).

TIJASSE : (v. Tajouste).

TIJNETTE : n.f.s. ; pl. : Tijane.

géo. agr. bassin de retenue d'eau pour l'irrigation ; réservoir, diffère du barrage de déviation : Ouggouj.

TIMACHTINE : n.f.pl. : f. : Tamchīte ; m.s. : Amchīte ; m.pl. : Imachītane ;

morpho. : versant sub-vertical raviné et ayant la forme de peigne.

géo. éco. : La peigne ; Amachīte : un outil pour préparer la laine à la filature.

TISSILIWINE : n.f.pl. ; f.s. : Tsili.

morpho. : unité ayant la forme d'un fer à cheval, lambeau de cuesta en butte témoin.

géo. rur. : fer à cheval.

TIZADDI : (v. Azdad).

TIZADYINE : (v. Izadyane).

TIZARZERTE : (v. Izarzer).

TIZI : n.f.s. ; pl. : Tizza.

morpho. : col.

TIYZALTE : n.f.s. ; pl. : Tiyazline.

morpho. : colline ruiniforme pouvant aussi avoir la couleur du rein ; cendres volcaniques.

Sensu-lato : rognon.

TLATTE : n.f.s.

morpho. : lit majeur d'un cours d'eau à fort épandage (faible pente). Hydro. : cours d'eau à écoulement saisonnier d'ordre supérieur à Aghzer et inférieur à Sif. Sorte d'écoulement propre aux régions semi-arides. Pendant la période sèche l'écoulement se fait en inféoflux.

TMAKKANTE : n.f.s.

morpho. : gorge.

TMIRIWTE : (v. Miriw).

TMOUKHBATTE : adj. f.s.; nom. : Akhbou (v. Akhjoun). Profonde.

TSILI ou **TISSILI** : (v. Tissiliwine).

TYIDDAWTE : n.f.s. ; m.s. : Yiddaw ; pl. : Iyidwen. Un singe.

YIDDAW : (v. Tyiddawte).

YISSE : (v. Iyssane).

ZANTAZE : n.m.; pl. : Izantazen ;

biogéo. : buplèvre (cf. *Bupleurum spinosum* en glossaire botanique).

ZAYTE : n.m.s.; pl.: Izouyate.

Climato : vent fort mêlé à la neige dominant sur les tizi. morpho. : lieux connus par ces phénomènes.

La toponymie une vraie expression géographique : Les toponymes s'adaptent mieux à la description des formes et des processus et contribuent ainsi à une meilleure compréhension des "paysages" géographiques, à notre avis ils pourront même remplacer partiellement les signes cartographiques à un certain niveau comme sur la carte géomorphologique (1).

Certes, il faut travailler ce genre de lexique afin d'eriger les mots en concepts ayant un ou des sens connus et bien précis qui ne prêtent à aucune équivoque.

Cette dimension scientifique fait défaut, et d'une manière éclatante, dans la plupart des écrits et des recherches géographiques marocaines ; ceci est dû à l'absence d'épistémologie et de méthodes de recherches. Nous touchons ici du doigt un sujet vif dont la solution au moins en partie, réside dans le puisement de la substance dans la méthode géosystémique.

Aussi il paraît que la toponymie est une des bonnes directions dans laquelle la recherche sur l'arabisation doit pousser si elle veut devenir plus accommodée et plus efficace.

(1) Le glossaire est difficile à extraire de la thèse dont il fait partie intégrante et qui le complète : ainsi on a par exemple des références à des mots biogéographiques qui figurent sur un autre glossaire complémentaire, il en est de même en ce qui concerne les abréviations.

